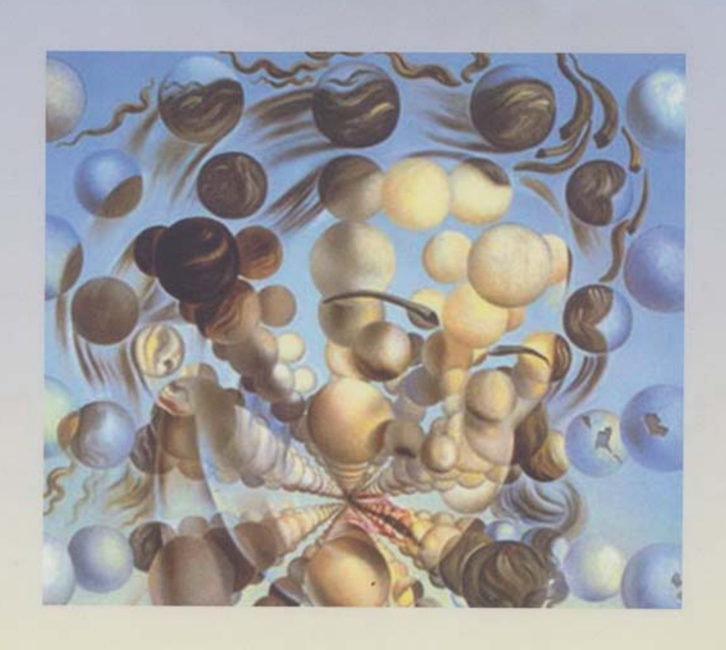


سيلفادور دالي

وجوه خبيئة

الموت في الحب



ترجمة : متيّم الضايع

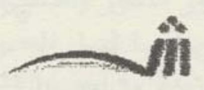


سيلفادور دالي

وجوه خبيئة

الموت في الحب

ترجمة: متيّم الضايع



"تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق"

دار الحوار

الكتاب: وجوه خبيئة
الموت في الحب
المؤلف: سيلفادور دالي
ترجمة: متيّم الضايع
الطبعة الأولى: 2014

هذه هي الترجمة العربية للكتاب الانكليزي:
HIDDEN FACES

PETER OWEN PUPLISHERS
73 Kenway Road, London SW 50 RE

Peter Owen books are distributed in the USA by
Dufour Editions Inc., Chester Springs, PA, 19425 – 0007
First Published by Peter Owen in 1973. Seventh impression 2007

ISBN: 978 – 9933 – 523 –15 – 2

تم تنفيذ التنضيد والإخراج الضوئي في القسم الفني بدار الحوار



دار الحوار للنشر والتوزيع www.daralhiwar.com
اللاذقية، سورية، ص.ب 1018
هاتف وفاكس: 339 422 41 963+
البريد الإلكتروني: daralhiwar@gmail.com
info@daralhiwar.com

سيلفادور دالي

وجوه خبيئة

الموت في الحب

ترجمة: متيّم الضايع



"تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة
معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق"

دار الحوار

مقدمة الترجمة الإنكليزية

عندما ظهر هذا الكتاب في الولايات المتحدة الأمريكية للمرة الأولى منذ حوالي ثلاثين سنة، فإن المعجبين بدالي والعديد ممن عرفوه فقط من خلال رؤية لوحاته أو سمعوا من أشخاص آخرين ربما، عن غرابة أطواره وسلوكه في باريس في العشرينات والثلاثينات (من القرن العشرين) استقبلوا الإعلان عن نشر هذا الكتاب بعدم تصديق. لقد أدركوا أن لديه موهبة مذهلة، في عرض وجهة نظره عن العالم بواسطة الألوان. لكن ما الذي حثّه على ذلك؟ ما الذي جعله مؤهلاً، ليخوض في عالم الخيال، ليبني عالماً خيالياً من خلال الكلمات؟

كُتِبَت هذه الرواية في عام 1943 عندما كان العالم لا يزال عالقاً في أسوأ حرب قاتلة في التاريخ، بمعارك مُستعرة على عدة جبهات، من روسيا مروراً بأوروبا وشمال أفريقيا إلى الشرق الأقصى. من منظور التطور (الداليّ) الخاص، هذه الرواية هي الشاهدة على ضريح أوروبا ما قبل الحرب، وتُقرأ كرواية تاريخية، تعيش شخصياتها المنمذجة مشاهد غارقة في هالة من ذكريات عصر الانحطاط الرومانسي لـ (باربي أورفيلي، فيربيل دي إيسل آدم، هايسمان) معيداً القارئ الإنكليزي إلى (ديسرايلي، بولار ليتون و أويدا) بأسمائهم الأرستقراطية الرنانة، لرجالهم ونسائهم بجمالهم المتألق، ورفاهيتهم وتبذيرهم. إن أحداث الرواية، مع انتقال المشاهد من فرنسا إلى شمال أفريقيا، مالطا، الولايات

المتحدة من ثم العودة إلى فرنسا، تغطي تقريباً فترة الحرب، متوقعاً نهايتها متضمناً، المشهد الهلوسة الذي نرى فيه هتلر، أمام الخلفية الموسيقية الفاغنرية، منتظراً موته الوشيك مع سحر ممتزج بالرعب.

لقد تخيل دالي العالم دائماً، وفنه وذاته بطريقة كونية، مع إله موجود دائماً، سواء كان بشكل مثيولوجي أو واقعي. إنه عالم معذب، وإيحاءات مرعبة، تشحذ انفعالاته المنحرفة والأولية نفسية الإنسان إلى الحد الأقصى. هذا العالم، الذي تعرفنا إليه بواسطة لوحاته، له قوانينه الخاصة، ووحوشه الخاصة، ووهمه ومثيولوجياته. إنه عالم من مناظر معدنية مقفرة، آثار تعود لقرون مضت وقرى أسبانية شاحبة تحت سموات من طموح غير محدود، مأهولة بأشخاص عالقين بتعابير ووضعيات قلق أو نشوة. عالم منثور بشكل هاجسي بعناصر صنميّة – طاولات تجانب السرير، أحياناً قطع لحم مُنتزعة من اللحم المكتنز لمرضات جالسات على الشاطئ، بيض مقلي ينساب على الدرابزين، تلفونات تقطر، كِلى وفاصولياء، وساعات عرجاء، وعكازات، عالم من التحولات التي تتعرض فيه الظواهر باستمرار إلى تشوهات غريبة، وتكرر الأشكال والحدود الخارجية بعضها البعض بتفاعل من المحاكاة الديناميكية. دالي مفتون بالسحر والعرافة والتعاويذ والتمائم والخرافات والطقوس والمبالغات. إنه مسكون بما يكمن وراء حدود ما يمكن تصوره. ليس من المفاجئ أن تكون عبقريته الخصبة قد سعت لتشمل بعداً جديداً على شكل رواية.

الموضوع الرئيسي لرواية "وجوه مخفية" هو "الموت في الحب". لدينا هنا معالجة بثوب عصري لأسطورة تريستان وإيسولد الخالدة. لا شيء يعطي حدة أكبر للحب من الموت الوشيك، ولا شيء يعطي حدة أكثر للموت من عبوديته التي لا علاج لها للحب. لكن تمت موازنة موضوع الموت بنقيضه: القيامة. هذا الموضوع الثانوي لكن المنتشر عن بعث حياة جديدة من التفسخ والدمار، يستمر طوال الرواية، ويرمز إليه من الصفحة الأولى إلى الأخيرة بواسطة غابة البلوط التي تخرج براعم خضراء مصفرة كل ربيع في سهل كرو دي ليبيرو.

لكن ربما تكمن الأهمية الحقيقية لهذه الرواية في التغير الذي يقوم به الكاتب من القيم الأهم في الفنون التشكيلية إلى تلك التي تنتمي إلى الإبداع الأدبي. لأنه من الصحيح أن لوحات دالي ترسم الشخصيات بدقة إلى درجة تجعلها أقرب إلى الصور الفوتوغرافية، وبهذا المعنى فهي قديمة الطراز، لكن كتاباته تصويرية فوق كل شيء، وكما هو الحال في لوحاته فإن الصور الظاهرة والمستدعاة تتعزز بتحفيز كل الحواس الأخرى، الصوت والشم والتذوق واللمس، إضافة إلى التظليل بعناصر روحية من عالم آخر تتجاوز الحواس والمنطق المحبوكة في لحمة الحياة الإنسانية كما تنعكس في وعي مفرط الإحساس. إن قصة الحيوات المتشابكة لأبطال الرواية، الكونت إيرفيه دي غراندزايه، وصولانج دي كليدا، وجون راندولف، وفيرونيكا ستيفنز، وبيتكا والبقية... من أحداث شغب شباط في باريس عام 1934 إلى آخر أيام الحرب، تشكل وسيلة درامية وممتعة جداً للقراءة للألعاب النارية لفلسفة دالي وأفكاره السيكولوجية وصوره الشفوية.

هل نجحت في نقل نكهة أسلوب دالي وقوامه إلى لغتنا الانكليزية؟ لا أستطيع الادعاء أنني فعلت أكثر من نقله بشكل تقريبي. لقد أمضيت عدة أسابيع معه ومع زوجته غالا في فرانكونيا في نيو هامبشاير في منزل الماركيز دي كويفا، عندما كان يكتب رواية "وجوه مختبئة" في أواخر خريف عام 1943. كانت أوراق أشجار القيقب على منحدرات الجبال المحيطة بنا، تتحول من الأصفر إلى البرتقالي الوهاج ثم إلى الأحمر الناري ثم الخمري، وهناك كتبت مسودة الصفحات المئة الأولى تقريباً من ترجمتي. يتحدث دالي لغة فرنسية غنية وملونة، ليست كثيرة المصطلحات ولا دقيقة بشكل مبالغ فيه، وهي مليئة بالتوابل والرعد الاسباني. وكما يحدث عادة مع الأشخاص الذين ليسوا كتّاباً بالأصل فإن غرابات لغته المحكية تصبح مفرطة في الكتابة، كما لو أنه يعاوض عن غياب التضمينات الشفوية والتعابير الوجهية والإيماءات. كانت مشكلتي هي تخفيف الإفراط المحلي لتعابيره وتحويلها إلى لغة

مكتوبة بدون فقدان خصائصها الأساسية. وكنت أحياناً أشعر بالإنهاك من الخوض لساعات في أدغال نثره، ألجأ إليه ساخطاً وأقول "أنت لا تستخدم كلمة واحدة إن كانت كلمتان تفيان بالغرض. أنت سيد الاستعارة المركبة، والنعت الفائض، أنت تحيك أزاهير إسهابك حول موضوعك وتنيره بألعاب نارية وهاجة من الغلو..." وكان يبتسم باعتذار مفعم بالثقة بالنفس وتومض عيناه بِألق شيطاني يتوازن على طرفي شاربه المشمع، ويرتجل بلطف بالغ مقطعاً صغيراً عن العنف في مزاجه الاسباني والإفراطات البركانية لمخيلته.

سواء كان دالي يرسم بكلماته بشكل فعال كما يفعل بفرشاته وألوانه، أم لا، فإن من أذهلتهم إبداعاته التصويرية لا يمكنهم إلا أن يجدوا مغامرته في هذه الوسيلة الجديدة مشوقة.

هاكون شيفالييه

مقدمة الكاتب

عاجلاً آم آجلاً، لا بدّ أن يأتي الجميع إلي! بعضهم لم يتأثر بلوحاتي ويقرّ أنني أرسم مثل ليوناردو. والآخرون الذين تضاربت آراؤهم مع قيمي الجمالية، يوافقون على اعتبار سيرتي الذاتية إحدى "الوثائق الإنسانية" لهذه الحقبة. لكن بعضهم الآخر والذين يشككون بأصالة كتابي "الحياة السريّة" اكتشفوا فيّ مواهبَ أدبية تسمو على مهاراتي التي أظهرها في لوحاتي وما يطلقون عليه غموضَ اعترافاتي. لكن الشاعر العظيم (غَارسيا لوركا) كان قد تنبأ منذ العام 1922 بأني مُعدٌّ لمهنة أدبية، وأشار إلى أنّ مستقبلي يتركز تحديداً في "الرواية النقيّة". وقد أعلن أولئك الذين يمقتون لوحاتي وطريقتي بالرسم وأدبي وجواهري وعناصري السريالية وما إلى ذلك، بأنّ لدي موهبة مميزة للمسرح، وأن مسرحيتي الأخيرة كانت من أكثر الأشياء الممكن رؤيتها إثارة على الإطلاق على مسرح (ميتروبوليتان)...... وهكذا فمن الصعب تجنّب الوقوع تحت تأثيري بشكل آو بآخر.

يبقى كل هذا أقلّ قيمة مما يبدو عليه، لأن أحد الأسباب الرئيسة لنجاحي أبسط بكثير من سحري المتعدد الأشكال، وأعني أني على الأرجح، الفنان الاكثر اجتهاداً بأيامنا هذه. بعد أن أمضيت أربعة أشهر في عزلة في جبال (نيو هامبشر) قرب الحدود الكندية، أكتب بعناد لأربع عشرة ساعة يومياً، أنهيت روايتي (وجوه مختبئة) بحسب الخطة وبدون أي تردد أو إعادة لما كتبت! عدت إلى نيويورك وقابلت بعض الأصدقاء مرة أخرى في (إل موروكو)، كانت حياتهم قد توقفت في المكان نفسه وكأنني تركتهم ليلة البارحة. زرت في صباح اليوم التالي محترفات الرسم، حيث كان الفنانون ومنذ أربعة أشهر ينتظرون بصبر لحظة

إلهامهم...... كانت قد بدأت لوحة جديدة للتو. كم من الأشياء التي حدثت في دماغي خلال تلك الفترة! كم شخصيّة، كم صورة، مشاريع معمارية وتحقيقٌ لرغبات وُلدت وعاشت وماتت وأعيد إحياؤها، أعيد بناؤها!. تشكل صفحات روايتي جزءاً من حلمي الأخير فقط. الإلهام أو القوة، شيء يمتلكه المرء من خلال القسوة والعمل الجاد والمرهق كل يوم.

لماذا كتبت هذه الرواية؟

أولاً: لأن لدي وقتاً كافياً لأفعل كل ما أريد، وأردت أن أكتب هذه الرواية.

ثانياً: لأن التاريخ المعاصر يقدم إطاراً فريداً للرواية التي تتعامل مع تطورات وصراعات العواطف الإنسانية العظيمة، ولأن قصّة الحرب وبشكل خاص، الفترة اللاذعة لما بعد الحرب، يجب أن تُكتب حتماً.

ثالثاً: لأنني إن لم أكتبها فسيقوم شخص آخر بكتابتها مكاني وسوف يكتبها بشكل سيء.

رابعاً: لأن توقّع التاريخ وتركه يحاكي بأفضل ما لديه ما توقعته، أكثر إمتاعاً من نسخه. لقد عشت في أوروبا وبشكل لصيق يوماً بيوم مع أبطال دراما ما قبل الحرب، لقد لحقتهم حتى بالهجرة إلى أمريكا، ولهذا كان من السهل عليّ أن أتخيل عودتهم...... لأنه ومنذ القرن الثامن عشر، بقيت الثلاثية العاطفية التي بدأها المركيز دي ساد الإلهي غير مكتملة: الساديّة والمازوخية و........... من الضروري أن نخترع المصطلح الثالث للمشكلة وهو من بعد التركيب والصقل: (الكليداليّة)، هو اسم مشتقّ من اسم بطلة روايتي (سولانج دي كليدا).

ربما تُعرّف السادية بأنها اللذة المُختبرة جرّاء تطبيق الألم على الشخص، والمازوخية هي اللذة المُختبرة جرّاء الاستسلام للألم المُستقبَل من الشخص. أما (الكليدالية) فهي لذة وألمٌ مصقولان بالتماثل المتسامي مع الشخص. لقد أعادت

(سولانج دي كليدا) تأسيس شغف طبيعي حقيقي: شخصية قدّيسة تيريزا بذيئة، يحترق أبيقور وأفلاطون في شعلة واحدة من الغموض الأنثوي الأبدي.

ابتلي الناس في أيامنا هذه بجنون السرعة والذي ما هو إلا سراب سريع الزوال للتقصير الهزلي. لقد تمنيت أن تكون ردّة فعلي على ذلك، كتابة "رواية حقيقية" طويلة مُضجرة. لكن ما من شيء يُضجرني. الكثير مما هو سيء لأولئك المُصاغين من الضجر. أتمنى سلفاً أن أُقارب العصر الجديد من المسؤولية الفكريّة التي ندخلها مع نهاية هذه الحرب...... رواية حقيقية عن المناخ، عن سبر أغوار النفس وعن الثورة وعن هندسة العواطف، يجب أن تكون – كما كانت دائماً – على العكس تماماً من فيلم ميكي ماوس لخمس دقائق أو شعور بالدوار من قفزة بالمظلّة. وكما في رحلة بطيئة في عربة في عصر ستاندال، يجب ان يكون المرء قادراً على أن يستكشف تدريجياً جمال المشاهد الطبيعية للروح التي يعبرها، يجب أن تُصبح كل قبّة جديدة من الشغف مرئية في وقتها بشكل يتسنى لكل روح قارئ وقتٌ "لتذوقها"...... زُعِم قبل أن أنتهي من كتابي أنني كنت أكتب رواية بلزاكيّة أو هويسمانيّة. هي على العكس تماماً رواية (داليّة) بتشدد، أولئك الذين قرؤوا كتابي "حياتي السريّة" بانتباه، سيكتشفون فوراً تحت بناء الرواية، حضوراً مألوفاً نشيطاً ومستمراً للأساطير الأساسية لحياتي الخاصة ومثيولوجيتي.

في يوم من أيام ربيع عام 1927 كنّا نجلس أنا وشاعر الرثاء العظيم (فيديريكو غارسيا لوركا) على شرفة مقهى (ريجينا) في مدريد وخططنا معاً لأوبرا أصليّة جداً. كانت الأوبرا بالتأكيد أحد مجالات شغفنا المشتركة، يمكن في جو كهذا فقط أن تندمج جميع الأجناس الغنائية الموجودة في وحدة مكتملة مظفرة، بحدها الأقصى من العظمة والحدّة المطلوبة والتي تجيز لنا التعبير عن التشويش الإديولوجي الضخم الشائك اللزج والسامي لعصرنا. في اليوم الذي تلقيت فيه نبأ وفاة لوركا، الذي كان ضحية التاريخ الأعمى، قلت في نفسي إن عليّ تأليف (أوبرانا) وحدي. حافظت منذ ذلك الحين على قراري الحاسم

لأجعل هذا المشروع يرى النور يوماً ما في لحظة نضج حياتي، وجمهوري متأكد دوماً أني أفعل تقريباً كل ما أقوله أو أعد به.

لذلك سأؤلف (أوبرانا) ... لكن ليس حالياً، لأني حالما أنتهي من هذه الرواية سأغادر من جديد ولسنة كاملة متصلة إلى كاليفورنيا، حيث أريد تكريس وقتي ثانية للرسم حصرياً وأضع أفكاري الجمالية الأخيرة قيد التنفيذ مع توهّج تقني غير مسبوق له في مهنتي. وسأقوم بعد ذلك فوراً بمتابعة دروس في الموسيقى، لن أحتاج إلا لسنتين لأُتقِن التناغم تماماً، أما شعرتُ بأنها تتدفق بأوردتي لألفي سنة؟ قررت أن أقوم بكل شيء في تلك الأوبرا – النص الكلامي، الموسيقى، الأماكن، الأزياء – والأكثر من ذلك أني سأُخرِجها.

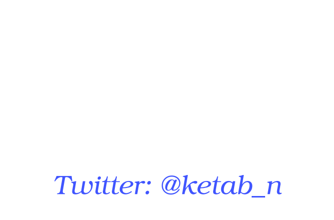
لا أستطيع أن أضمن أن شذرة الحلم هذه ستلقى قبولاً جيداً. لكن هناك شيء واحد مؤكد: بمجموع أعمالي المذهلة والمتعددة الأشكال، سأكون قد تركت في الجلد القاسي للظهر المحني والكسول للمشهد الفنيّ في عصري، علامة بارزة وجِناساً مختوماً في نار شخصيتي وفي دماء (غالا) لكل الكرم المخصّب "لإبداعاتي الشعرية". كم هناك من الأشخاص تغذوا روحياً بأعمالي حتى الآن! وبالتالي فليلقِ من قام بكل هذا القَدْر بالحجر الأول.

سيلفادور دالي الأول

إهداء

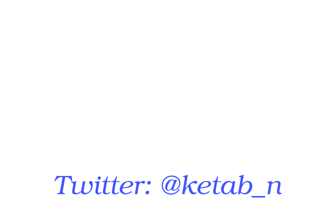
أهدي هذه الرواية إلى (غالا)، التي كانت إلى جانبي دائماً عندما كنت أكتبها، والتي كانت الجنيّة الجيدة لتوازني، والتي نفت عظاءات شكوكي وقوّت أسود تأكيدي......

إلى (غالا)، التي ألهمتني بنبل روحها وكانت المرآة التي عكست أنقى الهندسات الجمالية لمشاعري ووجّهت عملي.


Twitter: @ketab_n

القسم الأول

السهل المضيء


Twitter: @ketab_n

1/ أصدقاء الكونت إرفه دي غراندساي

لوقت طويل، كان الكونت غراندساي يجلس مريحاً رأسه على يديه تحت سحر حلم يقظة هَوَسيّ. نظر إلى الأعلى وترك بصره يطوف في سهل (كرو دي ليبرو). يعنيه هذا السهل أكثر من أي شيء آخر في العالم. ثمة جمالٌ في مناظره الطبيعية وازدهارٌ في حقوله المحروثة. والأفضل من بين الحقول كانت هذه التربة، والأثمن في هذه التربة كان الرطوبة، ومن هذه الرطوبة كان المُنتج الأكثر ندرة هو طينٌ معيّنٌ .... أحبّ كاتبُ عدله وصديقه الأكثر إخلاصا السيد بيير غيراردان، الذي كانت اللغة الأدبية نقطة ضعفه، أن يقول عن غراندساي: " الكونت هو التجسيد الحيّ لواحدة من تلك الظواهر النادرة للتربة التي لا تفهمها مهارة الهندسة الزراعية ومواردها — تربة مشكلة من ترابٍ ودمٍ من مصدر لا يُقتفى أثره، طينٌ سحريّ تشكلت منه روح أرض بلادنا."

في كل مرة يرافق الكونت زائر جديد لعقاره في نزهة نحو بوابات سدود المياه، ينحني ليلتقط حفنة طين، وبينما هو يلعب بها ويعيد تشكيلها بأنامله الأرستقراطية، يكرر للمرة المئة وبنبرة ارتجال مفاجئ: "إن الليونة الخشنة لتربتنا يا صديقي العزيز هي معجزة هذه المنطقة بدون شك، ليس لأن نبيذنا فريدٌ من نوعه فقط، بل للسبب الأهم المتمثل بامتلاكنا لثمرة الكمأة، والتي تُعتبَر سرّ وكنز هذه الأرض التي ينسلّ على سطحها أكبر أنواع الحلزون في فرنسا كلها، كما تتنافس معها غرابة أخرى ألا وهي جراد البحر! وهذا كلّه مؤطّر بأفخم وأكرم غطاء نباتي من شجر البلوط الذي يعطينا قشوره!"

ينتزع بمروره ملء كفّه من أوراق البلوط من غصن منخفض، ويعصرها بقوة ويفركها في تجاويف يده مستمتعاً بالإحساس الذي تتركه المقاومة الشوكية لأعصاب الورقة على بشرته الناعمة، والتي يكون ملمسها وحده كافياً لعزل الكونت عن باقي العالم. لا يحترم الكونت من كل قارات الأرض سوى أوروبا، يحبّ من أوروبا كلها فرنسا ويبجّل في فرنسا (فوكلون) والتي تكمن فيها البقعة المُختارة من قِبَل الآلهة والموجودة تحديداً في قصر (لاموت) حيث وُلِدَ هو.

كانت غرفته أفضل مكان في قصر (لاموت) إذ تبدو الإطلالة فريدة من نوعها من بقعة محددة منها. تتحدد تلك البقعة تماماً بمعيّنات أربعة كبيرة تكسو الأرض باللونين الأبيض والأسود. وكانت قد وُضِعت على زواياها أرجلٌ منكمشة قليلاً، تخصّ المكتب المشوق للويس السادس عشر، والذي يحمل توقيع (جاكوب) صانع الخزائن. كان الكونت غراندساي يجلس إلى هذا المكتب وينظر من خلال شرفةٍ ملكيّة عظيمةٍ إلى سهل (كرو دي ليبرو) الذي تضيئه الشمس التي بدأت لتوها بالمغيب.

ليس هناك شيء يمكنه أن يُثير المشاعر الحماسية الوطنية لغراندساي بشكل شِعريّ، كالمشهد الذي لا يملُّ منه، والذي يهبه له سهل (كرو دي ليبرو) الخصب المتغير باستمرار. غير أن شيئاً واحداً يشوّه التناغم السرمدي بشكل سافر بالنسبة له. إنه قطعة مساحتها تقارب ثلاثمئة متر مربع، قُطِعتْ أشجارها تاركة صلعة ترابية مقشّرة تكسر بغير انسجام مجرى السريان اللحنيّ لغابة البلوط الرائعة. بقيت الغابة دون أن تُمسَّ حتى وفاة والد غراندساي عارضةً مقدمة متجانسة للبانوراما الواسعة، مكوّنة من نسق من أشجار البلوط العاتم المتموّج الأفقي والمتناقضة مع المساحات المضيئة للوادي، لكنها تشبهه بكونها أفقية ومشكلة بشكل لطيف.

لكن منذ وفاة والد غراندساي الأكبر وهذ العقار مُثقَل بديون كبيرة وصكوك رهن عقاري، وقد قُسِّم إلى أقسام ثلاثة. وقع قسمان منها بين يدي

مالك عقارات كبير من أصل بريتوني، وهو روشفورت الذي أصبح على الفور واحداً من ألدّ الأعداء السياسيين للكونت. كان أول الأشياء التي فعلها لدى دخوله العقار الجديد، قطع أشجار البلوط في مساحة ثلاثمئة متر مربع وقد استخدمها لشراء لَقَبه، لكنها فقدت قيمتها الإنتاجية كونها فُصِلَت عن باقي الغابة العظيمة. استبدل بها غِراس الكرمة التي نمت على نحو هزيل في تربة منهكة تحوي الكثير من الحصى. لم تكن تلك الأمتار الثلاثمئة من أشجار البلوط المُقتلعة من القلب تحديداً من غابة عائلة غراندساي شاهداً على اقتطاع عقار الكونت فقط، لقد جعلت هذه الفُتحة طاحونة (دي سورس) مرئية تماماً كما كان روشفورت يسكنها حالياً، هناك إحساس شديد بالفقد لأنه كان المدخل إلى سقاية الجزء الأعظم من أراضي غراندساي المحروثة وتخصيبها. كانت طاحونة (دي سورس) مخفيّة تماماً في الغابة وما كان يظهر منها من غرفة الكونت سوى شفرات مروحة الرياح التي تبرز من بين شجرتي بلوط منخفضتين.

إلى جانب إخلاصه للأرض كان إحساسه بالجمال واحداً من أكثر المشاعر التي هيمنت عليه تميزاً. لقد عرف أن مخيلته صغيرة لكنه يمتلك وعياً عميق الجذور بذوقه الرفيع، وكان التشويه الذي لحق بغابته بالتالي مهيناً لحسّه الجمالي. منذ الفشل الانتخابيّ الذي لحق به قبل خمس سنوات، وبالعناد الذي يوصَف جميع قراراته، هجر السياسة مترقباً لحظة تأخذ الأحداث فيها منحى حاسماً. لا يُعتبر هذا اشمئزازاً من السياسة لأن الكونت – كأي رجل فرنسي– كان سياسياً بالفطرة. كان مولعاً بتكرار حكمة (كلوزفيتز) " ليست الحرب إلا استمراراً للسياسة بوسائل أخرى." كان متأكداً من أن الحرب الوشيكة مع ألمانيا باتت أمراً محتوماً، كما يمكن إثبات أمر قدومها رياضياً. كان ينتظر تلك اللحظة ليدخل السياسة من جديد، وكان يرغب حدوثها بصدق وبالسرعة الممكنة لأنه يشعر بأن بلده يصبح أكثر ضعفاً وفساداً يوماً تلو آخر. عندها ماذا يهمّه من الأحداث النادرة في سياسة السهل المحليّة؟

وبينما كان ينتظر اندلاع الحرب بفارغ الصبر، كان الكونت غراندساي يفكر بإقامة حفلة كبيرة.

لا، لم يكن الجار السياسي المعادي ما أزعجه لدى مرأى طاحونة (دي سورس). خلال السنوات الخمس الماضية وبسبب الإخلاص الوفيّ والبطوليّ للسيد غيرارديان، نجح في ترسيخ ثروته وتنظيم إنتاجية أرضه، وبدا كأن جراح الماضي التي نتجت عن تقسيم عقاره وأثرت على غروره ونفوذه قد بدأت تتماثل إلى الشفاء بشكل مؤكد وبطيء. علينا أن نُضيف أن غراندساي كان غير مبال نسبياً بتضاؤل عقاره السابق، لأنه لم ييئس أبداً من فكرة إعادة شراء العقّار الذي أُخِذَ منه، وبقيت تلك الفكرة محفوظة بشكل باهت في خططه العميقة وهي تساعد مؤقتاً على تعزيز شعوره بعدم الانفصال عن ملكيّته الموروثة.

لن يستطيع أن يتآلف من جهة أخرى مع التشويه الذي حدث لغابته، وهو يعاني بحدّة في مطلع كل يوم جديد من مشهد ذلك المربّع القزز الذي حطمت الرياح فيه غراس الكرمة، وانتزعت بحقارة أغصانه الملتفة الموزعة بطريقة هندسية. إنه تدنيس يتعذر إصلاحه لأفق ذكرياته الأولى — أفق استقرار طفولته — بحوافها الثلاث المتراكبة المزوجة بمحبّة بالضوء: الغابة المظلمة في المقدمة، الأرض السهليّة المضيئة، والسماء!

يمكن فقط لدراسة تفصيلية دقيقة للطبوغرافيا الخاصة جداً لتلك المنطقة أن توضّح بشكل جيد السبب في إعطاء تلك العناصر الثلاثة المتصلة والثابتة جداً للمشهد الطبيعي تبايناً ضوئياً عاطفياً حادّاً ورثائياً لسهل (ليبرو). تجتاح غابة البلوط في وقت مبكر من بعد الظهر وبشكل تدريجي، الظلال المنحدرة للجبال الواقعة وراء القصر وتغرقها فجأة بنوع من الظلام السابق لأوانه قُبيل الغسق، بينما تحتجب واجهة المشهد تحديداً بالظلّ المخملي متعدد الأشكال، تسكب الشمس التي تبدأ غيابها في وسط المنخفض العميق من تضاريس المنطقة، ضوءها عبر السهل،

وتعطي أشعتها المنحرفة موضوعية متزايدة لأصغر تغيير بالتضاريس وبالتفصيلات الجيولوجية، تتوضّح تلك الموضوعية بشكل أكبر من خلال حدّة الجو ووضوحه الذي يُضرب به المثل. كان كما لو أن المرء يستطيع وضع سهل (ليبرو) كله في تجويف يده، كما لو أنه رأى سحليّة غافية في جدار قديم من بيت يقع على بعد أميال. يحدث فقط عند نهاية الغسق وعلى أعتاب الليل أن ترخي الشمس المشرفة على المغيب بقايا انعكاساتها على المرتفعات الأرجوانية، وتبدو بالتالي كمحاولة لتحدّي قوانين الطبيعة للإبقاء على حياةٍ وهميّةٍ للنهار. يظهر سهل (كرو دي ليبرو) عند هبوط الليل بشكل كامل تقريباً وكأنه مضيء. ربما كان هذا الاستقبال الاستثنائي للضوء هو ما يجعل الكونت في كل مرّة يختبر فيها واحدة من سقطاته المؤلمة في الكآبة وتظلم روحه بظلال الحزن الوهميّة، يرى أمله السلفيُّ بالخلود مرتفعاً من غابة البلوط السوداء المدفونة في كآبته، ويغتسل سهل (كرو دي ليبرو) المضيء بأشعة الشمس الدافئة. كم من المراتِ وبعد فترات طويلة أمضاها في باريس، عندما تغوص روحه في الشكِّ الخمول لحياته العاطفية، تؤجج فيه ذكرى لمحة هاربة لسهله حباً جديداً متلألئاً للحياة!

في هذه المرّة، وجد غراندساي باريس مستغرقةً جداً بالمشاكل السياسية، وهذا ما جعل إقامته في البلدة مختصرة جدا. لقد عاد إلى قصر (لاموت) دون أن يتوفر لديه الوقت للتحرر من الأوهام التقدمية التي وُلِدت أخيراً عبر الكثير من الانغماس المستمرّ في علاقاتٍ تقوم حصريا على الدراما المتوترة للمكانة الاجتماعية، على العكس تماماً في هذه المرة، فقد عاد إلى حقوله مع توق لم يُروَ للمؤانسة مما حثه على دعوة أقرب أصدقائه — كما اعتاد أن يفعل عادة – ليمضوا عطلة نهاية الأسبوع معه.

مضى أسبوعان على عودته، وتناول عشاءه المكّون من الحلزون أو جراد البحر بصحبة كاتب عدله السيد بيير غيراردديان. تتضمن

وجبات العشاء تلك محادثات لا تنتهي بصوت خفيض، ويقدمها على رؤوس أصابعه برينس الذي كان خادم العائلة فيما مضى.

لوحِظَ أن السيد غيراردیان قد أخفى ميوله الأدبية تحت صرامة مهنته القاسية والمتواضعة، كما أخفت عباراته اليومية المقتضبة وأسلوب لغته الموضوعية حيويةً نضرةً وطريقة طنانة في التعبير المجازي، وهو انفتاح متواضع يُطلَق له العنان فقط في حضور أصدقاء موثوقين حميمين وكان الكونت أول من حَظِيَ بهذا الشرف.

يشعر غراندساي بمتعة حسيّة في خطب كاتب عدله الطويلة المليئة بالصور، والتي تحتوي غالباً على لمسة عظمة. لم يكن يستمتع بها فقط بل كان يستفيد منها أيضاً. إن كان صحيحاً أن الكونت يمتلك نموذج بلاغة رائعة ويتحدث اللغة الفرنسية بأناقة شخصيّة كاملة، فليس أقلّ صحّة أنه كان عاجزاً عن ابتكار تلك الصور غير المتوقعة والتي كانت تصدر بكلٍ طبيعية عن غيراردیان، صورٌ من خيال لاذعٍ قليلا وساخر، ولها قدرةٌ غريبة على اختراق الأحلام ومناطق الإغواء، سريعة التأثير في العقول الخياليّة وسهلة الإقناع للنساء صاحبات الرقّة والكياسة. كان يحفظ اختراعات غيراردیان الشِعريّة وأفكاره الغريبة في ذاكرته، ولأنه لا يثق بذاكرته كثيراً، كان يدونها باختصار وعلى عجل في دفتر ملاحظاته الصغير بخطّ يده الناعم كخيط الذهب. غالباً ما كان يرجو السيد غيراردیان ليعيد عليه نهاية جملة ما فيجعل الأخير يختبر لحظات غروره الأعظم، ويُجبَر رغم أنفه على أن يعرض صفي أسنانه البيضاء جداً في ابتسامة مؤلِمة يرسمها التواضع. سيحني السيد غيراردیان رأسه باحترام منتظرا من الكونت أن ينهي خربشته الناعمة، فتظهر على جبهته المحنيّة العروق المخضّبة باللون الأزرق والتي تكون مرئية تماما وناتئة في العادة، والتي تتورم في مثل هذا الموقف وتزداد صلابتها ولمعانها وصولاً إلى المستوى المميز لتصلب الشرايين.

لم يكن تعبير غيراردديان الخجول مجرّد فخر يكبتهُ استعدادٌ للحفاظِ على مسافةٍ فاصلةٍ، بل كان هناك بعض الارتباك الذي لا يكاد يُدرك. نعم، كانٍ السيد غيراردديان خجولاً. كان يخجل من غراندساي لأنه عرف تماماً باستخدام الأخير للملاحظاته التي تمكنه من السطوع في المجتمع. يعود الفضل في السمعة الفريدة للكونت كمتحدث حقيقي، للإلهام الغامض لكاتب عدله. لقد استغّل تلك الملاحظات أيضاً لإغواء النساء، والأهم من ذلك ليحافظ على هذا الشغف الكامن الذي ينهشه. لقد أوصلته هذه الملاحظات المركبة من كلام فارغ زائف، من خلال الإدمان المتنامي على قوتها البطيئة القاتلة، إلى مدام سولانج دي كليدا.

في الواقع، يختلي غراندساي صاحب الذاكرة السيئة بنفسه ليدرس سلفاً مسار لقائه مع مدام سولانج دي كليدا، وتتمحور محادثاته دائماً حول ثلاثة مواضيع شعرية مبهرجة أو أربعة، والتي تكون قد تطورت خلال سلسلة لقاءات ليلية طويلة يمضيها مع كاتب عدله. لننصف الكونت، صحيح أنه يحقق من خلال موهبته الطبيعية بالحديث وإتقانه لفنّ التواصل الاجتماعي جمالاً حقيقياً من حيث الأناقة والذوق الرفيع النادر، كما أنه طوّر وصقل العناصر المتطرفة النضرة والزاهية التي انبثقت من الشفاه المبتذلة نوعاً ما لكاتب عدله، والتي تبدو إن استعرضها بدون تعديل في الصالونات الباريسية الفخمة، سخيفة مدّعية وفي غير مكانها إن لم تكن كل ذلك معاً. إن غراندساي الذي كان كاتب عدله شريكه في لعب الورق في القصر خلال فترة طفولته، كان قد كَسِبَ منه أيضاً فهماً أولياً حاداً ومباشراً للعلاقات الإنسانية، والتي يمكن الحصول عليها فقط من شخص (كغيراردديان) عاش في أكثر عائلات الناس العاديين أصالة. وبالتالي، متى وُصِف الكونت بأنه كان واقعياً عظيماً في الروح، كان الفضل المنطقي يعود في قسم كبير منه إلى كاتب عدله والذي يشير الناس إليه بشكل غير مقصود.

لم يغتصب الكونت فقط صورته السياسية وملاحظاته العميقة وإحساسه القاسي بالواقع من السيد غيرارديان بل كان يحاكي طريقته في العَرَج. يعاني الكونت وكاتب عدله من إصابة الساق ذاتها منذ خمس سنوات. حدث ذلك منذ خمس سنوات أثناء حادث سيارة خلال أحداث تراجيكوميدية في الحملة الانتخابية. كان السيد غيرارديان قد شُفيَ خلال أسابيع ثلاثة، لكن الكونت الذي لم تُشفَ ساقه أصبح أعرجَ، ومع ذلك كان لديه الوقت الكافي لمراقبة طريقة كاتب عدله في المشي خلال فترة النقاهة، واعتاد على طريقته في العَرَج، والتي بدت له بأن فيها جلالاً مُبهراً. من الحق أنه، ومع البطء والهدوء الذي منحه العَرَجُ لإيقاع سيره، أضاف لجسده الرجوليّ المتناسق تماماً لمحة من الحزن والتميّز. كما احتفظ أيضاً من ذلك الحادث بأثر جرح نحيل جداً وطويل يمتدّ عمودياً من صدغه حتى منتصف وجنته. أصبح هذا الجرح الذي كان عميقاً فيما مضى يُلمَحُ الآن بصعوبة، لكنه كمقياس الضغط الجويّ، يبدو ناتئاً وأرجوانياً أيام العواصف، كما يثير لديه حكّة عنيفة ويجبره على تحريك يده نحو وجنته والضغط عليها بكل قوته رغم عدم رغبته بجرح نفسه. تلك الحركة هي الوحيدة المُبهمة من بين حركاته التي تكاد تكون مصطنعة جميعها.

كان لدى الكونت حفل عشاء في تلك الليلة على ضوء الشموع مع أصدقائه الخمسة والعشرين الأكثر قرباً منه، والذين وصلوا جميعاً في فترة بعد الظهر، وكانوا في منتصف جلسة "تجعيد الشعر" قبل النزول إلى غرفة الاستقبال في الساعة الثامنة والنصف. كان قد ارتدى ملابسه كاملة قبل ساعة من الموعد، وكما في لقاءاته العاطفية ولياليه مع المجتمع أو حتى مع صديق حميم، كان يحب أن يرتشف — وبدون تسرّع — الانتظار الطويل المضني بشكل ممتع قليلاً، والذي يعطيه الوقت الكافي ليحضّر نفسه لترك انطباع خاص أو حالة يرغب أن يؤديها. كان لديه رعبٌ من أي شيء يؤثر على حبّه الوحشيّ للارتجال. لقد جلس الكونت في هذه الليلة الخاصّة إلى مكتبه منتظراً في غرفته ومستعداً للاستقبال أكثر

من المعتاد. بعد أن سحب دفتر ملاحظاته الصغير من درج مكتبه، بدأ يراجع الملاحظات التي دوّنها على مدى الأسبوعين الماضيين والتي كان يتوقع أن تمنح التألقّ لكلامه، أهملَ الصفحات الثلاث الأولى التي كتِبَت بارتباك بدون قناعة تامة، والتي تحتوي على عبارات وأفكار معدّة للحوارات العامة، وابتسم بعدها كما لو أنه وصل إلى صفحة مليئة بالمفاجآت المثلة للطرق الذكيّة لاقتحام المناقشات، ووقف أخيراً عند صفحة كتِبَ فيها عبارة واحدة "ملاحظات من أجل محادثة خاصة مع سولانج."

بقي مُستغرقاً لوقت طويل في تلك الصفحة وقد منعه من المواصلة نوع من الخمول الذي لا يُقاوم، كما حثّه بشكل كبير على متابعة مسارٍ فوضوي محبّبٍ لحلمِ يقظةٍ مغرٍ.

شغفٌ غريبٌ ذلك الذي جمع ما بين إرفه دي غراندساي وسولانج دي كليدا. لقد تنافسا على مدى سنوات خمس مضت، في حرب لا رحمة فيها من الإغواء المتبادل، الكثير الكثير من الإزعاج والقلق الذي لم يتبلور حتى الآن إلا إلى نقطة استفحال مشاعر متنامية من المنافسة والبحث عن إثبات الذات، لدرجة أصبحت فيها أية مجاهرةٍ أو ضعفٍ تهددُ بإزالة الوهم. في كل مرّة يشعر الكونت فيها باستسلام عواطف سولانج لسكون الرقّة والحنان، يندفع متقدماً بنفاد صبرٍ وبذرائع جديدة كي يجرح كبرياءها، ويعيد تأسيس سلوك عدواني نادر وبرّي ينجم عن رغبة غير مشبعة. إنه سوط موجود باليد يستخدمه المرء للتغلب على عقبات الكبرياء التي لا تُقهَر.

بعد جلساتهما الطويلة التي تتواصل بنغمة شبه واهنة للأنشودة الخفيفة المرصّعة بلامبالاة مختلفة وبعض الفكاهة الرقيقة، وبينما كانا يخفيان بعنادٍ الخبب المحمومَ لشغفهما عن نفسيهما، كان الكونت يشعر بإغواء دائم يدفعه للتربيت على مؤخّرة سولانج ومن ثم يعطيها قطعة سكر. كما يفعل المرء مع حصان أصيل يتبختر بأناقة ليضع طاقته غير

المحدودة كلها تحت تصرّفك. كان الكونت ينظر إلى هذا كله بطيبة فارس مغطى بغبار وكدماتٍ أُصيبَ بها لأنه سقط عدة مرات خلال ركوبه الحيويّ للخيل. لاً شيء أكثر إرهاقاً من شغفٍ من هذا النوعِ، يقوم على حالة من الدلال المتكامل من كلا الجانبين. كان يقول ذلك لنفسه عندما سمع منبّه الساعة يُشير إلى الثامنة والنصف في قاعة الاستقبال. رفع رأسه الذي كان متكئاً على ذراعه لوقت طويل وحدّق للحظات في سهل (كرو دي ليبرو) الذي لا زال يحمل بسبب عناصره الطبوغرافية الخاصة، انعكاسات آخر بريق لليوم رغم سيطرة العتمة شبه الكاملة.

بإلقاء نظرة أخيرة على السهل نهض الكونت عن مكتبه فوراً متلبساً عَرَجَه المميز له وعبر الممر الذي يقوده إلى غرفة الاستقبال.

مشى بتلك الأناقة الهادئة الحرّة التي أفسدتها لمسة عصبيّة أخيرة لليد على الشعر، أو تعديل أخير أخرق لربطة العنق، أو نظرة عابرة مُريبة وعفوية إلى المرآة، تُميّز حياء الأنغلوساكسون من الطبقة النبيلة. تقدم إلى وسط الغرفة حيث التقى دوق ودوقة سينتونغ اللذين دخلا من بابين متعاكسين باللحظة نفسها وأعطى كلاً منهما قبلة على الوجنتين. بدا الدوق في غاية التأثر، لكن قبل أن يتسنى له الوقت ليفتح فمه، سُمع صوت مناقشة عنيفة توقفت عند العتبة. ظهر ماركيز (رويانكورت) الشاب ورأسه ملفوف بضمادات، مُحاطاً بإدوارد كوردييه والسيد فاوسيرت، وتقدم الثلاثة نحو غراندساي يتدافعون محاولاً كلٌ منهم أن يسبق الآخر. هتف كاميل فاوسيرت خاطفاً وضاغطاً برقّة على يد الكونت: "يا للمشاكل التي يقحم محميّك الماركيز رويانكورت نفسه فيها! في مساء اليوم الذي أصبح فيه من أتباع الملك، حارب جنباً إلى جنب مع الشيوعيين لإسقاط الحكومة الوحيدة التي تعرف ما تريده ولديها الشجاعة لفرض ذلك، الحكومة صاحبة القرار!"

"تباً" صاح الماركيز رويانكورت بخفة دمٍ لامساً بإصبعه الدم الطري الذي ظهر للتو من ضمادته، "إنها تنزف مـن جديـد، لـن أحتـاج سـوى لعشر دقائق لتغـيير الضـمادة، سـأترك الأمـر لهـؤلاء السـادة يـا عزيـزي ليخبروك بكل ما حدث. عند عودتي ستكون كل الأشياء قد قيلت، ولـن يكون عليّ سوى إضافة الحقيقة."

أصبحت الغرفـة مليئـة خـلال بضـع ثـوان، وبـدأ أثنـاء انشـغاله باستقبال ضيوفه يتعرّف على أحداث اليوم السابقْ التراجيدية من خـلال شذرات الأحاديث التي كانت تأتيه بشـكل فوضـوي وبوقـت واحـد مـن جميع الاتجاهات. كان السادس من شباط كما كان يُسمّى سابقاً، والـذي كان قد أدّى إلى استقالة مجلس وزراء (دالادييه).

لدى الكونت كراهية ضخمة جداً للراديـو — لم يكـن لديـه واحـد بالتأكيد — وكان قد أمضى يومه دون أن يقرأ الصحف، إنه يستمع الآن بنوع من الثمَل الشهواني للكمية الهائلة من الأخبار المـثيرة والـتي تـرتبط بها أسماء جميع معارفه تقريباً. كان يقاطع من وقت لآخر ليستوضح عـن بعض التفاصيل، لكن قبل أن يتمكن الآخر من التوضيح، ينساق انتباهـه سلفاً بمفاجأة من كشفٍ جديد. عَرَجَ ذهاباً وإياباً من مجموعة إلى أخرى، يلقي برأسه إلى الخلف ويُدير وجهه برفق نحـو اليسـار، يصـغي بانتبـاه متساوٍ لكل شخص بينما نظرته مثبتة إلى نقطة مبهمـة في السـقف. تعنـى من خلال هذا السلوك الفوقيّ المنفصل عن الواقع، وبالرغم مـن اسـتمتاعه بتلك الأحداث بشكل عام، أن يُظهـر، لـيس فقـط أنـه لم يكـن مندهشـاً بها، بل رفضه الانجرار إلى هذا الجَـو المحمـوم مـن النقاشـات، والـذي يمنعها الذوق المتعلق بهذا المكان من أن تصبح فظة. بـدت النسـاء بشـكل خاص متأثرات فعلاً بما حـدث، لأنـه إضـافة إلى الأربعـين الـذين قُتِلـوا والمئة الذين جُرحوا، كان هنـاك وحشـية صـارخة وروماِنسـية للمنظمـات المتورطة. (كرواَ دي فـو)، الشـيوعيون، (كـاجولارد) ومتـآمرو (أكاسـيا)،

(كاميلوتس دو روا) حيث كانت أسماؤها الميلودرامية وحدها كافية لبعث القشعريرة لأكثر البشرات المكشوفة فوق الأثواب منخفضة الياقة رقّة. راقب غراندساي جميع أصدقائه ومن ينتمي من بينهم فعلاً إلى (كروا دي فو)، (كاجولاردس)، متآمرو (آكاسيا)، أتباع الملك، أعضاء مجلس الوزراء المستقيل، حتى الشيوعيين. وبانغماس حوّلهُ حبّه الشديدُ للأدبِ إلى شيء منحرف قليلاً، طَرَفَ بعينيه مستوعِباً التجمّع المتنوع لضيوفه وقرر أن صالونه "مبهر جداً."

وقف مأخوذاً بكمية الوقائع المفاجئة، وتوقف عن الانتباه لسرد حكايات أصدقائه مريحاً ظهره برفق على المدفأة الرخامية، بدأ الكونت برؤية فيضان من تتال مضطربٍ لصور أكثر إدهاشاً من أي شيء كان قد عرفه، كان مشابهاً لمونتاج سينمائي. رأى الشمس الغاربة تختفي خلف قوس النصر بينما نزل متظاهرو (كروا دي فو) في شارع الشانزيليزيه في أنساق اثني عشرية مصطفة مع رايات مفتوحة في المقدمة، رأى رجال شرطة سوداً مترقبين بلا حركة لديهم أمر بإعاقة المتظاهرين، لقد استسلموا واحداً تلو الآخر في اللحظة الأخيرة حتى من دون القدرة على إبطاء المسير الشجاع للمتظاهرين، يتوجّه المتظاهرون الآن بشكل مباشر نحو ساحة (الكونكورد) الذي تنتشر فيها عربات الجيش ورجاله ويحمون المدخل المؤدي إلى مجلس النواب.

فجأة تقدم رئيس شرطة البلدية عدة ياردات ليواجه المتظاهرين. تفاوض مع حَمَلة الراية وبعد ذلك تردد الموكب قليلاً ومن ثم غير اتجاهه، توجه نحو (الماديلين) وكان هناك تضاعف بالأصوات، "دلادييه إلى المشنقة! دلادييه إلى المشنقة!" وخلال لحظة تم تمزيق الحديد المسبوك الذي يشكل سياجاً حامياً حول الأشجار، وقُذِفَ بعنف على الأحجار المرصوفة فجعلها أجزاء متناثرة، أصبح الحديد أسلحة مخيفة.

مع وجود تلك القضبان المعدنيّة، تهشّمت أنابيب الغاز الخاصة بإنارة الشوارع وبدأت تشتعل مطلقة صفيراً حاداً وشعلة ارتفعت كينابيع المياه الحارة نحو السماء التي كان الغسق فيها يزداد قتامة. رَكِبَ الغليان الحشد وانتقل من شخص إلى آخر مع وجود مشاعلهم الملتهبة فوقهم، كما تنتقل نيران عدوى مدمرة في غضب شعبي من خلال أقواس المهرجانات. أُلقيت الحجارة من الرصيف المقابل لمطعم (مكسيم) على وزارة البحرية، وأدخلت يدٌ ترتدي قفازات جلدية زجاجة مولوتوف عبر نافذة محطمة، فانفتحت البوابة وأطلّ الوجه الشاحب من حجرة الضابط قائلاً: "لا أعرف ماذا تريدون، لكنني أرى الألوان الثلاثة بينكم وأنا واثقٌ أنه لا رغبة لديكم بسفكِ دماء البحارة الفرنسيين: تحيا البحرية! تحيا فرنسا!" واندفع الحشد نحو مبنى (المادلين)، إنه يملأ الآن شارع (رويال). قُتِلَت خادمة متكئة على الشرفة برصاصة طائشة، وسقط في الشارع روب الديشامبر الزاهي الألوان الذي كانت تحمله بيدها. رأى غراندساي قطعة القماش تلك ترفرف فوق رؤوس الجموع، كانت أحداث كهذه تشتت انتباهه للحظات، لكنه يعود ثانية إلى تركيزه بسبب السُعار المحمومَ وغير المشبع، كالذي لدى الكلاب الشبقة والذي يقودها بإيقاع منتظم وخارج عن السيطرة لتتعقب الرائحة العنيفة والجاذبة للتمرّد.

بدأت هذه الرؤى تتتابع بإيقاع متسارع في مخيّلته دون استمرارية واضحة، لكنّها تحتوي على تلك الحدّة البصريّة التي أصبح فيها المشهد الحيويّ لغرفة استقباله، خلفيّة لدمدماتٍ وحركاتٍ غير واضحة.

يرى بركة كبيرة من الدم لحصان مشقوق البطن، انزلق فيها الصحفي (ليتري) مرتدياً معطفه الأصفر الذي يلبسه باستمرار. كما تعكس قطع الزجاج المتناثرة من النافذة المحطمة لمتجر (مادلين) للزهور (حيث اعتاد الكونت أن يشتري زنابقة الصفراء المحتوية على بقع كجلد النمر، والتي يمتلك الجرأة أحياناً ليشبكها في عُرى أزرار سترته) صورةَ الباص المنقلب المشتعل على زاوية شارع (رويال). إنهم يفكون أزرار بنطال السائق

الضخم للسنيور كورديبه والذي استلقى صديقاه ميتين على مقعد، كان لحمه شاحباً جداً بلون بطن ذبابة ولديه ثقب آخر أصغر قليلاً يقبع على بعد عشرة سنتمترات من سرّته، لا ينزف دماً لكنه قاتم، وكما يصف السنيور كورديبه المشهد بنفسه: "بدا وكأنهما عينا خنزير نصف مغمضتين."

دخل أمير أورميني الشاحب كجثة عبر مدخل الخدم إلى بار (فوكيه) مصاباً بقضيبٍ معدنيٍّ ناعم بطول خمسة عشر سنتمتراً، مغروس كرمح صغير تحت أنفه تماماً ومتمركزاً في عظم الفك العلوي، لدرجة لم يستطع فيها انتزاعه بكلتا يديه القويتين، وسقط فاقد الوعي بين يدي المدير المخلص دومينيك صارخاً: "سامحني........" وعند هبوط الليل، احتشدت مقاهي ساحة (رويال) بالجرحى والمتمردين المتأخرين المنسحبين باتجاه النهاية البعيدة لشارع الشانزليزيه، تلاحقهم عن قرب رصاصات طائشة من بنادق حراس متنقلين. كانت ساحة (الكونكورد) المهجورة والتنقيط اللامبالي لنوافيرها البرونزية الأنيقة وبقايا شغف مصابيحها المرتعشة الملتصقة لنوافيرها المتدفقة، تبدو للعيان في ليلية مرصعة بالنجوم كمِشبكٍ تاجيٍّ لؤلؤيّ يوضع على الرأس.

دخلت مدام دي كليدا غرفة الاستقبال في هذه اللحظة تماماً مرتدية مشبكاً تاجيًا لؤلؤياً في شعرها. وأعطى غراندساي الأولوية لرؤية هيئتها وكأنه يصحو بشكل مفاجئ من حلم يقظته، أدرك للتو أنها الشخص الوحيد الذي كان ينتظره في الواقع. خطا إلى الأمام بلهفة غير اعتيادية ليستقبلها ويقبلها على جبينها.

مدام دي كليدا، بلون بشرتها المدبوغ بلون الشمس والمنحوتة والمزخرفة بقلادات الألماس وشلالات الساتان، تجسّد تماماً الحقيقة الباريسية، إذ بدت وكأنها إحدى نوافير ساحة (الكونكورد)، انكسرت لتوها في الغرفة.

لم يكن ما يتمناه الكونت تماماً دخول مدام دي كليدا. كان متعصّباً بشدة إلى "جو" صالونه، وبالرغم من الفوضى غير المألوفة ومحاولة كل شخص التغطية على زميله بالصوت، فقد أغرته للحظة. والآن وقبل أن تُظهر مدام دي كليدا نظرات الدهشة والسخرية بطريقة ما، أصبح الضجيج لا يُحتمل بالنسبة له. ابتسم على الفور ابتسامة لاذعة قليلاً ومتسامحة وكأنه يقول: "حسناً يا أولاد، لقد أمتعنا أنفسنا بما يكفي وعلينا وضع حدّ لهذا اللعب." محترقاً بنفاد صبر لم يخرج عن سيطرته، أضفى على وجهه ظلاً من القلق، وطلب غراندسّاي أن يكون العشاء جاهزاً قبل عشر دقائق من الموعد المحدد، وأمل بالتالي إعادة تأسيس مسار تدفق المحادثات بشكل جيد، متوقعاً أن النزول الرسميّ على الدرج الواسع نحو غرفة الطعام سيوجّه الجدال الناشئ المتهور نحو نهر الكياسة الهادئ.

على أية حال، استرجع عشاء الكونت التوازن الجدليّ لفترة قصيرة فقط، ومن ثم ظهرت إلى السطح مجدداً وبشكل مباشر تقريباً، القضية الملحّة للأحداث الدامية التي وقعت في السادس من شباط لتسيطر على جميع النقاشات. بدؤوا ينزلقون هذه المرة إلى المنحدرات الخطيرة التي كان المرء يمرّ بها تدريجياً، من طور التوصيف بداية إلى الطور الإيديولوجي الذي سيتوّج نهاية حفلة العشاء بشكل محتّم. إن لم يكن هذا العشاء ذا دلالة تاريخية، فقد كان على الأقل ذا دلالة دراماتيكية على تلك الفترة الحدّية الحاسمة من تاريخ فرنسا.

جلست المدام دي مونت لوسون إلى يمين السيناتور دودييه وإلى يسار المعلق السياسي فيلارز. كانت عضواً في (كرو دي فو) لأن زوج عشيقة عشيقها كان شيوعياً. لبست ثوب (شانيل) بياقة منخفضة جدا ومحاطة بورود من ثلاث طبقات من الدانتيل الأسود و(البيج) تختبئ بينهما سلسلة من لآلئ كبيرة إلى حدّ ما على شكل ديدان.

يتخذُ السيناتور دودييه دائماً الموقف المعارض لكل رأي سياسي، أياً كان من يُقابله، ويدافع بثبات عن الشخص الذي يتلقى انتقاداً أياً كان هذا الشخص، كما يهدمُ في الجزء الأخير من الحديث ما كان قد بناه في بدايته، وهكذا، وخلال إعطائه انطباعاً بأن لديه آراء دقيقة حول كل موضوعٍ، تكون النتيجة الثابتة حول ما قاله هي التعادل. ألقى مديحاً جياشاً بالعواطف حول ثوب مدام دي مونت لوسون اختتمه بينما كان يلتفت نحوها بقوله: "ياقة ثوبك يا سيدتي صالحة للأكل، بما فيها الورود، لكن بالنسبة لذوقي الخاص، أفضّل أن أخص الديدان بطبقٍ مستقل، وبشكل يستطيع المرء أن يأكلها وقتما يشاء."

تحدث فيلارز بهذا الخصوص حول آخر صرعات البذخ الباريسي، وألمحَ إلى وجودِ قبّعات صالحة للأكل وتُعرض في المعرض السريالي. ينتمي فيلارز سياسياً إلى متآمري (أكاسيا) وذلك لسبب بسيط، لكونه كاتباً، فهو يؤلف خطباً سياسية لواحد من القادة البارزين في تلك المجموعة.

وأخذ يتملّق مدام دي مونت لوسون محاولاً إثارة اهتمامها بكتابه الفلسفي الزائف عن التاريخ المعاصر، وقد تخلّت هي عن محاولة متابعته في موكبه المسعور من المتناقضات، وأعلنت أخيراً: "لا أستطيع أن أفهم فعلاً على أي ضفةٍ تقف!"

أجاب فيلارز وعلى وجهه مسحة سوداوية: "ولا أستطيع أنا أيضاً. كما ترين، أنا أشبه الفنان بطريقتي الخاصة، وموقفي مُشابه لموقف ليوناردو دا فينشي الذي ترك تمثال الفارس المشهور غير منتهٍ بينما كان منتظراً من سينتصر. أنا مستمرّ بالعمل على كتابي وأجعل منه تمثالاً للحقيقة، إنه مهيب وجدير بالاحترام وينتهي بأصغر التفاصيل، لكن ليس هناك من رأس، لقد تركت الرأس للحظةِ الأخيرة لأستطيع أن أعطيه رأس المنتصر".

وبينما كان رأس عجل محاط بأوراق الغار يُقدّم في تلك اللحظة، أضاف وهو يشير إلى ورقة غارٍ بطرف شوكته، "في واقع الأمر وكما تعلمين، لا يؤخذ الرأس في الحسبانِ كثيراً كما أوراق الغار".

استمر السنيور فورسيه والسنيور أوفرارد في نقاشهما الحادّ الدائر منذ بداية العشاء حول أعمال الشغب في باريس. كانا الخصمين السياسيين الأكثر عدائية في هذه اللحظة لأنه، بما أن لهما الموقع ذاته والبرامج والمقاربة ذاتها لجميع القضايا السياسية، فهما مُلزمان بتقديم تفسيرات رائعة كي يُعطيا انطباعاً لأتباعهما بأنهما كانا على خلاف ثابت وشديد، وكذلك ليسبق أحدهما الآخر في سباقهما المسعور لتحقيق طموحهما اليومي والحالي الذي يشوش نظرتهما، ويمنعهما من رؤية أن هدفهما في السلطة لا زال غير مؤكد.

سيمون دورنيه، والتي كانت للحظات تلتهمُ بهيجان وثبات قطع الهليون في طبقها حتى أطرافها، تمضغ وتعيد مضغ البقايا الليفية دون أن تعرف ماذا تأكل، اقتحمت أخيراً المحادثة التي كانت تجري حولها بشكل هيستيري قائلة: "لا، أقول لا! أفضّل ألف مرة أن أرى فرنسا شيوعيّة على أن أرى فرنسا تخضع لهيمنة (البوتشن)[1].

نظر السنيور فوسيريه نحوها بنظرة رثاء للحظة ، ثم حدّق بشكل مباشر في عينيها وقال في شيء من الوقار، وكما لو كان يحاول أن يتذكر: "ما هو اسم ابنك يا مدام؟"

"جان لوي،" أجابت سيمون وشفتاها ترتجفان بشيء من الترقّب.

[1] البوتشز: لقب يُطلق على الألمان وتحديداً على الجنود الألمانية في الحرب العالمية الثانية. المترجم.

أجاب كاميل فوسيريه: "حسناً مدام، يبدو كأنك لا تفعلين شيئاً مع ملاحظتك هذه سوى التوقيع على شهادة موت ابنك جان لوي دون أن تُدركي ذلك!"

جلست مدام دورنيه متجمّدة وأصبح وجهها فجأة بدون ملامح، وامتلأت عيناها بدموع كبيرة: لقد ابتلعت الهليون بطريقة خاطئة فقط.

شعرت بياتريس دي برانتيه ببعض التعاطف مع الاشتراكية الراديكالية، لأن لديها حَدْساً بأن الروح الأصلية البذيئة والمرحة لفرنسا قد وجدت ملاذا في السراويل غير المرتبة والياقات القاسية والشنبات المشعثة لقادتها.

تجلس بياتريس إلى يمين السنيور إدوارد كوردييه الاشتراكي الراديكالي لأنه كان ماسونياً، وإلى يسار الماركيز رويانكور الملكيّ تماما كما يدل اسمه تحديداً.

تميل بياترس دي برانتيه برفق بجسدها الممتلئ والطري فوق كتف السنيور كوردييه المبطن جيداً، وتقُدم الاحترام لانتمائه السياسي بأن تروي له قصصاً خطيرة، لديها الكثير من الكياسة في أسلوبها بشكل تستطيع به أن تقول أي شيء دون أن تفقد ذرّة من أناقتها، وعلى عكس جميع الأعراف السائدة، تهمس رسائلها البريئة الخاصّة بحكاياتها النادرة، وترفع صوتها فقط أثناء سردها أكثر العبارات بذاءة، محاولة بدلعها هذا شدّ انتباه الماركيز رويانكور الذي شعرت بأنه مستغرق جداً في محادثات عامة.

قالت للسنيور كوردييه: "تخيّل وجود مدام ديشيليت بثوبها وقبّعتها الضخمة من نوع (شيباريللي)، تعتلي سقف سيارة أجرة لتلقي نظرة أفضل على ما كان يجري، ومن ثم تهزّ ساقيها وهي وحدها ضد هذا الحشد، وتصبّ سيلاً من الشتائم العنيفة على المتظاهرين."

وتابعت حديثها بينما كان السنيور كوردييه يستمع باستغراق شديد: "بشكل طبيعي، لا يمكن لهذا أن يستمرّ طويلا. (أخفضت صوتها) أمسك بها من ساقيها مجموعة من أتباع الملك ومددوها على الرصيف ورفعوا ثوبها..... (رفعت صوتها) وأحرقوها بسيجارة في أكثر المناطق من جسدها رهافة وحساسيّة."

"معموديّة بالنار!" هتف كوردييه.

"حسناً، لا،" أجابت بياتريس متشدقة ومدّعية البراءة عبر تغيير نغمة صوتها: "يبدو الأمر معاكساً، لقد تعمّدت السيجارة بالماء."

"أي ماء؟" سأل المونسور كوردييه بارتباك لحظي.

مع تعبير كسول بالدهشة وشهواني بلا حدود، أجابت بياتريس بدمدمة وبصوت يشبه الفحيح. "لم يكن ماءاً حقيقياً....... " وبينما كانت الشامبانيا كثيرة الرغوة تُسكَبُ في كأسها أضافت، معطية المزيد من التشديد على كل مقطع لفظي، "ولم يكن شامبانيا بشكل دقيق."

نظرت إلى السنيور كوردييه بتلك الطريقة من الخبث بينما ظل هو مذهولاً للحظة.

"نعم، أنا أؤكد ذلك، تلك القصة التي لا تُصدّق صحيحة تماماً". تدخل ماركيز رويانكور مستمتعاً بشدة ومحاولاً مساعدة السنيور كوردييه في تلك اللحظة المحرجة. "روت لي مدام ديشيليت بذاتها تلك القصة. يمكنك أن تتخيل أنه بعد أن تم حشرها وسط الحشد لساعتين، احتاجت فعلاً لأن تدخل الحمام — لا يمكن لهذا أن يحدث بوقت مناسب أكثر."

قالت بياتريس واضعة يدها المكتنزة على يده: "عزيزي الماركيز، كنت أنتظر عبثاً جلال فطنتك الغالية، منذ أن انغمست في السياسة وأنا أسكبُ سحري على الماركيز كوردييه المسكين."

أجاب الماركيز بحيوية: "سوف لن تفقدي سحرك يا عزيزتي، يمكنه أن يقول شيئاً يجعلك تتورّدين إلى أطراف شعرك لكن عليك أن تتركيه على طبيعته. أما بالنسبة لي يا عزيزتي بياتريس، فإنني أعتذر لعدم ممارسة الحبّ معك، لكني متأكد من أنك تتفهمين الأمر بسبب ما يجري من أحداث.... "

ضغط فخذه المتصلّب من ركوب الحصان بعبثٍ على فخذ بياترس دي برنتيه الطريّ وتقبّلت اهتمامه بضحكة ساحرة.

كان السيناتور دودييه يخلق إثارة في مكانه في نهاية الطاولة بشرح نظرية جديدة جداً.

قال: "لا يريد هتلر الحرب كي يكسبَ كما يظنّ معظم الناس، بل يريدها لكي يخسر، إنه مازوخي حقيقي وورومانسي. وكما هي نهاية البطل في أوبريتات فاغنر، يجب أن تنتهي الحرب بأعلى المستويات من المأساوية. إن النهاية التي يطمح إليها هتلر في أعماق لاوعييه هي أن يشعر بحذاء عدوّه العسكري يسحقُ وجهه، ولا بدّ من حدوث كارثة لتحقيق هذا الأمر......." ويختتم دودييه حديثه بلمحة من القلق قائلاً: "المشكلة أن هتلر صادق جداً....... هو لن يغشّ. إنه مستعدّ للخسارة لكن ليس بقصد الخسارة. إنه يلحّ على لَعِبِ اللعبة حتى النهاية ووفقاً للقوانين، وسوف يستسلم فقط عندما يُهزم. ولهذا سيكون أمامنا الكثير من المشاكل."

تجلسُ دوقة سينتونغ إلى يمين الكونت غرادساي، وإلى يساره مدام سيسيل غودرو. كانت دوقة سيتونغ يسارية سياسياً إلى حد ما، بينما مدام سيسيل غوودرو يمينية بكل تأكيد. يوضّح الكونت بلطف الأفكار اليمينية الخاصة بشريكته التي تجلس إلى يساره، إلى شريكته صاحبة الأفكار اليسارية التي تجلس إلى يمينه، ويوضّح باعتدال الأفكار اليسارية الخاصة بشريكته التي تجلس إلى يمينه إلى شريكته صاحبة الأفكار اليمينية التي تجلس إلى يساره. يُنفذ هذا بلعبة توازن دقيقة مبالغ

فيها من حيث الكياسة النفعية التي لا تمييز فيها الموقف الشخصي للكونت فحسب، بل للقوى العظمى للحالة الأوربية في هذه المرحلة.

أحاط الكثير من الهياج السياسي بالكونت غراندساي مع اقتراب نهاية العشاء، اكتفى بالاستماع ودخل بحالة من الصمت. وبحماسة مشعوذين مبشرين مولعين بالقتال وبدون أي اقتناع، قدّم كلٌ منهم حلوله السياسية الخاصة، والتي لا يوافق عليها أيٌ من الآخرين. يرى متآمرو (أكاسيا) أن الأمل الفرنسي الوحيد بحالة صحيّة سياسية هو من خلال كتلة لاتينية مؤلفة من فرنسا وإسبانيا وإيطاليا تقف ضدّ بريطانيا وألمانيا، وطالب المنتمون إلى اللجنة الفرنسية الألمانية بأن تُجرى محاولة لخلق علاقة صداقة صريحة وغير مشروطة مع ألمانيا، يرغب الآخرون بتحالفٍ عسكري مع روسيا لعزل بريطانيا والقضاء على المنظمات الشيوعية في المهد في هذا البلد. تمت مناقشة تلك الأطروحات كلها في ضوء التفسيرات القانونية الدقيقة، مما أمتع السيد أوفرارد كثيراً، وجعله يستمرّ باقتحام المناقشات، وقد أبدى الملاحظة التالية:

"الوضع الفرنسي حَرِجٌ بالتأكيد لكن هناك شيء واحد مؤكد: على الرغم من الفوضى السياسية التي نمرّ بها، تصبح مفاهيمنا عن القانون والنظام أكثر صقلاً وتخصصاً يوماً بعد يوم. نعم أيها السادة، نحن مستمرون في هذا المستوى بالتقدم على الأمم الأخرى كلها، ومن المستحيل ألا نُقدّر أن نمو مؤسساتنا القضائية يشكل حالة صحيّة رائعة لأمتنا".

تنهد دوق سينتونغ متذكراً كلمات فورين الأخيرة المشهورة قائلاً: "باختصار، نحن نموت — لكننا سنموت أصحاء على الأقل!"

ابتسم غراندساي بمرارة مُغمضاً عينيه اللتين أصبحتا محاطتين بالعديد من التجاعيد الناعمة وغير المرئية تقريباً. تذكّر الجحافل الهتلرية ومؤتمر (نوريمبيرغ) أثناء إقامته المؤقتة في ألمانيا، ومن الضوء الصادر من كل مقطع كلامي، ومن الشموع التي تضيء مكتبه بمناخ سقراطي بارع بتعصب، رأى انبثاق شبح هزيمة عام 1940.

كما حدث مع سقراط، كانت فرنسا تستعدّ للموت عبر إطلاق النكات ومناقشة القانون.

قرّب غراندساي كأسه الأخير من الشامبانيا من شفتيه وشربه برزانة كما لو أنه كأس (الشوكران)[1]. وبينما تبلورت الحمّى الخطابية لضيوفه على شكل بلاغة صفراوية من السخرية الانتكاسية، أوشك الخدم على تقديم الشاي. ومع تضاؤل اهتمامه بما يُقال وشعوره بالنعاس بعد وجبة الطعام، ترك نفسه يسترخي في حالة من التأمل مُستغرقاً بالحركات المثيرة لضوء الشموع، وتواصلت إيماءات ضيوفه والحركة الروتينية الطقسية للخدم مع حيادٍ يخلو من الإحساس لأدوات مائدته المصنوعة من الكريستال والفضة. وكما لو أنه منوّم مغناطيسياً، نظر الكونت إلى الصور المشوّهة لضيوفه والمنعكسة عن تقعرات أدوات مائدته وتحدباتها. راقب بافتتان ملامح وجوه أصدقاءه حيث أصبح الأكثر ألفةً منهم غير معروف، بينما استعادت وجوه أخرى – بفضل التحولات الطارئة لتشوهها السريع – علاقتها وتشابهها مع أسلافها، تظهر صِورهم بشكل كاريكاتوري في الصور متعددة الألوان المتشكلة في قيعان الأطباق التي كانت الحلويات تُقَدّم فيها للتو.

في واحدة من تلك الانعكاسات وبصدفة بحتة، أمكن له رؤية هيئة بياتريس دي براتيه بثوبها الطويل الضيّق من نوع (لي لونغ) ينبثق منه جسد (ماري أنطوانيت) المشدود بمشدّ، أو حيوان ابن عرس كانت الملكة قد خبأته في أعماق مصير رأسها الملكيّ المقطوع. يمكن بتلك الطريقة أن يَتورّم أنف فيسكونت أنغرفيل المستقيم الذي يتوق إلى الأناقة الأنغلوساكسونية ويصبح فجأة على شكل إجاصة، مشابهاً بتلك الطريقة الأنفَ الغاليّ الخاص بجده، كما يمكن لذلك الأنف أن يتراجع ليصبح كأنف (المرموط)[2] المغطى بالشعر والتراب والضائع في الحفر الجهنّمية لأصله القديم.

---

[1] شراب الشوكران: هو شراب شديد السميّة وهو الذي شربه سقراط عندما حُكِم عليه بالإعدام. المترجم.

[2] المرموط: نوع من القوارض، يعيش في أوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية وغالباً في المناطق الجبلية. المترجم.

كما في مجموعة الوجوه الوحشيّة التي رسمها (ليوناردو)، يمكن للمرء هنا أن يراقب كل وجه من وجوه الضيوف العالقة في خيوط الشبكة المشوَّهة والمفترسة، تتلوى وتتجعد، تتمدد وتطول، يتحول الأنف إلى خطم، تُضغط الجماجم وتتسطح الأنوف وتتحول إلى الأعضاء الأثرية الطوطمية الأبعد لحيوانيتهم الخاصة. لم يستطع أحدٌ الفرار من هذا التحقيق الكشفي الوحشي والدقيق للفيزياء البصرية التي كانت قادرة من خلال التعذيب غير المحسوس لقيودها، على أن تنهش مجاهرة السخريات المهينة والتكشيرات غير المعلنة من مظاهر أشخاص كانوا أكثر تبجيلاً ونبلاً. يرى المرء، كما في حالة وميض شيطاني لحظي، الأسنان البارزة لابن آوى في الوجه السماوي لملاك، ويرى العيون الغبية للشامبانزي تلمع في الوجه الهادئ لفيلسوف.

بدا كل انعكاس أشبه بالتنبؤ، بل كان حتى أفضل من النظر في الكرة الكريستالية التي يستخدمها العرافون، يمكن للمرء أن يكتشف الأصل غير المؤكد لابن طبيعي في الانعكاس المشوّه المصقول لوجهه على قبضة شوكة طعام محنية.

حوّلت البشرات المحتقنة أثناء الوجبة الختامية الشمعدانات إلى اللون الأرجواني، وبدا كل شمعدان شجرة للأنساب. أصبحت كل سكين مرآة للخيانة وكل ملعقة شعاراً للعار.

كان سيلينوس، الشابّ العاري تماماً والمنقوش ببراعة بالفضة المؤكسدة، يُمسك فرعاً خشناً من الشمعدان مقرباً الضوء جداً، وكأنه بهذا يلفت الانتباه إلى المنحنيات البارزة لثديي سولانج دي كليدا، والمكشوفة من خلال ثوبها (الديكوليه) المفتوح جداً. كانت بشرتها ناعمة وبيضاء جداً، وكان غراندساي ينظر إليها غامسا ملعقة الحلوى في السطح الأملس لجبنة القشدة، آخذاً قطعة صغيرة منه فقط ليتذوقها عبر الضغط الخفيف عليها بطرف لسانه. استحضر ذلك الطعم المالح واللاذع قليلاً، الأنوثة الحيوانية للعنزة واتجهت مباشرة نحو قلبه. استمرّ بمعاناة خفيفة لكنها مُبهجة لإنهاء طبقه الهوميروسي، حيث قرر بعدها

أن التموجات الصادرة عن عائلة فضياته تتناغم بشكل جيد مع امتقاع سولانج وشحوبها المؤكسد، بحيث أن فكرة الزواج منها قد خطرت بباله للمرة الأولى. وصادف أن أمسكت سولانج بالكونت متلبّساً في تلك اللحظة من الشهوة المريبة، وللمرة الأولى أيضاً انحنت له بتواضع يقارب العبودية، في حين عبّرت شفتاها نصف المفتوحتين في ابتسامة محمومة مخضّبة بالألم عن أقرب المشاعر الحسية للمتعة الجسدية العنيفة.

أمسك غراندساي بجذع الشمعدان ورفعه دون جهدٍ بالرغم من وزنه الثقيل، وقربه ليشعل سيجاراً دون انتظار عيدان الثقاب التي أوشك الخادم أن يقدمها له، مشيراً بتلك الحركة النشيطة التي تنمّ عن نفاد صبرٍ بأنه قد اتخذ للتو قراراً حاسماً.

مع القهوة، اتخذت المناقشات شكلاً هادئاً وأصبحت حماسة الضيوف أكثر برودا بطريقة ما، بعد أن تطلعوا خلفهم بقليل من الخجل من الفوضى آرائهم. كانوا متشوقين للوصول إلى أرضية مشتركة تظهر على شكل استنتاج بشكل أو بآخر. كان الدوق سينتونغ بشكل خاص، قد اتخذ نبرة متعالية جدا كانت بالرغم من مسارها العام، موجّهة بما لا يدع مجالاً للشك إلى اللامبالاة السياسية التي أبداها غراندساي الذي بدا وكأنه ينسحب أكثر فأكثر إلى قوقعته، بينما أوشك العشاء أن ينتهي.

صرّح سينتونغ موجهاً نفسه بشكل مباشر إلى الكونت بشيء من الوقاحة تقريباً: "سواء أكنا نرغب أم لا، فإن التاريخ المعاصر كثيف جداً ودراماتيكي، بحيث أن كل واحد منا في ميدانه الخاص، وحتى الأكثر تحفظاً منا ولو لم يدرك ذلك، هو متورط في كل ما يحدث، لكل منا الآن سلفاً ورقةً حاسمة يلعب بها."

"بانكو!" هتف غراندساي فجأة تاركاً الشمعدان يسقط على الطاولة. غطى الصمت المطبق المتوقع فجأة على جميع المحادثات وسادت حالة من الترقب، لم يكن هناك سوى النشاط الصاخب لحركات

الخدم التي رفعت سوية التوتر بسبب هدوئهم وأصواتهم الخفيضة المليئة بالاحترام والخضوع. ودون أن ينظر إلى سولانج دي كليدا أخذ عدة أنفاس من سيجاره وبقي صامتاً للحظة، وقال بعدها بنغمة طبيعية تماماً وهو يقيس كلماته: "إن سينتونغ على حق، ومن أجل إعلان قراري لكم على وجه التحديد، أقيم مأدبة العشاء هذه."

كانت اللحظة دراماتيكية جداً، وكان الاهتمام ينصبّ بشدة أكثر حول غراندساي وقلوب الجميع تخفق بقلق وحدّة.

قال الكونت: "منذ أيام ثلاثة وأنا أفكر بهذا الأمر وقد قررت إقامة حفلة راقصة كبيرة". توّج الإعلان همهمة من الهتافات الحماسية مترافقاً مع اضطراب دافئ متعاطف وجامع، وخلال ثوان تحلقت النسوة جميعهن في كتلة حول الكونت محطمين جميع قواعد الإتيكيت، وأحطنه بلطافة ريائهن.

دوق سينتونغ الذي امتلك القليل من الوقت ليتأسّف على ما حصل، أحاط يدي الكونت بيديه المنفتحتين، شاكراً له وممتناً من انعطافه المتقن جداً على الهجوم الذي شنّه عليه، والذي كاد بسبب سخافته أن يُصبح شخصياً بشكل خطير.

كانت سولانج منزعجة جداً من المشهد، لأنها منذ اللحظة التي انحنت فيها احتراماً للكونت، لم يُعِرها انتباهاً ولا للحظة واحدة. كانت خلال هذا الوقت كله، رافعة رأسها للخلف قليلاً وخافضة عينيها، تتظاهر بالاستماع بانتباه لما يُسِرّه لها ديك أنغرفيل، لكنها في الواقع كانت تراقب بمكر اللهب الشحيح والحركات المغرية للشموع التي اختارها الكونت ليشعل سيجاره، وذلك عبر قوس القزح المضيء الذي تشكل في الأهداب الطويلة لجفنيها نصف المغلقين.

غير مُدركة للمحادثات التي كانت تجري حول الكونت، لم تفهم ما عناه عندما هتف بصوت عالٍ "بانكو!"، كانت الكلمة قد وصلتها أثناء الهرج والمرج في النقاشات العامة، كإغراء عاطفيّ موجّه لها تحديداً بعدما جعلتها المباغتة غير

المتوقعة في إيماءاته ترتعش. وبمجرد أن فتحت عينيها قليلاً ودون أن تحرك رأسها، رأت بوضوح أنه ما إن تمت إعادة الشمعدان بصعوبة إلى مكانه فوق خزانة الملابس حتى انتشرت قطرات كبيرة من الشمع على الشمعدان.

بدا لها بعد صمت مُطبق وكأن وتيرة صوته تحتوي على تراخٍ لطيف بشكل غير مفهوم، وخاصة عندما قال: "....... ومن أجل إعلانٍ قراري لكم على وجه التحديد، أقيم مأدبة العشاء هذه. كنت أفكر......"

بعد تلك الكلمة الغامضة "بانكو"، شعرت وكأنها تعيش حلم يقظة. كانت مدركة تماماً لسخافة الخوف المميت الذي اعتراها: كانت تخشى أن يقوم بإعلان علاقتهما التي لم تتم مناقشتها أبداً فيما بينهما على الملأ. ومع ذلك وبالرغم من سخافة تلك القناعة، خفق قلبها بقوة جعلتها غير قادرة على التنفس، وكانت متأكدة بالرغم من ذلك من أنه كان ذاهباً ليتحدث عنهما.

لكن كم يبدو ذلك الآن غبياً وطفولياً وجنونياً. فكّرت للحظة وهي مرتبكة ومكبوحة ومهزومة يغمرها نوعٌ من التحرر من الوهم بأنها لن تستطيع الاستمرار لبقية الليلة. تشكّلت تحت إبطيها قطرتان من العرق الدافئ وانزلقتا على طول جانبيها العاريين، قطرتان سوداوان، لأنهما تعكسان لون الذراعين المخمليين للكرسي الذي تجلس عليه. كانت مع ذلك جميلة بشكل خارق لدرجةٍ يعتقد فيها المرء بأن أجنحة الحزن التي كانت تحلق قريباً منها، أصبحت محيطة بها، مُعتِمة ومحوّلة هذه الروعة والإفراز الفعليّ الجذاب لجسدها المعذّب إلى لؤلؤتين سوداوين من ألمٍ ثمين.

وبينما نهض الجميع عن الطاولة، وضع فيسكونت أنغيرفيل الذي كان يقف خلف سولانج منتظراً أن تُبعد كرسيها، يده على كتفها وهمس بالقرب من أذنها قائلاً: "صباح الخير، أيها الحزن!"

ارتجفت وحاولت النهوض لكنها شعرت بدوار خفيف أجبرها على الجلوس للحظة على ذراع الكرسي المخملي الأسود ذي النهاية

المزخرفة برأس أبي الهول المنحوت من البرونز. أمالت رأسها مقابل صدره وأغلقت عينيها، أشعرها رأس أبي الهول ببرودة قوية اخترقت ثوبها، حتى اعتقدت بأنها جلست على شيء رطب.

هل أوشكت حفلة غراندساي أن تصبح حفلتها؟ فتحت عينيها مجدداً وضغطت على فخذيها ونهضت بشكل مفاجئ، ثم دارت حول نفسها عدة مرات في خطوات فالسية مشوبة بالعاطفة. بينما بقي أنغرفيل ثابتاً بمكانه لا يُبدي سوى القليل من الدهشة في تعابيره الملولة بشكل يرثى له، قالت سولانج في دورتها الأخيرة "صباح الخير أيها الحزن — عمت مساءً أيها الحزن" ومن ثم رمته بابتسامة وهي تعتلي السلالم إلى غرفة الاستقبال.

جاء السيد إدوارد كوردييه الذي كان يشرب نبيذه الأبيض على مهل وكان شاهداً على هذا الحدث، إلى فيسكونت أنغرفيل.

"عزيزي فيسكونت، ينزلق زماننا من أيدينا ويُصبح أبعد من مستوى فهمنا، لكني استسلمت له. نعتقد في لحظة ما أن نساءنا يوشكن أن يمتن والله وحده يعرف السبب، وفجأة يتنشطن ويرقصن ويحدث الأمر نفسه في السياسة. كنا للتو على حافة الاقتتال واعتقدنا بأننا نسمع صوت البوق الأول للحرب الأهلية..... حسناً، كان مجرد إعلان عن حفلة راقصة. وكأمر واقع فإن واحداً من أعمق المفاهيم تجذراً في روح الإنسان، والذي يقوم على فكرة اليمين واليسار، قد تشوش تماماً وفُقِدَ على يد معاصرينا."

أطرق محدقاً بعصبية محيرة في كلتا يديه القويتين ذواتي الأصابع المدودة وتابع: "هل نعرف اليوم أين يدنا اليسرى وأين هي اليمنى؟ لا يا عزيزي، ليس لدينا أية فكرة! عندما كنتُ شاباً كان لا يزال ممكناً صياغة رأي حول الأحداث العظيمة بما يتناسب مع الأحزاب السياسية الإيديولوجية التي ينتمي إليها المرء. لكن هذا لم يعد ممكناً اليوم. قد تقرأ خبراً حيوياً وحساساً في الصحيفة، ولكنك لا تجد طريقة لمعرفة ما إن كان جيداً أو سيئاً قبل أن يَعمَد المختصّون في حزبك للتفكير به ملّياً وإقرار

النتيجة لك، وإلا فسوف نخاطر بجعل أنفسنا أغبياء ونصل إلى الآراء نفسها التي سيصل إليها أسوأ أعدائنا السياسيين في صحفهم في اليوم التالي.

رافق أنغرفيل، أثناء إلقاء تلك الخطبة العصماء، السيد كوردييه نحو الباب أسفل الدرج وقال بشيء من الاستنتاج": على أية حال، إن أقام غراندساي حفلته الراقصة فسوف نرقص فيها. هل لدينا شيء أفضل نقوم به أثناء انتظارنا لتطوّر الأحداث؟"

منذ بداية فترة ما بعد الحرب الأخرى كانت حفلات غراندساي جميعها لحظات متألقة في تاريخ الحياة الباريسية، وحياة المجتمع المخملي الذي ملأ قاعة استقبال الكونت ثانية، شعر بصورة غريزية بأن دورهم كطبقة حاكمة اكتسب معنى اجتماعياً وواقعياً من خلال استمرارهم بالحفاظ على هيبة الأناقة الفرنسية وفطنتها أكثر من التخبط في التلعثم السياسي العقيم، والانتحار. لذلك كان هذا الحشد من القوة وهذا الإحياء للوعي بدوره التاريخي والذي لم تكن أعظم شعارات الرطانة الإيديولوجية لتلك الفترة قادرة على إحداث ما قد أنجزه الكونت بإعلانه: "الحفلة الراقصة."

من خلال هذه الكلمة الوحيدة التي أضرمت النار في الجوهر العميق للعبثية في تقاليدهم العامة، رأى الكونت حوله إعادة استقرار لتلك الوحدة غير القابلة للتدمير "للشخصية" القومية التي كان من المفترض أن تكون لكامل الشعب الفرنسي في اليوم الذي يدقّ فيه ناقوس الخطر. وبحسب نظرياته فإن الحروب في واقع الأمر مسألة شخصية أكثر منها إيديولوجية، كما أن الثوابت التاريخية للغزوات العظيمة كانت في الغالب مجرّد تغطية للعبثية الجيو- سياسية للأمم. وكان ذلك صحيحاً جداً.

بعد هذا العشاء السقراطي، وفي مسار لم يحاول أيٌ منهم أن يُغمِضَ عينيه على مصير وطنه، بدأ وضع الخطوط العريضة للحفلة الراقصة العظيمة في غرفة استقبال الكونت والتي ستنيرها شخصيات من جميع الأحزاب

(الـنيران، الصـلبان الناريـة، الصـلبان المعلقـة، فليـورز دي ليـز، المطـارق والمناجل) التي جعلت ساحة الكونكورد تسبح بالدم في الليلة الماضية.

كان غراندساي الذي أعلن على عكس عاداته عن خطّتـه الطويلـة عن الحفلة الراقصة بشـكل ارتجـالي، متفاجئـاً بنجاحـه، وتخلّـى علـى الفور عن فكرة اللقاء الشخصـي مـع سـولانج دي كليـدا الـذي خطـط لـه بعناية بمساعدة دفتر ملاحظاته. هذا اللقـاء، وعلـى العكـس مـن عاداتـه أيضاً، كان لديه الجرأة على ألا يستعدّ له، وهو الذي سيورطه بسخافات سيكولوجية لن يسامح نفسها عليها أبداً.

قرر وفقاً لذلك أن يستغل التضارب الرقيق اللطيف للقائه الخـاص والذي تطلع إليه لأسابيع، ويتظاهر بالاستخفاف والإهمال لحضـورها لمـا تبقى من الليلة. هذا الموقف البارد الذي أتى بعد إيماءات الإعجاب الـتي منّ بها عليها في ختام العشاء، لن يفشل في خلـق اضـطراب يرغـب فيـه لدى هذه المرأة التي خطرت له منذ لحظة فكرة عابرة بالزواج منها.

منحته الطريقـة المتمـردة نوعـاً مـا والـتي تصـرّفت بهـا منـذ انتهـاء العشاء، أسباباً إضافية ليتعامل معها بشكل لاذع، وكأنها الطفلـة الصـاخبة عديمة الخبرة التي يشكل سـحرها الـذي لا يمكـن إنكـاره وإشـعاع جمالهـا الخارق مقدمةً لا غنى عنها لملء الفـراغ في جـو صـالونه المزخـرف، والـذي إن كان صـحيحاً أنـه لا يفتقـر للعيّنـات المـثيرة مـن أنـدر أنوثـة وأذكاهـا، فصحيح أيضاً أن نُبلَ المولد والذكاء المتفوق شكلا سمة غالبة فيه.

دفعهـا إحساسـها الـداخلي بنصـرها البطـولي الوشـيك في حفلتـه لقبول الدور الذي كان قد أعدّها له، وقـد قَبلتـه بـذلك السـحر والخبـث الباعث على القلق، والذي جعله يشعر بافتضـاح نوايـاه الشـريرة. وبنـوع من متابعة الرقص، التقطت زهرة وغرستها في شعرها، ثم التقطـت زهـرة أخرى بينما ينظر الضيوف نحوها بلهو، كانت تزداد سحراً مع كل زهرة أكثر من سابقتها وكانـت تمـزّق كـل زهـرة تنتهـي منهـا وترميهـا. وفقـاً

لإلهامها في تلك اللحظة فقد ترافقت كل من حركاتها المسرحية الارتجالية مع اللغة التفسيرية والإيمائية للأزهار. تلقت كل محاكاة تهكميّة تهليلاً واسعاً وقد تظاهر غراندساي بتأثره بالشاعرية الريفية الساذجة لمسرحيتها، بينما كان يسيطر على نفسه بنفاق.

جمعت بعد ذلك بعضاً من أوراق اللبلاب المشابهة للنجوم وربطتها معاً ووضعتها على رأسها وتركتها تتدلى خلف أذنيها لتصل إلى الأرضية، ثم ثقبت ورقتين ووضعتهما على عينيها كقناع. صفّق الجميع لهذا التحوّل الجديد الذي سيزخرف أنقى الحكايات الخرافية وساد صمتٌ عذبٌ بانتظار المشهد الذي ستمثله عن موضوع اللبلاب.

تقدمت بسرعة على رؤوس أصابعها ووقفت مرتعشة كلها أمام الكونت، وركعت بشكل مفاجئ عند ركبتيه وأحاطتهما بذراعيها بشكل دقيق ولكن بحزم. بعدها وبصوت مثير للشفقة وبتعليق ساخر ليس من السهل إدراكه لكنه لسع الكونت، صرّحت بضعف قائلة: سأتعلّق بك أو سأموت!"

لم يكن هناك مزيد من الكلام عن الحفلة الراقصة. كان الرسام بيرارد صاحب اللحية المشذّبة على شكل لاكوربيه جالساً على الأرض مريحاً مرفقيه على ركبتي الدوقة سينتونغ. كان يلفت أنظار الجميع إعجاباً بسولانج التي ذهبت إلى مكان قصيّ في غرفة الاستقبال، وساعدها أنغرفيل على انتزاع أوراق زينتها وأزهارها التي تناثرت قرب طاولة من المرمر.

وعلى الفور تم تطويق سولانج وأصبحت غرفة الاستقبال منقسمة إلى مجموعتين، أحاطت الأولى بغراندساي وسيطرت على الثانية مدام دي كليدا. ارتفعت صيحات الإعجاب والدهشة بين معجبيها بعد أن ابتدعت لعبة جديدة للتو. من خلال الألماسات الثلاث الموجودات على قرطها والمثبتات على ثلاث من القواعد المهتزّة، شكّلت زهرة من زنبقة مُخضّبة باللون البنفسجي واستعاضت عن كل ألماسة بعدقة زهرة حقيقية. وعلى الفور نزعت جميع النسوة زينتهنّ ناثرات على الطاولة فوضى

جديدة مكونة من الأحجار الثمينة، والتي بدت مع نيرانها البكر وكأنها توقظ النيران الخامدة المتبلدة التي كانت في الأزهار.

هتف أنغرفيل بصوت مهذب ملحاح: "سيداتي سادتي، ضعوا رهاناتكم على الطاولة". قالت بياترس دي برانتييه: "الأخضر يربح"، وكانت قد وضعت سلحفاة من الزمرّد الأخضر على ورقة غاردينيا أشدّ خضرة، وكان الشكل متجانساً لدرجة بدا وكأن الإثنين صيغا أحدهما للآخر. كنّ تتنافسن إحداهنّ مع الأخرى في جعل التركيبات تنبع من الفوضى.

سادت رفرفة مفعمة بالحياة لأيدٍ تحاول إنشاء تركيبات، حيث ينمو سُعارها ومنافستها بشكل عنيف لدرجة بدت وكأنها معركة زائفة بسبب محاولة كل منهن أن تأخذ الزهرة نفسها والجوهرة نفسها وورقة النبات والفكرة نفسها. لكن اللعبة انتهت مرة واحدة بالطريقة المفاجئة ذاتها التي بدأت بها وأُصيب الجميع بالضجر. كعرض ختامي، وضعت سولانج وردة صفراء كانت قد ثبتت فيها خنفساء كبيرة من الياقوت والألماس من نوع (فابيرجيه) بين نهديها بعيداً عن المركز بقليل. كان الأثر غير المتوقع لهذا الاندماج أن بدت الوردة على الفور زائفة بينما ظهرت الخنفساء حيوية نضرة مما جعل سولانج تحصل مجدداً على المزيد من الاستحسان.

لكن مركز الجاذبية انحرف إلى مكان آخر في الصالون بعد أن تخلّوا بشكل خجول إلى حد ما عن تلك اللعبة الطفولية والتي كانت بالرغم من ذلك، ستصبح في الغد مندمجة مع الكثير من النهود الاصطناعية للأزياء الباريسية، وعاد الاهتمام الآن إلى الأحداث التي تقع في ساحة الكونكورد والحفلة الراقصة.

"قائمة،" هتف الرسام بيرارد: "لتكن لدينا قائمة!" ولوّح بورقة بيضاء كان قد أحضرها عن مكتب غراندساي. وقالت سولانج الجالسة بتواضع عند قدمي الكونت: "يا لهذه اللحظة المشوّقة — أن نبدأ بوضع

أول لائحة لحفلة غراندساي الراقصة." كانت تأمل من خلال تلك العبارة المتملّقة أن تنال عفوه عن انتصارها السابق.

قال مداعباً شعرها بطيبة أبوية: "لكن يا عزيزتي، أنت تعرفين تماماً أنه ليس الضيوف من أتّكل عليهم في مناسبة كهذه." وأضاف بمزاج امرئ يكرر شيئاً قيل آلاف المرات: "يقيم المرء حفلات لأولئك الذين لا يدعوهم."

قالت بإزعاج: "أي متعة ستكون بالتخطيط لحفلة بتلك الروح!"

"بالطبع لن يكون هناك متعة"، وتابع بعدها بتسامح: "تعرفين يا عزيزتي أننا لم نعد في أعمارنا هذه نُقيم حفلات من أجل المتعة!"

نعم، كانت تعرف – لا يقوم غراندساي بأي فعل من أجل المتعة!

أمضت الليل بلا نوم ولم تنزل لتتناول الطعام، وأحضر برينس طعام الفطور إلى سريرها معلناً في الوقت ذاته عن تقديم الشاي في غرفة الكونت قبل المغادرة. كان مقرراً أن يعيدها ديك أنغرفيل بسيارته في وقت متأخر من بعد الظهر.

"مدام دي كليدا" والتي كانت ضحية لنوع من خوف طفولي جعلها تعتقد أن سُهادها المتكرر إلى حدّ ما يقوّض صحتها إلى حدّ يهدد حياتها، أجبرت نفسها بجهد يفوق طاقة البشر تقريباً كي تبتلع بعض الطعام، بعد أن تركت نفسها تغط بحالة من النوم الخفيف. كان الصوت الخفيض فيها يحثّ رجفات تشنجية وكانت قادرة على الأغلب، بحسب مسار أحلام يقظتها المتغيرة، على تحويلها إلى أحاسيس شهوانية.

بدأت تستعدّ من أجل الشاي حوالي الساعة الرابعة. شعرت بالضعف وبوجود ثقل على صدرها، وكان لديها رغبة مبهمة بالتقيؤ أجبرتها على أن تلبس ببطء وتبقى بلا حراك من وقت لآخر لتسمع نبضات قلبها، كان نقص النوم ظاهراً على محيط عينيها المتهيجتين. شعرت بالجبن والخوف من لحظة ظهورها أمام غراندساي بهذه الحالة الجديدة غير الملائمة، عارفة بالإضافة لذلك

أنه سيكون من الصعب من الآن فصاعداً أن تضاهي صورتها التي نجحت بخلقها في الليلة السابقة، والتي كانت نتيجة لأسابيع ثلاثة من الإعداد المدروس الخاص اليومي الدقيق المتواصل الحصري والبطولي بشكل يائس. وأخيراً، قاربت المرآة مواجِهة اللحظة المرعبة. نظرت إلى نفسها وابتهجت بمظهرها. اعتقدت أنها لم تبدُ أبداً بمثل هذا الإغواء. أبرز مظهر الإعياء في عينيها التعبير الملتهب لنظرتها. كان فمها شديد البياض وحوافه الخارجية قريبة من الشحوب الزيتوني لوجهها، بحيث أن ابتسامتها لم تظهر إلا كخط مظلل ومتعرج يحدد انضمام شفتيها اللتين تكادان أن تكونا شفافتين، يشبه مظهرها الآن تمثالاً من المرمر الطيفي اللامادي، وتبدو كشخص غير روحي مبهم مرسوم بخطٍ مبهم وحيد بقلم ليوناردو الرصاصي الفحمي الغامض.

حنت رأسها الحزين حتى لامس حاجبها المرآة. ابتسمت لنفسها في هذا المدى القريب الذي محا فيه تنفسها انعكاس صورتها في المرآة. بدا وكأنه في اللحظات التي تبقى فيها بلا حراك، فإن انعكاس صورتها اللامادية ينتقلُ إلى جسدها ليعيدها إلى الحياة موقظاً كل حركاتها بدفقة جديدة من طاقة الحماس والتصميم.

إن كان من المستحيل عليها مضاهاة المرأة التي كانت عليها في الليلة الماضية، فلربما استطاعت القيام بالعكس فتفكر بالكنوز اللامحدودة لنعومة شحوبها، وتحصل على التأثير الأقصى منه.

رتبت سولانج شعرها بعناية هَوَسيّة وإتقان لكنها لم تضع المكياج. اتخذت على الفور قرارا بأن الزيّ الذي ستلبسه سيكون عذبا وقويا بالوقت نفسه، ومتناقضاً بحدة مع التوتر الروحاني لوجهها. ارتدت فوق جسدها العاري بلوزة كثيفة مشعّة من الحرير الأسود مفتوحة من الأمام إلى منتصف معدتها.

كانِ نهدا سولانج صغيرين مشابهين تقريباً لنهدي مراهقة، لكنهما قاسيان جداً لدرجة تنزلق فوقهما الثنيات العمودية للحرير كما ينزلق (أنقليس) حيويّ مُحتَجَزٌ بين حجرين لامعين في مستنقع مالح يتلاشى ماؤه متبخراً بسبب

الشمس. تميل كل حركة من حركاتها المميزة المفاجئة التي لا يمكن التنبؤ بها إلى كشف صدرها المكتنز المبهر في استدارته، وتعطي إحساسا بقلة الحشمة التي تليق بالفخر الاسبارطي للأمازونيين[1] القدماء.

أضافت إلى هذا الزي العلوي غير الرسمي والهزيل إلى حد ما، تألقاً من أطواق متعددة من الزمرد والياقوت غير المصقول الذي تعطي قساوته الناعمة الباردة المتحركة مظهرا أكثر أناقة لجسدها المشدود المحموم المكتنز. بعدها عصرت خصرها بعنف ولدرجة مؤلمة عبر حزام عريض بلون صمغيّ حديث التصميم من الجلد الباهت وأعطى هذا الضغط البربري ظهوراً ساخراً لعظمي حوضها البارزين جداً واللذين يبدوان كنصلي سكينين ناعمتين مشيرتين نحو السماء وكأنهما سيقطعان بشكل مستقيم التنورة الصوفية التي ثُبّتت بنعومة فوق فخذيها.

هناك نقر على الباب. "هل أنت مستعدة؟" سألها أنغيرفيل.

استجابت وطلبت منه أن يدخل. وقفت في وسط الغرفة ويداها تتقاطعان على صدرها كما لو أنها تشعر بالبرد. أمسك بذراعيها وفتحهما وتركهما ممدودتين.

"يبدو ساحراً، والأهم من ذلك أن فيه الكثير من الذكاء."

"ما هو؟" قالت متظاهرة بأنها لا تفهم.

قال: "كل شيء، لباسك، الغياب المتعمد للمكياج، الانطباع كله يجعل المرء يفكر فورا بـ..."

" بماذا؟" سألت بحماس.

أجاب: "بالحب"

---

[1] كلمة أمازون بالإضافة إلى معناها المعروف بمنطقة الأمازون فهي تدل على المرأة القوية المسترجلة، وقد يكون التوصيف هنا متجهاً نحو المرأة المسترجلة. المترجم.

"غبي!" أجابت بلطافة. "كنت توشك أن تقول شيئاً أفضل بكثير."

أجاب بشغف: "نعم، أنت على حقّ، أوشكت أن أقول إنك تجعلين المرء يفكر بالسرير — سرير فاخر بشكل رهيب ونصف مرتب." أضاف بعدها مغيراً نبرة صوته: "عيناك حمراوان."

قالت بإلحاح متعجل: "انصرف الآن، أراك فوراً في غرفة الكونت، سيأخذ الأمر مني دقيقة فقط." وقدمتْ له راحتي يديها ليقبلهما.

أغلقت الباب وأسرعت إلى الحمام تاركة الماء يسخن بشدة ووضعت فوطة غسيل مطوية فيه وضغطتها لعدة دقائقٍ فوق جفنيها. كانت عيناها حمراوين — حسناً، ستصبحان أكثر احمراراً!

يمكن أن تكون العينان الحمراوان مغويتين أيضاً، "لأن الشخص الذي يسلو عن أحزانه يفتن الناس."

جعلت دخولها إلى غرفة الكونت فظاً. كان جالساً مع أنغرفيل والسيد غيرارديان إلى الطاولة التي وُضِعَت من أجل الشاي في وسط الغرفة. أوقفوا الحديث على الفور، لم ينهض غراندساي الذي يحتاج دائماً إلى وقت ليقف على قدميه، من مقعده، حتى رأى سولانج بجانبه مانحة خدها ليقبّله وجالسة بالوقت نفسه على ذراع الكرسي. عدّل من جلسته ليفسح لها مكاناً، وبينما كان يقوم بتلك الحركة، مرّر يده بحميمية على ظهرها فشعرت بها تزحف على طول ظهرها وتَعلّق عند الحزام الجلدي متريثة لتقييم نحول خصرها، وتقف بعدها بلا حراك على العظم الحوضي البارز جداً والذي قاسه بتجويف يده بحركة تبدو طبيعية كما لو أنه شيء مادي. كانت أصابع الكونت تداعب عظم الحوض وتصادف في طريقها درزة التنورة التي تعبر فوق منتصف قمته، ساير الدرزة برؤوس أظافره واستخدمها كسكة حديدية تقود حركات يده العالقة فوق الورك، وتابع المسار نزولاً وبالكاد لمسها.

بالرغم من التأكيد المتكلف الشبيه باللامبالاة في كل حركاته، خمّنت سولانج عبر الظلال المتأرجحة للارتباك المرتجف أن يد الكونت كانت متحمسة. وبالتالي فقط وصلت بنجاح إلى التأثير الأول، ألا هو الترهيب. صممت على الاحتفاظ بهذه الميزة عارفة بأنها أضمن الطرق التي تمكنها من ممارسة تأثيرها على الكونت المغرور. كان غراندساي متأثراً جداً وبدون شك بمظهرها مع أنه لم يجد الوقت الكافي ليحلل تماماً موضع التغيير بمظهرها.

كانت قريبة جداً بحيث لا تدعه يتفحصها براحته، وزاد هذا من مشاعر الارتباك لديه إلى حد ما. لديه انطباع بتخيّل نفسه حاملاً بين ذراعيه كينونة جديدة، تضيف بشكل غير متوقع للإغواءات الحميمة النسبية التي يتم تعذيبها باستمرار بلعبة من التحفظات المدروسة، إغواءات أخرى لكينونة مرغوبة ومجهولة لا تُلمَحُ إلا للحظةٍ وكأنها ومضة برق.

لدى سولانج بالتأكيد موهبة خارقة بالتحوّل مُسترشدة بالغريزة الأنثوية لشغفها. كان من الصعب أن يصدق أحدٌ، ليس فقط أنها المرأة نفسها التي كانت في سهرة البارحة، بل أن هذه المرأة دي كليدا والتي اندفعت إلى غرفة الكونت بتلك الطريقة المتغطرسة المتعمّدة والشجاعة والسهلة، هي نفسها سولانج التي كانت قبل قليل فقط جاثمة في أعماق وحدتها في غرفتها، مُشبعة بالحزن وتنتابها المخاوف الطفولية وآلام الشك الفظيعة.

قالت موقفة يد الكونت: "يبدو أنك تستمتع بفحص صلابة عظامي يا عزيزي إرفه، لكنني أفضّل من بين عظامي كلها عظم الركبتين." وبينما كانت تتحدث، تركت يده تلامس ركبتيها الطريتين الناعمتين المخضّبتين بالأزرق المشابه لحصيات النهر المظللة بشحوب الغسق.

وجّهت بعد ذلك كلامها إلى أنغرفيل بنفاد صبر مُختلق: "يجب أن أكون في باريسٍ قبلِ الساعة السادسة من يوم غدٍ. لقد وعدتني، ولذلك علينا المغادرة باكراً جداً. لديّ موعد عشاء هام جداً."

سأل غراندساي: "هل هو عشاء ممل؟"

"لا، بل عشاء ساحر!" قاطعةً الحديث عليه بحركة مقتضبة أوصلت من خلالها نيّتها الراسخة بعدم إضافة أية تفاصيل على هذا الموضوع.

خيّم الصمت قليلاً وتابعت بعدها معدّلة نبرة صوتها وهي تشرب الشاي: "وما هو الخبر السيء الذي أتى به السيد غيرارديان اليوم؟ هل لايزال روشفورت يطلب مليوناً ونصف مقابل إعادة شراء طاحونة (دي سورس)؟"

أجاب كاتب العدل بعد أن حصل بنفسه على الموافقة لطرح هذا الموضوع للمناقشة من خلال إيماءة من غراندساي: "الوضع أسوأ بكثير من هذا يا سيدتي!"

تابع غيرارديان: "فكّري فقط، هذا المخلوق الضعيف روشفورت الخاضع لضغوط مكيدة لا يمكن وصفها من قسم من أعدائنا السياسيين، وقّع للتو وصيّة معدّة شروطها فقط لمنع الأراضي المتصلة بطاحونة (دي سورس) من الاندماج مرة أخرى مع حقول غراندساي السابقة."

أضاف أنغرفيل وهو بالكاد يتحكم بسخطه: "هذا لا يُصدّق، هل تعرف ما هو السبب السياسي لكل هذا؟ لأن الكونت غراندساي ببساطة لا يستحقّ أبداً أن يستعيد حقوله السابقة بسبب روحه المضادّة بشكل واضح جداً للأمية!"

سألت سولانج وهي تهزّ كتفيها بعصبية ومتظاهرة بأنها لا تفهم صُلب الموضوع: "هل يوجد في العالم شخص فرنسي أكثر أصالة من الكونت!"

أجاب غيرارديان: "نعم، بالطبع"

"من؟"

قال كاتب العدل الذي بدا مكتئباً: "الروس؛" ووافق أنغرفيل على ذلك بابتسامة باهتة.

بدأ غيراردیان مجدداً: "عليك أن تفهمي يا مدام دي كليدا أن الكونت كرّس حياته لتحقيق خطة واحدة تتركز بالحفاظ على سهل (كرو دي ليبرو)، ليمنع مهما كلّف الثمن الكابوس الشيطاني الذي سيحدث في أعقاب تحويل هذه المناطق الزراعية المُنعم عليها منذ العصور القديمة بخصوبة الآلهة، إلى مناطق صناعية. لكن أحزابنا اليسارية المُلهَمة من موسكو لديها أفكار مختلفة. إنهم يفضلون خزي عامل منجم عالي الأجر تحوّل إلى البرجوازية على نُبل تقشّف فلاحينا الذين يحظون بأجر مقبول. في واقع الأمر، إن ذريعة الحرب ليست حتى في صالح هؤلاء التقدميين الذين يضحّون من أجل المناجم لأنهم هم تحديداً من صوّت بشكل منهجي ضد خطط التسلح جميعها!"

ساد الصمت من جديد ولم يفكر أحد في مقاطعته هذه المرة، كانوا مُطرقين وكأنهم متورطون جميعاً في المشاكل التي طرحها غيراردیان.

كان غراندساي في واقع الأمر مسكوناً بخوف يقوم على إمكانية أن تُغزى سهول فيرجيليان التابعة (لليبرو) بسبب التطور المرعب لحراس التقدم الصناعي. لا يمكن لهذا أن يحدث في الوقت الذي كان يملك فيه الأراضي جميعها تقريباً، لكنه عاجز حالياً عن منع أي شخص يأتي لاستغلال الثروة المعدنية في الإقليم الذي لم يعد ملكاً له.

تنهّد غراندساي قائلاً: "في النهاية سوف نستسلم جميعاً بدون شك ونعترف بدورنا التاريخي كأعداء للتقدم، وبما أنه يسير بالتأكيد ضد تقدم عصرنا، فنحن نحاول مهما كلف الثمن أن نمنع هذا الريف الذي ألهم (بوسين) أجمل المناظر الطبيعية من أن يتحول أمام أعيننا إلى سخام مخز مهين يغطي بشاعة المنظر الشامل الحقير المصنوع من الخردة الميكانيكية للأبنية الصناعية. في اليوم الذي يحدث فيه هذا الأمر سأعتبر أن وطني قد أُهين" احتدم غراندساي محاولاً الوقوف على قدميه حيث لم يعد قادرا على البقاء ساكناً.

أمسكه أنغرفيل من ذراعه وأخذه إلى مكتبه محاولاً طمأنته بنبرة صوت نصف واثقة فقال له: "أيها الكونت العزيز، كن على ثقة مما أقوله، سأكون قادراً على استخدام نفوذي مع البريطانيين لأن ما من شيء يحدث دون موافقة العاصمة البريطانية، إضافة إلى أن اللامبالاة التي يُضرب بها المثل والتأخير في مبادرة الحكومة ستكون ذات قيمة كبيرة بالنسبة لنا في هذه المسألة."

السيد غيراردیان الذي يعتبر من خلال تشاؤمه أن تحويل السهل إلى منطقة صناعية، مصيبة لا مفرّ منها ومن الممكن تأجيلها فقط بأفضل حال، قرّب كرسيه من مدام دي كليدا التي كانت وحدها مسترخية في كرسيها ترتشف شايها بجرعات صغيرة.

"سيدتي العزيزة، نحن عاجزون، وأنا آسف فعلاً لأنه ما كان ينبغي نقل هذا الموضوع إلى الواجهة، وجعله يسيء إلى الألفة الساحرة لهذا التجمع، لقد كان خطأي بالكامل. علينا نحن كتّاب العدل أن نبقى بعيدين في هذه اللحظات الممتعة ونظهر في اللحظات التاريخية، في العاشرة صباحاً، لإعلان السيء أو الجيد."

لقد شعر من عدم استجابة مدام دي كليدا أن من واجبه تبرير إهمال الكونت الذي كان متورطاً بعمق في محادثة مع أنغرفيل وكانا يتحدثان بأصوات حماسية منخفضة.

حاول كاتب العدل التوضيح: "أعرف ارتباط الكونت بسهل ليبرو منذ طفولته. لكن صدقيني يا مدام، لم يكن لدي شك أبداً بأن الخبر الذي كنت ملزماً بإطلاعه عليه اليوم – الرفض القاطع لروشفورت– سيكون مؤثراً بهذا العمق. قلة هم الناس الذين يفخرون بمعرفتهم بقلب الكونت بشكل كبير كما يعرفه خادمك المتواضع. يتصوره بعض الناس طموحاً جداً لدرجة يرغب فيها بحماسة باندلاع الحرب التي ستعيد إليه نفوذه السياسي، لكن الطموح الحقيقي الوحيد للكونت هو المحافظة على تراث (ليبرو) وأن يكون قادراً يوماً على إعادة زراعة تلك الأمتار المربعة الثلاثمئة من البلوط والتي قام روشفورت بقطعها أثناء التقسيم."

قالت سولانج بلهجة عتاب ساخرة: "إذاً بحسب كلامك، فإن بضع مئات من شجر البلوط تكفي لتحقيق طموح أكثر رجل من آل غراندساي وسامة وروعة؟"

حنى السيد غيرارديان رأسه بتبجيل يدل على الاحترام وقال باقتضاب: "نعم يا سيدتي، شجرة واحدة تكفي!" آخذاً وعاء السكر عن الطاولة ومشيراً إلى شعار النبالة المحفور بشكل بارز على تحدّبه. "كما ترين، ثلاثة جذور تفي بالغرض!" وأشار إلى الجذور الثلاثة لشجرة البلوط المنعزلة التي تشبه جذور ضرس – الرمز الوحيد، أمام حقل من أزهار الزنبق.

علّقت سولانج: "لا أستطيع منع نفسي من التفكير بأن هذا قاحل بعض الشيء، أحب شعارات النبالة المرصعة بالمخالب والأنهار، واللهب والنجوم وحتى التنانين، وانتبه يا عزيزي السيد غيرارديان، إن ما أظهره من ضبط النفس وحسن الذوق ليس طلباً للملائكة وقلوب!"

لمس السيد غيرارديان نبرة حنونة لدى مدام دي كليدا فسحب نظاراته وأعارها لها لتضعها كعدسة مكبرة أمام وعاء السكر. أصبحت سولانج قاردة على قراءة الشعار الرسولي المنقوش على شريط يحيط بالأغصان العلوية لشجرة البلوط:

أنا الملكة

تمعّنت سولانج بانتباه في الصورة ككل والتقطت على الفور معناها التجسيدي. لقد اكتشفت وجه امرأة صغيراً ينبثق من خلال أوراق الشجر، وجذعاً عارياً ينتمي للوجه مشكلاً جذعاً كاملاً لشجرة متجردة من لحائها، بينما يغطي ثوب من البلوط باقي الجسد بتواضع من السرّة حتى الأسفل، وهناك جذورها الثلاثة مغروسة في الأرض.

كذلك في الجزء العلوي من الشجرة المرأة، يختفي الكتفان العاريان في السطوح الخشنة للحائها من خلال تحولهما إلى الأغصان المخصّلة التي

تحافظ بالرغم من تضافرها المشوّش على ميزات إنسانية لا بأس بها من خلال أذرعها المفتوحة المتضرّعة.

دخل الخادم العجوز برينس إلى الغرفة بصمت معلناً للكونت أن محافظ (ليبرو) يرغب بالحديث إلى فيسكونت أنغرفيل. قرر الأخير أن يتوقف في مكتب المحافظ قليل واعداً سولانج أن يحضر في الوقت المحدد لسفرهما في الساعة السادسة والنصف، واستفاد السيد غيرارديان من تلك الفرصة لينسحب. بينما كان غراندساي يرافق أنغرفيل والسيد غيرارديان إلى الباب، ذهبت سولانج بعد إعادتها وعاء السكر إلى الطاولة، لتجلس على كرسي بدون ظهر في إحدى زوايا الشرفة الواسعة. في اللحظة التي دخل فيها برينس ليعلن ما يريد، نظرت خلسة إلى الساعة الموجودة على رفّ الموقد. كانت ذاهبة بشكل غير متوقع للقاء خاص مع الكونت مدّته ثلاثة أرباع الساعة تماماً. لم تكن تريد من أجل أي شيء في العالم أن يجري حديثهما في وسط الغرفة البارد والرسميّ جداً.

بعينيها المثبتتين على السهل، قلّصت سولانج من حجمها مقربة فخذيها من جسدها ومسندة ذقنها إلى ركبتيها ضاغطة بشكل عنيف حتى الألم. شعرت بخطا غراندساي غير المتوازنة تقترب منها ببطء ومن ثم قبّلت شفتاه أعلى رأسها بحماس بينما وضع يديه تحت ذراعيها محاولاً رفعها.

"أنت لست مرتاحة هنا، تعالي وتمددي على سريري."

أرجعت سولانج حينها رأسها للخلف للمرة الأولى مُبيحة وجهها كله لنظراته وسألت: "هل أبدو وكأنني أوشك أن أموت؟"

"لا، أنت جميلة كالآلهة لكنك تبدين متعبة جداً." ومع هذه الكلمات، انزلقت إحدى ذراعيّ غراندساي تحت قدمي سولانج. رفعها بسهولة إلى مستوى صدره وأخذها إلى السرير حيث وضعها بلطف وعناية

ليجعل رأسها يرتاح تماماً في منتصف الوسادة النحيلة الصغيرة المغلّفة بغطاء حريري بلون الفولاذ.

ذهب على الفور ليُحضر الطاولة ويقربها من السرير. مددت ساقيها بكسل وطقطقت عظام ركبتيها واحدا تلو الآخر مُصدرة الصوت نفسه في اللحظة نفسها التي احترقت وفرقعت فيها أغصان الكرمة التي كان برينس قد أضافها منذ فترة إلى المدفأة والتي احترقت لتوها.

قال بينما كان يحضر الطاولة إلى السرير: "أنت مرهقة تماماً! لقد بذلت ليلة البارحة مجهوداً كبيراً من أجل أن تبهريني."

قالت بدون أن تعطي وزناً لسؤاله: "ما الذي جعلك تفكر بهذا؟"

أجاب بمزاج أقرب إلى المرح: "ماذا يمكن أن يكون غير ذلك؟ عندما حاولت أن تجعليني أصدق أمام أنغرفيل أنك مرتبطة بموعد عشاء ليس له من وجود أبداً، وقد ابتدعته ببساطة لإثارة فضولي الضعيف. لكن لسوء الحظ، بالنسبة لي ورغماً عني، فقد رأيت الكثير من أنواع تلك الأمور، ومن المستحيل بالنسبة لي أن أخطئ في الجوهر بين العشاء الفعلي والعشاء الوهمي. أصبحت أشبه في عالمي الخاص أولئك القرويين في عالمهم، والذين يمكنهم بمجرد أن يضعوا بيضة في يدهم أن يعرفوا فيما إذا كانت ستفقس فرخاً أم لا."

لم تجب سولانج. كانت سعيدة جداً لشعورها بجسدها المتألم دائماً من الدور الذي كان يلعبه، يسترخي الآن بنعومة في سرير الشخص الذي أحبته حتى العبادة، بعد أن انزلق استفزاز الكونت فوق قلبها دون أن يترك أدنى أثر من الحقد. من الممكن أنه قد أهانها لكنها في نهاية المطاف، لم تشعر بالإزعاج من ذلك.

أغلقت عينيها على النعيم الكسول لاستسلامها شاعرة بوقوفه جانب السرير أمامها محدّقاً فيها بعينيه المتفحصتين ويبدو وكأنه لا يراها.

سألت بصوت حالم منخفض: "ما الذي نفكر فيه؟ أنا أفكّر بنا نحن الاثنين، لأنه من اللطيف جداً في النهاية أن نحاول الثقة برغبتنا. أنت تفكر بغابتك!"

"هذا صحيح،" أنا أفكر بغابتي. ولماذا لا يحاول كلٌ منا بكل تواضع، أن يفكر بما هو الطبيعي بالنسبة لنا؟ من الغباء فعلاً بعد كل هذا أن نُجهد مخيلاتنا لنُقنِع أنفسنا بشكل مزعج بأننا شعرنا بشغف متبادل طيلة السَنوات الخمس الماضية التي دام بها غزلنا. لو كنا أردنا القليل في أي وقت مضى لكنا استطعنا إيجاد الكثير من الفرص لنمارس الحبّ أو لا نمارسه. ولكان لدينا الوقت الكافي لنتبع نصائح (دي أنونزيو) عندما قال: ...." وسرد غراندساي بنبرة رنّانة وساخرة قليلا: "على كل منا أن يقتل حبه بيديه خمس مرات من أجل أن يولد هذا الحب منٌ جديد خمس مرات، ويكون أكثر عنفاً بخمس مرات."

تأثرت بحدّة من سخريته وشعرت كما لو أنها ستموت، بينما تابع بنبرة ودودة من اللطافة المنافقة:

"أودّ بالمناسبة أن أقدم نصيحة لمدام دي كليدا: لقد وصلت المدام إلى هذا المستوى الرفيع من الجمال والأناقة والتميّز لدرجة أصبح من المؤسف للغاية أن تستمر بوقاحة طفولية ورومانسية بمحاولة خلق جو أدبي وشعري حولها، مما يسيء إلى أصولها البرجوازية بشكل واضح جداً."

ردّت بالمثل مقلدة نبرة صوته : "تماماً كما في حالة الكونت غراندساي، الطريقة الوقحة الخرفة التي يعرض بها اعتداله المُبتذل الذي يسيء بشكل واضح جداً إلى إقطاعي الريف!" كما أكدت على الكلمتين الأخيرتين بنبرة انفعالية من السخرية والتهكم.

التفت إليها وعرج قليلاً في مشيته بشكل يبعث على السخرية، متوجهاً نحو باب الشرفة التي فتحها بحركة عنيفة، كما لو أن هواء الغرفة يخنقه.

صرخ غراندساي: "إقطاعي الريف! هذا صحيح! ...." قال مشيراً بإصبعه إلى البقعة الصلعاء من غابة البلوط: "بضع الأشجار تلك أهم بالنسبة لي من حياتك! بسبب أشياء كهذه شُنّت الحروب. تخبو في ذاكرتنا ابتسامة آبائنا الموتى بمرور السنين، لكن المرء لا ينسي قطعة أرض تم قضمها منه أو شجرة تم اقتلاعها. ينسى المرء أيضا سنوات خمساً من المغازلة الغبية المغرورة، لكنه لا ينسى أبداً أثر مخلب في قلب ممتلكاته، لا، هذا الشيء لا يُنسى."

حدث ذلك بينما كان موجّهاً ظهره للغرفة ومواجهاً المنظر، حيث كان يحاول تمزيق قطعة كبيرة من الطحلب كانت قد نمت بمنطقة اتصال حجارة الدرابزين على الشرفة. استسلم الطحلب في النهاية ساحباً معه قطعة من الإسمنت كانت تملأ الفجوات في الحجر. أمسك الحجر بيده ومن ثم قذفها نحو الغابة بكل ما لديه من قوة.

أفسحت سولانج الطريق فجأة لضحكة قوية مزيّفة سرعان ما توقفت عندما التفت إليها واقترب من السرير، كان وجهه محطماً من الانفعال وممتلئاً بتهديد جعلها ترتعد. لم تعتقد أبداً بقدرته على إظهار تلك الضغينة العنيفة، لكن الوقت كان قد فات على تغيير موقفها. بقيت ملامحها مثبتة على ابتسامة تنم عن ازدراء لم يستطع تحمّل المزيد منها فقرر أن يجتثها بقوة. أمسك الوسادة بكلتا يديه وضغط بها على وجهها بكل ما استطاع من قوة.

بقيت جامدة بعينين متسعتين تشبهان عيني حيوان في.......
زمجر غراندساي: "لا أريد رؤية هذه الابتسامة على وجهك. غبية! ما الذي تعرفينه عن عالمي!"

كان يتكلم ويضغط بتشنّج أكثر وانزلق إصبه الصغير في فم سولانج بطريقة اصطدم فيها خاتمه الذهبي الضخم بلثتها ونزفت. استعاد بعدها السيطرة على نفسه وسقط معذّب الضمير على ركبتيه قرب السرير متوسلاً أن تسامحه.

نهضت واتكأت للحظة على كتفه واتجهت بدورها نحو الشرفة، لكنها فضّلت أن تبقى واقفة عند الزاوية محتمية بالظلال العاتمة للستارة الثقيلة. كان كتفاها يرتفعان وينخفضان بوتيرة تنفسها المتسارع المرافق لبكائها التشنّجي.

توجّه نحوها وأمسك وجهها هذه المرة بمنتهى اللطف وقبّلها على فمها. كانت المرة الأولى التي يقبّلها بتلك الطريقة وقد فعلها لينال صفحها فقط ومن ثم تأملت ما حدث بينما توقفت عن البكاء.

قالت: "انسَ كل ما حصل يا عزيزي، لقد كنت الآن سعيدة جداً على سريرك. لا أريد اللعب مجدداً، وأحبك بجنون. سواء أحببت ذلك أم لا!"

سمعا في تلك اللحظة وقع خطوات السيد غيرارديان برفقة أنغرفيل وهما قادمين لإحضار سولانج. تراجعت الأخيرة إلى المرآة الموجودة فوق المدفأة متظاهرة بتصفيف شعرها وماسحة الدم عن ذقنها بينما انشغل هو بالحديث مع أنغرفيل وكاتب العدل حول الزيارة التي قاما بها للتو إلى محافظ (ليبرو).

عندما أصبحت مستعدة، ودّع الكونت الجميع عند باب غرفته. وفي الفناء، ساعد برينس أنغرفيل الذي كان مُستغرقاً بترتيب أمتعته، مصرّاً على تحميل كل شيء في السيارة بنفسه مستخدماً أقل مساحة ممكنة. خطت مدام دي كليدا جيئة وذهاباً ومن ثم صعدت نحو المقعد الحجري نصف الدائري الذي يقع خلف شجرة سرو هَرمة يوجد فوقها سلة مجدولة تحتوي بيضاً طازجا. أسندت إحدى ساقَيها على المقعد

وتناولت بيضة وكسرتها وابتلعت محتوياتها. وبعدها ابتلعت واحدة أخرى وأخرى حتى وصلت إلى خمس.

كان عليها أن تأكل المزيد. حالما تصل إلى باريس ستعمل على العناية بنفسها كما لم تفعل أبداً. مع إحساسها باقتراب الرحيل، أخذت البيضة الأخيرة وكسرتها وابتلعتها بلمح البصر. كانت قد أنجزت العملية كلها بعناية فائقة ودون إراقة قطرة واحدة، لكن بعض زلال البيض انزلق هذه المرة على ذقنها ونزل على الأرض، وبما أنها لم تكن تحمل منديلاً، فقد نظفت نفسها بباطن يدها العارية، بقيت ساكنة للحظة ورأسها محنيّ للأمام بالوضعية التي كانت قد اتخذتها لتمنع زلال البيض من الانزلاق على ملابسها، كما أبعدت يديها عن جسدها وتركت أصابعها مفتوحة كي تجفّ.

سمعت في تلك اللحظة صوت إطباق غطاء صندوق السيارة بشكل غير كامل ومن ثم تبعه صوت إطبَاق نهائي. جلست في مقعد السائق متحمسة للقيادة ودخلا في ظلمة غابة أشجار الكستناء العملاقة التي شكّلت نفقاً يغلّف الطريق مشابهاً لما يظهر في لوحة (فراغونارد) من مجموعة (تشستر ديل). بعد عشرين دقيقة من الصمت وبينما كانت يدا سولانج على المقود، أحسّت بزلال البيض يجفّ على ذقنها مما جعلها تصنع تكشيرات متكررة وأتبعتها بمحاولات لمسٍ عبّرت فيه عن عدم سعادتها.

يراقبها أنغرفيل بشكل سرّي ولديه سلفاً تعبيره الاعتيادي على طرف لسانه، المتمثّل بعبارة "صباح الخير، أيها الحزن!" لكنه في هذا المرة بقي صامتاً لأن دموعها بغرفة الكونت وجرح لثتها الصغير لم يكونا خافيين عليه، بقي صامتاً وحاول تشغيل الراديو بشكل هادئ. تركت نفسها تغرق في خيال معقد وعنيد واستحواذي بالكامل، يتوقف لحظة ويعاود من جديد بإصرار زائد. تخيلت نفسها عبر الكثير من المغامرات البطولية تعيد شراء حقول غراندساي الموروثة وتمنع تحويل سهل (كرو

دي ليبرو) إلى منطقة صناعية من خلال مثابرتها الدؤوبة، وتعيد في النهاية زراعة الأمتار الثلاثمئة بشجر البلوط. ترى بفضل تضحياتها الكبيرة، أشجار الكونت تنمو من جديد وتصبح خالدة.

أليست هي بالإضافة لذلك السيدة شجرة البلوط؟

في قصر (دي لاموت)، كان الكونت وكاتب عدله يستعدان للعشاء. منذ الصباح، أفصح الكونت لخادمه برينس عن رغبته بتناول سلطة (لكمة قبضة اليد) بهذه الليلة. وكان برينس قد وضع على الطاولة كل ما يمكن أن يحتاجاه لتحضير سلطة "لكمة قبضة اليد"، كما يُسمى في تلك المنطقة.

جلس الكونت وكاتب عدله، ووضع برينس زبدية كبيرة تظهر منها الجهة الخشنة لنصف رغيف من خبز القرويين المنقوع لبعض الوقت في عصير أحمر قاتم، مؤلف من خليط الزيت والخل ومكعبات ناعمة من النقانق المدماة وأثر قليل من الشوكولا المبشورة. أخذ السيد غيراردیان عندها بصلة مقشرة قدمها له برينس على منديل مطوي ووضعها في منتصف الرغيف تحديداً واستمر بإمساكها برؤوس أصابعه ليحافظ عليها في مكانها. أغلق غراندساي قبضة يده فوق موقع البصلة محدداً هدفه ووجّه إليها ضربة القوية حوّلتها إلى أجزاء تناثرت فوق الرغيف الذي تناثر بدوره إلى قطع. في تلك اللحظة تناثر كل شيء مع الإسكارول[1] الطازج وطحنا الملح والتوابل فوقه. كانت الضربة الناجحة إشارة لبرينس الذي كان يتابع طقوس معلمه بانتباه وحماس وعاد إلى المطبخ مطمئناً بينما صُدِم غيراردیان برؤية مفاجئة دون أن يفصل نظراته المهلوسة عن طبق السلطة:

---

[1]الأسكارول: نوع من النباتات ينتمي إلى فصيلة الهندباء النجمية، تؤكل أوراقها الغضة مع السلطة وخاصة في فرنسا وبلجيكا. المترجم.

قال: "يظهر أمامي سهل (كرو دي ليبرو) كاملاً عبر الآثار الناجمة عن ضربة الكونت. أخبرني، هل هذا نوع من الجنون أم أنني على حق؟"

قرّب الشمعدان ليمنح إنارة أفضل إلى ما كان يريد ظهوره، وباشر توصيفه لطبق السلطة الموجود أمامهما بالحماسة البليغة المتحفزة بحقيقة أنه شعر بالشرف بسبب حيرة غراندساي المليئة بالإعجاب، والذي كانت حماسة كاتب عدله المزاجية تمنحه شعوراً مفاجئاً بالمرح.

قال غيرارديان مشيراً إلى النتوءات المتموجة المحطّمة للرغيف، "انظر يا عزيزي الكونت، إنها التركيبة نفسها للتلال الذهبية لـ (ليبرو) وللمنحدرات المعتدلة والحواف الحادة غير المتوقعة، الوديان العميقة التي تتدفق فيها شلالات من البصل الطازج، لأن تلك الشرائح الرفيعة اللامعة الشبيهة بالأفعى تمثل التوتر البرّاق لجداولنا المتدفقة بزبدها الفضيّ، وكأنها تنفصل عن الثلوج المتراكمة على النهاية البعيدة (الطبق). يمثل الإسكارول الفاخر الواجهة المورقة من السهل النباتي الخصب المروي بشكل جيد. بينما تظهر في الخلف أول التموجات الرعوية المهيبة منبثقة من غابات الخس المظلمة، حيث تستحضر حبوب الشعير الواهنة المعروضة بقشورها المحمّصة، إلى الحياة وقفَة الاجترار للماشية الساكنة المتأملة، كما تمثل بلورات الملح اللامعة المرشوشة فوق القمم المضاءة، نوافذ القرى البعيدة المتلألئة في شمس، بعد الظهر المتأخرة. ويوجد بمحض الصدفة، حبّة كبيرة من الملح معلقة بشكل معزول وبدون لمعان على ضفة منحدرة: إنها صومعة القديس جوليان المطلية بالأبيض. وهناك المزيد، انظر يا عزيزي الكونت إلى حبيبات الفلفل القليلة تلك، المبشورة بشكل غير منتظم والمتطاولة قليلاً — يبدو بعضها وكأن له رؤوساً — إنها تسير، إنهم فلاحونا المرتدون السواد يملؤون الفجوات في الطرقات السريعة والمتعرجة بمواكب مزدحمة أثناء عودتهم من حراثة اليوم......."

جلس غراندساي مفتوناً وحزيناً قائلاً. "كل ما تقوله جميل كما هي لوحة (الأركاديا لبوسين)"، تنهد بعمق وباشر بعدها بتناول سلطته بشوق بكامل طاقةِ شوكته وسكينه التي بقيت معلقة في يديه طوال الفترة التي كان يتحدث فيها غيرارديان.

بعد السلطة، قدّم برينسٍ الكمأة المغطاة بالرماد والملفوفة ببعض الورق الأبيض بشكل دقيق جداً وصبّ النبيذ الأحمر المعتق منذ عام 1923، والمحتوي على باقة من أشعة الشمس كما يقول غيرارديان. تناول الكمأة بصمت، لكنه قال لكاتب عدله عندما حَضَرتْ جبنة الماعز: "حسناً يا عزيزي غيرارديان، حدثني عن المدام دي كليدا." لقد صاغ طلبه بالنبرة ذاتها التي يطلب منه فيها عزف مقطوعة موسيقية مفضّلة.

"كنت أفكر بها بينما كنا نتناول الكمأة. يرى الإنسان الأشياء بما يتناسب مع أضوائه الخاصة. يتخيل فيسكونت أنغرفيل بدون شك جسد المدام دي كليدا الألوهي حاوياً روح ملكة، ويسيء العديد من معجبيها تفسير اللهب الدائم في نظرتها، ويعزون لها المزاج الانطوائي لمحظيّة. وأنا، ولكوني كاتب عدل، يجب أن أراها فوق كل ذلك، كندّ مناسب من وجة نظر مهنتي، أو كجنيّة من وجة نظر انتمائي الريفي وسذاجتي الشاعرية. حسناً، لا ترضيني أي واحدة من تلك الصور. أنا أرى في سولانج دي كليدا نوعاً من القديسات."

وما إن لمس غيرارديان ظلاً من السخرية في عيني الكونت حتى أضاف توضيحاً: "بنعمة من الله، غالباً ما يكون لدى القديسات أجساد جميلة كجسد أفروديت. الآن وبعد ظهر هذا اليوم، خلال الوقت الذي كنا نتناول فيه الشاي، كنت أراقب مدام دي كليدا. لم يترك لباسها الخفيف أية شكوك حول سطوة جسدها مع أنها غالباً ما تحافظ على ذراعيها متقاطعين أمام صدرها كما لو أنها تشعر بالبرد، موحية بالوقت ذاته بوضعية تمثال عاريةٍ خارجة من حمامها، ووضعية قديس يستمع إلى رسالة

من السماء. كنت مندهشاً أثناء مراقبتي لها بالنقاء المنعكس عن وجهها البيضوي. كانت شفتاها شاحبتين جدا لدرجة لم أستطع التفكير إلا بأغنية الراهبة التي لا زالت تُغنّى في (ليبرو): "يوم عيد القديس جوليان."

قال غراندساي: "أنا لا أعرفها."

قال غيراردیان: "وفقاً للأسطورة المحلية، ولدى مرور القديس جوليان في هذه المنطقة برفقة أتباعه المخلصين، اكتشف ضريح راهبة كانت مشهورة بجمالها. عندما فُتِحَ كفنها كان الجسد بأكمله متحولاً إلى رماد وقد نمت الأشواك والبرسيم مكانه. بقي رأس الراهبة المغطى بقلنسوة بيضاء رائعة سليماً فقط، وقد أصبح فمها أبيض كالطباشير ونما الياسمين من زاوية شفتيها."

قال غراندساي هامساً وكأنه يتحدث لنفسه: "الكمأة تحت الرماد.......... الأوراق التي لفتها: القلنسوة............"

"تُغنّى اللازمة بطبقة صوت حزينة، بمرافقة الفلوت ومزمار القربة والدف، كما يلي:

نهداها كانا حجرين ينبضان بالحياة

ساقاها كانتا العشب الأخضر،

وكان الياسمين شفتيها."

"غنّها لي، أعتقد بأني أعرف اللحن."

لا يحتاج غيراردیان إلى من يحثّه، فبعد أن تناول رشفة من النبيذ، طقطق لسانه بصوت من نوع (الفالسيتو). وبصوت مثالي وتجويد مرتعش يميز أبناء الريف في (ليبرو)، غنّى مقطعاً من الأغنية، و ثم غنّى الأغنية كاملة، وغناها مرة أخرى يُرافقه الكونت بصوته الأعمق، معطياً الإيقاع من خلال ضرب خاتمه المعدني على صحن كريستالي كان يحمله في اليد الأخرى لإصدار صوت حاد بدون صدى.

عندما وصلا إلى اللازمة، ضغط السيد غيراردیان قمة أنفه بإصبعه ليمنح الأغنية طبقة صوت حزينة مصقولة عبر النغمة الحزينة الصادرة عن الصوت الأنفي.

"نهداها كانا عبارة عن حجرين ينبضان بالحياة،" تنهد غيراردیان بصوت دقيق وكأنه طنين بعوضة.

"بم، بم، بم" يستجيب غراندساي بإشارة النهاية "بم" بنقرة حادة من خاتمه.

" ساقاها كانتا العشب الأخضر!

بم بم بم

وكان الياسمين شفتيها

بم بم بم"

يغادر غيراردیان دائماً في العاشرة والنصف وها هو الآن ينهض مودعاً الكونت. بقي الأخير لعشر دقائق طويلة في غرفة الطعام يكتب كلمات الأغنية في دفتر ملاحظاته ببطء قدر الإمكان، ولم يكن يعرف ماذا يفعل بعدها. فكر للحظة أن يقول شيئاً ما لبرينس الذي بدا وكأنه باق عمداً على أمل أن يبدأ محادثة. لكن الصمت بقي جاثماً وابتسم من بعدها برينس ابتسامة حزينة قليلاً وكأنه يرغب بالاعتذار لأن غراندساي لم يجد ما يقوله له.

بإزالته آخر قطعة عن المائدة انسحب متمنياً للكونت ليلة سعيدة، فنهض بدوره عن الطاولة وصعد الدرج الواسع المؤدي إلى غرفته ببطء.

الإنارة الكهربائية للقصر ضعيفة بشكل دائم وترتجف بشكل تدريجي تقريباً، وكان المصباح الوحيد المعلق بشكل منخفض إلى حد ما

من السقف إلى وسط سرير الكونت، بالياً جداً، وبالكاد يلقي ضوءه وشحوبهُ المميت التوهجَ فوق السرير.

سحب الملاءة قليلاً ووجد قميص النومٍ الحريري الملون ببقع صغيرة مطوياً بدقة. وكعادته الليلية، وضع مؤقتاً دفتر ملاحظاته الصغير عليه وتحرر من ملابسه. عندما تعرّى تماماً بقي على هذه الحال لعدة دقائق، ممسداً بذهول الكدمة البسيطة التي أصيب بها تحت حلمة صدره الإيسر عندما سحق البصلة في السلطة منذ بعض الوقت.

كان جسد الكونت مثالياً تماماً، طويلاً ووسيماً، وعلى المرء كي يتخيله أن يتخيل اللوحة (أبولو) الشهيرة الموجودة في متحف (ميلان) والتي رسمها (رفائيل). عندما ارتدى الكونت قميص نومه الذي كان أطول بقليل وحسب من قميصه الذي يرتديه نهاراً، التقط دفتر ملاحظاته وانتقل إلى نهاية الغرفة حيث تجثم الخزانة الخشبية الكبيرة الداكنة الضيقة والطويلة جداً حتى لتصل إلى السقف.

تقف تلك الخزانة الخشبية فوق أرجل بشرية أربع بأصابع طويلة مرهفة ذات نموذج مصري، منحوتة في قطعة من البرونز المذهب اللامع. فتح غراندساي البابين الكبيرين للخزانة الفارغة تماماً باستثناء رف موجود في المنتصف وبمتناول اليد حيث تقبع مجموعة من الأشياء: إلى اليسار جمجمة طفلة صغيرة متوّجة بهالة ذهبية دقيقة، تُسنَد إلى القديسة (بلوندين) والتي احتفظ بها غراندساي منذ بداية ترميم كنيسة القصر. قرب بقايا الطفلة الشهيدة، ثمة الكمان والقوس وبجانبهما مفتاح أسود مزين بالصليب الفضي الذي ذهب مع التابوت المحتوي على رفات والدة الكونت. وكما يفعل كل ليلة، أودع الكونت دفتر ملاحظاته هناك والتقط الكمان، لكن في اللحظة التي أمال فيها رأسه ليضع الآلة بين ذقنه وكتفه، سمع صوتاً جعله يلتفت حوله. ظهر الوجه المبتسم لامرأة عجوز عبر الباب المفتوح جزئياً.

كانت مربّيته المخلصة التي يدعوها الكونت دائماً "راهبة لوناي" وقد أتى بهذا الاسم من رواية (دير بارما) للكاتب (ستاندال). قال واضعاً الكمان على السرير: "مساء الخير (أيتها الراهبة)"، دخلت الراهبة حاملة في يدها صحناً يحتوي قطعتين من الخرشوف المسلوق الذي كان لديه هوس به عندما يُصاب بالأرق ليلاً. حملت باليد الأخرى قفازاً أشعثَ مصنوعاً من شعر القط، تفرك به دورياً قدمه العرجاء التي كانت عرضة لنوبات من آلام الروماتيزم الحادة. كانت الراهبة بشعة بشكل شيطاني تقريباً، لكنها تتمتع بجاذبية معينة تتلخص بحيويتها ونظرتها الواعية الواسعة. هي نظيفة لدرجة المبالغة: بشرتها ناعمة جداً لكنها مجعدة بشكل مخيف، وكانت عينها اليمنى تسيل بشكل دائم وتجبرها على حكها بشكل منتظم بمئزرها ذي الحافة البيضاء المخرمة.

ليس لدى الكونت أسرار مع الراهبة. كانت الوحيدة التي يُسمَحُ لها بدخول الغرفة ومغادرتها دون أن تطرق الباب. تقرر كل شيء يخص القصر، وبما أنه لم يكن قادراً على فعل شيء بدون مساعداتها فهو يأخذها معه عندما يذهب إلى باريس. ركعت الراهبة التي لم تفتح فمها حتى الآن، على ركبتيها وبدأت تفرك ساقه بصبر وإخلاص. وفي أثناء واحدة من حركاتها الإيقاعية التي كانت أكثر قوة من الباقي، أصبحت أعضاء الكونت الحميمة نصف مكشوفة.

سحبت باحترام قميصه للأسفل مرة أخرى بيدها المرتدية القفاز، لكن يدها العارية المجعدة الأخرى انزلقت للأسفل وضغطت الجسد بالفرح العفيف للأم، نظرت إليه بحنان وقالت: "يا لنعمة السماء!" وبعدها وباليد نفسها اتكأت على ركبته محاولة النهوض بكل وزن جسدها الجاثم عليه. نصحته عندما همّت بالمغادرة قائلة: "عليك أن تخرج رأس القديسة (بلوندين) الصغير من الخزانة، لن أستطيع النوم لو كان في غرفتي."

عند مدخل الباب، حكّت بتأن كبير عينها وكررت هذه الجملة مرتين بطريقة اختتامية: "لأنه ما من شيء يبقيك مستيقظاً بقدر تفكيرك الدائم بالموت." وبينما كانت تسير عبر الممر سمع تمتمتها، "ليتبارك الله، ليتبارك الله!"

عندما أشارت الساعة إلى الحادية عشرة، التقط كمانه مجدداً وضغط عليه بهدوء وحزم واستهل بقوسه الموهوب مقطعاً موسيقياً لباخ على مقام (دي ماجور). وقف منحنياً للأمام قليلاً وركبة ساقه المصابة أمام حافة السرير، الشق الموجود في جانب قميص نومه يكشف جزئياً الفخذ الذي تحول إلى اللون الزهري الفاتح بسبب التحفيز الناتج عن الفرك. في وسط الجلد المتهيج يوجد ندبة قديمة تنشر فروعها كنبتة بلون الباذنجان الغامق.

استقرت عينه على جمجمة القديسة (بلوندين) الصغيرة بأسنانها الصغيرة السليمة الناعمة والبيضاء كحصى النهر. جعله نقاؤها يفكر بركبتي سولانج دي كليدا وذكرى وجهها الضعيف الذي جعلته الدموع نبيلا، منحت الدموع هذا اللحن المتصاعد بشكل مهيب وقوي، دقة وجمالاً إلهياً.

تنفس بعمق محركاً رأسه مع الأثر اللحني للنهر، السوناتا المحترق، لكن ملامحه عديمة العاطفة عكست إصراره على ألا يسمح لعواطف قلبه، بأوقات ضعفها، أن تحجب النقاء الشفاف لأسلوبه بعزف هذه الموسيقى. وبينما يقترب اللحن من نهايته التي بدت وكأن معاناة الليل كلها قد وصلت إلى نقطة هندسية ستبقى معلقة للأبد، استطاع أن يشعر بطرف الإصبع الصغير من اليد التي يحمل بها القوس، كما لو أنه لا زال رطباً بلعاب سولانج دي كليدا الدافئ والمليء بالرغبة.

2/ أصدقاء سولانج دي كليدا

في الساعة الحادية عشرة والنصف صباحاً أسرعت باربرا ستيفن، الأرملة الأمريكية الغنيّة ووريثة جون كورنيليوس ستيفن بالخروج من فندق (ريتز) في باريس مع ابنتها فيرونيكا. سارتا على الرصيف حوالي الخمسين خطوة ودخلتا مؤسسة مدام (شيباريلي) لصناعة الملابس. ومن ثم خرجت الأم وابنتها من مؤسسة المدام (شيباريلي) في الساعة الواحدة وعشر دقائق، وعادتا إلى فندق (ريتز) حيث قدّمت لهما السلطة بمراسم احتفالية واجبة.

ابتلعتا نوعين مختلفين من الفيتامينات بمساعدة كأسين من المارتيني جعلهما تتوقان لكأس ثالث، كما تناولتا الشوكولا والآيس كريم المزين بالفستق، ثم، وبدون انتظار القهوة، انطلقتا مرة أخرى إلى مؤسسة (شيباريلي) وعادتا مرة أخرى إلى (ريتز) في وقت تقديم الشاي في الساعة الخامسة تماماً.

كانت باربرا ستيفن قد نجحت في إظهار تعبير وجهي استطاعت به أن تُظهر أنها أتت للتو من فندق (ريتز) عندما دخلت إلى مؤسسة (شيباريلي) ، كما أظهرت تعبيراً آخر لدى عودتها إلى (ريتز) يقول بأنها غادرت للتو (شيباريلي). يتشكل التعبير الأول عبر المحافظة على فمها نصف مفتوح وفيه تراخٍ مترافق مع شيء من الكسل، وهذا يعاكس تماماً تعبير الفم المفتوح بسبب المفاجأة. لم تجب على أسئلة البائعة وتركت يدها المرتدية القفاز تتسكع فوق العديد من السلع وتتظاهر دون لباقة بأنها لا تنظر إلى أي شيء، كانت مذهولة في سرّها بكل شيء. تم تنفيذ التعبير الوجهي الآخر الخاص بالعودة إلى (ريتز) من خلال الفم المغلق، أو بالأحرى من خلال الفم المنقبض، كانت قد زمّت شفتيها بشيء من

الامتعاض، عبّرت من خلاله عن ظلال من القرف اللعوب الذي يمكن أن يظهر فقط بسبب بعض المخاوف الطاغية المميّزة لمقتضيات الموضة التي يجب أن تبقى غير مُشبَعَةٍ بالنسبة لأمثالها من السيدات المتطورات جداً. كانت باربرا ستيفن قد استيقظت وحدها هذا الصباح في التاسعة والنصف بذريعة أن لديها موعداً مع مصفف الشعر الخاص بها، كانت قد عصرته منه بالقوة وصمّمت ببرود على ألا تلتزم به. مثل العديد من المخلوقات الضعيفة المكبّلة بنزواتها المطلقة، تشعر بالحرية والراحة فقط عندما يمكنها أن تلغي تعسفياً الاهتمامات والعقبات التي نثرتها عمداً بطريقها في اليوم السابق.

بما يخص هذه المسألة، يمكن لكل واحدة من هذه المخاوف الصغيرة أن تصبح مصدراً ثميناً للإلهاء بالنسبة لها، إن وجدت نفسها في الحالة البديلة المحددة بشعورها بالملل. وبالتالي فإن بدا يومها فارغاً جداً، فسوف يكون لديها شيء ثمين لتصنع منه عبثاً، وهذا ليس رغبة بملء نهارها بل على العكس تماماً، عندما يبدأ صباحها مبشراً بكثير من الأحداث المثيرة، تبدأ بتخليص نفسها حسيّاً من جميع الالتزامات. لكن لنكون منصفين، هي تعمل بعناية صحيحة صارمة وشديدة الدقّة لاختيار الأعذار التي تشكل جهداً كبيراً على كاهل سكرتيرتها التي تستخدم الذرائع المنمقة كلها ببراعة مع الانتباه الشديد للصورة العامة التي ستُعلن عنها والتي ستبرر موقف السيدة.

"تشعر السيدة باربرا ستيفن بالندم لعدم التزامها بموعد القياس الأخير لثوبها، كونها تريد ترصيع حذائها بساعات ألماسية صغيرة في الكعب بغية حضور الحفل الخيري في السفارة البريطانية."

"ترغب السيدة باربرا ستيفن بإلغاء الغداء في (لارو) بسبب وصول ملك اليونان."

"ترجو السيدة باربرا ستيفن بلطف، السيد فيرنانديز أن يبلغ عقيلته الاتصال بها صباح الغد، وهي آسفة لأنها لا تستطيع حضور حفل الكوكتيل الذي يقيمانه كونها مرتبطة مع محاميها بقضية هامة."

"تتمنى السيدة باربرا ستيفن قبول اعتذارها لاضطرارها تأجيل زيارتها حتى تعود من (فيرساي) يوم الجمعة القادم، كما تطلب أن يوضع جانباً (مشبكا ورود التورمالين وقلادة كابوشون الزمرد) والتي أُعجِبَ بها الرسام بيرارد جداً."

سيجيب صاحب محل المجوهرات من الجهة الأخرى: "نعم بكل تأكيد، نعم بكل تأكيد، أنا متأكد من أنها تشير إلى قلادة عصر النهضة التي تحوي قنطوراً صغيراً. نعم، بالتأكيد، سوف نضعها جانباً."

سينهي الصائغ المحادثة ويقول في نفسه: "أممم –فيرساي .... لا بدّ أنه العشاء عند آل وينسر" .... لنرَ، في أي يوم سيكون العشاء؟ ..... السادس عشر، نعم، الجمعة. لكن في تلك الحالة لا بدّ أن تكون السكرتيرة مخطئة. لن تعود السيدة ستيفن قبل صباح يوم السبت. علينا أن ننتظر حتى يوم الإثنين أو نتصل..... لا، علينا أن ننتظر حتى صباح يوم الإثنين....."

كانت هذه الحسابات الصغيرة التي بدأت تتحرك في العقل البلاتيني العالي للصائغ عبر اتصال هاتفي، خصيصة من خصائص سكرتيرة باربرا ستيفن.

امتلكت الآنسة أندروز عقلاً مصوغاً من الصحف ومرصّعاً بشكل غير منتظم بمربعات سوداء حزينة، كما تحتوي مربعات رمادية قذرة وخربشاتِ قلم رصاص نصف ممحية لأحجية كلمات متقاطعة تم إهمالها. هي تستمدّ تقريباً فرحاً وحشياً من كونها قادرة على الإشعاع للحظة بعيون سيدتها عند قدومها مساءً لتتلقى أوامرها، عارضة بتملق إمكانياتها الميكافيللية التي تمكنها بوضعها العادي الحيادي من حياكة زخارف شفافة من الغباء لتُلبس الرغبات الاندفاعية العارية التي تلازم السيدة باربرا ستيفن دوماً.

ستقول الآنسة أندروز مبتهجة باكتشافها: " اتخذت على عاتقي الخاص مسؤولية إلغاء موعد يوم الجمعة، وحققت بذلك أربع نتائج مختلفة. أولاً: بإضافة هامش يومين لقرار المدام، ثانياً: بإبلاغهم موضوع عشاء المدام

مع آل ونسر في فيرساي دون الإشارة إليه، ثالثاً: إبلاغ آل فيرنانديز رغبتكِ بشراء تلك المجوهرات لأنهما سيذهبان غداً صباحاً لرؤيتها بعد أن لفتت سيسيل غودرو نظرهما لها. لا بدّ أن يصبحا مهتمين بها. وسيتم إبلاغهما حينها بأن السيدة باربرا ستيفن طلبت الاحتفاظ بها جانباً."

قاطعتها باربرا بوخزة صغيرة من الغيرة: "أنا واثقة من أنِ مدام غوردو قد سمعت بالأمر من بيرارد، لأنهم قالوا إنها بلا ذوق مطلقاً."

تابعت الآنسة أندروز بانتصار: "والرابع،"

"ما الذي تعنيه بالرابع؟" سألت السيدة ستيفن مستغربة، حيث كانت تتابع إسهابات سكرتيرتها الاجتماعية دون اهتمام، بينما كانت ترتدي روب الديشامبر المصنوع من الدانتيل والمرشوش بأزهار بنفسج كبيرة صارخة اللون. لبستْ هذا الروب (الذي يتعارض بشكل شنيع مع عفة غرفة استقبالها البيضاء المذهبة والمصممة من قِبَل جون ميشيل فرانك) بسعادة حبِّ الذات المشبع. تستطيع في حميميةَ غرفتها على الأقل وأمام سكرتيرتها الشاهدة الوحيدة على أسرارها، أن تُطلِق الميول الطبيعية لذوقها المقيت بحرية وبدون قيود.

"الرابع: الميزة الرابعة هي اختيار يوم الجمعة." استأنفت الآنسة أندروز حديثها واهتزّت كلماتها خوفاً من ألا تكون قادرة على الوصول إلى نهاية شرحها، "سيكون فيرنانديز يوم الجمعة على مائدة غداء سولانج دي كليدا حيث تعتذر المدام بشدة كونها لا تستطيع أن تكون موجودة بسبب عشاء آل وينسر! لا يمكن إلا أن يتكلم فيرنانديز معها بغيرة عن تبذيرك الأخير، وهكذا سيكون الوضع تماماً كما لو أنك كنت هناك."

"من أجاب على هاتف كارتييه؟ هل هو الرفيق القاتم الضئيل ذو اللكنة الإسبانية؟"

"أعتقد ذلك. كان لطيفاً جداً. قال مرتين: "أخبري المدام بأني تحت تصرفها بالكامل."

"تحت تصرفها بالكامل. نعم، إنه بالتأكيد ذلك الرفيق القاتم الضئيل. هل اتصلت بالسيد بول فاليري بخصوص دعوتي للغداء في العشرين من الشهر؟"

انغمست الآنسة أندروز مجدداً في التفصيلات المرهقة للميزات الدبلوماسية لأسلوبها في الاتصال الهاتفي، بينما بقيت باربرا ستيفين ورأسها بين يديها منحنية بانتباه حول جدول مواعيدها بعيون مغلقة، متخيلة وبدقة مذهلة يتمتع بها أفضل ممثل مسرحي، كل ردة فعل وانقباض وجهي سيظهر لدى ظهورها الجديد في باريس في دائرة معارفها، الذين أُحيطوا علماً مسبقاً بنشاطاتها الأخيرة من خلال الحماس المذهل لسكرتيرتها. درست بعدها دورها بما يتناسب مع كل ظرف من الظروف، كما ألزمت نفسها، لأنها لم تكن راضية، بالبدء من جديد بالحركات نفسها مئات المرات، التكشيرات والتواءات الصوت والدخول والخروج والدخول مرة أخرى بطريقة خيالية وبلا كلل بغية الوصول إلى الكمال. كان مرهقاً! عندها فقط تجرأت على أن تبقى وحدها وتصبح بدورها، المتفرجة على ذاتها.

تخيلت أن دخولها متجر كارتييه سيجعلها تحتل صدارة الحديث في عشاء فرساي، والذهاب إلى آل فيرنانديز على أنه مطرقة الأثرياء، ولصانع الأحذية كما لو أنها (دوقة كينت). كانت أشياء مثيرة للعجب: بالرغم من أن باربرا لم تأخذ تلك التأثيرات بالكثير من الجديّة، فقد كان من المؤكد أنها تحصل على أعظم مداهنة حماسية من أصحاب المتاجر، وأسرع تصفيرات لاستدعاء سيارة، وأكبر انحناءات من حراس الأبواب وأشخاص من المجتمع: وكل ذلك يساهم بجعلها غير واثقة من نفسها ويجعلها تتساءل باستغراب: "ألست مخادعة بكل ما أتصرفه؟"

قالت باربرا مختصرة ثرثرة سكرتيرها التي لا تنضب: "يكفي يا عزيزتي، أخبريني، ما الذي يخبئه القدر لنا لهذا اليوم؟"

إنها تعرف، يا للأسف! كانت تحضّر نبرة صوتها ليكون ردّ فعلها طبيعياً.

أجابت أندروز ببعض الارتباك: "ليس هناك من شيء سوى القياس وتصفيف الشعر في السادسة والنصف."

تنهدت باربرا: "يوم من السعادة على الأقل!"

كانت الآنسة أندروز تقف وقدماها متلاصقتان بصلابة عسكرية تنتظر أمراً بالانصراف، كان وجهها المشعّ والصغير ذو اللون الورديّ، له الشكل نفسه الذي لإصبع قدم صغير مع سنّ ملون بالأخضر – هذا هو الظفر الصغير – موضوع في الوسط.

"تستطيعين الذهاب – شكراً لك. سأراك في الغد."

دخلت فيرونيكا في هذه اللحظة إلى الغرفة وقبّلت والدتها من زاوية فمها. تنهدت باربرا مرة أخرى مراوغة القبلة وهي تقول: "سنكون بالحد الأدنى قادرتين على قضاء يوم سعيد معاً، لكنيَ سأذهب إلى مصفف الشعر البليد على أية حال بدلاً من البقاء هنا واللحاق بمراسلاتي. في الواقع، كانت تمقت في أعماق نفسها أسلوب مصفف شعرها الجديد البارد جداً في معاملة الجميع على حد سواء، وسوف تغمرها السعادة إن تجنبت الموعد مع هذا المتمرّد .... "الشيوعي بدون شك،" لكنّ الفراغ المخيف لنهاية يومها ربطها بيأس مع هذا الموعد: بعد مصفف الشعر ليس هناك من شيء! نظرت بمكر واستياء إلى الهاتف الذي اهتزّ وأعطى إشارة خجولة دون أن يكمل والذي جعل الصمت الكامل المميت لهذا الصباح يخفق فوق قلبها الفارغ سلفاً بشكل مؤلم. شعرت بوجهها يصبح شاحباً وأدارت وجهها بقرف عن المكان الذي انهار فيه الهاتف كجراد بحر أبيض نائم ساكن عديم الحركة، عَلِقَ بغباء بشوكته غير قادر على القدوم لنجدتها.

قالت باربرا: "كم هو مريح، صباح بدون مكالمات هاتفية."

أجابت فيرونيكا: كيف تتوقعين ورود هاتف؟ لقد ذهب الجميع إلى الريف."

"لماذا، في هذه العطلة؟"

"إنها نصف عطلة. بعض المحلات مفتوحة، لكن الناس قد غادروا. بالمناسبة، يوجد فيلم جديد (لفريد أستير)." ألقت فيرونيكا ذلك الاقتراح من أجل المرح في إغاظة والدتها.

"عليّ أن أقول لا، ولا حتى من أجل أي شيء في العالم!" انفجرت باربرا بإزعاج بينما أسرعت بعجالة لتستعيد مبرد أظافرها الذي اكتشفت وجوده للتو في يد ابنتها.

كررت الفتاة نبرة صوت والدتها وقالت: "عليّ أن أقول لا! تعرفين أن معلم المناكير يمنعك من لمس يديك."

وافقت باربرا عابسة وعادت لتستلقي على الأريكة.

"أستطيع تحمّل معلم المانيكير وهو يثير أعصابي، يمكنني تحمّل الآنسة أندروز وهي تثير أعصابي، يمكنني تحمّل ابنتي فيرونيكا وهي تثير أعصابي، لكن ليس (فريد أستير) — كفى رقصاً نقرياً، يمكنني تحمّل أي شخص يثير أعصابي، لكن ليس بقدميه!"

وخلال لحظة، أصبح وجه باربرا يرتعش بعصبية خفيفة، بدا وكأن المرء يستطيع رؤية عناكب رمادية صغيرة من عدم الرضا تركض بجميع الاتجاهات على بشرتها اللؤلؤية المعتنى بها جداً. جلست فيرونيكا بجانبها دون حركة، وبعينين مسمّرتين، هي قادرة على الشعور بعيني والدتها تتحركان وتترقرقان بالدموع وتتوقع منها أن تبكي. لدى باربرا ستيفن تلك المَلَكة لإظهار حالة انفعاليةٍ عابرةٍ تمنح تألقاً لوجوه معينة، حيث تعزّز ندى الدموع الكبيرة السطحية وتصقل ظلال الإحساس تيزيل بالوقت نفسه أقل أثر لغبارها. كانت في الثالثة والأربعين، لكن أنفها المدبب كازميل كان في السادسة عشرة، والغمازات المخضبة بالأزرق على فمها كانت تقترب من الثانية عشرة.

هل كانت جميلة فعلاً؟ إنها تعطي انطباعاً معاكساً تماماً. يبدو أنها كانت جميلة مؤخراً فقط وهذا صحيح تماماً. كانت بشعة كطفلة، مقبولة في الوقت الذي تزوجت به، جميلة البارحة، ساحرة اليوم، كانت واحدة من أولئك الشخصيات النادرة القادرة بطبيعتها الجوهرية تحديداً على جميع التحولات والتجددات التي تَعِدُ بها صالونات التجميل من غير تكلف. يستطيع وجهها من خلال حاسة تقليد متأصلة لديها أن يستحضر بدقة مخادعة أكثر التعابير عدائية من أي شخصية كانت — رجلاً كان أم امرأة، أو حتى حيواناً. لقد أهدرت وهي تنغمس في أساطير متاجر الأزياء، كل مَلكاتِها بالمحاكاة في تلويث نفسها بشكل متعمد بمزايا وسلوك الشخصيات الهامة التي نجحت بأن تذهلها بافتتان في ذلك الوقت: وبالتالي فإن (باربرا ستيفن) في سباقها المسعور لتبديد شخصيتها، أنفقت ثروات من طاقتها في التماثل مع جميع النساء الجميلات في عصرها، بينما حافظت لنفسها فقط على ما هو ضروري بشدة لتبقى على قيد الحياة. كل ما كان طبيعياً بها كان محدوداً — ساقاها كانتا قصيرتين نوعاً ما، جبهتها كانت صغيرة، كانت ممتلئة الجسم بدون ضخامة وشقراء مقبولة. أي تباين يمكن أن يكون أكثر إذهالاً من تلك الوفرة من الجمال التي تبدو على ابنتها.

كانت فيرونيكا شقراء، لا يعود الفضل في ذلك إلى شعرها الذهبي المتموّج كشلال على كتفيها، بل بسبب الضياء المنبثق من كامل جسدها. تبدو عندما تكون مع والدتها وكأنما أعارتها بعضاً من شقرتها، وعندما تكون وحدها، تبدو كأنها تجعل الأثاث المحيط بها أشقر. لديها على العكس من باربرا حاجبان كبيران هادئان وساقان طويلتان مكتنزتان قليلاً، وكأنهما قطعتان فنيتان منحوتتان لم يرهما أحد أبداً، لأن المرء لا يستطيع إشاحة نظره عن عينيها أثناء حضورها. لا يستطع المرء منع نفسه من النظر في عينيها لأنه يرى في نظرتها فراغاً مطلقاً، كانت عيناها اللتان لا تعرفان الدموع ولا العبوس ثابتتين جافتين كصحراء هائلة، وكان البؤبؤ بلون أزرق شاحب لدرجة يندمج فيها مع البياض، وقد لمع في عمق عينيها وأفقهما

الشفاف ضوء قمر وغبار ذهبي. كان عيب باربرا بامتلاكها ساقين قصيرتين نوعاً ما، طريقة الطبيعة الحقيرة بدون شك لتقريبها من الأرض وجعلها أكثر إنسانية بالوقت نفسه. لم تكن فيرونيكا من جهة أخرى بحاجة لساقيها الطويلتين الإلهيتين لترفع قلبها إلى مستوى مختلف. كانت واحدة من أولئك الذين يدوسون المشاعر الإنسانية بأقدام الظبي الخفيفة. باربرا مثل معظم المخلوقات الضعيفة، معدّة بلطف للمسامحة والشفقة وكانت قاسية فقط من دون وعي منها. وبدون أن تكون قاسية، كانت فيرونيكا لا جيدة ولا سيئة مثل آلهة أوليمبوس القديمة، وهي كجميع المخلوقات المنافسة المنتمية إلى النخبة، عديمة الرحمة وانتقامية وعرضة للانفعالات المتعذر إصلاحها. كانت الجُندُب الذي يلتهم حبّه عبر حاجة بيولوجية للمطلق.

شعرت باربرا بنظرات ابنتها الاستفهامية تستقر عليها. لكنها كانت متعلقة بتلك النظرة، لأن شفافيتها القابلة للقياس كانت أشبه بثقّالة ورق كريستالية موضوعة على رقّة مشاعرها المكتوبة على منديل عبثها المرفرف. أكثر ما كان يعلّقها بنظرة ابنتها، هو إمكانية الحاجة لها في أية لحظة تحدث فيها أزمة في الوقت الحاضر. هي لا تتوقع من نظرة ابنتها الصلبة أي عزاء، لكنها مع ذلك، تحب أن تشعر بوجود أحد ينظر إليها في الوقت الذي تبكي فيه كونها الطريقة الوحيدة التي تستطيع بها مقاربة الشعور بالأسف على نفسها. وبينما تنتظر مشهدا كهذا، استعادت دفتر مواعيدها ووضعته في حضنها وأسندت مرفقها على مسند الأريكة وجعلت جبينها بين يديها، عيناها مفتوحتان بشكل واسع، وتركزان على الصفحة المفتوحة عشوائياً دون أن تريا شيئاً. ترى حالياً ومن عتمة ذهنها، قبعة صغيرة تبرز، قبعة باللون الأزرق العنيف الذي ظهر لها أحمر: وكأمر واقع، ظهرت باللون الأحمر فقط لأنها كانت حمراء، كان الشيء الوحيد الأزرق فيها هو الطرحة الشبكية المتدليّة فوقها. لمعت القبّعة بذهنها لوهلة وبشكل مشابه للمعان شرارة كهربائية تتغير من اللون الأزرق إلى الأحمر بسرعة هائلة، حيث لا

يستطيع المرء بعد اختفاء الشرارة تحديد اللون الذي لمحه أولاً. بالإضافة لذلك فإن الظهور اللحظي المسبب للعمى لتلك القبّعة، كان كافياً لإضاءة وجه المرء الذي كان يرتديها، وبما أن باربرا لاحظت ذلك الشخص، فقد أطلقت صرخة من الخوف ونطقت اسمه: "السيد رينولدز!"

قالت تاركة يديها تتدليان على الأريكة بحركة مسرحية بدت من خلالها وكأنها تتوسل شفقة من فيرونيكا التي ابتسمت لها بطريقة تميل إلى الخبث أكثر منها للحنان: "لقد نسيت تماماً أن لدي موعد عشاء هذه الليلة مع آل رينولدز"

تابعت باربرا: "لا أستطيع الانسحاب من العشاء عند آل رينولدز، فأنا مُتّهمة سلفاً بإهمال أصدقائي الذين هم من بلدي. مع أنني أحبهم، لكنهم سذّج! لا أرغب بأن أكون قادرة على الكذب دون أن أنتبه لنفسي. تذكري ذلك يا ابنتي: من أجل أن تنطلي الكذبة علينا، لا بدّ لنا من أن نكون قادرين على الكذب على الآخرين كما نكذب على أنفسنا."

بما أن ليلتها قد تحسنت فقد استعادت خفة الدم والطيبة والجمال، واستعادت روحها سكوناً رائقاً جعلها تتثاءب مطولاً بامتنان وبشكل تزّم فيه فمها. جعل هذا التثاؤب المكبوت شفتيها ترتجفان تدريجياً، وكان إشارة إلى أنها ستتخذ قراراً بعد انتكاسة أخيرة في الكسل.

صرخت وهي تنهض: "يا إلهي."

هامت في الغرفة بلا هدف مستمتعة بالسكون الذي كان منذ قليل سبباً لعصبيتها، وكانت مستعدة حتى للشعور بالتسامح حول لوحة (المهرّج) التكعيبية التي رسمها (بيكاسو) والتي كانت قد دفعت مقابلها الكثير دون رغبة منها.

قالت: "أتعلمين ما الذي ذكرني بعشائي؟ لن تستطيعي التخمين — بيكاسو! الألوان نفسها تماماً التي لقبّعة السيدة (رينولدن)، تلك التي

كانت ترتديها في اليوم الذي دعتني فيه عندما التقينا في صالة الفندق: اللون الأزرق نفسه، والأحمر الناري نفسه.......»

عند ذلك، أخرجت باربرا مجموعة من الصور الخاصة بها والتي لم يتسنَّ لها الوقت الكافي لتراها، من مُغلف ثم أعادتها على الفور إليه ووضعته مؤقتاً على المغسلة عندما دخلت الحمّام. عادت بعدها إلى الغرفة تبحث عن شيء آخر مترددة ما بين كتاب ألماني عن مجوهرات النهضة وعدد الأحد الماضي من صحيفة (نيويورك تايمز). وأخيراً اختارت الصحيفة وتوجّهت نحو الحمام. أقفلت الباب هناك وبقيت زمناً طويلاً نسبياً، ثلاثة أرباع الساعة.

وجدت في فترة بعد الظهر وقتاً لتختار ما بين ثلاثة أنواع من الكوكتيل، وذلك لأنها دعت صديقين فينيسيين قابلتهما صدفة ليرافقاها إلى بار (ريتز) لمدة ربع ساعة، مستبدلة هذا بموعدها مع مصفف الشعر الذي كانت قد ألغته. ربما يجب القول أنه من هذه اللحظة، كان وقتها منظماً بدقّة مناورات عسكرية: أربع وعشرون دقيقة لتصل إلى ضاحية (نيولي)، عشر دقائق لتستمتع بالكوكتيل ومن ثم العودة إلى (ريتز)، ثماني دقائق لتغيير الملابس، ومن ثم ظهوران إضافيان مدّة كل منهما خمس دقائق من أجل كوكتيل نهائي، وأخيراً من أجل آل رينولدز والتي وصلت إليهم متأخرة لمدة ثلاث وعشرين دقيقة.

عادت فيرونيكا إلى الفندق وحدها في السادسة مساءً، وأدركت من ثبات الفوضى في غرفة المعيشة أن والدتها قد غادرت منذ وقت طويل. وعلى الفور، تمددت على الأريكة نفسها التي تمددت عليها والدتها معظم فترة الصباح. خططت لتناول عشائها هنا في وقت لاحق والذهاب بعدها مباشرة للنوم. كانت تودّ لو تتعرى وترتدي روب الديشامبر المنشّى الطويل والناعم جداً وآخر مكتسباتها من والدتها. كانت في أول يوم ارتدته قد ردّت على ملامة والدتها بسببه قائلة: "إنها المرة الأولى في حياتي، التي أُدرك فيها ما هو الشعور بالعري الكامل". تحتجّ باربرا دوماً عندما ترى ابنتها عارية في غرفتها، لكن عُريها بدأ يتحول إلى سعادة منذ اكتشاف هذا الروب، وذلك

بسبب الاتصال المباشر بين جسدها المشدود والقماش الزَلق الأبيض تماماً والقاسي قليلاً. لقد طلبت تنشية ملاءاتها بكمية كبيرة من النَشاء، وبحيث تعطي صوتاً يشبه الكرتون عندما يضربها المرء بإصبعه. تنتظر برزانة طوال اليوم هذه اللحظة المبهجة عندما يُنهكها التعب بعد التسوق وتُزلِقُ جسدها العاري في الروب المنشّى وتأكل تفاحةً.

لكن شيئاً منعها من تغيير ملابسها على الفور، وهو واحد من تلك الهواجس التي كانت اعتيادية بالنسبة لها. كان لديها انطباع غريب وثابت ونقي جداً يقوم على أن شخصاً ما سوف يأتي ويدعوها في اللحظة الأخيرة ليأخذها. قطبت جبينها بتعبير عنيد ومزاج عكر يميزها، ولم تكن تكشيرتها ناتجة عن صداع نصفي ولا عن حزن، لقد كانت مجرد انقباض بسبب تركيزها الدائم حول ما كان سيحدث لها. وبالرغم من استغراقها العميق بأفكارها، خلعت حذاءها وضغطت بيدٍ واحدة على تفاحة شاحبةٍ كان لها بريق جبينها ذاته. بينما كانت تحمل سكيناً باليد الأخرى، ناضلت إحدى قدميها بمثابرة لتوسيع الفتحة في جوربها لتصبح كبيرة بما يكفي لانزلاق إصبعها عبرها وبدت كما لو أنها إشارة تنتظرها لتبدأ تقشير تفاحتها، وبكلمات أخرى، تقشير حياتها. من خلال أسلوبها الحازم الهادئ، يمكن لأي ريفيّ متواضع من سهل (كرو دي ليبرو) أن يتنبأ بأن أول رجل تلتقيه في حياتها سيكون رجلها وسوف تتزوجه[1]. لأن فيرونيكا كانتْ واحدة من اللواتي عندما يقشرن تفاحة يقمن بالعملية حتى نهايتها بانتظام أكيد ومهارة مذهلة، يمكنهن ألا يقمن بأي "قطعٍ" في قشرة مصيرهن مهما كان تقشيرهن رقيقاً. ليس هناك في العالم رمزٌ أكثر قوة وحقيقة من هذا الرمز، لأنها تعلمت من جديد وبفضل (سيغموند فريد) أن الحركات الآلية، وهي ترجمة (للغة الوعي الباطن)،

---

[1] بالنسبة إلى خرافات الريفيين القدماء، "إن قامت فتاة بتقشير تفاحة واستمرت إلى النهاية دون أي قطع أثناء نزع القشر، فسوف تتزوج أول رجل تقابله.

تكشف دائماً وبشكل نبوئي أسرار أرواحنـا. نعـرف الآن وبشـكل مؤكـد أن الفتـاة الـتي تقشـر تفاحـة وتمضـي إلى النهايـة دون حـدوث أي انقطـاع، تعطي الـدليل علـى ثبـات شخصـيتها ورزانتهـا تمامـاً كمـا يحـدث عنـدما تواجه الرجل الذي عليها تقشير علاقتـه العاطفيـة بهـا، سـوف لـن تقطـع أبـداً أنشـودتها الرعويـة، وسـوف تصـل بهـا إلى نتيجـة نهائيـة سـعيدة. وعلى العكس من ذلك فإن الفتاة التي تقطع قشرة تفاحتهـا إلى آلاف القطـع المتفاوتة سوف تتصـرف بالطريقـة نفسـها مـع حبهـا لكونهـا غـير ثابتـة، سوف تقطـع علاقاتهـا كلـها. سـترى في نهايـة حياتهـا، بـدلاً مـن المسـار اللحني المستمر لسلوكها، قشرة قدرها ممزقة عند قدميها إلى آلاف المزق.

بدون أدنى شبهة حول العملية السحرية الـتي كانـت تؤديهـا، ومـع تأكيد لا تشوبه شائبة، فقد قشـرت مـن بـين كـل الفواكـه المتاحـة، الفاكهـة المحمّلة بالكثير من الرموز[1]. إن فيرونيكا التي ستكون علـى الأرجـح أول مـن يضحك على هذا النوع من التفسـيرات، كانـت تشـعر بهـا في كـل خليـة مـن كيانها العضوي الذي لم يُمسّ. هـي تعـرف أن أول حـبّ سـيولد في حياتهـا سيكون نهائياً، وهكذا ستشكل أبسط المشاكل تهديداً بأنها قاتلـة وغـير قابلـة للإصلاح. هي لن تصلح ولن تبدأ من جديد: حياة واحدة ومسار واحد للكمـال المطلق. لكن شبح الرجل لم يكن وشيك الحـدوث حتـى الآن، وكانـت تعـرف تقريباً اللحظة الـتي سـيحدث بهـا. سـوف تقابلـه في هـذا الصـيف، حـوالي نهاية الصيف، وعلى الأغلب في بداية شهر أيلول.

---

[1] تفاحة الخطيئة في الجنة الأرضية: أدم وحواء.

تفاحة الجمال في محكمة باريس.

تفاحة التضحية: حكايات وليام وابنه.

تفاحة الفيزياء: قانون نيوتن في الجاذبية.

وبينما كانت تنتظر الحب، تخيلت بحماسة علاقة صداقة مع امرأة، وأرادتها أيضاً أن تدوم طوال حياتها، مخلوقة جميلة تشعر بمثل شعورها، مكبّلة بجسدها، تحميها كدرع مزدوج من الروح والجسد في توقع لمحنة ضخمة. أرادت المرأة الصديقة التي ربما تتشارك معها الربيع المضني لشغفها وضراوة معانقات منتصف الصيف وحزن المداعبات الخريفية. يجب أن تكون الصديقة المرتقبة ضعيفة مثل أمها ولا تشبهها بالوقت نفسه، يجب أن يكون فمها كبيراً ولديها تفان عظيم، ليس هناك من رعونة ولديها يدان معتادتان على السعادة وخبيرتان بها وقادرتان على إرشاد ذراعيها، حازمتان لكنهما ربما ترتعشان في اللحظة القصوى من العناق الجنسي المهلك. لأنها كانت تُعدّ نفسها لتكون الضحية المقدمة كقربان، مثل الكائنات الأسطورية للأديان الدموية لحضارة الأستيك، كانت تجلس منتظرةً في ظلال البرودة الخصبة لشجرة دمها العظيمة، وأصبح جمودها المشلول كالهدوء الذي يسبق العاصفة. كانت تستعد لمحنة تقديم حياتها الكبيرة مسلحة نفسها بقوة خطيرة، لأنه عند أبسط إحجام من شريكتها عن إنهاء الطقس الخاص باقتلاع قلبها، تعرف أنها قادرة بنفسها على اختتام ذروة عناقهما المطلق بقوة فكيها، وبالتالي تختتم بموت واحد منهما ميثاقها بالامتثال لقوانين قواعد حبها العظيمة.

وبالتالي فهي تحتاج لأكثر من امرأة صديقة من منزلة عالية جداً، تحتاج إلى امرأة معقدةٍ تكون الأم التي تصرّح عن نشوتها في مراقبة شغفها، والزهرة العذراء لطقوس تضحيتها والعبدة الشهوانية التي تكشف أسرار (التلقين)، وتكون الرسولة من الجنة وقدّيسة إيمانها.

كانت حتى هذه اللحظة من حياتها، كلما رغبت بشيء بشدّة، يأتي قدرها لإنقاذها على هيئة خطر موضوعي، وهو يأتيها في الساعة نفسها من موضوع أمنيتها تحديداً. ومرة أخرى في هذا اليوم، هذا المساء وفي الوقت الحاضر، كان ذلك الخطر يستعدّ لاتخاذ شكل مادي لتحقيق أمنيتها.

رن جرس الباب ولم ترتجف، وبدون أن تنتظر من الآنسة أندروز أن تعلن من هو القادم، قالت: "دعيها تدخل!"

كانت بالتأكيد هي بيتكا!

كانت بيتكا ذات فم كبير وترتدي معطفاً مطرياً. تصل من الشارع حرارة خانقة، والمناخ الثقيل للعاصفة التي لم تتخذ قرارها بالنزول حرّة فوق باريس منذ ثلاثة أيام، شحن شعرها الأحمر الثقيل بشحنات كهربائية.

قالت فيرونيكا وهي تلبس حذاءها من جديد بتأنٍ: "ما الذي ترغبين به؟"

"أردت أن أتحدث مع السيدة باربرا ستيفن. هل لي أن أقدم نفسي؟ أنا الشابّة التي كتبت في الأسبوع الماضي كامل الدعوات لحفلة ظهور فيرونيكا ستيفن. هل أنت فيرونيكا، ألست أنت؟"

أومأت فيرونيكا برأسها.

"عبّرت والدتك عن رضاها عن عملي بالإضافة إلى نيّتها باستغلال خدماتي قريباً مرة أخرى......... صحيح أني قمت بشكل جيد بكتابة تلك العناوين كلها حتى اللحظة الأخيرة من ليلة واحدة وباليد، كما كان عليّ أن أطابقها مع الآنسة أندروز واحداً واحداً..... لذلك آمل أني ربما أكون قادرة على أن أكون مفيدة مرة أخرى......"

انتظرت فيرونيكا لوقت طويل دون أن تجيبها وذلك لتكون على ثقة تامة بأن ارتباكها يحتوي ضمنياً على مطلب. وعندها، حثّت علاقة صداقتها المؤكدة سلفاً حدسها لكنها جعلت نفسها تتشوق عبر التخمين.
"نعم، أخبرتني والدتي أنها ستوظفك مرة أخرى وربما بطريقة منتظمة أكثر، سأكون سعيدة في غضون ذلك بإعطائك دفعة مسبقة على راتبك القادم..... أو، لا! هذا طبيعي تماماً، أنا نفسي أفرّغ جيبي من المال دائماً!؟ وبينما بدت بيتكا محتجّة اختتمت فيرونيكا: "عليّ أن أصرّ فعلاً، هذا يَعني لي الكثير، أود أن أجعلك سعيدة إلى أبعد حدّ!"

أصيبت بالدهشة من الصرامة القوية والصدق بلهجة فيرونيكا.

قالت بيتكا: "لا، لا أريد دفعة مقدمة على مرتبي. يمكنني إعادة هذا المبلغ لك خلال يومين تماماً، أحتاج فقط لما يكفي لإرسال برقية إلى أهلي في بولندا."

سلّمتها فيرونيكا على الفور دفتر برقيات فارغاً واستولت عليه بيتكا بشوق، بينما سحبت في الوقت نفسه معطفها المطري بسرعة كبيرة لدرجة مزقته فيها. ردّت للخلف شعرها الذي كان ينسدل على عينيها طوال الوقت وأعادت بيديها المرتعشتين بلوزتها التي انسحبت مرة أخرى من تحت حزامها كاشفة جزءاً معيناً من بطنها العاري الذي حاولت إخفاءه عبثاً. نظرت فيرونيكا بحالة من الذهول إلى تلك الدوامة من الحياة الفوضوية الصريحة التي لا يمكن مقاومتها والتي بدت وكأنها في حالة عذاب مخاض دائم – جسدٌ مستعر– ضغطت بشفتيها بينما هي تنظر إليها على مشرب السيجارة الذهبي عاضّة عليه بأسنانها حتى تركت أثرها عليه.

مع شعورها بمراقبة فيرونيكا لها، خفّ الاضطراب في حماسها وأصبح واضحاً بعدها أنها تبذل جهداً لتحافظ على هدوئها. جلست بطريقة عملية أمام المكتب وبدأت بنظرة قلقة تملأ ورقة بيضاء ثم تمزقها وترميها غير راضية عما كتبته بها، وتبحث في كل مرة بعينين متوسلتين مليئتين بالاعتذار وتواجه نظرات الأخرى الخالية من التعاطف. من النادر جداً أن يبتسم وجه فيرونيكا ولكن عندما يحدث هذا – ليس لأكثر من مرتين أسبوعياً– تصبح ابتسامة الملاك الحزينة مشعّة بأنوار سماوية تغير مظهرها لثوان، حتى أن من يراقبها في تلك اللحظة سينتظر تكرار تلك الابتسامة ليقنع نفسهً بأنه لم يكن ضحية وهم. في هذه الليلة ومنذ دخول بيتكا ابتسمت بتلك الطريقة أربع مرات. ربما يقول المرء إن بيتكا عاشت خلال تلك الفواصل فقط لتنتظر ظهور ذلك الضوء من جديد، والذي بدا وكأنه يجلب الدفء إلى جفنيها كما تكون الحالة عندما يقترب المرء من بوابات الفردوس.

"اقرئيها،" قالت وهي تسلِّم البرقية إلى فيرونيكا التي ما إن أخذتها حتى أغلقتها ووضعتها على المكتب، فالتقطتها هي مجددا وقرأتها بصوت عال: "لم أتقاضَ أية نقود منذ ثلاثة أشهر والحياة صعبة جداً، أرجوك أخبِّرني الحقيقة بخصوص زواج (أجيل)، لدي الحق بأن أعرف. ابنتك (بيتكا)" متبوعاً بعنوانها: "17 كو ديس أورفيفر."

أضافت وهي تضع البرقية على المكتب وتلتقط معطفها فجأة: "كان (أجيل) خطيبي"

"شكراً لك، شكراً جزيلاً لك!" قالت هذه العبارة وانكمش وجهها الناعم من المعاناة. كانت جميلة كما ستكون لوحة (دولوروسا) التي رسمها (برنيني) لو أن موضوعه كان يشبه بيتكا، المراهقة ذات الصدر النضر جدا. كانت في الثامنة عشرة.

نهضت فيرونيكا وقبّلتها.

"انتظريني للحظة، سوف نتعشى معاً!"

بدأت العاصفة مترافقة مع وابل من قطرات مطر صمغيّ في اللحظة التي توقفت فيها سيارة الأجرة أمام مطعم (تورجان). بمجرد اجتيازهما الرصيف كان المطر قد أغرقهما حتى العظم وشعرتا بتلك البرودة المفاجئة الممتعة للهطول الشره لأمطار الصيف، والذي جعلهما ترتجفان وكأنهما تسلقتا قمة البرج. جلستا هناك إلى الطاولة التي اختارتها فيرونيكا عمداً لكونها كبيرة جداً ولا تسمح بالحميمية، لكنها من جهة أخرى تقف أمام أصوات الطقطقة الافتتاحية للنار الخشبية التي تم إشعالها بشكل سريع في اللحظة التي انفجرت فيها ضربة الرعد الأولى. تحدثتا قليلاً في بداية عشائهما وكأنهما قبطان سفينة مع مساعده الجديد يتناولان وجبتهما الأولى معاً في مساء اليوم الذي رفعت فيه سفينتهما مرساتها برحلة بحرية طويلة. راقبت كلٌ من بيتكا وفيرونيكا بصمت في أعماق عيني الأخرى، الأثرَ المتراجع لزبد الوهم الضاحك الذي أثاره القليل الذي عاشتاه معاً خلف الدفة المغطاة بالطحالب المعتمة.

عاشت بيتكا، التي لازالت غير مدركة لحقيقة أنهما قد بدأتا رحلة بحرية مشتركة، والتي بدا اللقاء لها للحظة كسراب، بدت كل ثانية كما لو أنها معجزة، كانت تمنح كل شيء في كل نظرة من نظراتها: الشعور، السعادة، وحتى الندم.

كانت فيرونيكا على العكس تماماً. "هادئة ومركّزة مثل تمثال أعمى،"[1] حافظت على ضبط مظهرها جليدياً لا مبالياً وبعيداً جداً عن كونه جفافاً من القلب، لم يكن سوى ضرورة لتقسيم اللامبالاة إلى شرائح صغيرة تتناسب مع كل ثانية من ثواني حياتها المليئة بالشغف المستمر وغير المنقطع. هي لن تحبّ أكثر مما أحبّت في هذه اللحظة وسوف تعيش دورتها الطويلة. كانت بيتكا، العثة المسكينة! من جهة أخرى، تضحك لدى كل واحدة من نظرات فيرونيكا الفولاذية بينما تطحن أسنانها النقيّة بوحشيّة سويقات الكرفس التي تتكسر في فمها كرقاقات ثلج الربيع.

"أحب فمك الكبير،" قالت فيرونيكا، تاركة النهم المسعور تقريباً والطفولي، معلقاً.

"كبير جداً!" قالت الأخرى.

"نعم، كبير جداً نوعاً ما،" تابعت فيرونيكا بتحفظ مراقبة أثر موافقتها.

"أنا أعرف، مرعب!" هتفت متنهّدة محبطة وأوشكت أن تبكي.

طمأنتها فيرونيكا: "يا ملاكي، ألا تعرفين أنك تحظين بجمال سماوي؟"

أجابت بنبرة ناعمة: "نعم، أعتقد ذلك! أنا لا أعتبر نفسي بشعة، وربما يسعدني مجرد النظر إلى واحدة تشبهني.... أنا لا أهتم بفمي وأبغض لون شعري...... وأحب الباقي وخاصة جسدي. لكن بالنسبة لي، سأفضل أن أكون مثلك."

---

[1] العبارة مُقتبسة من فيدريكو غارسيا لوركا، متحدثاً عن صديقه.

أجابت فيرونيكا بنظراتها التي تاهت فجأة: "الأمر بالنسبة لي هو العكس وحسب. أنا لا أحبّ نفسي إطلاقاً، لكن أودّ لو أجد الشخص المشابه لي تماماً والذي سوف أعبده."

فضّلت بيتكا أن تتهدهد بذلك الثمل الذي أوصلته لها شخصية فيرونيكا، بدلاً من محاولة فهم واكتشاف المعنى الغريب والمنذر بالسوء بطريقة ما من نبرة صوت الأخيرة. بدت بيتكا مُصغية بشفتيها اللتين كانتا مفتوحتين قليلاً في براءة عذرية نصف منتشية، والتي تخدع بهما السمة المادية البارزة لكل مشاعرها. كان هذا التعبير الذي كان مألوفاً وثابتاً لديها يتحول إلى تكشيرة بتأثير أي انفعال، وكان من الصعب بعدها التمييز بين ما إذا كانت تعبّر عن سعادة أم عن ألم، عاش هذان الطاغيان بشكل متداخل جداً في مكونات شخص واحد يعيش في جسدها. ومع ذلك، تُظهرُ سعادة مكثفة نفسها فيها من خلال تقلص عنيفٍ لعضلات وجهها مَعدِدة فمها إلى الحدّ الأقصى في ضحكة تكشف اللمعان الشديد لأسنانها. وجعلت جهودها اليائسة للحفاظ على فهما مطبقاً تعبير السعادة عندها جنونياً بشكل جذاب ومؤثراً بشكل لا نهائي.

سُكِبَت الشامبانيا. تغنجت فيرونيكا في كرسيها كما لو كانت توشك أن تثب على صديقتها، لكن شعور الثانية الواثق والمسالم جداً جعلها تستمر بتأجيل لحظة الهجوم بفرحة شهوانية. أخيراً تحدّت الخط الفاصل بسؤال كانت قد فكرت به طويلاً: "أخبريني، يا عزيزتي، هل أنت عذراء؟"

لم تجب ونظرت إليها بوجهها المحمر كالشوندر، بشكل متواضع لكن بكبرياء مما زاد في جاذبيتها.

"كلي!" صرخت فيرونيكا بها مع تنهيدة، بينما تقطع الخيط الذي يمسك قطعة صغيرة من لحم الخنزير المقدد تعلوه حبة من عنب (الموستكات) من بين ساقي طائر السمان المشرّب بالروم. استولت فيرونيكا بخفة على العنب بشوكتها وقدمته لبيتكا كما لو كانت تعزيها.

"خذي يا ملاكي، أمسكي هذه!" حنت بيتكا رأسها للأمام وسحقت حبة العنب الحلوة الناعمة بين أسنانها، بينما انهمرت دمعتان مريرتان على وجنتيها. عرفت فيرونيكا بشكل واضح تماماً أنها لم تكن عذراء! لكنها شعرت بالسلام الآن لنجاحها السريع والسهل في جعلها تبكي.

لمكافأتها، ستثق بها على الفور، ولاحقاً مع طبق الحلوى، كانت ستمحو كل أثر للمرارة جاعلة الموكب المسحور لمخيلتها المغوية الذي لا ينضب، يمر أمام عينيها الذاهلتين كما تفعل عندما تبدأ بعملية المراضاة والاستعباد.

أبعدت فيرونيكا كرسيها قليلاً عنها، متخذة قراراً باللجوء إلى هذه الوسائل الساحرة متمنية لها التقاط التأثير الكامل لبادراتها المتهورة وغير المفهومة غالباً والجذابة دوماً مثل تلك المستخدمة في السحر، وتركت نفسها متخلية عن جمودها الاعتيادي، تقوم بعرض مذهل من المحاكاة غير المفهومة. قالت بنعومة: "أنا عذراء،" وبنبرة تلميح مزعجة وبنعومة أكثر "أقسم أني عذراء! ومع ذلك أنا لا أبكي، كما ترين!" وبحركة مهيبة تظاهرت بمسح عينيها لتُظهِرَ أنهما جافتان.

ضحكت (بيتكا).

تابعت (فيرونيكا): "والآن، انظري إلى الدليل على ما أقوله لك،" ورفعت ببطء شديد يدها المغلقة حتى أصبحت أعلى من رأسها ومن ثم فتحتها بخبث، هزّت بشكل جدّي خاتمها الذي كان ملفوفاً بضمادة من الشاش ومثبت في مكانه بواسطة شريط لاصق وردي. قالت وهي تغمز بعينيها: "هل ترين؟ هناك جرح!"

كانت بيتكا مرتبكة بالمطلق، لكنها توردت مع ذلك مبرزة ضعفها عبر هزّ رأسها بنظرة إزعاج ساحرة متنصّلة من توردها. قربت فيرونيكا بعد ذلك كرسيها منها كإشارة للحنان، وبينما كانت تستعد للبوح بأسرارها أعطت بيتكا إصبعها المجروح لتمسكه.

"أمسكيه، لكن لا تضغطي إلا إن جعلتك تتوردين."

أمسكت الإصبع بكلتا يديها ورفعته إلى شفتيها وبالكاد مسّته بقبلة. بدأت فيرونيكا بعدها قصتها بحيوية شيطانية.

"أنا فيرونيكا ستيفن، أنا عذراء متزوجة وعفيفة. (..........) أنت تعرفين، باربرا، أمي. كنا ننام معاً عندما تشعر بأنها تريد البكاء. يحدث هذا مرتين في الأسبوع وعليّ أن أواسيها من حين إلى آخر بسبب العبء الثقيل الناتج عن عبثيتها. تدخل مسرعة في سريري وتجعلني أضع شيئاً عليّ وإلا فستشعر بالخجل، وعليّ بعدها أن أتكور ملتصقة بها من الخلف وأضمها بقوة وأضع خدي على خلفية رقبتها لتدفئتها مما يجعلها تنام، وأتحرر بعدها على الفور من لباس النوم. إن حدث واستيقظت في منتصف الليل، تصرخ بخوف كما لو أن جسدي جسد شيطان. هل تصدقين أن أمي لم تقبّلني أبداً؟ هي تهتم لأمري كزجاجة ماء ساخن دافئ يمكنها في بعض الأوقات أن تهدئ أرقها. وبما أنها لا تستطيع تحمّل الاتصال المباشر مع زجاجات الماء الساخن أيضاً، تريد دوماً أن يكون كل شيء مغطى.

"في اليوم الذي يلي ليلة حبنا الغريبة أستلم دائماً هدية، لقد تركتُ أمي تعطيني تلك الهدايا بالطريقة نفسها التي تدعني أمي أحبها بها، بكلمات أخرى، دون الاهتمام بذلك، وهذه هي الهدية الأحدث من تلك الهدايا،" ثم جعلت بيتكا ترى الحزام الذي ترتديه والذي كان مِشبكه عبارة عن قفل ذهبي.

"وكالعادة لم أهتمّ، لقد واعدت رجلاً فرنسياً في شقته وقد انتبه إليه على الفور. قال لي بينما كان يسكب الكوكتيل: "أعتقد أن القَدَر اختارني لأحررك من حزام العفة خاصتك." لم أجبه. أنا أحبّ سمعتي عن كوني المرأة الباردة التي لا يمكن الوصول إليها. بالنسبة لي يجب أن يكون الحب شديداً كنوعٍ من الاتفاق العسكري بين فاتِحَينْ، ولا يجب أن يسبق توقيع المعاهدة أي اضطراب في الحواس. ربما ذهبت إلى شقته من أجل اتفاقيات كهذه. كنت مرتدية بذلة مصممة برصانة ومفصلة مثل الدرع، واستقبلني بالشبشب. أدركت

على الفور من خلال الشبشب أنه لم يكن "الشخص". وبدلاً من المعاهدة حاول ببساطة أن ينتزع سعادته مني، وكان أخرقَ جداً بحيث لم يستطع أن يفتح الحزام الذي كان قفله صعب الفتح جداً. طلبت منه أن ينتظر قليلاً لأنني أرغب بنزعه بنفسي ووقفت خطوتين للخلف وحاولت. نجح في استعجاله الأخرق في تعطيل لسان القفل وكان عليّ أن أضغط بقوة مما أدى لجرح إصبعي بالمشبك. لكن لا شيء في العالم كان قادراً على إيقاف جهودي المتنامية، وعندها فقط استطعت أن أشعر بالمعدن يدخل إلى العظم كشفرة. ومع ذلك نفذت العملية بكاملها برزانة وهدوء كامل ولم يكن لديه أي اشتباه بألمي. رأيته واقفاً هناك أمامي سعيداً جداً بنفسه واضعاً يديه في جيوب روبه الكشمير، ومع ذلك يرتجف من الرغبة مثل ورقة شجر. بعدها ضغطت على القفل أكثر وكان عظمي في النهاية هو ما حرر النابض. جعله صوت النابض يرتجف تماماً كما هو مظهري، وبدون أن يمتلك الوقت الكافي ليعرف ماذا أوشكُ أن أفعل، كان ينسحب سلفاً. عندها سحبت نهاية حزامي وضربت قدميه المصفرتين بقوة لدرجة جعلته يسقط على ركبتيه بضربة واحدة، هل ترين؟ أعتقد أنه ليس بإمكاني أن أكون معتدلة."

بيتكا التي كانت تنظر إليها بإعجاب شديد طوال روايتها للقصة، رفعت الإصبع المجروح ثانية إلى شفتيها وقبّلته.

تابعت واضعة بعض السكر في فنجانٍ قهوة بيتكا: "لا أرغب أبداً بالتفكير بالحب، أشعر في حالتي هذه أن هذا مهم جداً. سيكون اليوم الذي يأتي فيه مرعباً وإن بدأت فلن أدعه يمضي إلى النهاية. لكني لن أغير النظرة في عيني. هل تفهمين يا بيتكا؟ إحساس الحب بالنسبة لي هو لمحة مفردة أصبحت خالية من الإحساس من خلال الكثير من الثقة بالنفس، تماماً كما يتحول المعدن الحار الأحمر إلى اللون الأبيض! هل تفهمين؟ نوع من الهدوء المحترق. ماذا عنكِ يا ملاكي؟" سألتها فيرونيكا محاولة إلزامها على أن تتوه في أعماق عينيها لتنتزع منها كل الإخلاص.

قالت بيتكا مستسلمة لابتسامة هشة توسلت الشفقة من خلالها: "هو بالنسبة لي مجرّد نوع من ألم أسنان متواصل في القلب!..... بدون توقف."

كم كان المطر شديداً في الخارج الآن!

وصلت الحلويات محمولة بزهوة انتصار على عربة فضية مزخرفة بأكواخ مع نوافذ مضيئة من حلوى اللوز، وورود شمعية وسناجيب من السكر.

هتفت فيرونيكا ضاحكة: "لقد حصلت الآن على شيء لوجع الأسنان ووجع القلب!" وأصبحت استبدادية على الفور. على بيتكا أن تجرب كل شيء، من كعكة الشوكلا السوداوية بنكهتها العاطفية التي تشبه منزلاً فينيسياً من داخله في يوم أحد مضاء بأشعة شمس وثنية، إلى تين (سميرنا) المحشو بالجوز والفطائر الثمِلة بشراب (الروم)، مروراً بمفاجآت السموات المحمدية الذائبة لسكاكر محشوة بشراب (الليكور)، وصولاً في النهاية إلى الاختناق الشهواني والمثير قليلاً للغثيان لأروع أنواع البيتفور. خلال هذا الوقت كله وكما خططت، سحرت فيرونيكا صديقتها عبر إطلاق العنان لخيالاتها الشبيهة بألف ليلة وليلة، والتي ستتمكن بواسطتها في النهاية من تكبيل روح صديقتها الجائعة للعجب. كانت نوعاً من حكايات الجن الهذيانية، مكونة من جنيّتين فقط، كلتا الفتاتين.

لدى فيرونيكا فكرة عن عرض صور متحركة ملونة عن أسنان بيتكا مع فيلم مختلف لكل سن! سوف تصنع لها هدية عبارة عن ثوب مضاء من الداخل بأشعة زئبقية تجعل من خلاله السطح الخارجي لكامل جسدها مثيراً للشهوة. ستعيرها مرهماً يستطيع المرء بفضله أن يظهر على العشاء ورأسه غير ظاهر. ستريها قرطاً من حجر بركاني وُضِعتْ فيه ميكروبات الكوليرا حيّة، كانت تعرف كيف تنحت قصيدة الحبّ على البياض النقي لحبة لوز طرية أثناء تشكلها، ولاحقاً عندما تكسرها وتزيل القشرة، سيظهر خط يدها عليها! وتعرف أيضاً كيف تحثّ أحلام الطيران بشكل إرادي، وكيف ترى رجلاً مقنّعاً بالأبيض دون أن تنام. صُعقت بيتكا وأصبحت أسنانها تكزّ، حاولت أن تلاحق الحركة المسببة للدوار للصور، وتماماً كما يحدث عندما يقترب المرء من منعطفات سريعة جداً، كانت تغلق عينيها غالباً، وبينما كانت تبتسم لخوفها كانت تفتح عينيها على الفور بعد كل واحدة من تلك الانعطافات الخطيرة.

قالت فيرونيكا ووجهها يمتقع فجأة: "لم يكن عليّ أن أشرب الشامبانيا. لدي صداع نصفي، وأنا أتكلم هنا كامرأة مجنونة!"

أنزلت فيرونيكا بيتكا قرب (كو ديس أورفيفر) بعد أن أعطتها قبلة سريعة وأفلتت كلمات مختصرة: "سأحادثك هاتفياً غداً!"

ذهبت بيتكا للنوم بارتباك سعيد انبثقت منه نظرة واحدة ورأس واحد – فيرونيكا! لكنها استيقظت متأخرة ومكتئبة بشكل مروع يرافقها خوف غريب، هي لن ترى صديقتها مرة أخرى. قالت في نفسها: "كيف ستستطيع محادثتي هاتفياً؟ أنا لم أعطها عنواني." تشطها هذا للحظة، وفكرت كي تبرر لنفسها أن تتصل هي بها، لكنها أصبحت متجهمة على الفور مقتنعة بأن الآنسة أندروز تعرف في الواقع عنوانها ورقم هاتفها. يا له من يوم تتطلع إليه! هناك ارتباطات على عدد الساعات كما كان دائماً – لكن ليس هناك من شيء خاص بها، وفجأة حدث كل شيء دفعة واحدة! انتظرت لأشهر، كتبت ودفعت بنفسها إلى المكاتب واتصلت وأعادت الاتصال بلا جدوى، لا فائدة من شيء. لكن منذ البارحة، بدأ كل شيء يتحرك في الوقت نفسه : عليها أن تكون في مؤسسة (مادموزيل شانيل) للاختبار كعارضة أزياء، وأن تكون في الساعة الرابعة والنصف في مديرية الإعلان لاختبار إذاعي، وعليها بعدها أن تنزل إلى مكتب افتتاحيات (لا فليش) لإجراء بعض الطباعة وما إلى ذلك! ومع ذلك صممت سلفاً ألا تخرج وبأية ذريعة قبل أن تسمع رنين هاتف فيرونيكا. لأنه وكالعادة سوف يأتي في اللحظة التي تخرج بها.

حوالي الساعة الرابعة قالت بيتكا في نفسها: "سأنتظر خمس عشر دقيقة أخرى. إن لم تتصل فسوف أتصل أنا بها."

لم تتصل أيٌ منهما حتى الساعة السابعة، فتمددت بيتكا في سريرها شاردة تفكر بأن اللقاء مع فيرونيكا قد حدث في أقصى ذروة اللحظات التعيسة والحرجة من حياتها. لا يعني هذا أن طفولتها كانت سعيدة بل على العكس تماماً. تبدو الآن وكأن

أمطاراً متواصلة من طفولتها ترشح عبر جدران سجن إحساسها بالذنب حالياً، كم دفعت أثماناً من جحيم العذاب والندم مقابل كل لحظة حلوة خَطفها جسدها من حياتها اليومية المثقلة بالهموم! كانت كمراهقة مغرمة بالحبّ تخشى السعادة، وهي الآن تحثها بمخاوف جديدة، مخاوف جِداديّة مكوّنة من خيبة الأمل ومن التحرر من الوهم. ليس لديها الآن شجاعة كافية "لتبدأ من جديد" مع الشخص ذاته، لقد أصبحت هذه التجربة فظيعةً في ذاكرتها. كانت السعادة الحقيقية الوحيدة الخالية من الخجل، التي وجدتها خلال حياتها كلها، متعلقة بلقائها مع فيرونيكا، هي لم تعرف بعيداً عن ذلك وحتى بعد أن تعلمت استخدام المنطق، سوى القلق من جسدها ورغبة مخفية لإنهاء حياتها. تذكرت أنها شعرت بدافع لا يُقاوم للانتحار. كان ذلك عندما كانت في الثامنة من عمرها، في قرية صغيرة عاشت فيها عذاباتها قرب الحدود الروسية. تحمل جميع الرؤى حول تلك الفترة طعم العقوبة المرير، كان لديها أكثر من دوافع كافية لتجعل نفسها تثق بأن الحياة التي قاستها مع إخوتها لم تكن حياة سعيدة! لقد أساءت الوالدة معاملتهم بشكل يُرثى له بالكلمات والأفعال، ربطت في أحد الأيام أخا بيتكا الأكبر بقائمة سريره وهددته بقلع عينيه بقطعة من الحديد الساخن. ومع ذلك، كانت والدتها ذكية وجميلة جداً بشعرها الأحمر الناريّ، كانت مهذّبة، لا بدّ أنها بدت مخلوقاً مميزاً أمام كل من لا يعرف نوبات غضبها المحليّة. لا أحد في العالم يتوقع وحشيتها اللاإنسانية وطريقتها المنظمة العنيدة المهووسة في جعل أطفالها يعانون إن شاهدوها أمام أصدقائها بالانحناءات الناعمة لثدييها المندفعين من لباسها مفتوح الياقة وعينيها نصف المغمضتين دائماً والثملتين بدماثة. كانت داهية، لديها إرادة حديدية، كما كانت مهووسة جداً بالنظافة مع أن هذا الهوس لم يمنع من أن تفوح منها رائحة تشبه رائحة القهوة المحترقة. مع غريزتها الغريبة التي مكنتها من اكتشاف جميع النقاط سريعة العطب في الأرواح الصغيرة لأطفالها، كانت قد تدبرت أمرها لتغرس إبر طغيانها فيهم وتشبكهم على الجدران الأربعة لغرفة نومها المغطاة في نماذج من الذرة والخشخاش، حيث تسجنهم وتمارس سيطرتها الاستبدادية عليهم. لم يكن يُسمَح لهم أبداً بالخروج واللعب! "أوه، أشواك على جانبي الطريق يا نجمة المساء!"

تشعر بيتكا أحيانا بدفقات عنيفة من الكراهية لوالدتها معا يجعلها وبشكل غريب، تبكي وتشعر بحنان لا ينتهي نحوها. لا شيء يجعلها تنغمس بحالة لا يمكن تعزيتها فيها أكثر من تخيّلها لوالدتها كضحيّة لانتقامها الوهمي. وبالرغم من حقيقة أن والدتها سببت لها الكثير من المعاناة فقد احترمتها ككيان موهوب بسلطة عليا كاملة القوة. نعم، كانت والدتها متفوقة على جميع الأمهات الأخريات وقد بجلّتها في عمق تعاستها ككائن سماوي. رأت الأطفال الآخرين حولها مُسرفين شرهين طائشين، ضائعين في حالة من اللاوعي الهادئ والعذب لحيواتهم، ومع ذلك لم تحسدهم، لم ترغب بتغيير مكانها بمكانهم! لم يسمح لها شبابها بفهم ظلم والدتها. كانت الأخرى دوماً على حق، وكانوا هم مسوخاً. لاحظت ذلك بنفسها، ليس هناك من إنذار يستطيع أن يمنعها من ارتكاب الإثم. "أشواك على جانبي الطريق، يا نجمة المساء!" كان كل اندفاع صغير نحو السعادة، يوَلد لديها سلفاً انقباضاً مريضاً بسبب اندفاعها الأقوى لتوسل الصفح أو المسامحة. إن عاقبتها أمها، كانت العقوبة بالطبع لكبح غرائزها الشيطانية وانحرافها الفطري. كانت اليوم لا تزال متأكدة من هذا! ألم تكن حتى الآن في أعماق تعاستها وهي تداعب نفسها، تستغلّ ألم عواطفها لتتمسك بالمتعة من جديد؟

أغلقت روبها مرة أخرى وشدّت جسدها وصلّبته. إنها تنتمي إلى جنس الحيوانات. كانت ترغب بالموت. فيرونيكا! أيها الملاك!، لا تحتقريني أبداً!

استلمت في الساعة العاشرة برقية من بولندا، موقّعة من والدتها، وتحتوي كلمة واحدة باللغة الروسية، "عاهرة".

في الصباح التالي وفي الساعة العاشرة والربع اتصلت بفيرونيكا التي كانت عارية أمام المكتب في غرفة الاستقبال، جالسة تحاول محو الندم لكونها لم تكن قد اتصلت بصديقتها حتى هذه اللحظة، محاولة بالوقت نفسه التفكير بأكثر

الطرق لباقة لتقدم لها خدمة. كانت للمرةِ الرابعة قد طوت وفضّت مبلغاً من خمسمئة فرنك فرنسي حيث تضعه في مغلف صغير وتسحبه على الفور. لديها أيضاً إيصال ببرقية بيتكا التي أرسِلَت إلى بولندا في اليوم السابق. هل عليها أن تضعه في المغلفِ نفسه أو تحتفظ به ببساطة؟ سيكون عليها بالنسبة لهذه المسألة أن تسلمها المغلّف شخصياً وإلا فقد تشعر هي بالإهانة. "علي أن أتصل بها على الفور!" وفي هذه اللحظة تحديداً وعندما كانت تلتقط السماعة، رنّ الهاتف.

نهضت وأمسكت السماعة. أسندت ركبتها المتجمدة على الساتان الدافئ للكرسي حيث كانت جالسة. لكن إدراكها المفاجئ لشعورها بالبرد جعلها تجلس مجددا. تكورت على نفسها واضعة قدميها تحت فخذيها محوّلة بمعجزةٍ ليونةِ جسدها، قوامها الذي كان رفيعاً طويلاً منذ لحظة إلى كرة منتظمة من تشابك متداخل لركبتيها وكتفيها وشعرها الذهبي والميداليات الفضية وجواهرها. انبثقت من هذه الكرة ذراع حرة وضعت بها بدون أدنى شك، إيصال البرقية في علبة من المغلفات، تاركة الفرنكات الفرنسية الخمسمئة في جوف يدها.

"مرحباً يا ملاكي، أهذا أنت؟"

"... . نعم، أنا بخير. متى يمكنني أن أراك؟"

"... . لا، لا يمكنني اليوم، هل يمكن أن يكون في الغد؟"

دخلت باربرا التي كانت قد أنهت للتو اتصالها الخاص من غرفتها، إلى غرفة المعيشة وبدأت عن مسافة غير بعيدة تقول كلمات غامضة لفيرونيكا التي نظرت إليها دون أن تراها ودون أن تحاول فهم ما كانت تقوله. بعدها صرخت باربرا فيها: "أخبري سولانج أننا سنكون في حفل الكوكتيل الذي ستقيمه غدا!" استجابت فيرونيكا وهزت رأسها بنفاد صبر، لكنها قررت فجأة أن تستفيد من هذه المعلومة.

"مرحباً، عزيزتي، مرحباً! هل يوم الغد مناسب؟ عند سولانج دي كليدا؟ ... . لا، لا، تلك ليست مشكلة، يا عزيزتي، لقد أخبرتها للتو

عنك، تريد أن تقابلك. سوف تحبينها....... بالطبع هذا صحيح! نعم، انتظري، سأعطيك العنوان..... اسمعيني! شارع (بابيلون)، رقم......"

"رقم 107" قالت باربرا بنكد، ملقية بروب ابنتها عند قوائم كرسيها.

"107،" كررت فيرونيكا، "هل ستتذكرين؟ ...... مدام سولانج دي كليدا .... شارع (بابيلون) ......107 .... نعم، عزيزتي ..... كما ترغبين......... السابعة أو السادسة والنصف ..... .وبعدها سوف أصطحبك للعشاء. هل استلمت برقية الرد على برقيتك؟ ...... ليس لحد الآن ... اسمعي، ملاكي، سوف تحتاجين بعض النقود! .... لا تكوني غبية، هلّا فعلت...... لا تفتحي الموضوع ... بالطبع، عزيزتي، أنا أصغي إليك، استمري....... نعم، عزيزتي........ ،نعم، عزيزتي........."

خلال هذا الوقت طوت فيرونيكا بيدها الحرة ورقة الخمسمئة فرنك ثلاث مرات ووضعتها في مغلف صغير، وطوت الأخير بدوره مرتين وتمكنت بضغطه بمعصمها وإمساكه أن تحيطه بربطة مطاطية من نوع جديد بلون الكرفس. كانت أصابعها الطويلة الشاحبة المخضبة بالأزرق عند المفاصل، قد أنجزت تلك العمليات كلها بدقة هادئة صلبة مُفزعة إلى حد ما وغير إنسانية تقريباً. كانت أصابعها تشبه الأصابع المعدنية التي تلتقط وتلف وتغير بشكل ميكانيكي أسطوانات التسجيل في جهاز الاتصال الأوتوماتيكي.

"أصغي إلي، لا تقلقي حول الأمر. لقد وضعته للتو في مغلف كرت الزيارة، سأعطيك إياه في الغد. لا تفقديه – إنه صغير جداً! ... لا تقولي هذا .... لا تكوني غبية، الآن........ لقد شرحت لك للتو .... ، عزيزتي .... تماماً كما كنت تلبسين في الليلة الماضية، لكن البسي حذاء أسود – وبدون معطف، حتى ولو كان الجو ماطراً! لا، عزيزتي، بدون قبّعة .... نعم. السابعة والنصف، عزيزتي، نعم سوف نخرج. أقبلك، عزيزتي!"

"ملاكي، عزيزتي! نعم، عزيزتي! لا عزيزتي! إنه صغير، في مغلف صغير. يمكنني أن أراه الآن!" هتفت باربرا، مقلدة نبرة صوت ابنتها الحنون والمفعم بالحياة معاً: "حظ غير متوقع لفتاة أخرى جميلة، عاطلة عن العمل!" سألت بعدها باتقاد أكبر: "من هي؟"

أجابت بجفاء: "إنها سكرتيرتك الجديدة التي اختلقتها للتو والتي لن أدعك ترينها. لا شأن لك بهذا". تابعت بعدها بصوت معسول وكأنها تتلمس مسامحة من نظرات والدتها التي تدل على عدم الموافقة والتي لفتت الانتباه إلى عريها: "شكراً لك يا أمي لنجدتي بالروب: لكنك تعرفين تماماً أني أودّ فقط أن أرتدي الآخر الذي أرسلناه من أجل تنشيته، هذا رقيق جداً، مثل منديل حريري." والتقطته بينما كانت تتكلم بأصابع قدميها التي كانت تقريباً بمثل رشاقة أصابع يدها وبدأت تهزّه بإغواء في نهاية ساقها الممدودة وفجأة – وششش! – قذفته برفسة متهورة نحو السقف والتقطته بذراعيها المرفوعتين. بعدها بدأت تلفّه بغنج مثل عمامة فوق رأسها، بينما تركت ساقيها مفتوحتين بشكل مهمل وعن عمد، بجو من البراءة وكأنها نسيت نفسها.

"أخبريني أمي، هل ذهبت وألقيت نظرة على السيارة الانسيابية التي وعدتني بها؟"

"لكني لم أحبّها أبداً"

"لِمَ لا، يا أمي؟"

"لأنها تشبهك، إنها عارية جداً، من المحرج جداً النظر إليها، هناك الكثير من الانحناءات والتكورات والأضواء، والكثير من المؤخرات والكثير من كل شيء! قلت بدون مناقشة للبائع الذي عرضها لي: "سآخذها فقط إن ألبستها لي!" وبينما بدا تحت تأثير المفاجأة شرحت له: "ما عنيته هو التالي يا عزيزي: إنها عارية جداً. عليك أن تلبسها بذلة من النمط السكوتلندي!"

كانت قد اقتربت جداً من ابنتها وبدت غير مدركة لعريها في هذه اللحظة وأكملت بانفعال: "ألا تعتقدين أنِ هذا مسل؟ مؤسسة تصنيع ملابس للسيارات! أثواب للأمسيات الرسمية جداً بياقة منخفضة، يبرز مِشعاع أثدائها من نسيج الأورغاندي، وأذيال طويلة من الساتان للذهاب إلى ليالي الافتتاحات! سوف يضاعف هذا مجموعات أزيائنا، مجموعات الربيع، الصيف، الخريف والشتاء. يُبطَن الجزء الأعلى من سيارة بفرو القاقم[1] قبضات أبواب مبطنة بفرو الفقمة، وفراء ثور البايسون ليغطي المشعاع. ألا يمكنكِ أن تري فقط تأثير سيارتنا الكاديلاك وهي مسافرة عبر منطقة جليدية بالقرب من (لينينغراد)؟"

عطست فيرونيكا ومع اهتزازها انفكّت عمامتها وسقطت ككتلة فوقها مغطية رأسها وكتفيها. بقيت هكذا دون حركة كما لو أنها متوقعة بشكل كوميدي أن يتم إنقاذها.

"تستحقين ذلك!" صرخت وأضافت بنبرة زائفة من الاهتمام، "لا تتحركي، سأذهب وأحضر بعض قطرات الأنف."

في قصرها الخاص في شارع (بابيلون) كانت سولانج دي كليدا تستعَد لاستقبال ضيوفها في حفل الكوكتيل. منذ حادثتها الأخيرة في غرفة الكونت منذ حوالي خمسة أسابيع مضت لم تلتقِ به مرة أخرى. وكان الأخير باقياً بعناد في معتزله في قصر (دي لا موت)، ولم يعطها إية إشارة حياة سوى إرسال الأزهار لها. تلك الأزهار التي تضحك عليها وتبكي من أجلها بالوقت نفسه! في صباح أحد أيام الخميس، كانت خادمتها (أيوجين) قد فتحت أمام عينيها المصعوقتين من الدهشة صندوقاً مربعاً ذا لون بنفسجيّ متلألئ قادماً من أحدِ أفضل محلات الأزهار في باريس. بداخله آنية على شكل غطاء رأس منشّى خاص بالراهبات، محتوية على حزمة من الياسمين حتى حافتها. وفي وسط هذا العبير المبهر شديد البياض، بطاقة من الكونت غراندساي لم يُكتب عليها شيء سوى اسمه المنقوش.

---

[1] القاقم: حيوان على شكل ابن عرس بني اللون. - المترجم.

شعرت سولانج بالاضطراب والضياع منذ اللحظة التي تخلت فيها في فورة من الحنان عن جميع حيل الكرامة التي كانت تغذي بها، ولمدة خمس سنوات، غزلها مع الكونت غراندساي. لكن لأزهاره رائحة لا تشبه رائحة تفاهة الشفقة، لقد كانت عَطِرَة جداً! ولم تجد لغطاء رأس الراهبات أي رمز آخر سوى النقاء، إن كان هناك أي مبرر آخر غير ذوق الكونت الأصلي. على الرغم من حقيقة ازدياد ارتباك سولانج خلال الأسابيع الأربعة الماضية فقد بدا من جهة أخرى أن قلقها قد خفّ بفضل حقيقة تخليها عن الصراع والقلق، وأصبحت بالتالي تنزع نحو الاستقرار في عذابٍ مستمر مبهم في معاناة لا تنقطع في روحها، هذا العذاب الذي قررت بكل الوسائلً الإنسانية وفوق الإنسانية أن تمنعه من تشويه جمالها الكامل المتألق، نجم القطب لأملها. كانت غالباً ما تلاحظ في غراندساي، الذوق الأرضي الذي يربطه بقوة بالجسد. تلك الحاجة الفظّة دائماً لديه، كانت تجعله ينقر على جسدها ليختبر صلابته قبل أخذها بشكلٍ عاطفي بين ذراعيه. لا! ليس هناك أي طيف يشدّ انتباهه مهما كان فتاناً.

بعد ظهر اليوم الذي استلمت فيه سولانج الياسمين، لم تستطع مقاومة فكرة المرور إلى محل الأزهار الذي أتت منه أزهارها، كما لو كان مرورها مجرد مصادفة. وبينما كانت تنتظر تحضير باقة زنابق الوادي، لاحظت وجود علبة غريبة مكتوب على غلافها المكان الذي أرسِلَت منه، كان مكتوباً بخط واضح: "محطة (ليبرو). ذهبت أثناء انتظارها إلى مكان الصندوق ورتبت بيدها المرتدية القفاز، زهرتين من الزنبق كانتا منبثقتين من السلة الكبيرة الموجودة بجانبه، وفكت باقة من زهر البكالوريوس ورفعت أخيراً غطاء العلبة الغامضة. أوشكت ساقاها أن تنهارا: هكذا الأمر إذن، هناك نسق من أغطية رأس الراهبات مطوية بعناية بعضها فوق بعض، على الأقل خمسون منها! لقد كان غراندساي يزوّد محل الأزهار بأغلفته الأصلية. فكرة أن هذا النوع من باقات الأزهار كان يُرسل لأشخاص آخرين غيرها جعلت الغبار الرخامي لامتعاضها يُطحَن بين

أسنان غيرتها الحانقة. ظهرت أغطية الراهبات التي كانت منذ لحظات نقيّة وسماوية، بغيضة بشكل حقيقي. لم يبق من كل ذلك البياض وآنية العرض والمشاعر الرقيقة، سوى الواقع المهين من نسيج نفعيّ بحقارة، وكان مشابهاً تماماً لمناديل نظيفة أحضرتها الخادمة على نحو سريع وبدون ضجّة إلى الحمام، ورقٌ من كتّان حقير من أشياء حميمية لا يمكن الاعتراف بها لعدوّاتها أو لأندادها الشخصيين. أغطية رأس للراهبات المطوية بشكل أنيق في أنساق، تنتظر دورها لإتمام الذلّ الشهواني الذي سينتزع به غراندساي قلبها في النهاية.

استلمت في اليوم التالي باقة أزهار تشبه الأولى تماماً واستلمت أخرى في اليوم الذي يليه. سرعان ما تولد لديها برهان ليقينها على أن هذا النوع من الباقات كان معدّاً لها حصرياً. منذ اللحظة التي أصبحت الأزهار فيها واحدة من أعزّ مسببات الأمل لديها، أصبحت تعرّضها بالوقت نفسه إلى وحشيّة جميع المصائب والمحن. ما الذي ستصبح عليه طريقة التلميح بالزواج تلك إن لم تكن في نهاية هذه العطايا المواظِبة سوى العبير الخفيف للاحترام، وإن لم تختلط في النهاية هشاشة عبيرها المتخم برائحة الحبّ المريرة والدائمة؟ على أية حال، هي تعرف أن طريق شغفها سيكون طويلاً. كانت قد قررت أثناء استعدادها لتكون عبدة لعذاب روحها، أن تعتني بجسدها على انفراد. وبما أنها كانت مقتنعة أنه من الخطأ أن تحاول المستحيل وأن تلهي نفسها أو حتى تهدئ قلقها الأخلاقي عبر مناسبات من طبيعة مختلفة من مشاعرها الخاصة، فهي لم تلتمس ولم تتوقع من العالم المادي أية "تعزية"، كانت تدرك أن من الممكن للقلب أن يبرأ فقط من خلال القلب.

بما أنها بدأت حياة خياليّة منعزلة، كانت تسعى لتحقيق أعجوبة فريدة من نوعها عبر الاهتمام بجسدها المادي ككيان مستقل. وبالتالي وبينما كانت تسلم روحها إلى شغفها، أعارت مؤقتاً المنابع البيولوجية التي لا تنضب لجسدها إلى قوالب مدروسة صممها مدلكون ومجمّلون وجراحو تجميل ومصممو

أزياء ومدرّسون لرقص الباليه. لكن قبل كل شيء ومهما كلف الثمن، كان هناك شيء أساسي مطلوب: عليها أن تقدر على النوم. استعانت لأجل ذلك بالطبيبة (أنسليما)، الطبيبة الذكيّة عديمة الضمير، والتي وصفت لها حقناً كبيرة نوعاً ما من مادة (اللومينال)، تؤخذ تدريجياً وبشكل يومي قبل الذهاب إلى النوم. سيجعلها هذا الدواء تنام نوماً منعشاً ولن يؤثر على جسدها المادي إلا بعد عدّة سنوات قادمة. تستيقظ سولانج بشكل طبيعي وبدون قلق، لكن بعد حوالي عشر دقائق يبدأ بمداهمتها قلقٍ يشبه بانسيابه الظاهرة الشَعرية التي تجعل القهوة تتصاعد في قطعة من السكر، يستولي عليها تدريجياً مُعتّماً بياض روحها التي تصحو حالياً على أفكار كئيبة تعبر من خلال الشعيرات الدقيقة لحواسها.

بإباحة كل شيء لعناية المختصين ما عدا إحساسها، بدأت تتناقص معرفتها بنفسها، فتستفسر بقلق كل صباح من الدكتورة (أنسيلما)، "هل نمت جيداً؟" لقد حلمت كثيراً عن كونها تستطيع النوم والآن عندما نامت لم تعد تحلم.

عندما سمعت في تلك الليلة رنين جرس أول ضيف من ضيوفها في باحة الحديقة تعجّبت وقالت: "يا إلهي! لماذا أتواصل مع كل هؤلاء الناس؟" لكنها سرعان ما عرفت لماذا. كان الناس يأتونها مسرعين ليعبّروا عن إعجابهم بها، يأتون لخدمتها ولمساعدتها على التسلّق، لا زالت بحاجة إلى تزلفهم المتملق لتتقدم نحو هدفها المنشود جداً من أبّهتها الاجتماعية المتنامية والتي تمكّنها من مقاربة مستوى غراندساي. لقد تنازلت سلفاً عن كبريائها باعترافها بطبيعة مشاعرها له. أرادت الآن أن تحافظ على سويتها مع النبلاء: أن تصبح بمنزلة واحدة معهم.

كثُر الكلام في منزل سولانج دي كليدا عن حفلة الكونت الراقصة القادمة. بعض أصحاب "النفوس الضعيفة" ذوي الحدسْ الحاد الباريسي الميكافيللي الاجتماعي برمته، والذين كانوا يعتقدون بأنهم لن يكونوا من المدعوين للحفلة، بدؤوا الآن بإعداد المنصة لمعركتهم الاجتماعية. كانوا

يحاولون فرض أنفسهم برعب نميمتهم الخبيثة أو بالابتذال المسرحيّ لخنوعهم أو بدمج الأسلوبين معاً، دون أن ينسى أي منهم وبدون استثناء وبالوقت نفسه أن يُعدّ لنفسه منطقة مناسبة للتراجع، بحيث أنه في حال الهزيمة، تُفسّر أفعالهم بجميع الطرق الممكنة، البشرية منها والإلهية إلى الحقيقية منها، أي إهمال الكونت غراندساي البسيط النقي والمتعمد.

كانت المدام كلودين درويت حاملة كوب الشاي بيدها وتتناول بالأخرى الكعك الذي تمضغه بكسل قطعة تلو الأخرى، ويبدو على محيّاها ملامح قلب مفطور. كانت تستعدّ ببذلتها الرمادية اللؤلؤية المثبت عليها زهور زنابق الوادي بشكل مائل وحزين، للانطلاق بجدال عنيف.

قالت وهي ترفع حجابها الأبيض بإصبعها الصغير الوحيد الذي بقي حرّاً وجافاً: "تنجح حفلات غراندساي الراقصة دوماً، هذا صحيح كضوء النهار! ينجح الكونت لأنه لا يخاطر بالفشل. تكون الأمور التي يقوم بها رائعة جداً، لكن على المدى الطويل، يصبح عدم توفر العفوية مميتاً لأولئك الذي عاشوا طويلاً في غرف الاستقبال". تنهّدت بنفس أثيريّ من منخرها الصدفيّ الدقيق، بينما كانت تريح أردافها الحادة على ركبتي الشاعر المكتنز فارغس الذي ألزمها على الاسترخاء بين ذراعيه، وتابعت بنبرة نزويّة ساذجة: "أحب الحفلات التي تنشأ خلال أربع وعشرين ساعة مثل عشّ الغراب. حفلات بوجوه جديدة، وأثواب بالكاد مَخِيْطَة، وقُبَل! "

تأتأ فارغس: "نعم، نعم، يا كلودينيتي، يا كلودينيتي، يا أيتها الملكة كلود الجميلة، إن عجوزك فارغس هو الوحيد الذي يفهم ما الذي يدور في عقل هذه الطفلة! هل تتذكرين (فينيسيا)"؟ وتابع مخاطباً سولانج التي تمددت للتو عند قدميه وبدت ككلب صيد بسلسلة من الفضة في ثوبها الضيق الفضي الباهت الذي يُبرز ضلوعها التي اهتزت مع تنفسها. تابع فارغس: "حسناً، في فينيسيا، في كل مرة نقرر فيها الذهاب في نزهة لزيارة فيلا (بالادينيه)، سوف تُمطر، لم تُخطئ أبداً.

تكون السماء صافية في المساء ويشير شخص ما إلى غيمة تمر أمام شجرة سرو تشبه خنافس ترقص في نبتة (سانت أندرو) أمام شجرة سرو، وعندما نرجع إلى (فينيسيا) نسمع بأن هناك حفلة راقصة."

لدى فارغس سمعة بأنه ظريف جداً لأنه كان سميناً ولأنه يتكلم بصوت أنفيّ مخنوق، ويتقطع صوته بسبب سلسلة من المشاكل التنفسية المتنوعة والضخمة، وأخيراً لأنه بالفعل ظريف جداً. لقد دلّل كلودين بين ذراعيه ومرر فتحتي أنفه السوداوين المشعرتين على زنابق جسدها مثل نحلتين طنانتين. كان كل مقطع لفظيّ يقوله بالكاد مفهوماً، وكان يتمتم به بأذن كلودين عبر حجاب حبات الطلع المتنوعة لغابات شعر أنفه ولحيته الشعثاء، ويصل هذا الحديث للمستمعين بشكل مشوّش كتمتمة غير مفهومة لشاعر.

"ما الذي يقوله؟" سأل أوتيز، الشابّ المتألق المليء بالتشويق، كان لامعاً وجديداً كما لو أنه خرج من علبته للتو، ومن ثم قرّب كرسيه من كرسي فارغس. أطلقت كلودين ضحكة هيستيرية وقالت: "هذا رائع! يقول إن حفلة غراندساي الراقصة ستُطبَخُ على نار هادئة في المطابخ الخلفية للصالونات الباريسية كلها، ستصبح جيدة فقط عندما تنضج!"

هتف أوتيز: "أعشق الأطباق الناضجة!"

تمتم فارغس المقطب الجبين من الإزعاج: "يا لهذه العنجهية! لن تستطيع أن تعرف من ثوبها إن كانت قد نضجت أم لا." تدخلت سيسيل غودرو صارخة من بعيد: "سيكون الأكثر سوءاً أن تبقى في البيت يوم الحفلة محاولاً إقناع نفسك بأن أطباقك الناضجة هي الأفضل على الإطلاق!"

هتف أورتيز ضاحكاً حتى انهمرت دموعه محاولاً بتلك الطريقة أن يمسح أثر مرارة كلمات سيسيل غودرو الأخيرة: و"بانكو"؟ يجب أن يبدأ الآن كلٌ منا بتحضير "بانكو" خاص به من أجل ليلة الحفلة. سيكون "البانكو" خاصتي هو الزي!"

وصل الآخرون فقط لكي تتضخم المجموعة التي كان النقاش الدائر فيها حول غراندساي في مراحله الأولية. وبعدها انسلت سولانج كسمكة أنقليس فضية لتتحدث إلى ديك أنغرفيل الذي كان يراقب كل شيء بجو من الشك مُظهراً أنه لا يرى شيئاً. كانت سولانج المنعزلة الواقفة اللاهية بشكل مستمر بشيء ما قرب طاولة البار، خائفة قليلا وهي تراقب الحركة في غرفة الاستقبال لديها والتي بدت لها تصويرية جريئة أكثر مما يجب. كان هناك بالتأكيد أشخاص استثنائيون جداً: كان سولر الكاتالوني بحالة من الهياج المتواصل، يشرب المارتيني ويحرق نفسه بسجائره، يسحب الكراسي ويخدم الجميع. كان "عيّنة" فريدة من نوعها — لقد التقط صوراً لأزياء متطورة جداً، كما يدّعي أنه اخترع ديناً جديداً وصنع بيديه خوذات جلدية لسائقي السيارات!

هو يهزّ الآن الآنسة دي هنري والتي كانت كالعادة مغطاة — يمكن للمرء أن يقول مُلتهمة — بالمشابك والدبابيس والحلي والقلائد والأساور والتمائم والأجراس. بدا وكأنه يريد أن ينفض الغبار عنها ويخلصها من كل ذلك. تردد سولر لكنه كان بالتأكيد سيفعل شيئاً معها في نهاية المطاف. ها هو ذا! كان أمراً لا مفر منه، لقد أجلسها للتو فوق البيانو! وانفلت مشبكها الياقوتي وسقط على الأرض. والأجمل من ذلك أن سولانج جثت على ركبتيها على الدرجة الثالثة من سلم المكتبة الصغير ونظرت للأعلى. كانت تشبه بذلك صقراً فضياً. بمحاكمة التأثير الكلي لضيوفها "من وجهة نظر غراندساييه" وجدت أن غرفة استقبالها غير مترابطة، جميع أصدقائها الذين يرى أحدهم الآخر بشكل مستمر والمعتادين على أن يكونوا معاً كل يوم تقريباً، أعطوا على العكس من ذلك انطباعاً هائجاً بأنهم أشخاص التقوا للتو بمحض الصدفة، وبدت ألفتهم في غير محلها.

الحالة مقلوبة تماماً لدى غراندساي. كل الأشياء مترابطة بشكل جيد وليس هناك من شيء يمكن استبداله، ليس هناك من شيء "في غير محله". ويبدو الناس الذين التقوا في هذه الساعة للمرة الأولى يتركون بعضهم بعضاً وكأن لهم مئتين أو ثلاثمئة سنة معاً.

يسأل أنغرفيل: "ما الذي يشغل تفكيرك أيتها الحزن؟" ممسكاً ذراع سولانج ليساعدها على الجلوس في مقعدها. بقيت للحظة وذراعاها متقاطعان على صدرها كإشارة لحزن مخيف، إنها تشابه الآن سولانج دي كليدا بقلقها الصدئ.

هتفت مهتزة بضحكة ناعمة بينما تضغط على السيجارة بين شفتيها: "أجد كل هذا مخيفاً بشكل لا يُحتمل، إنه يفتقر للتميّز."

قال أنغرفيل بينما كان يشعل لها السيجارة: "الشيء الذي يُظهِر التميز — والرقي بالمعنى الدقيق — هو الاتحاد مع القَدَر. إنه الشيء الصحيح ذاته الذي يظهر في تماثيل الفرسان الخاصة بعصر النهضة، تكون راقية فقط إن كانت مصوغة بالكامل في قالب واحد من الحصان والفارس، "رجلٌ يعتلي حصان قَدَره" الكل في قطعة واحدة! انظري حولك وحسب: لا يبدو أي شخص هنا مكتملاً تماماً! بل ويكون أسوأ في معظم الأوقات. يبدو الجميع وكأنهم مصوغون من أجزاء مُستأجرة ومُعادٌ استئجارها من أشخاص آخرين، ومجمَّعة من آلاف القطع وليس هناك من انسجام بين قطعة وأخرى". ثم تابع بتنهيدة: "الأكثر إثارة للشفقة عندما يحاولون أن يخلقوا (طقما)". وتابع بينما تحاول سولانج أن تكبت ضحكة مفاجئة متظاهرة بالسعال في يدها: "نعم، أيتها الحزن، لا تضحكي أرجوكِ: كنت أنظر إلى الشخص ذاته"، وقام بعدها بعملية جرد كامل كما لو أنه يُفضي بشيء خطير جداً، ثم بدأ العد: "القبعة مع الحقيبة، المشبك مع الأزرار، الأزرار مع العرى، والحذاء مع......."

وصرخت سولانج: "الأنف!"

بالتأكيد، كانت السيدة التي يتحدثان عنها ترتدي حذاء مدبباً مطابقاً في شكله لأنفها المغطى بالبودرة بشكل مفرط.

فكرت سولانج: يمكن للمرء أن يقول ما يريد قوله عن غراندساي، لكنه على الأقل كان مصوغاً في قالبٍ كقطعة واحدة.

هتفت سولانج وقد غدت يائسة مجدداً: "يا إلهي، ما الذي يجب عمله؟ أنت الوحيد يا عزيزي أنغرفيل الذي تستطيع مساعدتي لجعل صالوني أكثر ملاءمة."

"هذا سهل، بعض قطع الأثاث القديمة الجميلة وتقليل الشذوذ إلى أدنى حد." وبينما كان يتحدث أدار عينيه نحو الأريكة الموجودة قرب المدخل في الوسط والتي سيطرت عليها سيسل غودرو مع مجموعة النساء النهمات الساخرات اللواتي من بينهنّ شاذات بسمعة سيئة، كنّ منغمسات بكل أنواع الإيماءات من أجل متعتهنّ الخاصة.

"لكن سيسيل غودرو تُستقبل من قِبَل غراندساي."

"نعم، لكن نكهتها صارخة جداً بالنسبة لك."

كانت سيسيل غودرو في الواقع ذات شخصية (بلزاكية)، ذكية ومن سوية اجتماعية منخفضة، وقد دخلت المؤسسة الباريسية الحقيقية بقوة المؤامرات، لقد اعترف غراندساي بشخصيتها القوية في اللحظة المناسبة تماماً، كما تفعل حكومة مستقرّة لديها في البلد قوّة ثورية تهدد بأن تُصبح مهمة أكثر مما يجب.

"وباربرا؟"

كانت باربرا قد دخلت للتو غرفة الاستقبال ولم يكن بالإمكان إنكار تأثير زينتها.

"هي لا تسبب لك أي أذى، بل على العكس، تنتمي إلى صنف فاكهة غراندساي المحرمة، وإلى (المنشقين الذين لديهم أماكن في المنتصف)."

ذهبت سولانج لتقابل باربرا التي قبّلتها على وجنتيها قرب الأذنين واعتذرت عن وصولها المتأخر جدا. لكنها على أية حال، أحضرت الصورة التي وعدت بها لدفتر سولانج المليء بقصاصات الصحف لتعليقات المجتمع — "صورة الأميرة (أغماتوف) كمهرجة!"

"لكن أين وضعت حقيبتي؟"

طلبت من الخادم أن يُحضر الحقيبة. ظهرت بالوقت نفسه تقريباً بيتكا مع باربرا. كانت قد انتظرت فيرونيكا لساعتين كي تدخلا معاً، لأنها شعرت بالرهبة بسبب منظر السيارات الفارهة التي تتوالى بشكل مستمر. انتبهت أخيراً إلى والدة باربرا ولحقتها عن قرب. وعلى الفور وهي مصابة بالذهول وجدت نفسها تحمل كوب الكوكتيل (الباكاردي) الذي قدّمه لها خادم شديد الاهتمام. أثار دخول بيتكا فضول المجموعة المحيطة بسيسيل غودرو وتساءلت جميع العيون المعجبة عن صاحبة الرأس الأحمر الكبير الجميل؟

وعلى الفور أتت سيسيل غودرو لإنقاذها وقالت لها وهي تأخذ كوبها منها وتضعه بحذر على الطاولة الموجودة قرب الأريكة: "ضعي تلك الأشياء المقرفة هنا، يمكنك أن تأخذيها لاحقاً، تعالي معي لأقدّمك إلى مضيفتك وعندما تتخلصين من أشيائك يمكنك أن تعودي إلى هنا إلى مجموعتنا. لا تهتمي بأي شخص آخر، نحن الذكيات الوحيدات الواتي يمكن مقابلتهن في هذا التجمع."

أمسكت ذراع سيسيل بامتنان وتركت نفسها تُساق. كان العديد من الأشخاص يستعدّون للمغادرة سلفاً وكانت سولانج تقف قرب القاعة بصحبة أنغرفيل وتتبادل معهم عبارات اللباقة وتتظاهر في كل فاصل بمواصلة الحديث مع أنغرفيل، كانا ببساطة يصنفان الضيوف ويقولان "بالنسبة لهذه نعم، ولتلك لا، ....." وعندما انسحبت بيتكا قالت سولانج لأنغرفيل: "أسنان جميلة!"

"نعم، لكنها لن تنفعها كثيراً."

سألت سولانج: "ضعيفة؟"

"موت مبكر، موت عنيف بالتأكيد،" اختتم بالطريقة المقنعة والسريعة التي يعبر بها عن هواجسه في مصائر معظم الكائنات التي قابلها.

عادت بيتكا إلى سيسيل غودرو وشربت كوب (الباكاردي) على دفعتين. لم تشعر أبداً بمثل تلك الرهبة ولم تسمع أبداً في التجمعات الاجتماعية مثل تلك الأحاديث القاسية اللاذعة الساخرة. كنّ في أديم مناقشة القضية التالية: "هل تفضل النساء رجالاً يخرجن معهم، أم رجالاً يذهبن معهم إلى البيت؟" قالت إحدى النساء: "رجالاً نخرج معهم بالطبع!" وتدخلت أخرى قائلة وسط تهليل الشاذات: "أحب أن أخرج مع رجل وأذهب مع امرأة للبيت." وقالت أخرى: "بالنسبة لي، أفضّل العكس تماماً، أحب الخروج مع المرأة وأن أذهب مع رجلين إلى البيت."

"لماذا لا يكون المجموع ستة، كما هي حال المحظيات الإغريقيات؟"

تنهدت سيسيل غودرو: "هذا نموذج مزاجي، نموذج تفضله (إيسادورا). لكنك تعرفين يا عزيزتي، نحن في (أوفرنييه) في الريف نصل إلى النتيجة نفسها ببيضتين مسلوقتين ووتر غيتار!"

مع خوف من أن تُسأل السؤال نفسه والذي سوف يشلها من الخجل، انفصلت عن المجموعة مُتّخذة لنفسها زاوية معزولة قرب الشرفة الضخمة المطلة على الحديقة. لكنها قررت مع شعورها الهائل بالضياع في هذا المكان، أن تذهب على الفور وتقدم نفسها لباربرا لتسألها عن أخبار فيرونيكا.

"انصرفت ابنتي إلى (فونتين بلو) لعطلة نهاية الأسبوع لكنّها أعطتني شيئاً لك. أوه، هذه هي حقيبتي!" قالت هذا وأخذتها من يد الخادم الذي أحضرها لها للتو. "هذه هي صورة الأميرة!" قالت باربرا مشيرة إلى سولانج التي جاءت يرافقها أنغرفيل، وذهبت باربرا لتجلس وسط مجموعة سيسيل غودرو اللواتي أفسحن مجالاً لها وهنّ متعطشات بفضول.

بدأت باربرا التنقيب في قاع حقيبتها بكلتا يديها جاعلة أساورها تخشخش كلها، مُبيِّنة الحِرصَ الغافل لكلب صغير دفن لعبته للتو ويبحث عنها مستجيباً لغريزته فقط.

"أنا أخفي كل شيء في حقيبتي ولا يمكنني بعدها إيجاد شيء! الكثير من الأسرار..... الكثير من الفضائح الملفوفة بقصاصات الجرائد والكثير من الفيتامينات. ها هو ذا! هذا من فيرونيكا لك،" قالت هذا لبيتكا وأعطتها، بإيماءة ساعي البريد البيروقراطية، مغلفاً صغيراً مغلقاً مربوطاً بشريط مطاطي أخضر بلون الكرفس. أخذته بتيكا بخجل. هتفت باربرا بانتصار: "أخيراً! هذا من أجل سولانج!" من بين خليط الأشياء في حقيبتها تمكنت من استخراج بطاقة بريدية رقيقة غدت مصفرّة جداً، وأصبحت بسبب بقائها مغلفة مرتين، تنزع بشكل لا يقاوم لتنغلق من جديد على طياتها المتآكلة. بذراعها الممدودة جعلت باربرا تلك الذكرى الهشة تهتزّ أمام أعين الجميع، وبدت لدى كل هزّة وكأنها تنقسم إلى قسمين.

"أليست مسلية؟ أليس كذلك يا عزيزتي؟ أليست وثيقة هامة وفريدة؟"

كانت ببساطة صورة "الرأس المتكلم" الجميلة التي تعود للأميرة (أغماتوف) في الوقت الذي كان عليها إيجاد ملجأ في الأكشاك المصابة بالقمل في حديقة ملاهي (براتر) في فيينا، صباح الثورة الروسيّة. لدى رؤية هذه الصورة انفجرت الشاذات في الصياح العالي وشهقات الضحك التي أظهرت كل أشكال النفاق المحتوى ما بين السخرية والرثاء. نطقت النساء الساخرات صرخات متناقضة. كانت سيسيل غودرو صامتة وكان فيسكونت أنغرفيل ممتقعاً ورافضاً بشكل قاطع. قبّلت سولانج دي كليدا باربرا في العنق ضاغطة البطاقة البريدية إلى صدرها وممسكة بها كما لو أنها تحميها من مزيد من الفضول وتوسلت قائلة: "هل يمكنني فعلاً الاحتفاظ بها؟"

كانت بيتكا مغمورة بالمشاعر لأن فيرونيكا قد خصّتها برسالة، واختنقت للحظة وانحنت على ذراع سيسيل غودرو. وجعلتها الأخيرة تجلس قربها على الأريكة الكبيرة واستمرت بمراقبتها.

"سأعود خلال لحظة،" قالت بيتكا لسيسيل وهي تنهض على ساقيها الواهنتين بسبب هيجان مشاعرها وكان قلبها ينبض بعنف.

عـادت إلى النافـذة الـتي بقيـت خاليـة، واسـتحمت بضـوء أزرق لطيـف خفيف لكنه كان كافياً ليكشف بكل خشونة خيبة الأمـل المخيفـة الـذي تضمنته محتويات المغلف لهـا. قبـل فـتح المغلـف، كانـت أصـابعها قـد طقطقت الشريط المطاطي الأخضر عدة مرات. وبدت تحت سيطرة الـتردد إلى هذا الحد، ترغب بتأجيل لحظة معرفة كل شـيء. بـدأ الخـوف منـذ الآن يختلط مع أملها ويسممه. لكن ليس هناك من شك يمكنه أن يضاهي قسوة جرح الواقـع الـذي ينتظرهـا ومرارتـه، لا يوجـد داخـل المغلـف لا رسالة ولا النقود التي وعدت بها بذلك الإلحاح رغـم احتجاجهـا. وبـدلاً من الهدية التي لم تطلبها أو كلمـات الـودّ الـتي حاولـت أن تسـتحقها، كان هناك إيصال أزرق اللون فقط من برقية بولنـدا والـذي أرسـلته لهـا، مطوي بعناية أربع طيات وفي وسطها كان هناك خربشـة واضـحة وبـدون اهتمام بقلم رصاص أحمر، ربما كان بخط يدها السـاخر وعـديم الشـفقة، دليل سخرية من الـرقم التافـه لـديونها، ثمانيـة وأربعـون فرنكـاً فرنسـياً وخمسون قرشاً! في هذه اللحظة وفي ضوء تحررها من الوهم، رأت جميـع الحوادث والنكسات الخاصة بأيامها السابقة مفتوحة أمامها، كانـت قـد تمكنت من محوها ناسية كل شيء وراغبة بـالعيش في وهـم فـردي وأمـل وحيد برؤية صديقتها مجدداً. شعرت الآن بهجمة من الندم من كـل تلـك اللقاءات التي أهملت وتخلت عنها دون مبررات، ومـن فرصـها الضـائعة إمـا كعارضـة أو في الراديـو أو في الصـحف، ورفـضُ أهلـها مسـاعدتها، واليقين المطلق تقريباً أن أختها قد تزوجت خطيبها.......

لكن لا يمكن لأي واحدة من تلـك النكسـات، حتـى وصـمة العـار أن تهين أمها، أن تجرحها بالطريقة المؤثرة التي جرحها بها احتقار فيرونيكـا، ولمحت في تصرفها القاسي وغير الإنساني شـيئاً غريبـاً وفظيعـاً لا يمكنهـا أن تفهمه بأيـة وسـيلة عقلانيـة. لمـاذا دعتهـا إلى ذلـك العشـاء الفـاخر في مطعـم (تورجان)؟ لماذا أظهرت لها كل هذا القدر من السـحر والسـخاء وقـدّمت لهـا كلّ منابع نزواتها المغوية لعدة ساعات؟ هل كان فقط لملء وقت الفراغ في ليلـة

مملّة؟ أم لتشبع نزوة رغباتها في إظهار نفسها، إن لم يكن مجرّد ساعات من التسلية تشعر فيها بأنها مُبهرة بشخصيتها الماسيّة، حيث أن فتاةً مثلها ليس لها موارد سوى جوعها لَلعطف واستعدادها وحماسها لمنح قلبها؟

شعرت بيتكا بنظرة فيرونيكا تقسو في أعماقها لدرجة ذرفت بها دموع الألم. بدا الأمر كما لو أن العينين اللطيفتين الهادئتين اللتين كانتا لصديقتها منذ فترة، كانتا حضوراً غامضاً ومادياً كما أنهما أصبحتا أكثر تصلباً. والآن، هلٍ سيخفّ حبها لفيرونيكا بسبب كل هذا؟ بالتأكيد لا! بل على العكس تماماً، لقد أصبحت حقيقة فيرونكا خياليّة وازدادت مسببات اليأس لديها ونما شغفها على قدم وساق مع مصيبتها. لم تكن قادرة على أن تكره والدتها القاسية أبداً فيكف لها أنْ تبجّل فيرونيكا إن كانت تفضّل أن تصبح شهيدة! لكن هل ستراها مجدداً؟ الآن فقط، وعبر تجوال النظر في هذه الحديقة بريبة مؤلمة من التوقع، وبما أنها حمقاء، شعرت بطقوس الربيع لحالة للمةِ شمل وشيكةٍ، تنبض في كل زهرة على شجرة كستناء، والآن ولدى اقتراب الليل، أصبحت هذه الأزهار ندف ثلج في شتاء تحررها من الوهم، وأمسكت جسدَها المحترق يدٌ باردة كمخلب طائر.

قالت سيسيل غودرو التي شعرت بيتكا بتنفسها قربها للحظة ومن ثم أمسكت بذراعها: "هل أنت مضطربة؟ تعالي، دعينا نغادر! الوضع مميت هنا والكل مشغول. سوف ننسحب وحسب..... سوف تُخرجك سيسيل هذه الليلة، وبدون أي كلمة، سنذهب للبيت معاً!...... وكيف!"

سألت بيتكا سيسيل بعد أن سارتا صامتتين نصف الطريق نحو شارع (بابيلون): "إلى أين نحن ذاهبتان؟"

"ليس إلى المطعم بأي حال، بعد هذا الالتهام النهم للطعام!" وبعد صمت طويل نوعاً ما تابعت: "ألا تخشين أن أغويك؟"

أجابت بيتكا بضحكة: "الأشياء السعيدة لا تحدث أبداً."

تنهدت سيسيل: "إنها تحدث بالطريقة ذاتها، لكن ليس بشكل كامل!"

"هل سنسير؟ سيكون مفيداً لنا أن نسير في شارع الشانزيليزيه. إنه يهدئ أحياناً. ماذا عن قلقك؟"

"أي قلق؟"

"كفاك يا عزيزتي، لا تتصنعي البهرجة معي. أنا قلقة أيضاً وعلى أية حال، لماذا نسير معاً؟ لأننا قلقتان!....... إنه مرض العصر. لماذا نستعدّ للحرب؟ لأننا نشعر بالملل والقلق، عندما يندمج الملل والقلق يصبحان قوة مرعبة. إنهما من يحكمان العالم! تاكسي!" توقفت السيارة بعيدة قليلاً ثم اقتربت منهما بطاعة مخلصة لا تزال مطلوبة من قِبَل الأشخاص الذين يعرفون كيف يعبّرون عن السلطة التامة للسيد بنبرةَ صوتهم "غير القابلة للإصلاح".

ما إن أصبحتا في السيارة حتى قالت سيسيل منهارة في مقعدها: "من الجيد لساقيك أن تقولي بين الحين والآخر لنفسك، "سوف نمشي إلى شارع الشانزليزيه،" شريطة أن تجدي سيارة أجرة فوراً. أنا متعبة يا عزيزتي. أنا مولعة جداً بسولانج إضافة إلى أنها تموت غيظاً بسبب غراندساي. لكن لا يمكنني تحمّل نوعية باربرا. يُفترضُ أني متهكّمة وباربرا تتجاوزني بشكل كبير.

"إنها لطيفة مع الجميع،"

"سأوافقك على هذا يا عزيزتي. اللاوعي هو الشيء الحقيقي لكن النتيجة هي ذاتها. تخيلي الجرأة لإظهار صورة "الرأس المتحدث" للمسكينة (أغماتوف)؟ بالكاد سنتين بعد إعدامها بالمقصلة، وبشكلٍ أصحّ، بالزجاج الأمامي لسيارتها. هل تعتقدين أن الطريقة التي سلّمتك بها مغلف فيرونيكا الصغير كانت طريقة لبقة؟ هل تعرفين فيرونيكا جيداً؟"

أجابت بيتكا وهي تتورد خجلاً: "قليلاً جداً،"

"إنها فتاة مصوغة من الفولاذ! والدتها على الأقل، امرأة طيبة. لقد دفعت إيجار منزل الأميرة (أغماتوف) لمدة خمس سنوات. شقة هائلة في شارع (ريفولي) .... فواتير الخياطين ..... وما إلى ذلك. صحيح أنها تستطيع تحمّل هذه التكاليف."

"كانت جيدة جداً معي"، ردّت بيتكا، كاذبة بشأن العلاقات غير الموجودة تقريباً مع باربرا.

اختتمت سيسيل بعد صمتٍ طويل كما لو أنها مستمرة بأفكارها: "نعم. سأضمن لك أن باربرا ملاك حقيقي مع أن هذا لا يمنعها من إقحام رأسها بكل شيء."

توقفت سيارة الأجرة بسلاسة كبيرة كما لو كانت هيبة الراكبتين على مدى الرحلة قد ارتقت وأصبحت متبلورة.

كانت الشقّة الخاصة بسيسيل غودرو تقع في خلوة جدرانها من الطوب القديم المليء بالرطوبة والطحلب الأخضر، خلف قصر (غاليرا). لم تكن العتمة قد فرضت سيطرتها عندما وصلتا، كما أن وقوفها القصير بالرغم من كونه مشابهاً لأي سيارة أجرة أخرى، أصبح على الفور مثار شُبهة لمجرّد وجود الطحلب الذي يغطي الجدران التي ترشح. وكان ليحدث أكثر من ذلك لو تمت رؤيتهما من متفرّج افتراضي، ويفضّل أن يكون في الطابق الرابع من المنزل المجاور، لو حدث أنْ وُجِدَ شخص كهذا في هذا الحيّ الغني قليل السكان من باريس. كان السلم مظلماً جداً حتى أن سيسيل أمسكت بيتكا من يدها لترشدها عندما دخلتا البيت.

كانتا تصعدان سلّماً حلزونياً.

"هناك طابق آخر قبل أن نصل إلى بابي، انتظري لحظة!"

كانت غودرو تحبو على أطرافها الأربعة لتلقي نظرة تحت السجادة بحثاً عن المفتاح لكي تدخل. "هذا هو يا عزيزتي الرأس الأحمر، لقد وجدته! الأسوأ قد انتهى الآن!" قالت ذلك وهي تضع مفتاحها في قفل الباب وتفتحه دون إصدار أي صوت. اجتازتا غرفة كبيرة مظلمة وكعباهما يرددان صدى أصوات كأنها تصدر عن الأرضية الرخامية لغرفة الانتظار الخاصة بسفير. اجتازتا بعدها ستارتين ثقيلتين إلى غرفة أخرى مضاءة بشكل خافت، أصغر من الغرفة الأولى لكن سقفها مرتفع جداً بحيث يمنحها كل ميزات الحميمية والإجلال. كانت مُغطاة من الداخل بالساتان الأسود الحالك والأصفر الأقحواني الواسع النطاق والمنثني عمودياً على طول الجدران، محمولاً إلى السقف على شكل قبّة ومتحداً في الوسط على شكل وردة كبيرة مزخرفة بجديلة فضيّة يتدلى منها حبلٌ أسود ثقيل مرشوش بحبيبات فضية، معلقاً فيه وبشكل منخفض نوعاً ما وفي وسط الغرفة تماماً، فانوس ياباني كبير جداً وهشّ، على شكل وردة بلون العث – مفترضين وجود عثٍ بألوان كهذه الألوان. وعلى طول الجدران الأربعة للغرفة، أربع أرائك واسعة منخفضة جداً تواجه إحداها الأخرى وجميعها مغطاة بشكل موحّد بفرو (التشنشيلا)[1]، وتتناثر عليها وسائد شرقية قديمة وكبيرة، وتنفصل فقط عند باب المدخل والنافذة الموجودة على الجدار المقابل. تغطي تينك الفتحتين ستارتان كبيرتان من المادة نفسها وتحاكي طيات ستائر الجدران نفسها بشكل يتولد لدى المرء انطباع لدى رؤية الستائر مغلقة بأنه مُحاط بمواد ذات تناسق كامل. تحت المصباح ونحو الزاوية قليلاً بين الباب والنافذة وعلى سوية الأرائك، تنتصب طاولة مستطيلة سوداء مطلية بالورنيش كان قد وُضِعَ عليها بتناظر كامل، غليونان خاصان بتدخين الأفيون إضافة إلى مصباح كحولي وحقنتين وعلبٌ معدنية. هناك تفصيلان آخران يكملان الجو العام في

---

[1] التشنشيلا: أحد أنواع القوارض التي تعيش في جبل الأنديز وتشابه الأرنب إلى حد ما. المترجم.

هذا المكان: في الزاوية الخاصة بالطاولة نفسها وفي منتصف الجدار من حيث الارتفاع، هناك ركن صغير مُغطى بالساتان ويحتوي على أيقونة روسية مُضاءة بمصباح زيتي. تغطي الأرض كلها سجادة كثيفة الوبر بلون رواسب النبيذ، يسير المرء فوقها وكأنه يسير على دبابيس مرنة، وازدادت نعومة بسبب سجادات أربع من جلد الدب القطبي الهائل الحجم بأفكاكها المفتوحة وعيونها الكريستالية والتي يواجه أحدها الآخر.

"اخلعي ملابسك!" ورمت لها روب دِيشامبرٍ ملوّن بلون التبغ اللامع، بينما كانت بدورها تتعرى وتلبس روباً مبطناً بالأزرق الشاحب ويحتوي على بُقعٍ بنيّة اللون حول ثقوب سوداء ناتجة عن حروق متعددة.

تعرت بيتكا خلال ثوان، كانت سيسيل تراقبها من زاوية عينها بقلب مضطرب بينما هي تعدّل أكمام الروب الذي قدمته لها، وتصرّفت سيسيل براحة كتلك التي تكون بها إن لم يكن أحد سواها في الغرفة. أظهر عُري سيسيل عيباً بسيطاً يتمثّل في ثدييها المتهدلين، لكنّ ساقيها النحيلتين كانتا جميلتين كشيء سماوي. لديها وجه كوجه عصفور يشبه قطة، ولديها جسدٌ كجسد قطة تشبه عصفوراً، دون أن تشبه البومة على الأقل كما يخطر ببال المرء أن يعتقد من البداية.

ما كان يشبه العصفور في سيسيل غودرو في الواقع، كان هشاشة الكاحلين والمعصمين وعنقها المخضرّ الأجوف، والحجم الصغير لجمجمتها النحيلة المحتواة في الرأس الصغير، وشعرها المجعّد في جدائل منفصلة ناعمة ومتدرّجة كالريش. أما ما يشبه القطة فيها فكان النظرات الخضراء الثابتة والتعابير الساخرة الذكورية لأسنانها المدببة، حركاتها المرنة المقوّسة، المكر والكسل في تراخيها وحتى موائها، لدرجة يمكن أن يُقال عن نكاتها المشهورة، المختصرة والمغلفة بإيحاءات شهوانية، إنها تصدر على شكل مواء أكثر منه كلاماً.

"هل تحبين هذا؟" ماءت سيسيل غودرو وأشارت بإيماءة دائرية بدت عن بُعد وكأنها تلاطف الساتان المتدلي على الجدارن كله. قالت وهي تعصر الفرو بيدها المشابهة لساق عصفور عارية: "أنا لا أهتم بالديكور، إنه يشبه نمط (بول

بوريت)[1] إلى حدّ كبير، لكني أحبّ الجانب الأبله والذي عفا عليه الزمن منها. لقد اشتريت جميع هذه الأشياء بمزاد علني، تماماً كما هي، من الأمير أورميني الذي ملّ منها، هل تفهمين؟ سوف ترين يا قطتي، حالما تعتادين على كل هذا، ستبدأ الفخامة المُفرطة بالرغم من كل شيء بجعلك ترينها مناسبة للتدخين. هذا ليس فرو أرنب، أنت تعرفين! إنه فرو (التشنشيلا) حقيقي. هناك الكثير منه! لم يكن الأمير أورميني يمسح أنفه بأكمامه، يمكنني تأكيد ذلك! هل ترين وعاء الحساء هذا، إنه للإقياء؟

حسناً، إنه من الذهب الصرف!"

وبينما كانت تتحدث، مددت سيسيل غودرو نفسها وسحبت الطاولة المطلية بالورنيش مع معدّات التدخين إلى مستوى صدرها. أتت بيتكا وتمددت بجانبها ضاغطة جسدها بخفة على جسد سيسيل. بعدها مررت سيسيل وبحركة سريعة وعَرَضيّة ذراعها حول عنق بيتكا وقرّبت وجهها بشكل ملاصق لوجهها. وباهتمام كبير، راقب زوجان من العيون الطقوس الأوليّة ليدي سيسيل المنشغلتين بتحضير الغليون الأول. على رأس إبرة الغليون، لفت سيسيل كريّة صغيرة من الأفيون بالمهارة البارعة لصينيّ عجوز، وقربتها كثيراً من الشعلة وسخّنتها حتى أصدرت صوت طقطقة، لكنها في اللحظة التي أوشكت فيها أن تشتعل، سحبتها كي تعيد تشكيلها، ضغطتها ولعبت بها بشكل شهواني كما لو أن أهميتها بالنسبة لها كأهميّة ما يُخرجه النرجسيون العظام من أنوفهم وآذانهم ويعيدونه بعدها بمتعة كبيرة. لا بدّ أن سيسيل كانت تفكر بالشيء نفسه لأنها قالت لبيتكا ضاحكة:

"على أية حال، إنه أقل قذارة من (نكش) أنفك، أليس كذلك؟ يا لها من عادة! خذي ذلك المسكين أورميني الذي يدخن بشدة والذي

---

[1] بول بوريت: مصمم أزياء فرنسي، تشبه مساهماته في الأزياء مساهمات بيكاسو بالفن بالنسبة إلى القرن العشرين. المترجم.

سئِم من الجو المحيط به! هل تفهمين يا طفلتي، هناك نمطان من المدخنين، النمط الذي يدخّن لخلق الجو المناسب له والذي حالما ينجح بخلق جوّه يصبح سئِماً منه، بينما يدخّن النمط الآخر لأنه سئم من الجو. بشكل تقريبي، يكون المدخّن من النمط الأول دائماً من النوع الجمالي، النوع المعتوه قليلاً، النوع الأورميني. النمط الثاني هو أنا، النمط الحقيقي، العقائدي، بدون بهرجة. لكن هل ترين كم هذا فضولي: نحن نشتري في النهاية جوّهم الجاهز مع كل بهرجتهم ونشتري مشاكلهم معها. العقي أذني يا عزيزتي، إنها تحكني..... أسفل قليلاً، شكراً لك يا فتاتي. هلا سمحت بضغط المفتاح الموجود تحت الطاولة لنتخلّص من الإنارة، اضغطيه بقدمك ببساطة. هناك! نعم، هكذا أفضل، مع نور باهت فقط، أليس كذلك؟ رائع حقاً هذا المصباح الزيتي قرب الأيقونة. لا بدّ أن أورميني كان فخوراً بذلك التأثير، السافل المسكين! كم عمرك؟"

تنهدت بيتكا: "كم هو رائع أن أكون هنا!"

هيا الآن، هل تسمعينني؟ لا بدّ أنك في العشرين؟"

"أسوأ بكثير، أنا في الثامنة عشرة!"

قالت سيسيل وهي تضع الغليون بين شفتي بيتكا: "هذا مؤسف! هذا ما اعتقدته، إنه عمر الغباء! خذي يا كنزي، استنشقي هذا العبير، يوماً ما ستشكرين عجوزتك سيسيل على تعليمك تلك الأشياء الحقيرة. أنتِ مصوغة لها ويمكن للمرء أن يعرف هذا من مجرد نظرة واحدة إلى وجهك القلق وفمك الكبير الشهواني. ألا ترين أنهما لا يتناسبان معاً! يمكن لجرعة واحدة من الأفيون أن تجعلهما متناغمين. لديّ خبرتي وأستطيع معرفة المدخّنة المستقبلية ضمن حشد يتابع مصارعة ثيران. هلا ذكرتني أن أخبرك بقصة أورتيز، الشاب الذي اصطحبته في مدريد؟ لن أتحدث عنه اليوم، هل تفهمين؟ أنا أتحدث ما يخطر ببالي وحسب. لكن أمامنا الكثير من السنوات وسوف تسمعين قصصاً جيدة من سيسيل. يمكنني أن أتحدث بأي أسلوب

أدبيّ ترغبين به، أسلوب (مارسيل بروست) كمثـال، لكـن الأسـلوب المعـيش ليس كذلك، يمكنني أن أردد بعض قصائد (لو تريامونـت)[1] لكـنـي سـأحتاج إلى بيانو لأفعل ذلك، ألا تعتقدين أن هذا المكان يفتقد وجود بيانو؟

كانت بيتكا قد أنهت غليونها بجشـع طفـل يرضـع. كانـت قـد بـدأت تستمدّ متعتها من خيبة أملـها بفيرونيكـا، وانطلقـت بسلسـلة مـن أحـلام يقظـة كانت فيرونيكا فيها "مذهولة" بحياتها الجديدة الفاسقة التي بـدت مـن بـدايتها متميزة بأشياء كثيرة تتجاوز كل ما عرفته حتـى الآن. فكّـرت في نفسـها: "لـيس هناك نوع من الصدق والصراحة سوى بين مجموعة من المـدمنين." لقـد اسـتولت عليها بالكامل شخصية سيسيل غودرو التي لا تُقاوم.

لامست بيتكا طيفاً خفيفاً من الخدر بينما كانـت تتلقـى الغليـون الثالث من سيسيل، فقالت: "لا أشعر بشيء، لا أثر لأي شيء."

"هذا نـوع قـوي جـداً، إنـه ممتلـئ تمامـاً بـالأفيون لكنّـك لـن تشـعري بشيء أيضاً: ليس للأفيون أي أثار لكنه يفعل ما هـو أهـم مـن ذلـك، إنـه يمنـع القبح الموجـود في العـالم مـن التـأثير عليـك. يُـؤمن النـاس في مثـل سـنّك بـأنهم قادرون على محو حالة التعاسة لديهم وإلا فسوف يخترعون حيـاة مزيّفـة. لـيس هناك مـن جنـة مزيفـة، هنـاك فقـط طريقـة لتحويـل ذلـك الألم النـاعم الهلامـي المُقلق إلى شيء مقبول. هل أنت بخير؟ سأقوم بتحضير واحدٍ لنفسي."

"كـم هـو المكـان مـريح هنـا!" تنهـدت (بيتكـا) بينمـا تلـتقط غليونها الخامس.

يمكنك البقاء هنا قدر ما تـرغبين. يوجـد دائمـاً مصـروف جيـب بسيط لن تعرفي أين هو، حسناً، إنه تحت وعاء الحساء الذهبي، أترين."

---

[1] لو ترياموت: اسم مستعار للشاعر إيسيدور لوسيان دوكاس. هو شاعر فرنسي مولود في الأرغواي، كان له تأثير على الأدب الحديث ولا سيما على السرياليين. المترجم.

التقطت سيسيل ذلك الوعاء الموضوع فوق صندوق كبير مصنوع من الذهب أيضاً وهو كأس لعبة البولو للأمير أورميني، المنقوش على غطائه في كل مكان، تواقيع شخصية . فتحته وهزّت بيديها عدة رزمات من الأوراق النقدية، وكان هناك فيل مكسور من العاج مربوط بشريطة حمراء قذرة جداً، "يمكنك يا فتاتي أخذ ما شئت من هنا دون أن تسأليني. ماذا أصابك يا عزيزتي؟"

قالت بيتكا: "لا أعرف، شعرت مرة أخرى بقلق مخيف". ثم تنهدت وضغطت جبينها بيدها المرطبة بعرق بارد، مدركة في أعماق نفسها أن السبب هو فيرونيكا: كانت أروع من أن تدوم، يا إلهي، لو أن التفكير بها لايأتي ويزعجني!

دمدمت سيسيل: "اعتقدت ذلك،" ومن ثم قرّبت وعاء الإقياء الذهبي إلها وقالت: "افعلي ذلك يا فتاتي! هذا بسبب تلك القمامة التي تناولتها عند سولانج دي كليدا. إن الأفيون ينقّي الجسم."

بدأت بيتكا تتقيأ.

"افعلي ذلك يا فتاتي! أنا أسندك يا عزيزتي. أنا هنا يا عزيزتي،" وضغطت بينما كانت تقول ذلك على جبينها بيديها الصغيرتين المنقبضتين كمخالب عصفور. "انتظري لحظة، سأعطيك مِنشفة نظيفة مبللة بالأثير." ثم عادت على الفور مُحضرة وعاء الإقياء الذهبي.

بعد مضي ثلاث ساعات غمغمت بيتكا: "أعتقد أني كنت نائمة."

"نعم كنت نائمة! إنها الساعة الرابعة والنصف صباحاً، والسماء تمطر الآن في الخارج. أنا لا أنام أبداً! هل لا زلت تشعرين بالغثيان؟"

"قليلاً فقط، سأذهب، لا تزعجي نفسك." وذهبت بحالة من الذهول الكامل وأغلقت على نفسها الحمام لبعض الوقت. كان الحمام مُنجزاً من الداخل بالرخام الأسود بشكل كامل. "يا لحياة الكلاب! إنه

حمام رائع" كانت تلك أفكار بيتكا بينما تحرّض نفسها لتنهي آخر الانقباضات وتضمن أطول مدة من الراحة لمعدتها.

عندما لمحتها سيسيل راجعة، قرّبت منها غليوناً آخر وقالت: "هذا غليون آخر كنت قد حضّرته لنفسي، إنه جيد! سأعلّمك كيفية تحضيره لأني لن أكون موجودة دائماً...... هل لاحظت الطحلب الناعم الأخضر الذي يغطي واجهة البيت؟ أوه، لا، من غير الممكن أن تنتبهي إليه لأننا عدنا في الظلام. سأريك، جدار الواجهة مغطىً تقريباً بالكامل بالطحلب الناعم ذي اللون الأخضر المشؤوم." قالت سيسيل ذلك مبتسمة بغرابة ومن ثم تابعت بنغمة صوت مزعجة: "كنت أحبّ هذا الطحلب في السابق! كنت أتخيل في أيام مثل هذا اليوم أنه يتقطّر مع المطر، كما أن ظهور هذا المشهد في الوقت الفاصل بين تدخين غليونين، يزيد المتعة الغامضة لديّ للتكوّر بجنون بين الوسائد. لكن في الأسبوع الماضي كان لهذا الطحلب المرتبك تأثير غريب عليّ، ومن الغريب أن يترك شيء كهذا تأثيراً مزعجاً بهذا الشكل...... ومع ذلك فإنه جميل جداً عندما ننظر إليه عن قرب! هو يشبه الشعر الناعم المنبثق من أطرافه شيء يشبه الأزهار الصغيرة. تشبه صُلباناً صفراء صغيرة....!"

أصغت بيتكا لكل ذلك بنصف أذن. وبسبب ليلة الأفيون الأولى، شعرت بنفسها جامدة تطفو فوق مستنقع زيتي صافٍ على ذلك الأفق الأسود من نظرات فيرونيكا القاسية المزوجة بشعلة واحدة من الندم. بقيت معلّقة، متذبذبة كضوء مصباح ليليّ نصف مشتعل يشكله ضميرها السيئ.

يا صديقتي غير المخلصة! سوف ترين! سوف ترين! تابعت بيتكا عتابها لها بهمس دون أن تُدرك مما يتكون تهديدها الغامض. كانت ولوقت طويل، تراقب الضياء الناعس للمصباح الزيتي قائلة لنفسها في محاولة أن تلعب على مخاوفها: "سيكون هذا مخيفاً، وجه فيرونيكا مكان الإيقونة!" لكن الخوف لم يسكن روحها في تلك الليلة بل على العكس، بدلاً من نباح

الكلاب الهائجة لحقدها على فيرونيكا وبدلا من المخاوف التي أرادت أن تصحو في روحها، كانت تشعر بسعادة لا نهاية لها مجهولة المصدر لم تكن قد اختبرتها مُسبقاً، وضعتها على حافة البكاء. وبجوّ من الهوس وهي تمسك بيدها غليوناً مشتعلاً، غمغمت سيسيل غودرو بصوت منخفض وكأنها تفضفض للخرز الموجود على خشب الغليون بعضاً من قلقها:

"الأخضر المرعب! هذا الطحلب المخيف! .....لكنه غريب ...... لم يكن هناك شيء أبداً عندما بدأ هذا الرُهاب الجديد .... كنت أسير وأشعر بإحباط شديد، وجدت نفسي بعدها أمام حائط مقبرة (مونتمارت) ذي الشكل المربع المغطى بالرطوبة والطحلب نفسه الذي في الواجهة....... هذا كل ما كان هناك ... نعم، كان في الحلم أيضاً شيئ يخص كفناً بلون جوزيّ فاتح ..... وبعدها هنا بطاقات لا تعمل وكل شيء، كل شيء. عليّ أن أكون مرتابة من أورميني. تذكرت الآن اليوم الذي لفت الأمير فيه انتباهي لهذا الطحلب اللعين مشيراً إليه برأس عكازه المصنوع من خشب الأبانوس، قال ضاحكاً مبيّناً أسنانه الصفراء: "هو رطب جداً ولا يمكن إنكار هذا، لكنه غير نفوذ. إنه جافّ من الداخل وبحالة جيدة ليحافظ على مخلوقات محنّطة مثلنا!" يا إلهي، أي مخلوق حزين هو أورميني! يا إلهي، كم يمكنه أن يصبح لزجاً، كما أنه لونه ثابتٌ في الليل. أخضر! كم أبغضك أيها الأخضر! لون الشيطان."

لم تعد بيتكا تستمع لتلك الجلبة التي لا نهاية لها، وبدأت تحكّ إحدى قدميها بالأخرى بينما تقول في نفسها: "ليت هذا لا ينتهي! لكن المصباح الليلي سوف ينطفئ، وأنا لم أعد أشعر بالنعاس أبداً."

"توقف!" صرخت وهي تمرر ذراعها حول عنق سيسيل وتهزّ رأسها كما لو أنها تخلّص نفسها من فكرة ثابتة. استسلمت سيسيل بسهولة لهذه الحركة، وما إن تدفأ وجهها الصغير وارتاح تحت إبط بيتكا حتى قالت لها بحزن ليس له بداية أو نهاية. "هل ستكونين مخيبة جداً للأمل مع صديقتك سيسيل غودرو؟" وتابعت

بتهكّم: "ها هي هنا، يمكنها أن تستاء جداً بسبب شيء تافه مثل حزمة طحلب طازج، هذا غريب أليس كذلك؟"

كانت بيتكا تسمع طوال هذه الفترة خطواتٍ بطيئة صامتة تأتي وتذهب عبر القاعة وقد بدت الآن أقرب، في الحمّام. التفتت نحو باب المدخل ورأت هيكلاً عظمياً طويلاً مرتدياً بيجامة من الحرير الأسود بياقة عالية وضيّقة من الطراز الروسي، نظر إليها من مسافة وكأنه لا يجرؤ على الاقتراب. يخصّ هذا الهيكل العظمي الكونتيسة ميهاكوسكا التي تعيش مع سيسيل في غرفة مستقلّة للمرضى. لم تكن بيتكا بحالتها المخدّرة مندهشة من وجودها بأية طريقة، ورجتها بإيماءة لطيفة كي تأتي وتتمدد معها على الجهة الأخرى من سيسيل. هزّت ميهاكوسكا رأسها بمنتهى الرقة معبّرة عن رفضها واقتربت بضع خطوات منها كما لو أنها تقدم تفسيراً. بعد ذلك اتكأت بركبة واحدة على الأريكة وبدت وكأنها تريد بمساعدة يدها لفت الانتباه إلى ثديها الأيسر، قالت بتكشيرة مبالغ فيها، مشدّدة على كل مقطع لفظي وبصوت مطموس بالكاد يمكن سماعه: "أنا لا أستطيع — عمل – العمـ – العمليـة." حاولت بيتكا أن تلتقط الكلمات بحركة من شفتي الكونتيسة لكنها لم تنجح.

أوضحت سيسيل أنهم قاموا بعملية بتر لثديها الأيسر بسبب السرطان، لقد أزالوا كل شيء، كما أن لديها مشكلة في الحنجرة، إنها ملاك حقيقي!

ابتسمت بيتكا للكونتيسة ابتسامة طويلة واستجابت الأخيرة مرة أخرى بنوع من الفخر الطفولي لشعورها في النهاية بأنها مفهومة ومُعجبٌ بها.

"لا تعيريها أي اهتمام فهي حمامة أليفة لا تتكلم ولا تزعج أي إنسان، تهدل مثل الحمام وتشبهها بثديها الواحد ...... كما أنها مختلة التوازن قليلاً، للتأكيد فقط!" هتفت سيسيل وكأنها استعادت رغبتها بالثرثرة فجأة: "أنت تفهمين يا طفلتي، لم يكن بيني وبين الكونتيسة أي شيء،"

رافعة أصابعها الأربع وإبهامها على شكل صليب إلى فمها، وقبلتها مقسمة اليمين: "أبقيتها هنا فقط بعيداً عن الشفقة. كانت العشيقة السابقة للأمير أورميني، لقد أنشأ هذه الشقة ليصبح قادراً على المجيء والتدخين معها، كانت تقريباً بيتها، هل تفهمين؟ لذلك فعندما اشتريت جميع الأشياء من أورميني، حافظت أيضاً على عشيقته مع الصفقة، هل تفهمين؟ الكونتيسة نموذج يتماشى مع هذا النوع من البيوت. خلصتها من الإدمان وأخضعتها لعملية (من مال أورميني بالطبع، كانت تلك القشة الأخيرة!) إنها بحالة جيدة الآن، لا تتحدث كثيراً ولم تكن تقول الكثير أبداً، امرأة مسكينة وسعيدة تشغل نفسها بأشياء صغيرة، وخاصة أيقونتها. انظري! انظري!"

وقفت الكونتيسة ميهاكوسكا على الأريكة وأضافت الزيت إلى المصباح بعد أن أنزلته ومن ثم أخذت الوعاء الذهبي واختفت. "إنها نظيفة، تريد لكل شيء أن يلمع، هل رأيت شيئاً أكثر أرستقراطية من هذا الهيكل العظمي؟"

كان الزمن قد ألقى حجاباً بنفسجياً من الغفلة على الليل القطبي المضاء بالأضواء الشمالية بسبب الأفيون. بصعوبة شعرت بيتكا أنها على قيد الحياة، جاثمة في كوخ أسكيمو مَلَكي لرذيلتها الجديدة، في قلب شتائها دون ضياء ودون برد. لقد دخّنت وتقيأت وشربت عصير البرتقال وتقيأته مرة أخرى. كان هذا النشاط الغريب بعيداً عن أن يبدو غريباً بالنسبة لها، بل على العكس من ذلك، بدا لها من أكثر الأشياء طبيعية في العالم. كيف لم تفكر بهذا من قبل؟ لقد عاشت ثلاثة أيام متتالية بلياليها في حالة غياب كامل تقريباً عن مفهوم الوقت. لديها فكرة غامضة عن أن سيسيل قد خرجت من البيت وعادت مرات متعددة خلال تلك الفترة لكنها لم تعرف كيف ومتى وإلى أين.

استيقظت للتو وتمددت لفترة طويلة ومسّدت بيدها فرو (التشينشيلا) من الأمام والخلف حيث كانت مستلقية، وكأنها تكتشف للمرة الأولى الترف الباذخ

للمكان الذي تُقيم فيه، ومع ذلك كانت بصعوبة تستوعبه. بعد لحظات من دهشتها لكونها لم تشعر حتى بأقل أثر من الشعور بالذنب الذي يجتاحها في كل حالات صحوها المقلقة، نهضت بكسل وحنت ظهرها المتيبس قليلاً من بقائها لوقت طويل بالوضعية ذاتها على أريكة ثقيلة ملفوفة بخرز فضي ناعم يَخِزُ عظامها بلطف. اجتاحها بعد ذلك إحساس من الشعور بالفراغ وباقتراب معدتها من ظهرها مترافقاً مع وجود أسراب نمل تطوف في جميع الاتجاهات.

"أنا جائعة جداً،" فكرت بتلك العبارة وهي تتثاءب مقلّدة الفك المفتوح الماكر (ميترو غولدن ماير)[1] ، "شعار الأسد."

لا بدّ أنها كانت نهاية اليوم، بناء على الأشعة البرتقالية للشمس الغاربة التي تنفذ من خلال الشقوق الموجودة بين الستائر المغلقة جداً، وترسم خطاً قطرياً أرجوانياً على عقيق السجادة يتسلق الأريكة المجاورة بشكل خجول إلى حد ما ويتبع الجدار المكسو بالساتان الأصفر. كانت الكونتيسة نائمة بسلامٍ على جانبها على الأريكة، فمها نصف مفتوح، ويعطي شعاع الشمس الناعم الذي يعبر خدّها، أحد أسنانها الذهبية بريق اللون الناري الشرير. عرفت بيتكا من الصمت السائد في البيت أنِ سيسيل قد غادرت. مدّت قدمها دون أن تغير وضعية جسدها لتفتح الستارة قليلاً وتلقي نظرة أفضل على وجه الكونتيسة الذي بدأ يُضاء تدريجياً حتى أصبح مخضّباً بلون خفيف بدأ يتحول إلى الأرجواني. لم تنهض من مكانها لكنها قرّبت يدها من الصدر الذي لم يتم بتره. عادت بعدها وأغلقت الستائر وتركتها مفتوحة بما يكفي لتتمكن من النظر للخارج عبر الألواح الزجاجية، لتشاهد قرص الشمس الكبير الأحمر الكامد وغير المنتظم بشكل بسيط في استدارته، والمشابه في حوافه لتلك الحواف الخرقاء واللون المركز بكثافة للحشد المنتهك النازف المرسوم برهبة كبيرة على يد معلمين ثانويين في مدرسة

---

[1] مترو غولدن ماير: هي شركة إعلام أمريكية تشارك في إنتاج وتوزيع الأفلام والبرامج التلفزيونية ويظهر شعارها على شكل حلقة دائرية يزأر من خلالها أسد ضخم. المترجم.

(سيينا)[1]. تسكب أشعة الشمس المصيرية ضوءها القرمزي المادي الكثيف جداً، وقد بدا مثل سائل كثيف مُشبع منتشر فوق كل شيء بضيق مهيب مذهلٍ بدلاً من كونه ضوءاً. راقبت بيتكا التدفق الهادئ للضوء يرتفع على ساقها المتصلبة المنبثقة من روبها وصولاً إلى أعلى نهاية فخذها الذي كان منتقعاً بلون أحمر، كان النبض الدائم للشمس لا يزال ينقل إليها تلك الرطوبة الدافئة واللزجة إلى حد ما، لمستها بإصبعها: كانت دماً.

قالت في نفسها مستلقية مرة أخرى وساحبة الستارة بشكل كامل بقدمها: "هذا كل ما أحتاج إليه! "سوف أرتب أموري خلال خمس دقائق وأخرج."

أرادت أن تستمتع بالعتمة لدقائق أخرى. أمام عينيها المغلقتين، اختفى نهر السين الأرجواني تحت جسر (إنفاليد) البعيد. رأت بعدها الحشد يملأ جادّة (مونتمارت) في ذلك الشفق الدافئ من الصيف المبكر، ومن ثم النهر مرة أخرى، كان النهر في قريتها هذه المرة وكانت أمها تضرب أخاها الصغير فولوديا وتعاقبه على ذهابه للسباحة، وبكل مرة يحاول الأخير الصعود إلى الضفة، تدفعه الأم مرة أخرى بمجذاف أسود، تضربه على صدره ووجهه وتجعله يسقط في الماء. أخيراً، أصبح فولوديا هامداً، انحنى رأسه الأشعث بلون الصفصاف فوق الماء المتدفق....... وظهرت فجأة دوامة من الزبد الأبيض المخضّب قليلاً باللون الزهري، كانت كما لو أن شخصاً بصق وفمه مليء بمعجون أسنان. كانت ذاكرة بيتكا القاسية قد شُحِنت بالكثير من العذوبة، بالكثير من الهشاشة البدائية للريف عبر السماءات الليلية الشاحبة لشهر آذار بحيث أنها وبينما كانت تستنشق الهواء المخلخل للغرفة والمعطر بالرائحة اللطيفة الخالية من الطعم للأفيون، اعتقدت أنها تملأ رئتيها بالهواء النقي لربيع رغبتها المستيقظة.

---

[1] سيينا: مدرسة للرسم ازدهرت في سيينا في إيطاليا بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر.

وجدت نفسها جالسة أمام طاولة الزينة في الحمام لكنها لم تعد تتذكر كيف أتت إلى هنا. كان الحمّام مكسوّاً بشكل موّحد بقطع مربعة كبيرة من الرخام الأسود. كانت جميع المواد وحتى أصغر الملحقات من الذهب. كان كل شيء على طاولة الزينة مرتباً ترتيباً كاملاً متناظراً يتحسس المرء فيه حضور الاهتمام المجتهد والدقيق والهوسيّ للكونتيسة ميهاكوسكا. كانت القوارير المتطاولة ذات النموذج الموحّد جميعها تقف على مسافات منتظمة وبحسب مقاساتها في صفوف موازية للمرآة، من الكبير المحتوي على أملاح الاستحمام مروراً بشكل تدريجي إلى مجموعة كاملة من العطور ومنها إلى قوارير ناعمة لمراهم غريبة، إلى آخر واحد منها، والذي لا يزيد في حجمه عن حجر النرد ويشابه في وضعه القطعة الأخيرة في مجموعة الدمى الروسية. كانت القوارير مرتّبة فوق رفوف بما يتناسب مع المقياس التنازلي نفسه. بيتكا، بوجهها الشاحب، تركت نفسها بلا حركة. كان رأسها مائلاً للخلف ويداها تضربان الرخام الأسود الذي ينعكس فيه المعدن الثمين على شكل أنابيب طويلة غير لامعة. انبعثت موسيقى خافتة من غرفة الكونتيسة، يمكن للمرء أن يتخيل بسهولة أنه وبدلاً من الفتاة الجالسة إلى مرآة التجميل أصبحت بيتكا القديسة (سيسيليا) التي تعزف على الأورغن الذهبي جالسة على غيمة وتشعر بالكثير من الوهن، تشعر أنها بلا جسد وكأنها بقيت في الأعلى بسبب انعدام الوزن الذي أوحى به عدم وعيها بحركاتها على الإطلاق. كان لديها شعور غريب لم تشعر به في حياتها وهو عدم إدراكها لحركاتها إلا بعد لحظات من قيامها بها. شعرت فجأة ببرودة تشبه الثلج تغزو جبينها الذي كان دافئاً منذ لحظات فقط، رفعت يدها إلى جبينها حيث قابلت هناك يدها الأخرى التي كانت تمسح صدغيها بفوطة مبللة بالأثير. كان الأهم من ذلك أنها لاحظت وبدون أن تفهم السبب، خصلة من شعرها مقصوصة في يدها، كان شعرها هي، لكنها وبعد أن رأت المقصّ الذهبي محمولاً بيدها الأخرى، قالت بضحكة واهنة بعد أن قذفت المقصّ في الهواء: "كم أنا سخيفة!". طار المقص بحركة دائرية وسقط في حوض الاستحمام المليء بالماء.

قالت بيتكا لنفسها: "بربكِ الآن، أنا لن أقف وأنظر إلى هذا طوال حياتي! لنتصرف بشكل منظم. الطريقة المايرية! الطريقة المايرية[1]!" أعلنت بصوتها الشاحب مقلدة صوت أمها ذا النبرة الخالية من الشفقة والذي بدا فجأة بعيداً بشكل لا نهائي.

عادت بعدها إلى غرفة التدخين وأخذت عدة مئات من الفرنكات من صندوق كأس الأمير أورميني الخاص بلعبة البولو وجلست أمام المكتب الفينيسي المرصع باللآلئ، والذي يزين الجدار الرئيسي في القاعة وكتبت على مغلف: "الآنسة فيرونيكا ستيفن، فندق (ريتز)". كتبت بعدها على بطاقة ذات بياض ناعم كثيف يشبه الغاردينيا: "عزيزتي، أسفت جداً لأني لم أرك عند السيدة سولانج دي كليدا في الليلة السابقة. سيكون من الصعب عليّ أن أراك لبعض الوقت. لقد وجدت سعادة لم أكن آمل بها. سوف لن أدعها ترحل. شكراً لك مرة أخرى.

المخلصة لك

بيتكا."

أعادت قراءة الرسالة وأضافت أقواساً علوية للتشديد على كلمة "سعادة". وضعت البطاقة في المغلف متضمنة الإيصال الخاص بالبرقية والبالغة قيمته خمسة وأربعين فرنكاً إضافة إلى ورقة نقدية من فئة الخمسين فرنكاً وخصلة من شعرها. وأخيراً بللت الحافة الصمغية من المغلف بلسانها و.............. ونظرت إليه قبل أن تغلقه كما لو كانت تتأكد. قالت وهي تغلقه بشكل نهائي: "نعم، كارتييه!". بعد إنهاء هذه الرسالة أخذت بيتكا

---

[1] الوسيلة المايرية: وسيلة الميموتكنيك تم اختراعها من قِبَلِ بروفسور من فينيسيا وهو الدكتور ماير، والتي بحسب رأيه تختصر الوقت وتتجنب جميع إرباكات مشاكل الحياة اليومية. دعت والدة (بيتكا) لاستخدام هذه الوسيلة في جميع الظروف، وتصرح حتى قبل معاقبة أطفالها: "تعالي الآن، الوسيلة المايرية، الوسيلة المايرية!"

مغلفاً آخر، ترددت للحظات بسبب الإحراج كونها لا تتذكر اسمه وربما لم تعرفه أبداً في الواقع. قررت إيصاله بنفسها ولذلك كتبت بطريقة مختصرة تشبه طريقة إرسال البرقيات وبأحرف كبيرة ودون توقيع: "استخدم حقي بالقيام بما أريده أخيراً، سوف أنتظرك الليلة في حانة (كوبول) في منتصف الليل"، مضيفة ما تبقى من خصلة شعرها وأغلقت هذا المغلف أيضاً.

استعدّت للخروج، لكن وبينما أوشكت أن تفتح الباب رأت ومض ذاكرة عن المقصّ الذهبي الموجود في أسفل حوض الاستحمام ينبع من أعماق انعكاس الصورة على قبضة الباب، واعتقدت على الفور أنه من الممكن لسيسيل أن تؤذي نفسها عندما تجلس في الحوض. عادت لتُخرِج المقصّ لكنها عندما وصلت، رأت الكونتيسة ممددة فوق الحوض محاولة إخراجه. بقيت الكونتيسة للحظة تحت تأثير المفاجأة والمقص في يدها، بدت وكأنها خافت. لم تستطع بيتكا مقاومة الرغبة في معانقتها واتجهت نحوها لتُقبّلها. عزيزتي المسكينة، بالرغم من كل شيء كانت لا تزال جميلة! ذهبت ميهاكوسكا بسرعة وجلست أمام طاولة الزينة، واعتقدت بيتكا وهي تهمّ بالمغادرة أن الكونتيسة كانت تضع البودرة على وجهها، بشفتيها المغلقتين، مُحاوِلة كتم رغبة لا إرادية بالبكاء.

مشت بيتكا بضع خطوات في الشارع ثم توقفت فجأة. "لقد نسيت الشيء الأساسي!" وضعت يدها على قلبها حيث وجدت شيئاً صلباً. سحبت باطمئنان من جيب بلوزتها المبطنة الناعمة والتي تشبه قصّتها قصّة ذكورية تقريباً كتلك التي تلبسها سيسيل دائماً، علبه صغيرة مصقولة من صناعة (فابرجيه) ملفوفة بمنديل حريري. كانت سيسيل قد قدّمته هديّة ونصحتها بأن تتنشّق بعضاً منه عندما تكون الأمور سيئة فعلاً وقالت لها: "إنه ليس أقل من هيروويين[1]." وابتسمت لهذه الكلمة.

---

[1] كلمة هيروويين هي اسم المخدر المعروف لكنها تشبه لفظياً كلمة (بطلة) حيث أن (هيرو= البطل، هيروويين = البطلة). المترجم.

أعادت بيتكا علبتها الثمينة إلى الجيب نفسه، وأغلقت الخطّاف بقوة كسرت فيها ظفرها، ثم بدأت تقضمه بأسنانها قضمات منتظمة ومرهفة ليصبح على شكل نصف هلال، ثم بصقت نحو السماء اللزجة الشاحبة جدا والتي بقيت فيها آخر ذرات من الغيوم الدموية. بعد ذلك بدأت تزيد سرعتها ضاغطة على كل حركة ومستمتعة بصوت طقطقة مفاصلها، ولكي تشعر بالألم أثناء مشيها بتلك الطريقة، بدأت تضرب بطرف حذائها أصغر حجر يتواجد في طريقها بركلات قوية وطفولية من ساقيها منزوعتي الجوارب. تنفست بعمق متخيّلة المدى البعيد لعشب الريف وشعرت بالتنفس الخانق قليلاً والناتج عن رطوبة الرصيف الذي تم رشّه بالماء منذ قليل. أحسّت بالندم لأنها لم تنزل إلى الشارع بوقت مبكر بينما كانت الشمس تغيب، لتتمكن حينها من الشعور بالدفء الدموي والضوء النحاسي لشعرها يُشعل ناراً بدماغها. حثّت نفسها على السرعة لأنها أرادت التخلّص من المغلّفين اللذين يشعرانها بحكة في يدها، ولأنها بعد الانتهاء منهما ستكون للمرة الأولى في حياتها دون قيود، ستكون حرّة بفعل ما تمليه عليها رغبتها.

وصلت إلى (كو ديس أورفيفرز) حيث تقيم، وصعدت السلّم لاهثة دون أن تتوقف لالتقاط بريدها من مشرفة البناء لأنها لم تكن هناك، وقد أعطاها ذلك متعة زادت من نشاطها حتى ارتعشت مع أنها لم تكن تشعر بالبرد. تابعت الصعود من دون أن تتوقف عند باب شقتها إلى الطابق ما قبل الأخير. رأت خيطاً من نور ينبعث على طول قاعدة الباب مشيراً إلى وجوده بالداخل. أدخلت المغلف بسرعة من تحت الباب ونزلت بسرعة. كانت محظوظة مرة أخرى إذ لم تكن مشرفة السكن موجودة.

ما من شيء مزعج بالنسبة لها في هذا الوقت، أكثر من مصادفة شخص تعرفه وملزمة بالدردشة معه."

بدأت الجري نحو فندق (ريتز) لكن سرعان ما جعلها لهاثها القوي تأخذ سيارة أجرة. اجتمع لديها التعب الجسدي مع الخوف من مقابلة فيرونيكا ولو بصدفة تحدث لحظة دخولها للفندق، لكنها أتمت ذلك بسرعة البرق وبشكل لا بدّ أن للموظف معه قد يتساءل فيه لدى رؤية المغلف ينزلق على المكتب إن كان شبح قد أحضره.

غادرت فندق (ريتز) سيراً على الأقدام مختارة السير جزافاً نحو رصيف الميناء. وبينما هي تتبع مجرى نهر (السين) قابلت سيدة صغيرة عجوزاً لا يتجاوز حجمها حجم فقمة مرفوعة الرأس، كان شكلها الخارجي حاداً جداً ومُصمَمَة بشكل تبدو فيه وكأن لديها شخصية (مِملحة)، كان رأس أنفها ووجنتاها كثلاث حبات لامعة من الكرز معلّقة في الوجه الشاحب مشدود البشرة. كانت تبيع الكرز، فاشترت بيتكا عبوتين منها وجلست على مقعد قريب بخفة ورشاقة بحيث لم تهرب عصافير الدوري التي كانت تنقر الأرض قربها. شعرت بالإنهاك الشديد وأغلقت عينيها وعصرتهما معاً بقوةٍ لتحمي رأسها من الترنح. وعلى الفور، رأت في أعماق مداراتها كرزا من نار، تحول بعدها إلى الأصفر ومن ثم إلى الأسود مقابل الأحمر ومن ثم تلاشى.

تولد لديها شعور بالضحك. وافق فمها على أن يبتسم بسلام بينما اهتاج أنفها المسطح: كانت في مخيلتها تتذوق بحلاوة تأثير الرسالتين اللتين كانت قد أرسلتهما للتو، وتصورت للحظة رأس فيرونيكا المستدير منحنياً فوق الرسالة بينما تنسدل خصلتا شعرها الأشقر الكبيرتان بتثاقل على جانبي رأسها لتغطيا وجهها بشكل كامل تقريباً. رأت بعدها الطيار يقرأ رسالته ضاحكاً بصمت على غنيمته السهلة غير المتوقعة. لازالت لا تعرف اسم ذلك الطيار لكنها تذكرت لقبه للتو، اللقب الذي يُطلقونه عليه في الحانة، كان (بابا) هو اللقب المعروف به عندما يشربون نخبه في بارات ساحة الشانزليزيه. لا تعرف عنه شيئاً غير ذلك ما عدا

حقيقة أنه حارب في الحرب الأهلية الإسبانية، وأنه كان طويلاً وكان جذاباً بالنسبة لها......... وأنه سكن في البناء نفسه الذي تُقيم فيه وفوق الاستديو الذي تسكنه بطابقين فقط.

عاش بابا هناك بسبب مدام مينارد دورينت التي احتلت بفخامة الطابقين الأولين حيث تعيش بهما وحدها محاطة بثلاثة خدم أو أربعة وخادمة عجوز خاصة بها بعد أن تمكنت من إخراجها من الدير. كانت المدام مينارد دورينت شابة مفعمة بالنشاط بالنسبة لعمرها الذي يقارب الستين. وتلبس دائماً ألبسة مخرمة من مزيج رغوي من الأبيض والأسود وكانت مثقفة واسعة المعرفة، احترفت ثقافة حقيقية عن كل شيء قارب من بعيد أو من قريب الفلسفات الزائفة الثورية للأعوام السابقة. كانت الزخرفة الكريستالية والفضية الناعمة لطاولتها محاطة غالباً بأبّهة اللاجئين السياسيين الذين بحثوا عن ملجأ في باريس أو أنهم مروا مروراً عابراً بها، كما تُقدم عادة مناديلها المنشاة والمطرزة البيضاء كوسادة للأيدي التي كانت كبيرة جداً أو صغيرة جداً والتي كشفت من خلال الألوان المريبة لأظافرها، الأخلاقية القديمة الصدئة للتصرفات المباشرة واللاشرعية.

وبالتالي فقد شَهدَت شقة مدام مينارد مرور مواكب كينونات نصف أسطورية، مثل "اَلقديسة الحمراء ذات الشعر الأبيض" (كلارا زيتكن)[1] من ألمانيا، "المذنّب بدون فيزا" (ليون تروتسكي)[2] والفوضوي الكاتالوني (دوروتي)[3] الملقّب من قِبَل أتباعه "بقلب الأسد". كان بيتها

[1] كلارا زيتكن: تُعتَبر منظّرة الألمانية الماركسية، ومناضلة وداعية لحقوق المرأة. قامت في العام 1911 بتنظيم أول يوم عالمي للمرأة، عاشت بين عام 1857 – 1933. المترجم.

[2] ليون تروتسكي: سياسي سوفياتي ومنظّر الثورة الماركسية الروسية وهو المؤسس والزعيم الأول للجيش الأحمر. عاش بين عامي 1879- 1940. المترجم.

[3] خوسيه بوينافينتورا دوروتي: الناشط النقابي الإسباني والمتورط بالعديد من المنظمات كالاتحاد الوطني للشغل، والاتحاد الوطني للفوضى عاش بين عامي 1896 – 1936. المترجم.

منذ بداية الحرب الأهلية الإسبانية أغنى من العادة في تجميع عيّنات غريبة من الناس الذين يتحدثون بصوت عالٍ والحليقي الذقون مع وجود طيف أزرق لذقونهم، يلبسون أحذية ملمعة جداً باللون الأبيض والأصفر مع زينة معقدة وزخارف، يمشون الهوينى في جادة (سان جيرمان) كما لو أنهم في شوارع برشلونة الرئيسية، ودون أن ينسوا (نكاشات) الأسنان الصفراء المثبتة بأسنانهم الملونة باللون الزعفراني الأصفر.

وسط كل هؤلاء اللاتينيين الصفراويين بإفراط والمُزيتي الشعر المتمايلين، من هو الأشد إذهالاً وتمايزاً من جمال بابا الشمالي القادم من سلالة أمريكية، والذي لم يتعدّ الثانية والعشرين من عمره؟ كان الأكثر شباباً بين (محميّي) مدام مينارد التي أسّست له باهتمام أمومي خالص، شقة صغيرة في الطابق السادس ليقيم فيها خلال استراحته القصيرة في باريس. كان مهذباً جداً ومحبّاً للفخامة والترف. كانت أصغر حركة لديه تحمل علامة الغنج المغرور قليلاً، والتي بقيت لديه من فترة مراهقته التي قضاها بشكل مستمرّ في لندن بين الدوائر نصف المثقفة ونصف النهمة في العاصمة. في اليوم الذي قرر فيه الذهاب للحرب في أسبانيا إلى جانب الموالين، أُصيب معارفه المشككون بالذهول واتهمه أقرب أصدقائه الحميمين بالتكبّر. ومع ذلك وخلافاً لكل ما يظهر، لم يكن هناك من شيء قادرٍ على سلبه العذرية الغرانيتية للفضائل الأساسية لشخصيته. كان أشقر هادئاً يمتلك الغرابة غير المرئية للأبطال، كما أثار صمته المدروس تعليقات الناس إذ كانوا يقولون: "كم من الأشياء الجيدة التي لم يقلها." لم يكن حضوره ملحوظاً جداً، لكنه ما إن يغادر مكاناً معيناً حتى يشعر المرء بالفراغ الذي تركه غيابه في جميع القلوب. حينها يفهم المرء أن تلك القوة المعدنية البدائية، التي بالرغم من أنها هشة ومموهة بالأناقة التي تشكل جاذبية قمع لا يمكن مقاومتها لشخصيته، كانت ردّة فعل ضد موجة الانتهازية التي كانت تنخر أساس معظم الحركات الثورية. كان قد اعتمد لنفسه شعار الملك لويس الثالث عشر، "من الممكن أن أنكسر، لكنني لن أتراجع."

كيف قابلت بيتكا بابا؟

كانت البداية على درج البناء، حيث كانا يلتقيان بشكل متكرر ويتبادلان التحية، وبعدها.......

بالوصول إلى هذه النقطة من أفكار حلم يقظتها، بدأت بيتكا تتصور بتفاصيل دقيقة كيف سيكون مشهد لقائهما الأول العاطفي والوحيد. لم تفعل عيناها نصف المغمضتين طوال تلك الفترة سوى مراقبة الحركات المتتابعة للعصافير الكثيرة التي تنقر قدميها. هذا المشهد الرتيب المتغير باستمرار اتخذ شكل لعبة نزوية بين الظلال والأضواء التي تظهر وتختفي على شاشة السينما عندما تشاهد فيلماً وأنت نصف نائم، إذ لا يمكن للعقل أن يفهم ما إذا كانت البقعة البيضاء التي ظهرت تمثل سيارة تم إيقافها، أم باباً أبيض تم إغلاقه. وهكذا كان هناك علاقة ما بين الرؤية الخارجية الضبابية الغامضة جداً جداً و السينما الداخلية لذكرياتها الدقيقة جداً جداً، هناك نوع من الارتباط المتوافق الذي يساعدها لتتصور بشكل أفضل ما كانت تفكر به. كمثال على ذلك، تجمعت مجموعة العصافير فجأة مشكلة الباب المحدود بإطار باب شقتها والذي أتت مشرفة البناء وفتحته. رأت بعدها موزع الفحم يدخل حاملاً كيساً من الفحم على رأسه ومن ثم انحنى ووضعه بجانب المدفأة قرب المدخل. حدث في هذه اللحظة الدقيقة أن اكتشفت حضور بابا الذي تسلل إلى الغرفة مُستفيدا من حضور موزّع الفحم الذي غادر فوراً دون انتظار البقشيش.

بقي هناك ساكناً ينظر إليها باهتمام حتى سألته أخيراً بنبرة محببة: "لماذا تنظر إلي بهذه الطريقة؟ إنك تحرجني!" ابتسم بدوره بالطريقة المدهشة نفسها والتي صدمتها كثيراً في فيرونيكا، والتي فهمت الآن: أنها كانت قسوة.

"إنِ رفضتِني فسوف أحتقركِ ببساطة،" قال ذلك بينما جلس بلا مبالاة ممتطياً كيس الفحم، محاولاً بتعمّد ومن خلال نبرة صوته أن يجعل من نفسه (مغروراً) قدر الإمكان، ثم تابع كلامه قائلاً: "من الصعب عادة

على الضعفاء احتمال ازدراء المخلوقات الوسيمة............ ومن جهة أخرى، إن قبلتِ .....لا أستطيع أن أعدكِ بشغف شديد فوراً .... لكن يمكنني أن أكون لطيفاً جداً كما أنني قابل للترويض بشكل محبب ....." ما إن قال ذلك حتى التقط قطتها البيضاء الصغيرة التي بدأت تزحف نحوه مسحورة بثبات نظرة أزرار قميصه الياقوتية.

قالت بنغمة تدل على نفاد صبر: "بحقك، ما الذي ترمي إليه؟"

"لقد ظننت أنك ستعطينني خمسة وعشرين فرنكاً فرنسياً......... للموالين الأسبان، سوف تحصلين على إيصالك مختوماً بخاتم اللجنة."

اتجه نحو الطاولة حيث كانت قد تناولت إفطارها وكنس فتات الخبز مستخدما لذلك القطة الصغيرة التي ماءت بينما كانت تشدّ ذيلها. وفتح بعدها دفتر حساباته وصندوقاً معدنياً يحتوي إسفنجة مبللة بالحبر، كما أخرج الختم الخشبي وبعض المناديل وانتظر.

"حسناً، ستحصل على الفرنكات الخمسة والعشرين، لكني سأستغني عن ممارستك للحب معي، على الرغم من أني أجدك وسيماً و جيداً في هذا الموضوع على الأرجح .... كيف عرفت أنني ضد الفاشيين؟"

أجاب بشكل طبيعي جداً: "أنا أتحقق بعناية من رسائلك كل صباح عند مشرفة البناء."

شعرت بدفق من السخط، لكن لم يكن بوسعها إلا أن تضحك على النبرة الأنيقة التي أكمل بها عبارته وكأنها محاولة لتبرير موقفه: "أترين، أحضرت معي من لندن سمة ساحرة و إنكليزية جداً: أفترض أن لدي الحق بأن أقوم بكل ما أرغب به،" وتوجه نحوها وحضنها بذراعيه. "كوني فتاة لطيفة، وإن شعرت في ليلة ما بأنك تموتين من الملل، يمكنك أن تمرري لي ملاحظة من تحت الباب في الطابق السادس.

ليس لدي جهاز تلفون، ولا أحب ثرثرة مشرفات البناء أيضاً ....
سآخذك حيث تشائين، مشواراً إيديولوجياً في (البوا)، أو القيام بأفعال فخمة وشرب الشامبانيا ، أو شيئاً آخر على نموذج الرفيق المسكين، في غرفة صغيرة ونظيفة في فندق تكلف 12 فرنكاً حيث نتظاهر بأن كل واحد منا سوف يدفع وحده."

منذ لقائهما الأول في صباح ذلك اليوم، لم تلتق به مرة أخرى. وبسبب الانشغال الدائم بهموم حياتها اليومية، لم يتسنَّ لَها الوقت حتى لتفكر به ما لم تتذكره من خلال القطة الصغيرة في كل مرّة تندفع فيها نحو بقعة مضيئة من ضوء الشمس وراء ذبابة، أو تكرر تلك الحركات السريعة من الرغبة الجنسيّة والتي أمسكت بسببها أزرار قميص بابا الياقوتية بمخالبها. قالت القطة لنفسها حينها: كن مستعداً للهيام بهذا الملاك الصغير!

أحست نفسها مغلولة بسعادة للموعد الذي أعدّته للتو: منتصف الليل في بار (كوبول). بدأ منتصف الليل الذي لا يزال بعيداً بالتوهج لأن رغبتها تتلمّس طريقها في ظلمة غرفة فندق مجهولة، كانت قد وضعت منذ الآن ساعة معصمها على السطح الرخامي لطاولة ما بعد منتصف الليل. سرعان ما سيشير العقربان إلى الواحدة تقريباً! وبعدها ذلك الرقم "واحد" الذي بالكاد يمكن رؤيته والأكثر نحافة من برغوث وهّاج، كان كافياً في مخيلتها المترنحة لإشعال دمها كله في انفجار واحد من عذاب العسل والفوسفور. أثارت علبة الكرز التي أكلتها للتو جوعها وحسب، فكرت بشراء عبوتين إضافيتين، لكن ظهر لديها اشمئزاز من حقيقة أكل شيء صلب، وكانت مرعوبة من التفكير بأنها كانت قادرة أحياناً على أكل شرائح الستيك بثخانة قواميس. بدا لها أن حالة صيامها الآن مواتية بشكل رائع ومميز للشيء الذي أرادت القيام به........ ومع ذلك، توصّلت في أول مقهى جيد إلى أنها تريد الآيس كريم. كان لا يزال هناك ست ساعات وربع قبل ساعة موعدها. كانت قد حسبت الوقت وأعادت حسابه، السبعة والربع، الثامنة،

التاسعة،..... الثانية عشرة. وكانت في غضون ذلك، ستستغل إلى أقصى حد كل لحظة من تلك الفواصل الثمينة من الوقت الفارغ الذي لا بدّ أنه كان كثيفاً ولزجاً مثل الكهرمان السائل المقسى وعنبر الحوت العظيم المقسى.

نهضت من مقعدها وكانت هناك كرزتان متدليتان من أسنانها، استدارت نحو الغرب وانطلقت في الطريق الذي يؤدي إلى الجسد.

تبعت مسار نهر موحل من الأجساد البشرية التي كانت في حالة التخمر الكامل والتي ملأت جادّة (مونتمارت) في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم العطلة. تحمل كلٌ من هذه المخلوقات لا محالة، يدين وخدين وأذنين تلعق بها...... لم تفكر حتى الآن بهذا المظهر الثنائي لتشريح الكائنات الحية. يظهر كل إنسان أمامها الآن مثل البقع الدموية المتناظرة التي تتركها الحشرات عندما يسحقها المرء بين طيات صفحات كتاب. هي بدورها شعرت بنفسها مطبوعة بشكل مضاعف "في كل مكان" ومسحوقة بين الجماهير الحية وغير الحية، وتشعر بالسعادة لشعورها بأن رغبتها لم تعد شخصية في هذا الحشد الذي ليس فيه تميّز ولا جمال ولا عمر ولا جنس، بدلاً من نظرة واحدة هناك كل النظرات وبدلاً من جسدين كانت جميع الأجساد، تتشنج جميعها وتتأوه في الوقت نفسه. كانت تشعر بالخفة بسبب صيامها وأنها بالكاد تلامس الأرض، تبعت الخطوات الثقيلة للحشد الذي بدا لها مؤلفاً من فلاحين غامضين وخطيرين في نوع من الموكب الغريب المتوسل، من حزم تعيسة وغير مشبعة من أجساد يحمل كل شخص منها في يده اليسرى ، يده اليمنى المقطوعة كوصمة عار ثقيلة ومؤلمة، يحملها كرمز تكفيري، كتقدمة طقسيّة. تخيّلت بعدها ذلك الكم الهائل من المتعصبين المستمرين بالسير بشكل لا رحمة فيه في صحراء غرانيتية حيث سيلقي نفسه بها ساجداً. سيعبر الجميع ويدوسونها، هي الآثمة الهشة والسطحية، سيدوسونها بخطاهم الواثقة، كاتمين نفسها بكتلتهم الشبقة، سيسحقونها حتى يُشكل جسدها رسماً انطباعياً متشجراً لا نهائياً من كل عصائرها

الحيوية والبلازما المنطلقة من الأنسجة المضغوطة من جهازها العضوي الضعيف، وهكذا وفي النهاية، وبعد المرور الوحشي للبشر فوق جسدها المفروم، ربما تبيد أشعة الشمس آخر الآثار السائلة لدنسها من خلال التبخر.

بيتكا المحمولة والملقية على أرض أفكارها الطفولية الفاخرة، تترجّل عن تلك الأرض إن جاز التعبير عند مدخل قاعة موسيقية منارة كلها بالأحمر، وتقع في المناطق المغلقة في ميناء (سان مارتين). توقفت أمام لوحة كبيرة ملونة بألوان زيتية تجسّد الأخوة الثلاثة المونتوريين، "الرياضيين الخياليين"، الذين ظهروا عراة بالكامل تحت خوذاتهم وعباءاتهم الملوّنة بألوان جلد الفهد. لديهم أجساد نحيلة وعضلات مصوغة من الفولاذ، وكان الأخ الواقف في الوسط فقط سميناً أكثر مما يجب بقليل. كان لديه وشم لرأس أبي الهول في وسط صدره. كُتِبَ على اللوحة: "عجلة فرعون المزدوجة". ينقر الطنين المتقطع لجرس كهربائي مع الدعوة الملحّة إلى أداء مستمر، كنقرِ إبرة آلة خياطة على جلد عنق وحيد قرن، وسط لا مبالاة الجمهور الذي سار قُدُماً حتى دون أن يلحظه.

دخلت وجلست إلى طاولة موضوعة في الزاوية بعيداً عن الأوركسترا وطلبت كأساً من الفودكا. كان المكان بشعاً وصاخباً. كان في حلبة الرقص ثنائيان راقصان يهتزان كما الظلال. لم يكنِ العرض قد بدأ حتى الآن، وكان المتفرجون القلائل متناثرين بشكل متباعد جداً ومختفين جداً في الزاوايا التي تُضيئها بتحفظ المقصورات التي تشكل دوائر حول الأرض، والتي تجعل المكان يعطي انطباعاً بأنه فارغ تقريباً.عزف الموسيقيون المصابون بالسفلس والمرتدون ما يشبه (الغوشو الحريري)، التانغو الأرجنتيني (ريناسيمينتو) بشكل عنيف، وأثارت أول نوتات من هذا اللحن في بنية بيتكا الضعيفة حالة انفعالية مشابهة لحالة الثمل، والتي حثتها فجأة وبشكل لا يُقاوم على سكب دموعها. لكي تمنع دموعها ضغطت بقوة حبّة الكرز التي كانت قد احتفظت بها بين أسنانها، حتى انكسرت وجعلها هذا تعضّ لسانها. بينما كان لسانها ينزف قليلاً، بصقت في المنديل الحريري الذي كانت قد لفت به علبتها الذهبية الصغيرة، واستغلّت الفرصة

لتستنشق نشقة قويّة من الهيروييين. أفرغت بعدها كمية الكرز التي لديها في صحن وبدأت تأكل وتغمس لسانها الجريح الرشيق من وقت لآخر في الفودكا، بينما كانت تشاهد الرقص، وجعلت نفسها تسترخي بشكل تدريجي.

أفسح دافعها للبكاء الطريق لحالة من الشاعرية سمحت لها بأن ترى أن هذا المشهد العادي يتمتع برومانسية فائقة، وبينما تحاول أن تتحسّر على قدرها الشخصي قارنت تقلب حياتها المحطمة بثبات بعض الألحان التافهة المتشبثة كاللبلاب بجدران مقلقلة لعصر معين .... "ريناسيمنتو" .... كانت قد سمعت موسيقى التانغو هذه في رومانيا..... وبعدها في ميلانو، خلال الفترة المضطربة التي سبقت الزحف على روما .... في برشلونا في ليلة الإضراب العام. وبينما رأت الثنائي الذي يرقص التانغو، يتحرك للأمام والخلف أمامها، قالت لنفسها: لا يهم بأية ظروف، سواء أكان هناك حرب أم وباء، انتصارات امبريالية أم هزائم مخجلةٍ في البلد، يوجد دوماً في مأوى التاريخ وفي غسق محيطه المتطور والمبهرج قليلاً، ثنائي شاحب يرقص التانغو، الخد ملتصق على الخد، والجسدان متحدان بدون حب، مُثاران بدون شغف من خلال الوضعيات التقليدية في الرحيق الإيقاعي للحنين، ويعبّران عن اليأس المكثف للناس في عصرهم عبر الانكماش المترفع للحاجبين. إن ثنائيات التانغو المحترفة الوسيمة هي الوحيدة التي تعرف عبر الخطوات المحسوبة والانزلاقات البطيئة، كيف تتابع أثر إيقاعات بطيئة تطابق تماماً النبض المتسارع للعضلات العنيفة لقلوب أولئك المهيئين للانتحار". ولهذا راقبت التانغو بذهول تام، بالاستغراق المشابه للتنويم المغناطيسي لطائر عاجز يتبع الحركات الدقيقة والكسولة لأفعى. لأنها تريد أن تقتل نفسها......

توقفت الموسيقى وتركت بذرة كرز تقع في المنفضة السوداء اللامعة. تلك البذرة كانت نظيفة ومخضرة قليلا وتشبه تماماً رأس الكونتيسة ميهاكوسكا الصغير. غمست كل حبة كرز قبل أن تأكلها بكأس الفودكا الجديد الذي جُلِبَ لها للتو وسرعان ما امتلأت المنفضة

ببذور الكرز. قالت في نفسها حينها: "يبدو فوضوياً!" وألقت نظرة خاطفة حولها لتتأكد أن ما من أحد يراقبها، وأخذت البذور كلها في يدها ولفتها بمنديلها الحريري منتهزة بالوقت نفسه الفرصة لفتح علبتها واستنشاق الهيروين حتى لهثت.

مُستغرقة بتلك العمليات الصغيرة، لم تلحظ "دخول" الأخوة مونتوري الثلاثة. نظرت للأعلى وصُدِمت لرؤيتهم في حلبة الرقص مضائين بكل خشونة العواكس، ملتحمين معاً في حركة بدوا فيها وكأنهم منتشرون كنجمة ثلاثية من أجساد تتدفق بالعرق وترتعش مع نبضات الشرايين. انهارت النجمة بشكل مفاجئ ووقف الثلاثة في نسق بلا حركة لعدة ثوان، لاهثين بوضعيات تماثيل وترتفع أذرعهم بالتحية الرومانية. كان الثلاثة عراة إلا من سراويل قصيرة خفيفة بلون الجسد، لامعة جداً وملتصقة وتظهر تفاصيل أجسادهم بدلاً من تغطيتها. في كل مرة يوشكون فيها أن يبدؤوا بحركة جديدة، وبينما يتّخذ الأقوى منهم وقفته المتصلبة المشابهة لحالة إغماء تخشبي، يقترب الاثنان الآخران متمايلين على وقع لحن بسيط يكاد يكون مكتوماً، وتبدو أعينهما وكأنها تختار أجزاء جسد أخيهما التي سينضم جسداهما إليها. وبعد ذلك وللحظات قليلة، تُمسك أيديهما الحديدية نقاط الدعم التي اختاراها ليتأكدا من صلابتها ويفلتان قبضتهما ويقدمان التحية مرة أخرى قبل البدء بحركة جديدة. يستطيع المرء أن يرى بعدها، الأثر الشاحب للمكان الذي أمسكا به مقارنة مع جسديهما الأرجوانيين. هناك تماماً على الجسد الذي لا يزال شاحباً كانت يدا الأخوين مونتوري تربّت عدة مرات بشكل متتابع قبل أن تمسك أخيراً بشكل جيد، بوجود الارتجاف والتوتر البدائي لانقباضهما. دوّت التربيتات في تلك اللحظة كسلسلة من صفعات حزينة تُطبقُ على جثة.

استمر العرض أمام نظرات بيتكا المهلوسة. يستلقي صغير الأخوة مونتوري والذي كان الأحبّ بالنسبة لها على الأرض وقد توترت كل عضلة من عضلاته إلى الحد الأقصى، وتمددت كلتا يديه بإحكام على طول جسده، وانغمست قدماه بين

فخذي كل من أخويه، يرفعانه قليلاً قليلاً إلى الوضعية نصف العمودية بينما يلتصق جذعا الآخرين معاً ويتقوسان، ينحني الرأسان للخلف وتنفتح شرايين عنقيهما حد الانفجار في خليط بشع من اللحم المقسّم البارز.

كانت بيتكا متعلقة منذ طفولتها بحلم ذهبي بكونها تُبادُ مع العالم في كارثة كونية. لاحقاً، كم من المرات كانت قد تماثلت مع أسرار "الموت الأبيض."[1] الموت الجماعي حرقاً بعد المتعة الجماعية. مع شعور بالنفور والجاذبية نحو تلك الأجساد الثلاثة شعرت بنفسها، تُحتجز بالدوار المجنون من الرغبة بإلقاء نفسها بعينين مغلقتين في قلب العجلة الجسدية المشكلة من تلك العضلات الفولاذية المتشابكة لأولئك الرياضيين، كما لو أنها تُحاصَر في الدولاب المسنن لحركاتهم، وتُسحق في ضراوة انقباضاتها وتُطحَن في سعار الاصطدام بعظامهم لتصبح عجينة حارّة محترقة من "الموت الأبيض."

جعل تأثير الهرويين نظراتها جريئة ومشرقة وحافظت عليها مركزة بقوة على صغير الأخوة. لم يخفقِ الأخير بملاحظة تفضيل بيتكا له، فألقى بالعباءة على أكتافه وذهب تاركاً الحلبة المركزية، واستند إلى عمود متظاهرا بمراقبة أخويه المزعومين مستمرين في أدائهما، لأنه لم يكن هناك من علاقة قرابة بين هؤلاء الثلاثة أكثر من القرابة الحيوانية المتعلقة بعباءة جلد الفهد. ظهر في تلك اللحظة خادمان، وسحبا على البلاط عجلتين فضيتين كبيرتين، ثُبّتَ بين مكابحهما كمية كبيرة من أشياء تحتوي أسهماً نارية وأضواء بنغالية. استغل صغير الأخوة حالة التشويق التي خُلِقت في الصالة بسبب العجلتين الغريبتين وجلس على حافة الكرسي قربها بذريعة إشعال

---

[1] الموت الأبيض: طائفة دينية روسية سابقة كان لديها الآلاف من الأتباع الذين يعيشون حياة مشتركة في الصلاة والتقوى، قدموا حياتهم في النهاية كضحايا من خلال إحراق أنفسهم أحياء في حظائر مليئة بالقش. يسبق ذلك الحرق طقوس عربدة تقوم فيها كل العائلات المنتمية إلى ذلك المجتمع بتقديم أنفسهم عراة إلى هذيانات ممارسات جنسية بفسق كامل، بدون تمييز للجنس أو العائلة أو العمر.

سيجارة، وقال لها بصوت معدني منخفض جداً وسريع: "اسمي ماركو وقد انتهيت من عرضي. سيحتاج الأمر من شريكيّ لعشرين دقيقة أخرى لإنهاء لعبة "عجلات فرعون" البهلوانية. هل نخرج قليلاً معاً؟"

لم تجبه لكنها نهضت ولحقت به. توقف أمام باب غرفة خلع الملابس الخاصة به. "انتظريني هنا. يحتاج الأمر إلى خمس دقائق لتبديل ملابسي!"

وبدون أن تطيعه، تبعته إلى الداخل وقالت بشكل جاف، "سأنتظر هنا."

شعرت في تلك اللحظة بهجوم مغصيّ خفيف جعلها ترتجف، وتذكّرت على الفور تحريم أمها الدائم لأكل الكرز مدّعية أنه مصدر إزعاج صحّي. لكنها كانت في عقلها، ولأول مرة في حياتها تأكل حبات الكرز خالية من دودة الندم. ارتبك ماركو وتردد في تبديل ملابسه أمامها.

صرخت به وهي تحت سيطرة غضب مفاجئ: "غبي؟ بعد دقيقة أخرى سوف تُشعِرني بالقرف!"

"أحاب ماركو مرتبكاً: لقد أردتني للتو."

وأنا الآن كذلك، لكن على الفور! أغلق الباب!" وبينما كانت تتحدث أخرجت علبتها بسرعة بُغية استنشاقة من الهيروين، وتسببت بطيران بذور الكرز التي كانت تحتفظ بها في منديلها، وانزلقت البذور إلى الأرض الإسمنتية بكل الاتجاهات. ظنّ ماركو أنها ستجن لكنه كان تحت تأثير عدوى الرغبة.

"هذه الغرفة ليست لي وحدي، سيدخلون الآن لتبديل ملابسهم."

"أغلق الباب! أغلق الباب!" كررت بصوت مخنوق بينما بدأت بفك أزرار تنورتها.

دفع الباب فأصدر صوتاً مزعجاً مرعباً وبقي نصف مغلق عالقاً ببذرة كرز انحشرت كالأسفين ما بين الخشب وأحد النتوءات الإسمنتية.

لا شيء يستطيع أن يحرك الباب. ضربه ماركو كوعل لكن البذرة تزداد ثباتاً مع كل ضربة، والتحم الباب الذي بقي مفتوحاً بشكل جزئي بالأرض بشكل دائم ولم يعد بالإمكان تحريكه لا إلى هذه الجهة ولا للأخرى.

صرخت فيه بغضب: "أبله، قميء!". شاهدا في تلك اللحظة من خلال لوح الزجاج المتبلور المتجمد، الظلين المتقدمين بسرعة للأخوين الآخرين. حاولا بشكل غير متوقع دفع الباب لفتحه بفخذيهما لكنهما لم يفلحا. بعدها، بلعا بطنيهما منزلقين من خلال الفتحة ما بينه وبين الإطار الثابت، وعصر الأخوان نفسيهما بصعوبة لدخول الغرفة واحداً تلو الآخر، حاملاً كل منهما زجاجتين من البيرة في كل يد مغطاة بغشاء بارد جداً.

"هل نقاطعكما؟" قال أطول الأخوين واضعاً الزجاجات الأربع على الأرض وهو يحفّ الخدشين الطويلين اللذين شكلهما خشب الباب على بطنه، ونظر إلى بيتكا.

"اعذرينا، فليس هناك من مكان آخر لتبديل الملابس."

سأل الأخ الآخر: "هل أنت بهلوانة؟"

لم تجب. كانت تنتظر والسيجارة في فمها أن يعثر ماركو على عيدان الثقاب.

قال ماركو بثقة وهو يشعل لها سيجارتها "إنها صحفية، أرادت أن تلتقط لنا صوراً من أجل الصحيفة."

تابع الآخر الثاني: "هذا ما كنا بحاجة له، جميلة شقراء مثلك بشعر نحاسي لإنجاز العجلة الثالثة لعربة فرعون! يمكننا قتل أنفسنا ونحن نقدم عرضاً جيداً، ويمكننا أن ننهك أجسادنا، لكن ليس هناك من فرصة للنجاح بدون شقراء جميلة!"

قالت بطريقة ودّية لاهية، "هذه فكرة يمكن النظر بها، لقد كان لديّ بعض التجارب كراقصة." لكن بينما حاولت الوقوف على أصابع قدميها انزلق حذاؤها ببذرة كرز وتركت نفسها تسقط بين ذراعي الأخ الأطول الذي أمسكها من خصرها صارخاً بشيء من الذهول، "انظر! لم أر في حياتي خصراً أكثر رهافة!" وليؤكد ذلك أحاطه بشكل كامل بيديه بالأناقة ذاتها التي يمسك بها الجندي بسلاحه لأداء تحية السلاح. رفعها بحذر حتى لامست السقف فعادت لطيفة مجدداً وابتسمت أثناء صعودها دون ألتوقف عن تدخين سيجارتها. قلبها الأخ الأطول للأمام وحافظت هي على نفسها جامدة ومررت ساقيها على جانبي رأسه فاتحة ذراعيها وكأنها تحاكي جناحي طائرة. سمعت بوضوح في تلك اللحظة غرغرة في معدتها الفارغة وانفجرت بالضحك راغبة بمراءاتهم، مطلقة صرخات بلورية كما لو أن يدي مونتوري كانتا تدغدغانها بشكل لا يمكن مقاومته في وضعيتها الجديدة.

قال ماركو واضعاً ركبته على الأرض جاعلاً يديه بوضعية الاستعداد لاستقبال جسدها: "دعنا نجرب حركة (السمندر)". لكن مونتوري وبدون أن يطيعه دار دورتين حول نفسه وألقى بها على الأريكة. أحست بدوار ورفعت يدها الشاحبة إلى جبهتها وكأنها تحمي نفسها من الشعور بالدوران، واتكأت دون وعي لذاتها، وإحدى ذراعيها على كتف ماركو العاري الذي كان راكعاً على قدميه، كانت مبللة بالعرق. كم كان ذلك مثيراً! والآن قالت لنفسها، "ثلاث دقائق أخرى من الراحة وسأغادر بعدها." لكنها شعرت سلفاً بأعضائها عاجزة عن طاعتها، كانت مُقيدة إلى الأريكة بسلاسل الفسق من رغبتها الثلاثية. كان الأخ الأطول قد جلس للتو قريباً منها وبقي الثالث واقفاً أمامها، وراقبها الثلاثة دون أن ترفَ عيونهم، بنظرات غبيّة كثلاثة كلاب ينتظرون ليروا من سيكون الأول في إمساك قطعة اللحم. بعدها أصبح وجهها شاحباً واتخذ أنفها لوناً شمعياً شفافاً كلون الموت، وكما لو أنها تُطيع أمراً كانت إرادتها عاجزة أمامه، مررت ببطء يدها الأخرى حول عنق

الأخ الأطول وقربت رأسي الأخوين أحدهما من الآخر حتى التصقا ضاغطة كليهما إلى نهديها، وخلعت حذائيها واحداً تلو الآخر.

قالت بصوت شاحب يكاد لا يُسمع للأخ الواقف أمامها. "أغلق الباب!"

ترنح الأخ الثالث وكأنه مخمور إلى الباب، وبجهد خارق من كتفيه الرياضيين، سحق جميع الألياف الخشبية مُجبراً الباب في النهاية على الإغلاق.

ثلاثة آلاف بذرة من الموت الأبيض .... ثلاثة آلاف خصلة ثلاثية من الكرز ..... ثلاثة آلاف من عربة فرعون ثلاثية العجلات .... ورقاقتان من الثلج الناعم .... في تجويف خديها!

شعرت (بيتكا) بقدوم البرد المفزع. كانت تسير الآن في الليل المضاء بالأضواء المتباعدة البعيدة لـ (كوا فولتير). ربما كان الجوع، هل ستأكل مرة أخرى؟ ...... كان كل عضو من أعضائها المتألمة يتصلب ببطء، بينما غمرها نوع من النعاس دون أن يكون لها رغبة بالنوم.

نحو النهاية العليا لشارع نهر(السين)، أعطت خمسين فرنكاً كصدقة لمُقعد مسكين دون أرجل. مالت عليه وحدقت فيه ببسمة قذرة كان بإمكانها أن تؤدي إلى ذبول أكثر الأزهار يناعة. بدا المُقعد وكأنه تمثال (إيسوب) النصفي الروماني النبيل العجوز الأشعث، وكان أحدبَ مثل الأخير.

قال الرجل العجوز: "يمكنك أن تلمسي حدبتي إن رغبت بذلك، يفعل الآخرون ذلك دون أن يدفعوا أي شيء."

ضغطت بيدها حدبة الرجل وشعرت بقلبه ينبض فيها وتابعت طريقها. لكن سرعان ما أبطأت خطواتها لسماعها خطوات المتسول خلفها، والذي دفع نفسه للأمام زاحفاً على الأرض بمساعدة يديه. منحت مِشيتها إيقاعاً فاسقاً وكانت تسمع في كل مرة تتوقف فيها، لُهاث المتسول يقترب أكثر منها، ومن ثم توسّل لها ولعابه يسيل: "خذي مالك إن كنت ترغبين، لكن تعالي معي. دعيني

آخذك إلى (الأب فراندينغ). لدي ركن على زورقه، لدي بعض المال المخبأ! دعيني آخذك إلى (الأب فراندينغ)! لدي بعض المال المخبأ!"

أصبح منتصف الليل قريباً في منطقة (دي لينا). على السياج المعدني لحديقة لكسمبورغ، كانت تبكي ضاغطة شفتها السفلى المقلوبة للداخل بكل قوتها كي تترك دموعها تسيل بشكل مستمر. "كل هذا جيد! كل هذا جيد! كل هذا جيد! شرط أن أنهي كل شيء!"

عندما قابلها بابا في بار (كوبول) عند منتصف الليل، كانت مخدرة جداً لدرجة كادت لا تلاحظ قدومه. بدأت تتكلم كما لو أنهما معاً منذ وقت طويل. تذمرت بنبرة حلوة: "أنت لن تبتعد عني بعد الآن! لماذا تركتني وحدي؟". كانت تُبالغ بشكل متعمد بحالتها، متخيِّلة أنها أصبحت قطتها الصغيرة، والآن سيسيل غودرو، والآن كلتيهما معاً.

قال لها بقسوة: "ماذا يحدث معك؟ أنت ثملة!"

أجابت بيتكا مُطيلة نغمة الكلمة وفاصلة كل مقطع لفظي عن الباقي بشكل كيدي: "بالطبع أنا ثملة، ألا يجب أن أكون كذلك؟" نهضت بفظاظة وغمرت رأسها بإيماءة حزينة على كتفه قائلة بنصف همس، "أرجوك يا عزيزي، خذني بعيداً عن تلك الأضواء الكهربائية المريعة .... وتابعت عندما كانا في الشارع: لمكان ما خارجاً في الظلام ..... لمكان فيه الكثير من النباتات .... أريد أن أُصاب بنزلة برد! تحسس كما أنا باردة،"

قال مقبّلاً قبضتي يديها: "أنت كالجليد، ما الذي كنت تفعلينه؟"

قالت وكأنها تحاول بألم أن تتذكر شيئاً مُبهجاً: كنت ألعب............ كنت ألعب .... كان هناك ثلاثة منهم."
ابتسمت وتابعت على نحو حالم: "كان هناك ثلاثة منهم ...... هل رأيت عربة فرعون ثلاثية العجلات؟ كانت العجلات الثلاث من الفضة واحترقت جميعها بالنار!"

"لماذا تبكين؟" قال محاولاً تهدئتها وضاغطاً خديها وكأنه يفرض عليها الوثوق به.

أجابت منفكّة من تلك المعانقة ومستمرة بالحديث: "كيف لي أن أعرف؟"

خرجا وجلسا في شرفة مقهى معزول مواجه لبرج (سان ميشيل)، كانت ساعة البرج تشير إلى الثانية عشرة والنصف.

"في الساعة الواحدة،" قالت لنفسها شاعرة بشدّ في حنجرتها بسبب الضغط القاسي الذي تسببت به خطتها.

"كفى، هذا جيد، قرصة جليدية في الهواء، ممتازة جداً لأغشيتك، وهذه نباتاتك أيضاً، الكثير من النباتات! مع ذلك الجدار المغطى باللبلاب، إنها أكثر شبهاً بإكسفورد منها بباريس. هل تحبين هذا الجو؟" وبينما قال هذا، انتزع غصن لبلاب طويلاً، ووضعه على كتفيها المرتعشين وهي جالسه على الهيكل المزعج لكرسي معدني أبيض واضعة قبضتي يديها في وسط الطاولة الرخامية تماماً. شكل طوقاً من غصن آخر من اللبلاب ووضعه بحذر على رأسها وقال: "لدينا الآن تاج رائع يعود إلى ما قبل الرفائيلية[1] لتزيين إحباطك!" لقد أخطأ بلفظ كلمة "ما قبل الرفائيلية" وضحك. ورمت التاج بحركة بائسة من قبضتها المغلقة الصغيرة.

قال وهو يرفع ياقة معطفه: "أستطيع تحمّل هذا الجو البارد، أنا مرتدٍ ملابس كثيرة" وأضاف: "أؤكد لك أني سأغادر غداً إلى إسبانيا دون أن أصاب بالزكام .. ربما سأصاب بقليل من حمى الربيع وحينها سأضطر إلى حك جلدي قليلاً في القطار. إنني سريع التأثر مثلك تماماً!"

---

[1] ما قبل الرفائيلية: هي مجموعة من فناني القرن التاسع عشر الإنكليز من بينهم هولمان هانت وميلايس وروستي والذين سعوا بوعي لمحاكاة البساطة والإخلاص لأعمال الفنانين الإيطاليين قبل زمن رفائيل. المترجم.

"لقد خاب أملك لأنك وجدتني بهذه الحالة في هذه الليلة، أنت لا توافق على تصرفاتي"

"افتحي يدك، ما الذي تعصرينه بيدك كل هذا الوقت؟ لا تكوني مشدودة دائماً!"

فتحت ببطء يدها التي كانت مليئة ببذور الكرز الرطبة ملتصقة إحداها على الأخرى، لم تستطع أن تتذكر منذ متى وهي تحمل تلك البذور بتلك الطريقة.

"هذا قذر، أليس كذلك؟ هل هذا يثير اشمئزازك؟ أعرف أنني أبدو كامرأة مجنونة......"

"وفي اليد الأخرى.؟ ما الذي لديك في اليد الأخرى؟ افتحي يدك الأخرى!"

قالت ضاغطة بشكل أكبر: "لا!، لا أريد أن أُريك هذا!"

مسح يديها بمنديلها دون إلحاح وقال وكأنه يسلّح نفسه بالصبر: "ها هي، أصبحت نظيفة!"

وضعت بعد ذلك يدها على ركبة بابا وشعرت بزوايا العظام التي تشكّلها صغيرة ومستدقة، من خلال بنطاله الخفيف جداً. والآن، بيديهما المتحدتين معاً ونظرة أحدهما إلى الآخر بصمت، اكتشفت للمرة الأولى المنابع اللانهائية للحنان التي يمكن إيجادها في عناق كهذا. كانت دائماً تلتقط شذرات مخيفة من المتعة من حياة ينخرها القلق، كانت تشعر بفراغ الأبدية ينفتح أمامها من أجل أن تختبر أخيراً غموض شغف يَدين تضغطان إحداهما على الأخرى، ينقل كل إصبع عار من الأصابع المتحدَة ببطء وضعيته مئة مرة، تتشابك بلا كلل في اتحاد أبدي، وتسهل الدموع حركتها، بدون التنازل عن تعلقها ولا للحظة واحدة.

"أنت تستهجنني ..... لكنك وعدتني بكل شيء، تركتني أختار جميع ظروف لقاءنا. أقسِمْ بأنك لن تتركني قبل الفجر!"

أجاب بابا الذي التفت للتو إلى ساعة برج (سان ميشيل):
"سأبقى معك حتى الساعة السابعة والنصف. يغادر قطاري إلى إسبانيا في الثامنة، ولو كنت قادرة فقط على الإنصات لي فسوف أحثك على الذهاب معي إلى برشلونة. سأجعلك ملكة صغيرة حمراء. سوف تنتظرينني في (سيربين) بما يكفي فقط لذهابي إلى برشلونة وتحضير جواز سفرك، ستبقين هناك مع بعض أصدقائي الذين سيعتنون بك وكأنك ابنتهم – شمسٌ ونبيذٌ أحمر وزيتون أسود صغير. ...."

أحضر النادل كأسين إضافيين من الوسكي بالإضافة إلى ماء (بيرين).

قالت دون أن تعير انتباهاً لخططه ولنبرة صوته المغوية: "لقد قلت نعم، لكنك لم تُقسم بأنك ستبقى معي، أنا أعرف أنك تخدع مثل الجميع."

وقال بخشونة وهو يرتشف كأسه من الوسكي: "أنا أقسم! سوف أبقى معك حتى الصباح! لكن لا تتوقعي مني أن أواسيك،" وتابع بعدها بقوة متوقفاً عند كل جملة وكأنه يعطي العاطفة التي بدأت تتقد لديها الوقت الكافي لتبرد: "ليست الشفقة من اختصاصي. في وقت مبكر من الحرب، كانت الفترة الأعلى حرارة من الصيف، ستون درجة مئوية، كنت قد استلمت فأرتي[1] الجديدة البشعة جداً لكنها فعالة. كانت القرية قد دُمّرت للتو ويجري قصف (مالاجا). بضع مئات من النسوة كنّ قد هربن إلى المطار وأحطن بطائرتي. أتين متبوعات بغيمة من الذباب حاملات معهنّ أربعة أو خمسة من الأطفال الذين قُتِلوا، ملفوفين بأغطية سوداء. كان من المستحيل ضمن هذه الهستيريا الجماعية، إبعادهنّ عن الطائرة. لقد عرضن أعباءهنّ

---

[1] هو لقب يُعطى لطائرات المطاردة والتي أرسلها الاتحاد السوفيتي إلى إسبانيا خلال الحرب الأهلية وقد أعطيت هذا اللقب بسبب سرعتها ومظهرها الخارجي الأسود.

المرعبة واستمررن بالتعامل معها بإصرار وحشي، حملن لنا قطعاً من أجساد مهدّبة بدم متخثر. صرخن في جوقة "ميرا، ميرا، ميرا"، تنافس إحداهما الأخرى في اختيار العرض الأكثر رعباً وكأنها الطريقة الأفضل التي يطلبن فيها الانتقام لموتاهنّ. كان علينا الإقلاع بسرعة وليس لدينا وقت نضيعه. مساعدي الذي نزل من الطائرة مرتين ليفرقهنّ، كان بصعوبة قد عاد مجدداً إلى الطائرة. ريح سيئة قادمة من الصحراء كانت للتو ترفع الغبار في السهل وتهزّ أشجار الزيتون البعيدة. صحتُ ثلاث مرات: "ابتعدن، ابتعدن، ابتعدن!" ليس هناك من شيء لنفعله. تمسكت النسوة المسكينات بالطائرة بكل طاقتهن .... كأنهن يوشكن أن يغرقن! بعدها قمت بتشغيل المحرك، ووضعتْ مروحة فأرتي نهاية لتلك الهيستريا .... ولما تبقى! لم أشعر أبداً أبداً في حياتي كما شعرت عندما أصبحت وجهاً لوجه مع العدو، كم كنت على حق. أصبحت منذ ذلك اليوم، ذلك الشيء الغامض الذي يُسمَى بطلاً." قال ذلك منهياً كأسه من الوسكي بهدوء شديد.

وتابع بعدها بينما استعاد هدوءه: "ليس هناك من جرأة في البطولة. لا يفكر المرء أبداً بأنه سيموت. عندما يُمسك المرء ببندقيته الآلية بقوة، يشعر كأنها ارتداداتها تجعل براغيث خوفه تقفز هاربة ..... أفتقد فأرتي كثيراً! يقرفني ضباب باريس أكثر حتى من ضباب لندن ..... إنه أكثر دقة ..... يتحدث أهلها أكثر مما يجب، وبشكل جيد أكثر مما يجب عن كل شيء. يصبح المرء ذكياً بشكل كبير، يصبح كل شيء مختلطاً، يبدو البشع جميلاً، المجرمون قديسون أو أشخاص مرضى، المرضى عباقرة، كل شيء مزدوج وله وجهتا نظر. إن الوضع مختلف في الضوء عديم الرحمة لإسبانيا. يصبح كل شيء في فأرتي مرة أخرى مؤكداً بشكل لا رحمة فيه، ويجب أن يكون الأمر نفسه بالنسبة للآخرين لأن الشجاعة تتساوى في كلا الجانبين — ما أهمية هذا؟ الشيء المهم هو شعور المرء بنفسه يُصبح مرة أخرى قطرة من زلال بيضة، من حياة غريزية قابلة للعطب في مركز قذيفة (ميكا) وسط السماء! يبدأ

الدماغ بالعمل بدلاً من التفكير، وتغذّي الانقباضات والانبساطات في قلبك والمكونات الكيميائية لعُصارتك، جناحي طائرتك. حسناً، ليس هذا عملاً أدبياً! تشعر بنفسك فعلاً من أعمق نقطة في أحشائك إلى رؤوس أظافرك — أنت العيون والمكونات الداخلية لطائرتك، وحينها لن تعود باريس موجودة، ولا السريالية أيضاً ولا الآلام، هل تسمعين؟ كل مخاوفك، وكل الندامة، كل نظرياتك وكسلك وكل التناقضات بأفكارك وكل عدم الإشباع المتراكم بسبب الشك يختفي ليترك المكان للتدفق الغاضب، للتأكيد الوحيد المفرد، لحزمة النار المفرقعة التي تخرج من المدفع الأوتوماتيكي."

لم تكن بيتكا تستمع له، لكن الاحتدام اللفظي التلقائي لبابا كان بغيضاً قليلاً بالنسبة لها. كانت تراقبه وهي تفكر بفيرونيكا وبعدها سألته: "هل تعرف فيرونيكا ستيفن؟..... ولا حتى من الصور؟"

نظر إليها بفضول للمرة الأولى: لم تكن تعيره أي انتباه، كانت تفكر بشيء آخر.
"من هي فيرونيكا؟ ولماذا تسألينني عنها؟" كان يريد أن يعرف.
قالت في نفسها: "يبدو أنها تشبهك .... أوه، لو كنت تعرفها لكنت ستُحبها أكثر مني........"

في الواقع، ظهر التشابه مع فيرونيكا فجأة بشكل لم تستطع التمييز بأي النواحي كانا يختلفان، وتذكرت الآن ملاحظة فيرونيكا التي تركت انطباعاً لديها في ليلة العشاء تلك في مطعم (تورجان) والتي تقول: "أنا لا أحب نفسي إطلاقاً، لكن أودّ لو أجد شخصاً مشابهاً لي تماماً، والذي سوف أعبده." هذا الشخص هو بابا، إنها متأكدة من ذلك، لم تعد قادرة الآن إلا على تخيلهما معاً. بأي سياق فكرت بهما معاً، إن لم يكن وسط مئات من المخلوقات المبهمة ونصف الملموسة لذكرياتها أو وسط الحشد الذي رأته مؤخراً يملأ غرفة استقبال سولانج دي كليدا قبل عدة أيام، كانت الشخصيتان الشقراوان المترددتان لفيرونيكا وبابا تتميزان عن الباقين، مع الثبات المعذّب نفسه لشخصيتي لوحة "أنجلوس" المشهورة والتي رسمها

(ميلليه). يمكن للمرء أن يقول إنه لا يمكن أن يكون حول فيرونيكا وبابا إلا الصمت والعزلة، متلاشيين عبر خط الأفق المهجور للحقول.

شعرت بيتكا الآن بأنها تخضع لمراقبة بابا. كان قد أغلق على نفسه في دروع لا مبالاته، وأغلق القناع المنقوش من صمته والذي من خلاله ظهر بريق عينيه منيعاً مرة أخرى. قارنت بيتكا الآن مرة أخرى قساوة نظرته بقساوةِ نظرة فيرونيكا، وتماماً كما يتصرف المرء مع بلورات كريستالية، يحككهما معاً ليكتشف أيهما كانت قادرة على خدش الأخرى، شعرت أن النظرتين متساويتان بالقساوة والعداوةِ مقارنة بنظراتها الضعيفة جداً والتي كانت توشك أن تنغلق إلى الأبد طوعاً. قارنت نهايتها الوشيكة بنهاية بابا، على الأقل كان سيموت في قلب الشيء الذي أحبه الحب الأكبر في العالم، فأرته .... وهو يبصق النار في وسط الغيوم. "أنا، سأموت وحيدة تماماً، في غرفة فندق فرنسي يكلف اثني عشر فرنكا."

عندما قالت ذلك لنفسها وجدت نفسها تقرأ وتعيد القراءة مرة بعد أخرى لافتة الفندق عبر الطريق: "أفينير مارلو". يمكن للاسم أن يكون أسوأ، على الأقل كان المستقبل الذي لا يعني شيئاً — مستقبل مارلو! وعندما أشارت الساعة إلى الواحدة على برج سان ميشال، قالت بيتكا بحزم، وكأنها تتابع حلم يقظتها بصوت عالٍ، "عزيزي، أنا مستعدة .... الآن............ خذني."

"هل ستفعلين؟ ستأتين معي إلى برشلونة؟"

كما لو أنها غير قادرة على الرد، هزّت رأسها وقالت أخيراً بصوت مخنوق: "لا، إلى الجهة الأخرى للشارع؟"

في الغرفة كان لديها اشمئزاز خفيف، تجلس على السرير تتخيل بابا وفيرونيكا معاً بعد موتها. شعرت بنفسها منهكة من الغيرة من كليهما، لكن حالياً، بدت لها حقيقة وجود بابا في الغرفة، نوعاً عدم

الإخلاص والخيانة لفيرونيكا، كانت تنتقم منها. "سوف ترين! سوف ترين!" استمرت بتكرار ذلك لنفسها. لكنها شعرت على الفور تقريباً بولادة جديدة لحنان لا نهائي نحو فيرونيكا.

في الساعة الواحدة والنصف، كانت قد ابتلعت بعض الأدوية واستلقت بكامل ثيابها بجانب بابا الذي طمأنها ثانية ووعدها بألا يتركها قبل الفجر. كان كلٌ منهما مستغرقاً في أفكاره في عتمة الغرفة متخيلاً ساعة نهايته الخاصة به. شعر ويده الطويلة ممدودة فوق جسدها بظلال أجنحة سوداء تلتحم بكتفيه، وبجذور بلاتينية تنبثق من أعماق قلبه. في اللحظة التي سيُضرَبُ بها سيتقلص كل شيء، كان كما لو أن يدين عظيمتين من الصقيع تُطبقان عليه لحمايته من النار. كان العكس بالنسبة لها..... الموت الأبيض، لقد حركت رأسها الآن كما لو أنها تحاول أن تقرّبه أكثر من شعلة غير مرئية، ومن بعدها حامت يداه الطويلتان للحظة فوق شعرها كما في حالِة طيران ليلي وحطّتا على قبضتها المغلقة، والتي كان الموت بداخلها أيضاً.

لم يستطع إرخاء تلك القبضة. كانت تدمدم بهذيان بدائي، "لا ترحل!" كانت للتو قد أرخت يديه ووضعتهما على رقبتها من الخلف وتوسلت إليه: "امسكني من هنا! اضغط هنا. أمسكني هنا كي أموت!"

قال مدفئاً رأسها من الخلف بأنفاسه: "نامي!"

"ما الذي تلمسه قدماي؟ أنا أسير على بذور الكرز!"

"نامي، نامي!......"

"سأخبر فيرونيكا بأنك أمضيت الليل معي."

"اصمتي، لا تتحركي أبداً، عزيزتي، نامي!"

"أعرف أنك تشمئز من دمي. أضيء النور، أريد أن أرحل." حاولت أن تنهض ممسكة سلك الإضاءة فوقعت على المصباح الكهربائي الذي التصق بصدرها. شعرت بأنها لم تعد تستطيع القيام بأي حركة. قالت بصوت ضعيف: "أنا أفضل الآن، أين علبتي الذهبية؟ غط قدمي...."

"حبيبتي، حبيبتي، حبيبتي،" كان بابا يقول ذلك قريباً من أذنها، بصوت منخفض جدا وكأنه همس، "ستنامين الآن......" عرفت من الطريقة التي انحنى بها فوقها ليقبلها أنه سيرحل. كان يخدع هو أيضاً.

لقد غادر في الواقع بعد خمس عشر دقيقة معتقداً أنها غير واعية بتأثير المخدر، لكنه كان أكثر من خدر مادة مخدرة، كان بداية لسكرة الموت. شعرت بأن جلدها يُنتزعُ بكامله باهتزازات وموجات متعاقبة. شعرت وكأن أيدياً بنفسجية مجهرية لا نهاية لها تنتصب في جسدها، ترتعش وتمتد نحو قلبها الذي أصبح الموقد الوحيد الدافئ بجسدها، شعرت بأن الأخير أصبح مغطى بشعر ناعم جداً وخفيف...... كان هناك أذنان وشاربان كالتي لرأس قطتها الصغيرة! ما الذي فعلتهُ! لماذا يعاقبونني؟ وداعاً، يا أمي ويا أبي الشريرين! .... يا فيرونيكا يا ملاك!" سمعت التغريد المريع للعصافير المستيقظة، "أنا سأموت!" قالت ذلك في نفسها، وفقدت الوعي.

كانت العصافير المتظاهرة بترحيبها بالفجر المنبثق، ترتّل مزمور الموت باللغة اللاتينية: "يوم الغضب، يوم الغضب، يوم الغضب،...." وتبعها صوت حاوية القمامة تضغط بأسنانها على الرصيف.

كانت الشمس تشرق مثل حبة كرز، وكان وقت الكرز قد انتهى.

عندما قرأت فيرونيكا رسالة بيتكا مساء يوم الأحد الذي عادت فيه من (فونتين بلو)، قالت في نفسها على الفور: "أشعر بأنها ستنتحر،" وبقيت للحظة حاملة الخصلة النحاسية من شعر صديقتها وإيصال البرقية الأزرق برؤوس أظافرها الطويلة. أدركت على الفور خطأها وحاولت استعادة ظروف

الاتصال الهاتفي الذي حدث خلاله ذلك التشويش، واكتشفت أنها بدلاً من إرسال المال الذي وعدت به أرسلت الإيصال. ولتأكيد مخاوفها، جلست بهدوء أمام المكتب في غرفة الاستقبال وفتحت صندوق الرسائل. نعم، كان هناك مبلغ الخمسمئة فرنك التي اعتقدت أنها أرسلتها. "إنه مخيف" قالت في نفسها واتصلت بالسكرتيرة على الفور. ظهرت الآنسة أندروز بوجهها المتعب ولباسها المجعّد بسبب النوم الذي صحت منه فجأة. ألقت عليها فيرونيكا نظرتها المدمِّرة التي كبحت التثاؤب في بدايته فأخفته بقبضتها المغلقة المرتعشة. يرن الهاتف في غرفة بيتكا دون أن يجيب أحد، كما اتصلت أندروز بالمشرفة على السكن وأجابت بأنها لم ترها منذ خمسة أيام وأنها تعتني بالقطة البيضاء. بقيت أندروز تنتظر قرارات فيرونيكا الجديدة حيث قالت: "ربما نمضي الليل بكامله نبحث عن الآنسة بيتكا. أرجو تنفيذ كل ما أطلبه منك بحرفية، وتُعتَبَرُ أدنى مبادرة من قِبَلك مرفوضة سلفاً. أولاً، سوف تذهبين لتناول طعامك."

"يمكنني القيام بذلك لاحقاً، أنا لست جائعة أبداً،" لكنها سرعان ما ندمت على حماسها.

"لا تبدئي بالجدال، تناولي طعامك أولاً، ومن ثم ستذهبين إلى رئيس مفوضية (السين) لترتيب مقابلتي معه. أخبريه فقط أن حياة إنسان تتوقف على السرعة في منحنا هذا اللقاء."

عادت الآنسة أندروز بعد خمس دقائق معلنة أن الموعد قد تم وأن رئيس المفوضية (فوريير) كان في انتظارها.

سألتها فيرونيكا بغضب تمكنت من السيطرة عليه: "كنت سريعة جداً، لا بدّ أنك اتصلت لتكسبي الوقت، أليس كذلك؟"

"نعم آنسة"

"لقد طلبت منك أن تقومي بالأمر بشكل شخصي!" قالت ذلك وتوجهت مباشرة إلى باب الغرفة المجاورة وصرخت: "اخرجي من هنا!"

ذهبت الآنسة أندروز حتى الباب وجثت على ركبتيها وقالت:

"آنستي، لم أحلم أبداً بعدم إطاعتك، أستميحك عذراً........."

"اخرجي من هنا!"

نهضت أندروز وذهبت.

تركت نفسها ترتدي ثيابها بهدوء بمساعدة خادمتها. ودون حركة وباللامبالاة والهيمنة الروحية لسلوكها، كانت تشبه نسخة شقراء لفيليب الثاني ملك إسبانيا، وربما كررت للمرأة التي تُلبسها الملاحظة المشهورة التي اعتاد توجيهها إلى خادمه في عشية ظروف خطيرة وحاسمة: "ألبسني بهدوء، لأنني مستعجل."

تعرف فيرونيكا أن ثوب السهرة والجواهر ستكون أكثر تأثيراً على الحماسة المستيقظة في مخيّلة رئيس المفوضية أكثر من التلميحات الخرقاء لأهميتها الاجتماعية، كما سيجنّبها في الوقت نفسه، الدخول في موضوع المكافأة الشائك. في الساعة العاشرة والنصف تم اصطحابها إلى باب المفوضية من قِبَل المفوض (فوربيير) والذي أكد لها بينما كان يلف سيجارة: "إن كانت في باريس فسوف نحدد مكانها خلال ثلاث ساعات".

كانت أندروز تنتظرها في الشارع ككلب ملسوع فقالت لها بلهجة توبيخ: "بالطبع أنت لم تأكلي حتى الآن، حسناً، فات الأوان الآن. هذا ما ستفعلينه حالاً." كتبت قائمة من الأسماء والعناوين التي عليها الاتصال بها. كان عليها السؤال في مراكز شرطة أخرى متعددة لتتفحص أداء القوى الرسمية. وفي الوقت نفسه عليها أن تُخبر سيسيل غودرو والأمير أورميني بما حصل، لأنها بدأت تشعر بوجود الأفيون وراء كل ما يحدث.

عُثِرَ عليها حوالي الساعة الثالثة صباحاً، وصحت بعد يومين في المشفى الأمريكي في (نويللي). غمرها الإحساس بالصيف عندما لمحت من خلال الباب نصف المفتوح رجلاً يرتدي قبعة من القش. أربكها هذا لدقيقتين طويلتين لكنها عرفت فعلاً أن الصيف قد حلّ حقاً! أتى الطبيب السمين بلباسه الأبيض الكامل وجلس قربها وسألها وهو يضع يديه على ركبتيه: "هيا الآن، لماذا فعلت ذلك؟"

"كنت أشعر بالملل."

"حسناً، حسناً، تقول إنها تشعر بالملل!" كرر الطبيب كلامها بلكنة أمريكية قاسية وهو يهزّ رأسه، ونهض ليأخذ مقياس الحرارة من يدي الممرضة الخاصة.

حصلت فيرونيكا بعد الظهر على إذن برؤيتها لمدة ربع ساعة. كان تفسيرها أكثر من مقنع وقَبلَته بيتكا كما لو أنه لا يمكن أن يكون أي شيء آخر، لكنها أضافت فقط: "لم أعد أرغب بالعيش في عالم يكون الجميع فيه مخادعين."

في الليلة التالية، وعندما كانت تنتقل إلى شقتها في (كوا ديس أورفيفر) أتت سيسيل غودرو لرؤيتها، وكان لديها في الصباح التالي، محادثة هاتفية عاصفة مع فيرونيكا التي عاتبتها بشكل استبدادي على تلك الزيارة.

"لم أستطع رفض رؤيتها، كانت ترسل الأزهار لي إلى المستشفى بشكل يومي."

أجابت فيرونيكا بشراسة مغلقة سماعة الهاتف: "اسكتي! أنا في طريقي لرؤيتك!"

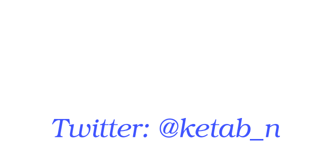
أشرقت الشمس وغابت على زجاج نافذة شقتها في (كوا ديس أورفيفر). كانت فيرونيكا جالسة على السرير، بينما الأخرى جاثية على قدميها تبكي وتحاول الحفاظ على جسدها منتصباً منفصلاً عن جسد صديقتها. كانت يدا فيرونيكا تحيطان بعنقها، وأصابعها الباردة تعبث

في الشعر النحاسي وتحك أظافرها في فجوة مؤخرة عنقها لتداعبها. تركتها تصارع بضعف، متابعة برغبةٍ ذراعيها الكريمتين، الإشاراتَ الفظة التي قامت بها صديقتها لتخلص نفسها، لكنها أمسكت بالوقت نفسه بسجينتها ضاغطة أضلاعها بكل قوة عضلات فخذيها النحيلين.

"توقفي عن البكاء! إن لقاء مخلوقات مثلنا نادر جداً .... يجب أن نتعلق بعضنا ببعض بشكل شديد جداً، حتى لا يمكن لشيء صادر عنا أن يخيب أملنا أبداً. أقسمي لي أننا لن نتخلى إحدانا عن الأخرى وأنك لن تتعاطي الأفيون مرة أخرى!".

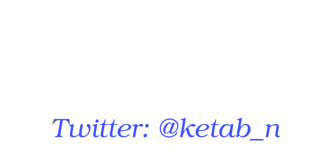
"نعم، أعدك!" صرخت بيتكا رافعة رأسها وعارضة صفي أسنانها بابتسامة ثابتة وحازمة. قرّبت فيرونيكا بهدوء وجه بيتكا إلى خدها وضغطت شفتيها إلى فمها نصف المفتوح، ومنحتها قبلة طويلة على أسنانها المضمومة الجامدة ..... و ....

مرت ثلاث سنوات – 1937، 1938، 1939................


Twitter: @ketab_n

القسم الثاني

نيهيل


Twitter: @ketab_n

3/ تأجيل الحفلة الراقصة

في هذا العالم الغدّار

لا شيء حقيقي ولا كذب.

يعتمد كل شيء

على لون المرآة التي ننظر إليها.

"كالديرون دِ لا باركا"

......في شقة بيتكا في (كوا ديس أورفيفر) أشرقت الشمس وتلاشت على زجاج النافذة.

...... تميل بيتكا بجسدها فوق قامة فيرونكا الراكعة. كان رأسا الصديقتين على المستوى ذاته، يضغط الخد على الخد ويتشابك الشعر مع الشعر. تستقرّ قدم بيتكا العارية على قدم فيرونيكا العارية أيضاً وكلتاهما منحنيتان فوق أغطية السرير المنزلقة تراقبان بلهفة الصبي الذي كاد أن يبلغ العامين من العمر، والذي يحاول بحركات يديه الخرقاء الصغيرتين المتلئتين المتغضنتين أن يفك أزرار قميص فيرونيكا متلمّساً استدارة نهديها التي بدا أن بيتكا تريد أن تقدمهما له. استقبلت الصديقتان هذا السحر المرتبك وكل جهد جديد منه بالضحك.

استمر هذا التماثل الأمومي لبعض الوقت، ومن ثم فكّت بيتكا أزرار قميصها بحركة تنم عن الفخر، وعرّت ثدييها الثقيلين المتلئين بالحليب وتركتهما يتدليان فوق وجه ابنها، وارتفعت على الفور يد الطفل بشراهة ليداعبهما، تضحك بيتكا على كل محاولة منه للإمساك بهما سواء كانت في

الهواء أم في جسدها، وكأن دليل أمومتها تحديداً يكمن في الجشع المضطرب الذي تثيره في طفلها. ثنت ذراعيها بمحبة واقترب ثدياها أحدهما من الآخر بتأثير الوزن وانحدرا ببطء شديد. بدا الطفل خائفاً للحظة بسبب الظل المفاجئ على وجهه، لكن ما إن مسه الثديان حتى توقف عن الحركة. استمرت بخفض ثدييها تاركة الامتلاء الطريّ لجسدها المتورّم يستقرّ أكثر وأكثر على وجه الطفل، وقد تقبّل بدوره دفء تلك الملاطفة الثقيلة بجمود حسيّ منتش جداً. استجرّ المشهد دموع الحنان من عيون المرأتين، دموعاً تحولت على الفور إلى ضحكة قوية عندما غصّ الطفل واستجاب فجأة بحركات مكتومة لمخلوق يغرق ويكافح بكل طاقة عضلات يديه التي لم تنضج بعد.

انبثقت الشمس من خلف الغيوم مرة أخرى وشعّت مباشرة على هذا الجسد الطري الذي ازداد روعة، حيث بدت الغرفة بكاملها مضاءة من خلال انعكاسه. استطال ثديا بيتكا وأصبحت الحلمة بارزة بشدّة وبدت مشابهة لصور فترة عصر الانحطاط الروماني، حيث تلمع بشرة الثديين مثل التماثيل اللامعة المنقطة بالنمش شديد الصُبغة، ويبدو مخادعاً مثل بُقعٍ من طحلب ذهبي صادف أنه كان يغطي رخام منحوتةٍ تُركت معرّضة إلى قساوة ريف (بونتين).

حطّت ذبابة على حلمة أحد ثدييها ولم تُلهها أيٌ من حركات الطفل أو تجعلها تغادر تلك البقعة المتورمة من الصدر والتي جعلتها الرضاعة تنتبج بشكل مُخيف. أحاطت سلسلة كاملة من الحبيبات الأخرى الأصغر حجماً، بمنطقة الامتصاص المركزية كهلال، بدت تلك النتوءات منتفخة بتساوٍ واتخذت شكل حافة منتظمة، يلمس الطفل هذه الحلمات الإضافية واحدةً تلو الأخرى ويضغطها أحياناً بسبابته الصغيرة بعناد، دافعاً كامل الثدي بحركة دائرية كما لو أنه يحاول تنفيذ حركة كاملة لقرص الهاتف.

استقرت يد الصغير الآن بلا حراك على صدر الأم، والذبابة التي تعلقت بموقعها بين أصابعه المفتوحة، تركته بلا مبالاة لأنه كان قد غرق في النوم. ولأسباب غير واضحة أُصيبت الصديقتان بتوتر مفاجئ وأطلقت

بيتكا تنهيدة عميقة بينما كانت تقوّم ظهرها المتصلّب. طارت الذبابة ولم تعد الشمس تلقي أشعتها على السرير، بل على الأرضية المزخرفة بجانبه حيث لوّنت كمية قليلة من الغبار المندسّ بين الشقوق باللون الأرجواني.

احتفظت سيسيل غودرو بتذكار من الكونتيسة ميهاكوسكا، كان عبارة عن جهاز غريب لتقويم العظام مكون من اللبّاد الأسود المطلي بالألمنيوم والذي يُستخدم لفترة قصيرة فقط لضغط أنسجة مكان إزالة الثدي. كان هذا الجهاز الشرير إلى حد ما، يُستخدم الآن كمزهرية تنبثق منها بعض الأزهار الغريبة من وقت لآخر وتزيّن المذبح المؤقت بذوق سيئ جداً، مشكلاً أيقونة بولندية أكلتها الديدان إضافة إلى صورة للكونتيسة ترتدي فيها زيّ الخيالة، نمط هوليودي جداً، بإطار جلدي من الأحمر الصاخب الوحشي جداً لدرجة لم يستطع فيها حتى المصباح الزيتي بضوئه الناعم الذي يلطف كل شيء، أن يخفف من حدّته. على أية حال، لم يعد هذا المصباح مستخدماً وكان يبقى دون إشعال لأيام وأسابيع.

منذ الأحداث الدامية التي وقعت في السادس من شباط في ساحة الكونكورد وحتى يوم تساوي الليل والنهار في الثالث والعشرين من أيلول عندما انتهى اتفاق ميونخ، يستطيع المرء أن يقول أن لا شيء، أو تقريباً لا شيء قد حدث. انشغل كل شخص جسدياً وروحياً بالاستفادة إلى الحد الأقصى من حصته الصغيرة من السعادة، وأصبح الذهاب إلى المطاعم شيئاً بحد ذاته. لم يعد المرء يخطط لشيء. ينهض الإنسان من فراشه متأخراً ليبقي على أجنحة الطموح كسولة، ولا يتجرأ على العودة لسريره حتى وقت متأخر خشية إيقاظ ما يُشعره بالندم. لقد تضخّم ذلك الشعور الجبان بالخمول، بالدوران حول الذات مرة أخرى ضمن ملاءات الشعور باللامسؤولية، وأصبح مترافقاً مع بعض المتعة المنحرفة من واقع معرفة المرء بأن الجيران التاريخيين له وهم الإسبان، قد ذبح بعضهم بعضاً في واحدة من أكثر الحروب الأهلية رعباً في التاريخ. كان يقبل بكل شيء ويساوم على كل شيء بُغية تأجيل اتخاذ قرار فوري. كان الشيء المهم

أن يكون بمقدورك أن تضيف إلى فراغ يومٍ ما حالة العَدَمِ الموجودة في يوم الغد. كان الناس يخونون بعضهم بعضاً ويتعاطون المخدرات وينتظرون .... "الأمور سيئة جداً – ليتها تدوم"

بدا الأمر وكأنه في تلك اللحظات الحرجة، كان هناك كيان واحد في العالم قادراً على اتخاذ قرار، ممتصّاً طاقة الجميع كمصّاص دماء، هذا الكائن الذي يعاني من جنون العظمة هو أودولف هتلر.

كما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة، بقي الجميع مشلولين مخدرين قبل الحرب الوشيكة. لكن تلك اللحظة من التوتر الكهربائي التي تحصل قبل انفجار العواصف الضخمة وتوقف الحركات المهيبة لأشجار البلوط المعمّر والنقرة الخرقاء لكتكوت حديث الولادة لثوان قليلة، دامت ثلاث سنوات طويلة في قلب باريس الذي حاكى خلالها الموت بينَ فكي الوحش اللاهث المغلقين بخطورة.

جمّد الناس أنفسهم هكذا في نصف الوعي الحدسيّ للكارثة القادمة لا محالة. يتبلور كل واحد منهم ببطء تحت مظهره الخامل، في أكثر الأشكال ملاءمة لمقاومة القيود الحاسمة الضارية للمحنة العظيمة. وبالتالي، وبينما يحوّل كل شخص نفسه بغموض في الصمت العميق لنومه السُباتي، كان يشحذ وحسب آلية دفاعه الغريبة ويتقن حيل الأنظمة غير المتوقعة لردّات الفعل. ومع كل القوة فوق الإنسانية الموروثة لغريزة البقاء، ومع جشع الطفل للرضاعة، كان يستقي السحر الموجود في عمق أصول جميع الأحياء، من مصادر لا يُسبر غورها.

لمواجهة جحيم واقع لا مفر منه، يُقاد الإنسان عبر رغبته الارتدادية بالعودة إلى رحم الأم، مُغلِقاً على نفسه الشرنقة الفردوسية، كون يرقة حكمتهم قد حُيكت من اللعاب المهدئ لفقدان الذاكرة. ليس هناك من ذاكرة أخرى سوى غلاف يرقة الألم الأخلاقي لما هو قادم، والذي يتلقى تغذيته من خلال الأشياء التي ستغيب في المستقبل، من رحيق الصوم وخميرة البطولات التي ترتدي اللافتات اللامادية للتضحيات العقيمة والمسلحة بهوائيّ حساس بلا حدود للاستشهاد. بدأت يرقة سوء الحظ بالتحرك لأنها كانت تستعدّ لتحطيم

الجدران الحريرية لسجن عدم إدراكها الطويل، لتظهر أخيراً في تحوّلها الوحشي في الساعة واللحظة نفسها التي ستُعطى الإشارة بها لأول طلقة مدفع. سيظهر حينها كيان لم يُسمَع به من قبل، كيانات لم يُسمَع بها من قبل. تضغط على الأدمغة خوذات رنانة ويثقب الصدع صفير الموجات الكهربائية، أجسادٌ عارية صفراء بسبب الحمى ومُصابة بالبثور بسبب الندبات التي تعجّ بالحشرات وتمتلئ حتى حوافها بسائل غروي من القيح الذي يسير متدفقاً على بشرة مخططة كالنمر أو مرقّطة كالفهد بسبب (غرغرينا) الجروح وجُذام اللباس العسكري المموّه. تتصل البطون المنتفخة بالموت بحبال سريّة كهربائية تتشابك مع خزي الأمعاء الممزقة وقطع اللحم الذي يُشوى على الدروع الفولاذية المحترقة للتعذيب العقابي للدبابات المُدمّرة.

هذا هو الإنسان!

ظهور من الرصاص، أعضاء جنسية من نار، مخاوف من الميكا، قلوب كيميائية من تلفزيونات الدم، وجوه مختبئة وأجنحة – دائماً أجنحة، شمال كينونتنا وجنوبها!

لن يكون الوقت مناسباً أبداً أكثر من الآن من أجل تقديم الحكمة الداليّة: "يمكن توضيح الأفكار العبقرية بأفضل شكل من خلال أكثر الصور شيوعاً". وهكذا يمكن القول دون الخشية من الابتذال، إنه وكما سيجعل الحريق العالمي المستقبلي المخلوقات التي كانت تشكّل الجماهير المتصارعة، مشابهين لحشرات العالم المريخي، وكما ستكون المعارك المرعبة التي ستشعل نار الحرب الهائلة مساوية في دقتها وقسوتها لأولئك الذين يعيشون في ممالك الجراد، فإن أبطال هذه الرواية، الخاضعين لقوانين لا مفرّ منها من المسوخيّة، سيُستهلكون بدورهم ما إن يصلوا إلى الرهان المشترك للتاريخ، مرتدين سماتهم الحشَرية الجديدة ومسلحين بها ومرتقين من خلال تلك الحقيقة تحديداً إلى مستوى الشخصيات الملحمية.

سيكون سهلاً على القارئ في هذه اللحظة تحديداً أن يرى الواقع العميق لكل من أبطال هذه الرواية بلمحة خاطفة واحدة من خلال تخيّلهم لبضع لحظاتٍ مُضائين بالشعلة نفسها.......

يظهر كلٌ من فيرونيكا وبابا وكأنهما ثنائيٌ من حشرة فرس النبي في دور (تريستان وإيزولد)[1] يلتهم أحدهما الآخر، سولانج دي كليدا هي (كاليدونيا فراستراتا) بأجنحة بيضاء كبيرة وجسد من الزئبق، بيتكا عبارة عن فراشة وأنغرفيل كالخنفساء السوداء، أما غراندساي فهو كفراشة أبي الهول الرمادية الليلية الموسوم وسط ظهرها المُشعِر، جمجمة رأس الموت. يتلألأ في السماء الصافية لهذه الرواية ستة أبطال في برج الثور، مخلدين الأسطورة الأبدية لظهور الثريا[2].

سيعرف كل واحد منهم خراب انفعالاته الغريبة بينما يبلغ المميزات البيولوجية الجنونية للحشرات الأكثر ضراوة، وستبقى مدارات حيواتهم دوماً بعيدة مثل الومضة الباردة لمجموعات النجوم.

يبقى بعدها على المؤرخ المُخلِص لتلك الحيوات أن يصف فقط معانقاتهم الجسدية بموضوعية عالِم الحشرات، واقتران أقدارهم بالبرود الحسابي لعالِم الفلك.

لم يحدث خلال السنوات الثلاث الماضية ما يستحقّ التدوين في قصر (لا موت)، باستثناء فقدان "راهبة لوناي" لما تبقى من شعرها، والذي استبدلت به شعراً مستعاراً بنيّاً محمرّاً حيث لم يدع مجالاً للشك بأن البُخل المبهرج كان قد حدد طريقة شرائها. كان شعرها الذي أصبح ضعيفاً جداً، يُجمع خلف رأسها بربطة صغيرة تم الحصول عليها بفضل الإبداع والاقتصاديات الرفيعة الماهرة. وحديثاً تم تقليص الربطة إلى مستوى أبعاد شرنقة حرير، وكان الشعر المربوط بها ضعيفاً جداً وناعماً حتى ليبدو أنه باق بسبب معجزة. حدث بعد ظهر يوم عاصف وبينما كانت تنشر الغسيل قرب شجرة التين، أن كشط الغصنُ الذي كان

---

[1] تريستان وإيزولد: هي أسطورة أصبحت شعبية خلال القرن الثاني عشر من خلال شعر العصور الوسطى الفرنسي، وهي مستوحاة من الأساطير التورلاتية السلتية. المترجم.

[2] خلّد الكونت الفرنسي جوزيف آرثر دي غوبينو هذا الأسطورة في كتاب الثريا.

يخفق أمام نافذة منخفضة، رأسَها وانتزع الربطة بشكل كامل. أُصيبت بنوبة حزن وجرجرت نفسها باكية تحبو على أطرافها الأربعة بمحاولة منها لإيجاد ربطة الشعر الرمادية الملطخة بالدماء بين الكمية الوافرة من التين نصف المتعفن الذي سقط عن الأغصان وتناثر على الأرض.

عدا هذا الحدث، فقد نجح السيد غيراردیان بصدقه المتشدد وصبره المشابه لصبر نملة، في مضاعفة إيرادات أملاك الكونت ثلاث مرات. لازالت جمجمة القديسة (بلوندين) في غرفة نوم غراندساي مستمرة باحتلال الموقع ذاته وبجانبها الكمان الذي يتباهى الآن بوتره الجديد الأحمر.

منذ تلك الليلة التي نفّذ فيها غراندساي عملية تغيير هذا الوتر، بقيت في الغرفة كمية كبيرة من الخيوط الحريرية الحمراء اللامعة الناعمة التي تم حكها من إحدى نهايات الوتر، رغم عمليات إزالة الغبار اليومية. إنها تظهر في كل مكان، في الحبر، تعلق في أطراف ساعة اليد، وغالباً ما يمكن رؤيتها تتطاير في أشعة الشمس.

الخادم برينس الذي يعمل في مطبخ القصر أصبح أكبر عمراً بثلاث سنوات تحديداً. كما امتلكت بياتريس دي برانتيه ثلاث ألماسات صفراء جديدة، وأعادت تزيين شقتها بألواح بيضاء هائلة مصبوغة بلون الحليب وسرعان ما أصبحت صفراء على الفور. كان ديك أنغرفيل قد حصل على ساعة تحتوي تقويماً، تم صُنعها على يد مخترع الحركة الذاتية الشهير (هاودين)، كانت مصنوعة بكاملها من الكريستال .... الشفاف وما إلى ذلك.

كما لو أن الحياة المشوشة والضبابية لكل تلك الشخصيات، تُمثّل على خلفية نصف ممسوحة تشبه زخرفة قديمة، لكن الأشياء قد برزت ببعض الحدة...... ثلاث سنوات! ضاعت الربطة الرمادية بين حبات التين المتعفن، تتطاير نُتَفٌ من الخيط الأحمر في أشعة الشمس، صلابةٌ في بعض الجواهر الجديدة، الكثير من الحزن المختبئ، ساعة غير مرئية وفيض من حليب صدر الأم. ثلاث سنوات! لا يراها المرء، لكنها رغم شفافيتها التي تشبه الدموع، تكفي لتترك مذاقاً

متأخراً مرّاً يلطِّف وجوه الأصدقاء وإيماءاتهم، ويغطيها بذلك اللون الذهبيّ الناعم الذي لم يصبح بعدُ اصفراراً للعواطف لكنه كان قد أصبح المسحوق الخفيف للشِعر.

تركت السنوات الثلاث التي سبقت الحرب بعض آثارها وخاصة في حياة الأبطال. لكن حتى المؤرخ الأشد ملاحظة للحياة الباريسية في تلك الفترة، كان سيجد صعوبة في ملاحظة الفروقات الأساسية، ولو تمكن شخص ما وبشيء من السحر، أن يخفي عن ذاته تلك المدة الزمنية، لكان من الممكن أن يعود إلى ملاحظاته ويؤمن بأن تلك السنوات الثلاث التي مضت لم تكن سوى يوم واحد وحسب. إن كان صحيحاً حدوث بعض التغيرات المفاجئة نوعاً ما في الأزياء، فمن الصحيح أيضاً أن أزياء ذات سمات معينة كانت سائدة منذ ثلاث سنوات أو أربع وتم نسيانها بسرعة، قد عادت وانتعشت الآن. وهكذا وبينما تعيش ويتم استهلاكها في واقع يحتوي كل مظاهر التوتر الأكثر استمرارية، فإن الناس لم يقوموا سوى بإعادة تدوير الأناقة نفسها، والنموذج الأدبي نفسه، والشغف المخفي نفسه، والعلاقات المتبادلة العلنية نفسها، والعطور والشكوك بالبوابين والشجارات والمصالحات والإشاعات نفسها. تملك شائعات باريس في صالحها ذلك الشيء البرجوازيّ الدائم، حيث أنها لو كان لها أساس من الصحة ولو ضئيلاً، لأمكن للمرء الوثوق بالبقية بشكل كبير، ولأمكن للمرء الاعتماد عليها لبقية حياته. كان الكونت غراندساي مصاباً بهجمة مطولة من (ألم النسا) وقد أخرجت خطة حفلته الراقصة من تفكيره. لكن الناس كانوا يتحدثون عنها مرة أخرى هذه الأيام كشيء يوشك أن يحدث. عدا الفترة التي أبقاه فيها مرضه في قصر (لا موت)، كان مواظباً تقريباً على الذهاب إلى لندن. ساد في تلك الفترة الكثير من الهمس الذي يُنثر مع الكثير من التحفظ حول اثنتين من علاقاته العابرة، كانت الأكثر ديمومة والأقل غموضاً منها الآنسة المحترمة (تشيدستر إيمن). لكن سواء أكان الكونت في قصره أو في لندن، مريضاً أو بين أذرع عشيقاته، فقد استمرت المدام سولانج دي كليدا باستلام الأزهار منه يومياً وبدون انقطاعٍ على طول تلك السنوات الثلاث، كما ظهر الياسمين في موسمه من جديد، مجمّعاً بشكل طقسي، كمؤسسة حقيقية.

كان غراندساي يرى سولانج خلال تلك السنوات الثلاث، أثناء إقامته القصيرة في باريس، لكنها لم تكن لقاءات حميمية، لأنها كالتي تحدث بين الناس فقط، ولم يحدث بينهما لقاء خاص يتجاوز حدود المحادثات السطحية. تتلقى سولانج المغازلة والإعجاب بشكل متزايد وقد عاشت محاطة بحشد من معجبيها الذين أعلنوها أذكى امرأة في باريس. نجح فيسكونت أنغرفيل من خلال دوره المطموس الشبيه بشخصية (بيجماليون)[1]، بزخرفة الجو الخاص بصالون سولانج في شارع (بابيلون)، والذي سرعان ما وصل إلى أعلى مستويات الرقي والفخامة والظرافة. ربما شكل الحضور المستمر تقريباً لأنغرفيل افتراضاً بأنه يحمل لمدام دي كليدا شغفاً مخفياً لا يقيده سوى معرفته المؤكدة بمشاعرها التي لا تتغير نحو الكونت. لكن بالرغم من الشكوك وحتى المخاوف التي حثتها الإشاعات الأخيرة عن العلاقات الغرامية الخاصة بغراندساي، فقد أبدى أنغرفيل في كل مناسبة، رغبته بتغذية عقل سولانج بآمال الزواج من الكونت في النهاية.

في بعد ظهر متأخر من أواخر شهر آب من عام 1939 عادت "راهبة لوناي" من باريس. نزلت من عربة الدرجة الثانية في محطة (دي ليست) للقطارات وهي تمسح عينها اليمنى بطرف مئزرها. كان الكونت غراندساي ذاهباً لتثبيت وجوده في باريس لفصل كامل، وكالعادة وصلت الراهبة قبل ثلاثة أيام لتحضير المسكنين بشكل يجد فيه الكونت لدى وصوله كل هوسه، حتى البسيط منه.

كان أول المسكنين كما يُقال، مسكناً رسمياً، كان مؤلفاً من جناح حزين نوعاً ما في الطابق الرابع من فندق (ميوريس) وكان يديره منذ البداية خادمه (غريمارد). أما المسكن الثاني فكان عبارة عن بيت بطابقين صغيرين مختبئ في غابة (بولونيا)، وكان على طراز غابة (بولونيا) أي بدون طراز على الإطلاق، كان

---

[1] بجماليون: من الأساطير اليونانية، الملك الذي نحت تمثالاً لامرأة ومن ثم وقع في حب التمثال. المترجم.

مجهّزاً بذوق سيئ وبشكل متعمد، ويحتوي في الغالب أشياء لها قيمة كبيرة تُمضي فترات الحجر الصحي هناك قبل أن يتم إرسالها لتنضم إلى المفروشات النادرة في قصر (لا موت). كان سنزل غابة (بولونيا) محاطاً بغابة صغيرة كثيفة من أشجار الكستناء التي جعلته مخفياً تماماً وكان معداً بالطبع لأكثر مواعيد الكونت سريّة. لكن هذا العنوان كان معروفاً أيضاً للآثاريين والعاملين بالأعشاب ولتجار الكتب النادرة والأعمال القديمة الخاصة جداً، وبائعي الزهور.

كانت الراهبة التي سكنت الطابق الأول من هذا المنزل واتخذت دور البواب، تهتم بالتفاصيل الفخمة وغير الاعتيادية وتعقيدات الطابق الثاني بدقة ولكن بنفور. هي غالباً ما تتنهد عندما تقوم بأعمالها الروتينية "يا إلهي! ليست هناك أشياء لم أرها في حياتي الطويلة كلها!"

كان المخدع المحجوز لعشيقات الكونت، والذي يحتوي على مجرد مستلزمات الحمام بالإضافة إلى أثاثه، يُحضّر بسرعة ودون إهمال لكن إلى حد الاكتفاء فقط. وكانت الراهبة من جهة أخرى، تمضي الساعات في غرفة نوم الكونت وغرفة ملابسه والتي تعمّها الفوضى بسبب المستحضرات الطبية المعقدة والمقتصرة على فئة معينة ويحسده عليها أي صيدلاني: مراهم ذات روائح قوية في قوارير خزفية مسامية يجب لفها باستمرار بضمادة قماشية بيضاء، وتتسخ على الفور حيث يجب تبديلها وكأنها حفاضات طفل. جذور ثقيلة متورّمة بزوائد أرجوانية وثآليل سوداء متدلية من علاقات في السقف كأيدٍ متورمة مُصابة بداء الفيل، جلود قطط مخللة في خوابٍ زجاجية غير شفافة تحت سرير سميك من الزئبق ...... في وسط ذلك التشوش كله من المواد غير العادية، وفوق القماش النظيف للطاولة البعيدة، تنتصب دائماً وبترتيب مفرط الدقّة من الراهبة، قارورتان من القياس نفسه لكنهما بلونين مختلفين، القارورة الأولى حمراء والأخرى زرقاء، تترافق كلٌ منهما على التوالي بكوب وملعقة ملونين بألوان مطابقة جميلة. تحتوي هاتان القارورتان على سائل أخضر راتنجي

يتحـول إلى شـوكولا، كانـت كلتاهمـا دون رائحـة ولهمـا طعمـان قويـان متعاكسان. تحتوي القارورة الحمراء من جهـة الـيمين نوعـاً مـن الرحيـق الحلو جداً والكثيف، وتحتوي الزرقاء الموجودة على اليسار سائلاً سـريع التطاير، ذا نكهة مرّة جداً ومقرفة لدرجة يكـون مـن المسـتحيل ابتلاعـه دون تقيؤ، ما لم يتم تعديل طعمه مسبقاً بملء ملعقة من محتويات الأولى. رتبـت الراهبـة المواقـع النسـبية للقـارورتين بحيـث إذا أراد الكونـت استخدامهما ليلاً، تمكن من القيام بذلك دون خطأ ودون تشغيل الضوء.

اعتـبر الكونـت مـن خـلال تجربتـه الشخصـية أن الجرعـة المختلطـة مـن المادتين تحتوي ميزات في إثارة شهوة جنسيّة خاصة جـداً، بينمـا، بالوقـت نفسـه، يعمل التعاطي المستمر لها كمنبّه منشّـط للمراكـز العصـبية الأخـرى وخاصـة الـدماغ. يمكن إيجاد معادلة مشابهة لهذا الأكسير، بالرغم من أنهـا أقـل دقـة، في مُستحضـر السـحر الطبيعـي (لنيابوليتـان لابورتـا). لم يكـن في الواقـع سـوى أكسـير الحـب للعصور الوسطى، والذي كان يحمل بحسـب رأيـه مفتـاح (حلـم بوليفيـل)[1] الرائـع الـذي أدخلـه (بيرولـد) إلى فرنسـا في العـام 1600 وكـان هـو كتـاب غراندسـاي المفضّل، إنجيلـه. بامتلاكـه رعـب كـل نزعـات العقلانـيين والإيجـابيين مـن القـرن الثامن عشر، درس الكونت بعمق أعمال (ألـبيرت مـاغنوز، وباراسيلسـوس، ورامـون لول) ملتمساً أهدافهم الجليلة في كل مكان في الطبيعـة. اسـتفاد مـن جـامع الأعشـاب العجوز (غويميه) الذي يقترب شكله من الغرابة، والذي ادعـى أنـه لم يسـتحم منـذ سبع سـنوات وذلـك لأسـباب تتعلـق بالنظافـة حصـرا، لكنـه يعـرف فضـائل أكثـر الأعشـاب المجهولـة دقـة. لم يسـتطع غراندسـاي الـذي تجـاوز الجانـب الغريـب لخرافات جامع الأعشاب، إلا أن يُصبح مدركاً أكثـر يومـاً بعـد يـوم لكنـز التطبيـب التجريبي الـذي أخفتـه تلـك التركيبـات تحـت مظهرهـا المخـادع. مـا الـذي كانـت تفعله أكثر الأدوية حداثة إن لم يكن استعادة الألغـاز الـتي سـاهمت لفـترة طويلـة في

[1] حلم بوليفيل: هو عنوان كتاب للكاتب (بيرولد) لكن البوليفيليا تعني فلسفة الوقوع بالحب أو التورط العاطفي مع أكثر من شخص في الوقت نفسه. المترجم.

سذاجة العصور الوسطى تحت أسماء أخرى؟ تعرّضت التأثيرات والفضائل العلاجية التي عزاها الكيميائيون للعالم المعدني للجواهر والمعادن الثمينة، لكثير من الهزء. ألم يكن يُنظر لاستخدام أملاح الذهب في عصرنا هذا كعلاج قوي؟ ماذا عن وضع بعض الحيوانات الحيّة على الجزء المصاب من الجسد؟ ألم يكن للشرغوف أو الشرنقة تلك الظواهر المراوغة للنشاط الإشعاعي، بما أن مفرزاتها ولعابها يُثبت أكثر فأكثر أنه على ارتباط مباشر، ليس مع موجات محطة (إن بي سي) القصيرة وحسب، بل مع الأمواج الكونية لموسيقى الأجرام السماوية؟ أما إن قيل هذا الكلام لراهبة (لوناي)، فسوف تستمعُ له فقط كموسيقى سماوية، بدت لها في هذه الأثناء، مجموعة الأدوية كلها والأشياء المختلفة مجهولة الاستخدام، إذ أنها تُصدِر رائحة الكبريت الشيطانية، وبخاصة منذ ذلك الصباح الذي كانت ترتّب به غرفة الكونت، حين وصلت صدفة إلى كتاب مفتوح يعرض نقوشا بغيضة لمشهد شيطاني لمقالة كتبها (دورتال) [1] حول ممارسات البارون (جيل ده ري) الشيطانية. منذ ذلك الصباح حاولت الراهبة أن تتجنب النظر في صفحات الكتب التي تترك مفتوحة، وكانت حذرة أكثر من أي وقت مضى، وكانت تسير على رؤوس أصابعها في الغرف العلوية.

بدا الكونت منذ وصوله إلى باريس مشغول البال. كان الانقطاع الأخير لعلاقته الغرامية مع الآنسة تشيدستر إيمز قد ترك عقلة السئم فريسة لسلسلة استحواذية من الخيالات الجديدة. أصبح يمضي الآن معظم فترة بعض الظهر متصفحاً في مكتبته الخاصة باحثاً عن كتب ووثائق تزوده بشكل مباشر أو غير مباشر بقواعد من أجل تلك التأملات الغريبة التي ازدادت خلال فترة خلواته الرهبانية في قصر (دي لا موت)، واستعرت بالتدفق المستمر لمحادثاته اليومية الطويلة مع بيير غيرارديان. الأكثر من ذلك أن التفكير بسولانج دي كليدا التي استأصل وجودها الضمني من عقله كل رغبة

---

[1] دورتال: هو بطل رواية أسمها (لا با) كتبها كاتب فرنسي اسمه (هويسمنز) وقد أعطى بطله دورتال في هذه الرواية شخصية الكاتب. المترجم.

وشهوة بامتلاكها، بدأ الآن يضغط عليه من جديد، وبدت صورتها تدمج نفسها بعقله، وأصبحت مُعدّة لتكون بطلة خيالاته الجديدة. لكنه لايزال رافضاً التفكير بالأمر بجدّية قائلاً في نفسه: "ستكون لي في اليوم الذي أرغب فيه بذلك". سوف تُخلق صورتها لتختفي وتفقد قيمتها من جديد لبضع ثوان، لكنه سيتذكر فجأة الأسلوب الصريح النبيل الذي ردّت به مؤخرا حول تلميحاته المهذّبة، "أنت تعرف تماماً بأني أريدك بقوة!" يشعر بعد ذلك بنفسه ضعيفاً ويبدأ حالة جامحة من شراء الكثير من التُحف........

بعد تسعة أيام في باريس، لم يعد الكونت قادراً على مقاومة إجراء لقاء خاص مع سولانج. سيكون لقاؤهما الحقيقي الأول منذ الحادثة التي وقعت في غرفة نوم الكونت في قصر (دي لا موت) منذ أربع سنوات مضت.

وكموقع مناسب، اختار الكونت مطعماً رسمياً مرتفع السقف فيه شمعدانات كريستالية جميلة يقع في (بورت دوفين)، المكانِ الذي كان مهجوراً في وقت تقديم الشاي، يمكنهما في نهاية المساء أن يذهبا لرقص الفالس في (بوا) في قصر (مدريد). ركب سيارته واتصل بسولانج في بيتها في شارع (بابيلون). بدأت السماء تمطر عندما وصلا المطعم واختارا طاولة قرب النافذة التي أنعشتها نماذج المطر المتمايلة، وقد أعطى الكونت إكرامية لعازف الكمان كي يتوقف عن العزف لباقي فترة بعد الظهر.

بدأ حديثه قائلاً: "التقدم الذي قمتِ به في السنوات الأربع الأخيرة، يجعلني أفكر ملياً بشكل حتمي بشيخوختي. لم ترغبي بالظهور أبداً في لندن، لكن إشعاعك كان ينعكس من بعيد في كل الصالونات، وخاصة في أكثرها عدائية."

أجابت سولانج مراقبة هطول المطر: "لقد قمت بكل ذلك من أجلك فقط، منذ ذلك اليوم الذي ضحيّت فيه بكبريائي عبر اعترافي بحبي لك، أردت لذلك الحب أن يكون مناسباً لمستواك."

"مع ذلك لم تنكري أن دورك الجديد كرمزٍ اجتماعي يعوّض كبرياءك بشكل جزئي بالرغم من أني لست مُستعدًا لقبول تضحيتك به."

فكرت سولانج: "تشبه أمجاد العالم فقاعات في المطر."

"إن كان لدينا فضول لمحاولة مراقبة أساس شعورنا بشكل موضوعي، فأنا متأكد من أن كبرياءك ربما يستمد الإشباع من الحساسية الحالية لرغبتي التي لا يجب أن أتجاسر على أية حال، على تحديدها بالثقة نفسها وكما أسميتها أنت "الحب"، الذي يمكن اقتلاعه بسهولة كبيرة. على العكس من ذلك، بالنسبة إلى طرقي (الستاندالية) في مراقبة "تبلور" الحب، لا شيء يشير إلى هذا في شعوري — لا شيء إطلاقاً....."

أجابت (سولانج) بكرامة: "أعرف أن احترامي لديك قد ازداد، لكن لماذا تستخدم كلمة (رغبة) عندما لم تعد بحاجة لها".

"لا أستطيع أن أخبرك كم أقدر حالتك الذهنية الحالية التي ستمكننا في النهاية من الحديث عن حالتنا دون أن نعمي أنفسنا،" قال هذا وهو يراقبها بانتباه ليؤكد لنفسه أن هدوءها لم يكن ادعاءً.

نظرت إليه بإعجاب وقالت في نفسها "هذا رائع". "الكثير من التروي والصلابة. لقد استغل إطراءاته لي ليفرض خطته عليّ، هو لم يُلطف كلمة "لا شيء" كما شدّد عليها مع كلمة "إطلاقا" ...... "يمكن اقتلاعه بسهولة كبيرة" .... يا لها من عبارة قاسية .... اقتلاعه! .." كررت ذلك لنفسها وهي مسحورة.

"ليس لديّ الحق في السؤال الذي أرغب بطرحه. يمكنني فقط الاعتماد على رصيد الثقة التي ربما ترغبين بمنحها لمخيلتي،" قال ذلك وانتظر أن يُطلب منه المتابعة.

"لا يفرض المرء شروطاً على المهزوم الذي يكون قادراً على البقاء على قدم المساواة — على ركبتيه."

"يُلزمني جمال إجابتك ونبلها على ألا أكتم سؤالي المخجل عنك. هل أنتِ على استعداد للتنحي عن كبريائك لتصبحي مجرد عشيقتي رغم معرفتك بأني لا أحبك؟"

"لقد أجبتك سلفاً – نعم!"

أجاب وقد بدا التأثر عليه فجأة: "حسناً، حتى إنه أقل من هذا! وهو أكثر بكثير أيضاً! ما أريده منك ......" ومن ثم أرخى جبهته لثوانٍ في باطن يده.

سحبت يده عن وجهه بلطافة وقالت: "ستغادر مرة أخرى،" وتابعت بنوع من التوبيخ: "بدون أن تخبرني ما هو!"

أجاب مُستأنفاً بروده: "نعم! لا أستطيع اليوم، لكني أعدك بأن أقول لك في المرة القادمة. أردت اليوم أن أخبرك عنِ علاقتي الغرامية مع الآنسة تشيدستير إيمز، هذا الشغف قد ترك في روحي خراباً من نوع لم أستطع أبداً أن أتخيله."

ضغطت سولانج يد الكونت بصورة تدريجية.

قال غراندساي: "نعم أعرف، لا ترغبين بأن أخبرك بهذا...... أستطيع طمأنتك لأن كل هذا قد انتهى الآن .... ومع ذلك من السيء جداً نوعاً ما ألا تستمعي إلي .... تلك القصص كلها حول السوء في علاقتنا ليست صحيحة أبداً، والأكثر من ذلك، لو عرفتِ كامل تفاصيل هذا الشغف، ستعرفين أن ما أريده منك إنسانيّ جداً ومفهوم."

"لن يظهر أي شيء غير مفهوم بالنسبة لحبي...... شريطة أن تمنح غيرتي فرصة صغيرة لتهدأ."

"لن أخبرك إذن عن الآنسة تشيدستر إيمز."

"هل تصدقين أن في الفيزيولوجيا المثالية للحب، من الضروري أن تحصل الرعشة الجنسية بالوقت نفسه للشريكين معاً؟"

"لا أعتقد أنه شرط جوهري، بالرغم من أنه مرغوب جداً."

"يبدو أن المعتقد التقليدي حول الحب الجسدي ومنذ العصور القديمة، لا زال يدور حول سؤال وحيد." وبعد صمت طويل تابع:

"وضعتْ بعض الممارسات الواسعة النطاق جداً في العصور الوسطى هذا الأمر كهدف نهائي للفن الساحر في مملكة الحب."

"هل تشير إلى ظاهرة تعاويذ الحب؟"

"نعم، أنا أفكر بتلك الأمور التي تم اتخاذها كمعتقدات لعدة قرون، في إمكانية توظيف عمليات السحر لحث الحب بين شخصين تم اختيارهما عمداً على أن لا شيءٍ لديهما لدفع أحدهما نحو الآخر. تم فرض الحب عليهما تدريجياً، كنوع من الإدانة أو العقوبة."

خاطرت سولانج بتملّق، مددة مخالب القطة البيضاء الصغيرة لمعرفتها على تموجات ريش سجادة حديثهما المتدفق. "لا يبدو أن علم النفس الحديث ولا الاكتشافات البيولوجية الأخيرة، ترفض هذا النوع من عمليات السحر بشكل كلي،"

"هذا صحيح تماماً، لقد أعدت قراءة حكايات متعددة تتحدث عن هذا النوع من (تعاويذ الحب)، بدت لي الوسائل والعمليات قابلة للتصديق كهلوسات إن قمنا بفصلها عن جمالها الشاعري المدهش."

صالبت ذراعيها أمام نهديها وضغطت كتفيها بكفيها مُظهرة استعدادها للاستماع.

"يبدأ المرء باختيار ثنائي عشوائي مُعدّ ليتحول إلى ثنائي عاشق مفضلاً أفراداً لديهم ميول عدائية. يجب ألا يكونا عذراوين، لكنهما يبقيان من لحظة اختيارهما بحالة من العفة الكاملة التي لا تُكسَرُ حتى النهاية. بعد عدة أشهر من الامتناع عن ممارسة الحب الجسدي، يُغذّى خلالها جسداهما بالطعام والشراب الذي شاركت في تحضيره كل علوم المحفزات الجنسية من الأعشاب منذ زمن المصريين القدامى، ويتم تحفيز مخيلتيهما دون توقف بحكايات مناسبة تم إحضارها من حوارات عشاق شهيرين ومن أقوال مأثورة لمتحمسين لـ (أودوكليري) الذي يجمع العشاق، وحينها فقط يحدث اللقاء الأول للثنائي لوضعهما تحت السحر. من أجل هذا "العرض" يجب أن يقابل أحدهما الآخر عارياً مزيناً

بالجواهر المؤلفة من الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة المنتقاة بما يتناسب مع برجيهما والتأثيرات المواتية لهما. طوال هذا اللقاء بالكامل والذي تخصص له طقوس صارمة، يجب ألا تُقال كلمة واحدة، ولا أن يحدث أي تلامس جسدي. أية مخالفة لهذه القيود تعرّض النجاح النهائي لتعويذة الحب للخطر. بعد هذا المشهد التمهيدي، تتدرج لقاءاتهما بِفن راق لإيقاظ رغبتهما المتبرعمة وتحفيزها. لكن على عكس مما يتوقع المرء، بدلاً من التقدُّم في الإغواء الجسدي العادي تتراجع العلاقة. ويدخل بعدها مسار رومنسيتهم بالطور الذي يُسمّى (المثالية)."

اقترحت (سولانج) اسم: "التسامي".

"بعد لقائهما الثاني، يُغطى عُريهما بالكامل تقريباً بِالأوراق المتداخلة، ويظهران باللقاء الرابع مرتديين الملابس الفخمة، وبدلاً من أن تكون حركاتهما المنظمة مسبقاً وكأنها لتقديم عرض باليه، فظة وغير متواضعة كما كانت في حالة عريهما الأولى، تصبح أكثر نقاء، معبّرة عن مشاعر مرهفة متواضعة مع تقدمها نحو المراحل النهائية."

قالت سولانج: "أستطيع أن أفهم أن هذا النوع من الافتضاحية المعكوسة قد يصبح محفزاً عنيفاً للحواس لأولئك المعرضين لطقوس كهذه إلى حدّ إثارتهم برغبة عقلية كاملة لأحدهم نحو الآخر. لكن هل لتعذيب أجسادهم (التانتالوسي)[1] المخيف شيء مشترك مع مشاعر الحب المستقلّة والدائمة؟"

"نعم بدون شك، أو على الأقل هذا ما تشهد عليه النصوص، بشرط أن يصل الثنائي إلى نهاية محنتهما بشكل مرضٍ."

"ما الذي يحدث عندما تكتمل هذه التعويذة في النهاية، ما هو الهدف النهائي؟"

---

[1] التانتالوس: ملك اسطوري حُكِم عليه بالوقوف في بركة مليئة بالماء حتى ذقنه وتقع في هاوية وتتدلى فوقه أغصان مليئة بالفاكهة تتراجع في كل محاولة منه للأكل أو للشرب. المترجم.

"يُترك الحبيبان في النهاية أحدهما مع الآخر وجهاً لوجه، متشحين بملابس توحي بثرائها بملابس الزواج الفاخرة. يتم ربطهما بشكل منفصل إلى أغصان شجرةِ الآس، ليس فقط لمنعهما من الاتصال الجسدي لكن لمنعهما من الحركة تماماً. بعد وقت محدد، إن كان السحر ناجحاً تحدث النشوة الجنسية بشكل متزامن لدى الحبيبين بدون أي اتصال جسدي بينهما سوى تعابير الوجه. قيل إن تلك الظاهرة تترافق بشكل دائم تقريباً مع الدموع." واختتم كلامه وهو يسكب لها كوباً آخر من الشاي. وحلّ صمت آخر.

قالت في النهاية: "هذه الدموع وتعابير الوجهين بمجالها الواسع من تدرّجات الألم والمتعة هي بدون شك ما يجعل تصرفات الإنسان تختلف بشكل كامل عن تصرفات الحيوانات......" وتابعت وكأنها تناقش نفسها: "إذن من الممكن تحقيق شغف فعليّ عظيم دون اتصال جسدي؟ يبدو هذا وكأنه يقود بشكل حتمي إلى نظرية جديدة بالكامل عن الحب والتي ربما توحّد في الواقع مبادئ أبيقور وأفلاطون بفكرة واحدة."

"هي في النهاية وعلى أي حال، انحراف جديد يؤخذ بعين الاعتبار".

"لكن حتى مع ذلك، هل تؤمن جدياً بإمكانية وجود شيء كهذا إلا لأشخاص لديهم سرعة تأثر عقلية مفرطة تتضمّن تعقيدات كاملة لمعتقدات قروسطية؟"

"أنت على حق، يمكن الوصول إلى حالات مُبالغ بتخديرها كهذه في حياتنا الحالية فقط عبر خلق مسوغ سيكولوجية فعلية .... ومع ذلك، يقدم لنا علم النفس الحديث كل يوم ظاهرة من النظام ذاته، في (حريم) المصابات بالهستيريا والصرع واللواتي يملأن مستشفياتنا. إن التقوس الهيستيري الذي ينحني به الجسد الأنثوي والذي يتطلب من الشخص العادي أسابيع من التدريب البهلواني، له الأصل نفسه، إن صح القول، للتشنجات المعروفة جداً من أيام (شابلن) والتي مكّنت المرضى من أداء حركات تناسق صعبة لم يكونوا قادرين على أدائها بشكل عادي. ستبدو فيضانات الدموع التي تستطيع الممثلات العظيمات أن يذرفنها، تسبب راحة عصبية مشابهة بكل الأشكال

لحالة أولئك الذين لديهم حـزن حقيقـي. يبـدو أن حـدود المحاكـاة هنـا، لـديها كما يبدو المنابع الباطنية نفسها للمتعة. لكن ظـاهرة المتعـة، مـع أنهـا في الواقـع أكثر استقلالية عـن إرادتنـا مـن الـدموع، هـي الأكثـر حـدة عنـدما تنفصـل عـن التصرفات الميكانيكية وتنتج ببطء أكثـر، وتكـون نتيجـة لمـا يمكـن تسـميته ربمـا وسائل روحيـة. أنـا أعـرف أن الكلمـة "روحـي" كمـا أستخدمها، تبـدو تافهـة ويمكنها فقط أن تحـث علـى السـخرية في العقـول الماديـة لعصـرنا. لكـن المفهـوم العام للحب كما تم تقديمه لنا منذ القرن الثامن عشـر يبـدو كحالـة شـذوذ. فكـرة "الحب من أول نظرة" هي فكرة همجية وهي بحد ذاتهـا عَـرَض خطـير للتـدهور الضبابي، انعدام الملامح والتفاصـيل، الـذي يبـدو فيـه "حلـم" الإنسـانية وكأنـه يغرق. عنـدما يفكـر المـرء بالمصـريين ورجـال عصـر النهضـة الـذين اسـتطاعوا أن يحلموا (بالمسلّات) وتعلم الهندسـة والنسـب الرياضـية الـتي مكّنـتهم بحالـة مـن الصحو من متابعة التطبيقات علـى المشـاكل الدقيقـة للجماليـات المعماريـة والـتي ساعدت حياتهم الحالمة بحلها، يرى أن عـدم وجـود الدقـة في أحـلام معاصـرينا هـو فضـيحة، وحـوادثهم الحالمـة بالكـاد يمكـن تمييزهـا عـن (المسـرحيات الفوديفيلية) البائسة لحيواتهم اليومية البائسة!"

تورّدت سولانج لأنها لم تحلم أبداً.

"عدم وجود الدقة نفسـه يـدمّر الشـغف أيضـاً. عنـدما يرغـب شخصـان أحدهما بالآخر، سرعان ما يهرعـان لإشـباع رغبتهمـا دون أن يكـون مهمـاً لهمـا كيف يكون ذلك، أين وتحت أيـة شـروط. يشـبكان ذراعيهمـا علـى نحـو مربك ويخنق أحدهما الآخر بلعابه، فقط من أجل إشباع الدوافع العـابرة والشـعور غـير السـوي. تُـدين وتـرفض جميـع تجـارب الحـب في حيـاتي هـذه الاختلاطـات العربيدية! وتماماً كما يكون الشاعر المُلهَم [1] غير قادر على كتابة قصـائد جميلـة، فإن المحبّ غير قادر على بناء شغف حقيقي ..... لا بـل علـى العكـس، يمكـن

---

[1] الشاعر هو الذي يُلهِم، وليس هو الذي يتلقى الإلهام. باول إلوارد.

للرغبة البدائية غير الموجودة أن تُزرع وتُحضَر عبر سلسلة من التبلورات المدروسة من حالتها المشوشة، من الدمدمة الحسية إلى الروعة الباردة، من الجمالية التي لها ترتيب مختلف من المزيج المتدافع للأجساد. أريد أن أبني شغفاً مثل معماري حقيقي، شغفاً تُغني قساوة كل وتد فيه مع دقّة زوايا الحجر في كل قالب من سوناتا نوافذ (البلاديان)[1] – شغفاً من سلالمَ من الألم تؤدي إلى فُسحة من الترقب وعدم اليقين، فيها مقاعد نجلس عليها وننتظر على عتبة بوابة الرغبة، أعمدة من العذاب، تيجان أعمدة من الغيرة منحوتة بأوراق شوكية، تحفظات على شكل أقواس مكسورة، وابتسامات هادئة مدوّرة مثل الدرابزين، قناطر وقباب من نشوة مسحورة.........."

طمست سولانج بجهد من إرادتها كل الأصوات المحيطة بها لتسمع بشكل أفضل. لماذا، بحق السماء، لم يُحببها غراندساي؟ إن استطاعت كلٌ من هذه الكلمات أن تغمرها، لماذا لا تعيش معه دوما! وبينما تستمع له، كانت تكرر باستمرار بداخلها: "ما الذي تفعله و يجعل من كلماتك تعشعش بسرية في روحي!"

لكنه كان قد لبس قفازة الضيق جداً، وبدا وكأنه قد أصبح في الشارع.

قالت ضاحكة بصوتها اللامع: "متى ستكون جلستنا التالية في السحر التعاطفي؟"

"هل ترغبين بمقابلتي هنا بعد الغد في الوقت نفسه؟ نعم أعرف، علي أن أخبرك كل شيء!" وأضاف وقد أصبح مرة أخرى رجل العالم: "أنت لن تمانعي يا عزيزتي إن لم آخذك الآن معي إلى قصر (مدريد) كما وعدتك؟ أنا متأسف جداً لأن الوقت متأخر."

---

[1] البلاديان: هو النمط الأوروبي للهندسة المعمارية المستمدة والمستوحاة من تصاميم المهندس المعماري الفينيسي أندريا بالاديو (1508-1580) المترجم

"أودّ أن أرقص معك مرة أخرى ربما، قبل الانطلاق بهذه التجربة، هل سيكون هذا محرماً أيضاً؟" قالت ذلك وهي تنهض واضعة يديها على كتفي الكونت وما كان على الأخير إلا أن يدير رأسه ليقبّل يدها اليسرى ويقول: "معجزة رائعة أنه لم يحدث شيء بيننا حتى الآن" مضيفاً بصوت أجش: "دعينا نقسم ألا نقوم بشيء من شأنه أن يقلل رغبتنا!" قبّل بعدها يدها الأخرى قائلا بصوت ضعيف صارم: "سنقوم بتقييد أنفسنا معاً في السحر!"

سألت ورأسها ممدود نحوه: "هل من الممكن أن أكون تحت سحرك أكثر مما أنا عليه الآن؟"

أجاب (غراندساي) وهو ينظر في أعماق عينيها وقد أخذها بين ذراعيه وبالكاد يلمسها: "أريد أن أكون تحت سحرك."

ذكّرته قبل أن يفترقا: "غداً مساءً نتعشى معاً عند بياتريس دي برانتيه. طالما أننا فقط في البداية، هل ألبس ثوبي (الديكولتيه) المفتوح على الصدر إلى أقصى حد؟"

كانت المحادثة معها قد تركته مشتتاً وشاعراً بأنه قد خضع إلى صدمة عصبية عنيفة، كان قد انزوى مبكرا في سريره في منزله في (بوا). فتح في السرير كتاب (نشاطات دراسة الشياطين) عشوائياً ووقع على تفاصيل دقيقة للغاية عن حالات مثيرة للفضول عن زيارة شيطانة حدثت في حالة صحو، وكان الأب الدومينيكاني المبجّل ضحيتها ثلاث مرات في بداية القرن الرابع عشر، وكانت مع موضوع جديد في كل مرة. أثناء الجلوس على كرسي الاعتراف، انفصل الجسد الشيطاني للمرأة التي كان يسمع اعترافها عن جسدها البشري وقيّد كل أعضائه وأخضعه لمتعة آسرة مريعة، بينما استمر الحديث طوال هذا الوقت ودون انقطاع، مع المرأة التي بقيت جاثية باحترام وورع.

أغلق كتابه بيده بينما حكَّ عنقه بإبهامه وسبابته وأمسك كتاب (حلم بوليفيل) وفتح على صفحة محددة بشريط وقرأ:

"فتحة هذه المزهرية الأخيرة كانت مليئة بتلّة من الحجارة النفيسة غيرِ المصقولة، معبأة بإحكام، بقساوة ودون ترتيب، لذلك بدا الجبل وعرا ومن الصعب تسلقه. تنمو على القمة شجرة رمان كان جذعها وأغصانها من الذهب وأوراقها من الزمرد وفاكهتها بالحجم الطبيعي، اللحاء من الذهب غير المصقول والبذور من الياقوت الشرقي وجميعها كبيرة مثل حبات الفاصولياء، والأغشية أو القشور التي تفصل البذور كانت من الفضة. الحِرفيّ المحترم الذي كتب هذه التحفة كان قد وضع هنا وهناك عقيقاً منقسماً نصف مفتوح، وكان قد شكّل بعض البذور التي بدت وكأنها لم تنضج حتى الآن، من اللآلئ الشرقية الكبيرة، أكثر الاختراعات التي سببت التورّد لوجنة الطبيعة روعة."

بوصوله إلى كلمة "طبيعة" أطفأ النور وترك نفسه يغطّ في نوم عميق. نام مباشرة ولم يصحُ حتى الساعة الحادية عشرة والنصف من صباح اليوم التالي. وبينما كان يوشك أن يغادر البيت مرّ بالراهبة في البهو وقالت له وقد توقفت وتفحصته:

"يجب ألا يفرط السيد بتناول الجرعة الخضراء .... العديد من الأرواح الصغيرة البريئة تنتظر في (الليمبوس)[1] لتأتي إلى العالم!" أضافت بعدها وهي تراقبه يبحث عن عكازه دون أن تأتي لمساعدته: "ليس هناك من أسرار على راهبتك! إنها ترتب سريرك! وانصرفت مغمغمة: "ملائكة مساكين! المجد الله!"

---

[1] الليمبوس: هو فكرة من الأفكار للمسيحية الكاثوليكية التي تعود إلى القرون الوسطى. وقوم على وجود حيّز يقع على مشارف السماء تسكنه أرواح البررة من غير المؤمنين وأرواح الخيرين الذين نشأوا في أزمنة الكفر، ولكن لا جناح عليهم لعدم إدراكهم رسالة المسيح. ويعيش في اليمبوس أيضاً، أرواح الأطفال الأبرياء الذين ماتوا قبل أن يتم تعميدهم. المترجم.

لم يتوقف ولا للحظة واحدة خلال تلك السنوات حلم سولانج دي كليدا بيوم تصبح فيه مالكة طاحونة (دي سورس). واليوم وتتويجاً لثمرة مثابرتها، أوشكت تلك الخطة التي كانت مبهمة وخيالية أن تتحقق. لا يمكن لرغبة سولانج أن تتحقق تلقائياً بالرغم من قوتها دون مساعدةِ تواطؤ متفان سريع مستمر وغير مشروط، وقد حصلت على هذه المساعدة من خلال تُفاني السيد غيرارديان الذي لا يُضاهى. لم يعتقد كاتب العدل بأي طريقة من الطرق، أنه يرتكب أدني خيانة للكونت بلعبه هذا الدور، بل على العكس تماماً. لأنه إن كان صحيحاً أن مطالبةِ سولانج الصارمة لواجبه المهني، تُلزمه بالحفاظ على السرية التامة لنوايا موكلته، فليس أقل صحة أنه استطاع أنَ يتخيل أن شراء سولانج للطاحونة ما هو إلا شيء يتماشى مع مصالح الكونت بالقدر نفسه. لن يعود هذا العقار إلى أيدٍ صديقة ويزيل كافة مخاوف التصنيع التي تطارد غراندساي فقط، لكن الاتحاد الضمني للمصالح الذي ستخلقه هذه الصفقة يمكن أيضاً أن يزيد أرجحية الزواج الذي يرغب به بحماسة من أعماق قلبه المتواضع.

لم يكن السيد غيراردِيان برغم كل جهوده قادراً على الحصول على سعر معقول نهائي، وقرر أخيراً أن ينصح بعدم الشراء لفترة من الزمن. بالرغم من الانخفاض الكبير جداً عن الرقم الذي كان، فإن السعر الأدنى الذي قَبِلَ به (روشفورت) كان لا يزال أكبر بمرتين من القيمة الحقيقية للأرض التي أصبحت رهناً لاستثمارات إشكالية بفضل التصاميم الزراعية الأكثر حداثة. لدى مدام دي كليدا بوضوح، الحق في صرف كل ثروتها تقريباً كما ترغب، لكن لديها صبيٌ في الحادية عشرة من عمره في سويسرا، وكان التفكير به هو ما أيقظ كل وساوس كاتب العدل.

بهذا المزاج، حضّر غيرارديان لجلسة ربما تجيب عن هذه الأسئلة. استقبلته سولانج دي كليدا في غرفة استقبالها الصغيرة المجاورة لغرفة نومها حيث اشتعلت أول نار لهذه السنة في المدفأة. قبّل غيرارديان يدها وقال: "دعيني أعلن لك أن إنكلترا أعلنت الحرب على ألمانيا للتو."

قالت بعد فترة من الصمت: "هل يعني هذا أننا سوف ننجرّ لهذه الحرب بشكل حتمي؟" يجب أن تتبع فرنسا ذلك القرار خلال بضع ساعات فقط، وربما يتم الآن في هذه الدقيقة تحديداً بث إعلان الحرب......"

يمكن سماع صوت رتيب لدق مسامير في الساحة الخارجية. كان يحترق شوقاً للبدء في موضوع شراء طاحونة (دي سورس) لكنه لم يجرؤ على مقاطعة الصمت المركز لسولانج. مشت ذهاباً وإياباً على طول الغرفة الصغيرة وأخذت نفساً طويلاً من سيجارتها. جلس هادئاً نافد الصبر لكنه سرعان ما وقف مرة أخرى، إذ وجد توازنه أخيراً بالانحناء بكلتا يديه على الملف المفتوح أمامه على المكتب، مائلاً بجسده إلى الأمام مطرقاً رأسه في الوثائق التي تظاهر بمراجعتها، حيث بدت هذه الطريقة بالانتظار والاهتمام وحتى النصيحة التي استعدّ لتقديمها، أقل شخصيّة، وتتعلق بشكل أكبر بواجباته المهنية.

"اعذرني – أنا تحت تصرفك،" قالت ذلك وجلست قرب المكتب في الكرسي الضخم ذي الذراعين وتابعت بعدها في نبرة بدت نهائية: "أفترضُ من نظرتك القلقة أن (روشفورت) ثابت على سعره. هذا لا يشكل فرقاً. لقد فكرت بهذا بعناية كبيرة وأرغب بإتمام الصفقة بالسرعة الممكنة – ربما تُظهِر الحرب لنا تعقيدات جديدة."

"بالتحديد، الوضع الجديد شيء يجب التفكير به ويجب أن نكون حكماء وننتظر بينما نراقب تطور الأحداث."

"ليس مهماً ما هو المنعطف الذي ستسير به، أنا مصممة بحزم على المضي قدماً بعملية الشراء."

"في هذه الحالة يا مدام، يملي علي ضميري المهني أن ألفت انتباهك للمرة الأخيرة بأن شراء الطاحونة بالشروط الحالية سيجعل ميراث ابنك مقتصراً على هذا العقار، لأنه حتى منزليك الآخرين في (جادة هاوسمان) سوف يُرهنان لأجل هذه الغاية."

نهضت وبدأت تمشي مرة أخرى جيئة وذهاباً، لكن هذه المرة تركت سيجارتها على الطاولة وعقدت ذراعيها فوق صدرها بطريقتها المميزة وكأنها تمنع نفسها من الارتعاش. قالت محاولة إقناع نفسها: "يمكن لعقار طاحونة (دي سورس) بسهولة أن يضاعف إيراداتي ثلاث مرات من خلال استخدام وسائلٍ زراعية حديثة، وسوف يستمتع ابني ذات يوم بالفوائد وسيكون سعيدا بشراء كهذا."

"لا، يا مدام، عليك أن تعرفي أن شراء الطاحونة بشروط (روشفورت) الوحشية يمكن رؤيتها في الوقت الحاضر فقط كإشباع لحظي لنزوة .... لا شيء يمكن تبريره أقل من إمكانية إعادة دمجها في يوم من الأيام مع حقول (غراندساي) ......"

قاطعته بحدّة: "هل تفترض للحظة أن في هذه "النزوة" كما أسميتها، أدنى حسابات من جهتي حول زواجي المستقبلي من الكونت؟"

أجاب كاتب العدل محنياً رأسه باحترام: "انطلاقاً من أكثر مشاعر الحب سمواً، سيكون منطقياً فقط إن كان الوضع على هذا النحو."

. قالت وقد أوشكت أن تنفجر بالبكاء: "إنه ليس كذلك!" سيطرت بعدها على نفسها وقالت بحزم: "لقد اتخذت المسؤولية على عاتقي سواء أكان هذا التصرف نوعاً من الجنون أم لا، يجب أن أمتلكها. مع شغف مثل شغفي ومحكومة بالتعاسة، إن لم أكمِل هذه "النزوة" فإن حياتي سوف تتحطم........... . سيتمكن ابني من مُسامحتي ذات يوم، سوف أتحمَل مسؤولية مستقبله. سيكون تفانيَّ وتضحيتي بلا حدود مقابل ذلك....." وتابعت بعد أن وضعت يدها على كتف غيراردييان: "لقد تحدثت للتو ضد مصلحة الكونت لتحمي مصلحة ابني الذي لا تعرفه حتى. أشكرك ...." قالت بعدها بمشقة ولكن بتأكيد، مُصلِحة القول الشهير (لباسكال): "هناك أسباب أيضاً للقلب الذي أسبابه غير مفهومة". غراندساي لا يحبني. لدي الدليل على هذا الآن من خلال اعترافه الشخصي. حسناً، سأكون من يمكن أن يحبّها ويبجّلها.

أراد غراندساي الغابة، وسأكون غابته، سأكون "السيدة". أنا لم أصبح ما أنا عليه من أجل أن أغويه، أنا أصبح ما أنا عليه من أجل أن أشعرِ بنفسي مُستحِقة، على مستوى لا مبالاته. ولأن كل شيء يرغب به يصبح قانوناً للعبادة بالنسبة لي، غراندساي الآن معجب بي! كان يستطيع أن يتزوج الآنسة (تشيديستر إيمن). سوف لن أكون أقل فخرا وأكون السيدة التي يريدها. ربما لن يختارني زوجته، عشيقته أو عبدته، لكنني سأكون السيدة المنقوشة على شعار النبالة......" أصبحت متحمسة. "نعم، أنا أحب الكونت. نعم، أنا أشتري الغابة لأنني أحب الكونت وهذا فقط كيٍ أكون قادرة على الشعور بنفسي أقل منزلة في النهاية، لكن على أرضه تحديداً، مزروعة في أرضه!" غرقت بالصمت للحظة وقالت بعدها: "دعني أقلْ لك هذا – لا بدَّ أنني مستحوذة بكبرياء شيطاني – أنا أعاني من الحب غير المتبادل نحو غراندساي، لكن احتقاره سوف يقتلني!" وانسحبت إلى مكان قريب من النار وقرفصت على سجادة بالقرب منها: "إن كان ضرورياً، سوف يُدفَنُ كبريائي في أرضه..........."

كان غيرارديان يستعدّ للرحيل، وبينما انحنى غمغم بصوت منخفض استطاعت بالكاد سماعه: "مدام، أعرف عن حياتك فقط ما يجب أن أعرفه، وما يسمح به احترامي لعواطفي العميقة."

قالت سولانج: "كل شيء بالنسبة لي حلو ولاذع."

في الصباح التالي تقرر بيع طاحونة (دي سورس) وتم تحديد الموعد بعد أسبوع من ذلك اليوم.

4/ ليلة الحب

في فـيلا بـاربرا سـتيفن الصـيفية المحاطـة بأشـجار الصـنوبر الراتنجيـة، أمضت فيرونيكا وبيتكا كامل "الفصل الأشقر" كما يسميه القدماء، بعلاقة صـداقة مثالية لا تُكسـر، متحـدتي الجسـد والأظـافر مـع طفلـهما. انـدمجت الصـديقتان بالإصبع الورديّ الواحد للقدر، تراقبان يوماً بيوم، الجسد الصغير ينمو مع رهافة أقمار تموز وأقمار آب الناضجة وأقمار أيلول القاسـية الناعمـة الكثيفـة مثـل ظفـر الإصبع. لأن "الخريف الخمري" – كذلك كمـا أسمـاه القـدماء – كـان قـد ظهـر ممؤها ريف (بوردو) بضوئه المعسول. يمكن رؤية بحّار عجوز من (بوردو)، أشعث الشعر مثل باخوس[1] الشـاب، يرفـع بذراعيـه بقايـا آخـر خيـام الاسـتحمام عـن الشواطئ الخاصة المحيطة، التي أصبحت مهجورة الآن، وهو مسرعٌ بعملـه قبـل أن تبدأ الاضطرابات الأولى للبحر بالاستيقاظ من نومها الطويل.

في نهاية الأسـبوعين الأولـين مـن أيلـول بـدأت بـاربرا سـتيفن وابنتهـا فيرونيكا رحلة العودة إلى باريس ترافقهما الآنسـة أنـدروز تـاركتين بيتكـا وابنهـا شهراً آخر في فيلا (أركشون) الخاصة بهما بحسب نصيحة الطبيب. كانت باربرا قد استعجلت عودتهـا بسـبب الإعـلان الرسمـي عـن حفلـة الكونـت غراندسـاي الراقصة، لقد تم تحديد الموعد أخيراً على الرغم من الحرب، بعد عشرة أيـام مـن اليوم. وبوصولهما إلى باريس، كانت فيرونيكا تتكلم بشكل قليل جداً مع أمها إلا عندما تحتاج المزيد من المال، والآن وبعد أن حصلت على دفتر شيكاتها الخـاص أصبحت بالكاد تتكلم معها، وقد قررت أن تترك فندق (ريتز) لتذهب وتعـيش في

---

[1] باخوس: إله الخمر في المثيولوجيا القديمة وهو مكافئ لديونيسوس الإغريقي. المترجم

ستوديو بيتكا في (كو ديس أورفيفر). استبقت فيرونيكا بتصرفها هذا رغبة أمها المغذّاة بسرية حيث لم تقم الأم سوى باحتجاج بسيط على "شذوذ" ابنتها، لأن نعمة هذا الترتيب قد حررتها من ألف تدبير احتياطي، لقد فتحت باب شقتها التي لم تمارسٍ بها حتى الآن سوى دور الآمر، لكرم مغازلاتها الجديدة التي ازدادت كثيراً في فترة الصيف الأخير. تعرف فيرونيكا كل ذلك لكنها أقنعت نفسها بأنها تعبد مناخ شقة بيتكا والأنابيب الساخنة والقهوة بالحليب الصباحية على البخار، المقدمة في أكواب من الخزف السميك المشقق الحواف، التي لها لون ونعومة شعر مدام موريل، مشرفة السكن، التي تُقدِّم طعام الإفطار والتي كانت نظيفة باعتدال، وأنها تحب خرخرة قطة صديقتها التي لم يكن لديها ميزة خاصة وهي تشبه بقية الخرخرات ...... وماذا أيضاً؟ حسناً، هناك شيء غير محدد، وقد بدا منطقياً بأنه عامل الجذب الرئيسي لأنه تمكّن من إبقاء ذهنها الهادئ جداً عادة بحالة من الإثارة المستمرّة.

بعد بضعة أيام، وكأن هواجسها الغامضة كانت توشك أن تتجسد، صادفت فيرونيكا على دَرَج المبنى شبحاً غريباً خلق لديها توعّكاً لا يوصف ولم تستطع التخلص منه لباقي يومها. كان مخلوقاً عجيباً، طويلاً ونحيفاً مثلها تماماً، رأسه ووجهه مغلّفان تماماً في خوذة جلدية بيضاء مشدودة ومفتوحة فقط على شكل حرف (7) صغير مفتوح من أجل العينين، وواحد آخر مستقيم وضيّق جداً في الأسفل من أجل الفم. كان للجلد المحيط بالشقين ثلاث طبقات معززة بمنطقة بارزة، بشكل يرى المرء تألّق العينين فقط وكأنه يظهر من خلف حافة قبّعة منخفضة، كان الفم المتواري في ظل الفتحة غير مرئي بالمطلق.

لا بدّ أن خلف هذا القناع اللامع مرضاً مخيفاً ما أو بتراً في أحد الأعضاء. ينزل هذا الرجل ذو الوجه المختبئ السلالم درجة درجة وهو يتألم ويطأ الأرض بلا ثبات، يساعد نفسه بذراعه المسكة بعنف بعكاز بينما يتكئ باليد الأخرى وبحذر على ذراع المدام مينارد دورينت التي ترتدي عباءة بلون

القشّ. وعندما وصلا إلى الساحة، ساعد سائق المدام مينارد المرتدي اللباس الأبيض الرسمي جداً، العاجز الغريب على الدخول إلى السيارة والجلوس بشكل مريح، بينما توقف الأطفال الذين يلعبون في الشارع لمراقبة هذا المشهد المؤلم صامتين بأفواه مفتوحة ودون أدنى حذر. بعد ساعة الغداء، بدأت فيرونيكا تنصت بشكل متواصل منتظرة عودتهما، لكنها لم تسمع صوت وصول السيارة حيث دخلا فسحة الدَرَج قبل أن تستطيع التجسس عليهما، رأت العاجز للحظة فقط عندما كان باب شقة مينارد يُغلَق.

لا بدّ أن القارئ الحاد الذهن دائماً سيكون قد خمّن سلفاً أن هذه الشخصية المذهلة، الرجل بالقناع الجلدي، لم يكن إلا بابا الذي تحطمت طائرته مؤخراً. كان قد خضع لعملية ثقب جمجمة شنيعة ودون تخدير في مكان وقوع الحادث. وحافظ ذلك على حياته، لكن معظم عظام جمجمته قد تفتتت وتركت وجهه مشوّهاً بالكامل. حالما سمعت مدام مينارد دورينت الخبر قامت بنقل بابا من إسبانيا بسيارة إسعاف وطلبت أفضل الاختصاصيين للعناية به. كان القرار جريئاً جداً لكنه كان الوسيلة الأخيرة لمحاولة تحسين رأسه المحطم من خلال الإبقاء عليه مضغوطاً بقوة لعدة أشهر داخل جبيرة عظمية من النوع الذي كان لا بدّ من ابتكارها لهذا الغرض. من هنا فصاعداً أصبحت حالة بابا الموضوع الرئيسي لمناقشات الاعتلالات العظمية للجراحين المختصين بتقويم العظام، وشهد صالون السيدة مينارد محادثات الاختصاصيين التي لا تنتهي حول تلك المشكلة المعروفة بشكل بسيط، والمحاطة أبداً بالغموض وتقلبات الرأي، إعادة توضّع العظام.

ما هو العظم؟ هذا ما كان جميع الاختصاصيين في العظام يتساءلون عنه دون أن يكونوا قادرين على الوصول إلى حلّ مرض مؤقتاً. كانت العظام عند بعضهم عبارة عن تصلب كئيب هزيل وغير مشوّق، مثل تلك الرواسب التي وُجِدت في الأنابيب المائية المتكلسة، واعتبر آخرون أن العظام من أكثر التجسيدات الوراثية لتصلب أجزاء مرنة امتلأت بالانتهازية والتخيلات. لقد

اخترع أحدث منظّري الاعتلال العظمي وسائل مفاجئة وضعوها في الخدمة، وقد سرّعت التئام العظام في بعض حالات الكسور غير القابلة للشفاء، كما طُلِبَ من كبار السن غير القادرين على أداء تمارين فيزيائية، إعادة عيش أسفار سابقة في ذاكرتهم كي تحثّ فيهم إجهاداً خيالياً يعمل على تقوية عظامهم. وهكذا فإن كانوا قد نجحوا في إعادة توضّع العظام للرجال الكبار في السن ببساطة من خلال جعلهم يباشرون برحلات وهمية، فهذا يُظهِر أن العظام لم تكن غبيّة في النهاية!

كان سولر الكاتالوني هو من تم استدعاؤه أخيراً ليُبدِع "الخوذة العظمية" الجديدة. كان موصى به للسيدة مينارد من خلال سولانج دي كليدا، لأنه وسط هذه النشاطات المتنوعة كان قد ابتكر خوذة جلدية صنعها بيديه ليستخدمها في قيادة سيارات السباق. عندما عرض عليه الاختصاصي الذي طلب صناعة الخوذة، صورة جمجمة بابا الشعاعية، صُدِمَ سولار وقال: "يا إلهي! تبدو وكأنها عظام قدم أكثر منها عظام رأس!"

لكن (سولار) الكاتالونَي مئة بالمئة والعفريت في المهارة، تمكّن تحت إشراف الاختصاصي الإيطالي بلانشيتي من صنع جهاز رائع جداً. وأصبحت خوذة بابا انتصاراً تقنياً وفنياً أيضاً. كانت مقسومة بشبكة من الخطوط الطولية المحددة بقطاعات قابلة للتعديل تدعم العظم الجبهي والقفوي، تماماً كباقي الأقسام الأخرى المماثلة باتصالها بخطوط عرضية تعبر من خلال الأربطة الجبهيّة ضاغطة على العظمين المنفصلين. على كل من هذه القطاعات حواف مزودة بثقوب، تمر عبرها أربطة جلدية مصبوغة كرِبطة الحذاء. لكن يمكن للمرء بفضل التعديلات المصنوعة من المعدن، أن يحدد عبر الشد أو الحل، الضغط المناسب على كل قطاع من قطاعات الجلد المركب بعناية بعضه ببعض، كما يمكن بالوقت نفسه تعديل جزء واحد مستقل أو الجزأين معاً.

ما كان يمكن أن يُسمّى الوجه المخيف الميتافيزيقي لهذه الخوذة كان تكيّفها الغريب مع الوجه. لدينا هنا إلى جانب العنصر المزعج الموجود في أقنعة من هذا النوع، تفصيل مرعب جداً لم يجعل الوجه مخيفاً جداً فقط،

بل جعله مثيراً للاشمئزاز للحد الأقصى. يتألف هذا التفصيل من فتحة ثلاثية في الجلد مكان الأنف الذي كان مغطى بغشاء ناعم من جلدٍ أبيض ممدد وملتصق بإحكام مع غطاء الخدّ على نحوٍ لا يمكن معه التوقع بأنه أنف. كان هذا الغشاء من جهة أخرى، مثقوباً بفتحتين دائريتين مرعبتين مطوّقتين بالنحاس لتسمحا بمرور الهواء، إذ يحافظ الغشاء على الرفرفة بشكل مستمر. تحثّ تلك الحركة الإيقاعية المشابهة لنبضات فظيعة لدى المُشاهد رعباً بيولوجياً لا يُقاوم، وهو مشابه تماماً للرعب الذي يحثّه ملامسة إصبع المرء للدرز القحفي غير الملتحم لرأسٍ هش لطفل حديث الولادة. لكن هذا لا يكمل مسوخيّة بابا، لأن الأكثر رعباً هو الثبات الغريب الذي أعطته الفتحة العينية على شكل حرف v العميقة قليلاً لنظرة بابا الغامضة والقاسية عادة، إذ أصبح من الصعب رؤيتها الآن في أعماق الظلال، ومع ذلك فقد كانت حادّة وملغّزة بشكل مضاعف وكانت مشابهة بجميع النواحي للنظرة المحترقة المتعصّبة لجندي الحروب الصليبية. لقد أصبح فمه المحظور بحزام عفّةٍ من الصمت متقداً وأصبحت عيناه المقنّعتان سهمين متألقين.

كتبت فيرونيكا لبيتكا: " ملاكي العزيز! ، سوف تتفاجئين بمعرفتك أن (37-كو ديس أورفيفر) بالإضافة إلى المميزة فيرونيكا، قد أصبح مؤجراً لشخصية غريبة ممثّلة بالصور المحتواة في المغلف. إنه طيار أصيب بجروح مرعبة في الوجه خلال الحرب الإسبانية، ويعيش بعد عام في المستشفى، كمحميّ من مستوى عال لدى المدام مينارد دورينت التي تراقبه مثل بؤبؤ عينها. ربما خرج للتو من أكثرّ روايات الرعب دموية وقسوة، لكن بالرغم من الخوف الذي يوحي به في البداية، فما إن تعتادي عليه حتى تعجزي عن منع نفسك من الإعجاب بنبل إيماءته الرقيقة، ويصبح القناع تعزيزا لجمال نظرته".

وضعت مع هذه الرسالة صوراً مقصوصة من المقالة التي ظهرت مؤخراً في مجلة (لو). يظهر بابا في هذه الصور التي التقطها (باجيه) ذاته، بصورة وجهية كاملة وصورة جانبية وأخرى خلفية. ترافقت الصور مع

عناوين فرعية مثيرة قُدِّمَ فيها بابا كبطل، كرجل من المريخ وكتجسيد لواحد من المعجزات قريبة الحدوث لتقويم العظام وجراحة التجميل بشكل عام، لكن الاختصاصي الذي أُجريت المقابلة معه، الدكتور بلانشيتي، قال إنه لن يكون في وجه بابا في النهايةَ أي تشوه سوى ندبات ناعمة غير واضحة.

عندما استلمت بيتكا رسالة فيرونيكا عانت آلاماً مروعة من الغيرة حرمتها من النوم لعدة ليال. هي تفهم الآن القلق الذي اجتاحها منذ رحيل فيرونيكا. بالرغم من معرفتها أن بابا كان في إسبانيا، فقد توقعت شيئاً كهذا، كانت تحبِ أن تكرر لنفسها أن "لا يحدث أبداً شيء من الممكن أن يحدث". حسناً، كانت مخطئة! لقد حدث بالفعل! لأنه في النهاية! لا شيء لا يمكن تصديقه. وأخبرها قلبها الآن أن ما من قناع ولا اشمئزاز سيمنع فيرونيكا من الوقوع في حب بابا! إشارة فيرونيكا البسيطة إلى عينيه، اشتعلت بداخلها مثل قطرة زيت مغلي سُكِبت على جرح غيرتها الذي أُعيد فتحه. لكن بيتكا لم تكتب شيئاً عن اللقاء الذي أعلنته فيرونيكا. كبتت مشاعرها وحملت طفلها بقوة إلى قلبها. الآن وعلى خلفية الخريف الجافة، تخيّلت القامة الطويلة لبابا مضمدة بالأبيض مثل الجسد المعذَّب للقديس أليعازر، بُعِثَ ليضع نفسه بالوسط ما بينها وبين سعادتها المختصرة. سواء من خلاله أو من خلال شخص آخر فسوف تُنتزع فيرونيكا منها يوماً ما عبر الشغف. راقبت بيتكا وهي تحتضن طفلها قطرات الراتنج المتدفق ببطء من شجرة صنوبر وقالت: "ينتمي الجميع إلى النسغ نفسه،" كانت تقول ذلك لطفلها كما لو أنه يستطيع أن يفهمها ومن ثم أمسكت يده وقبّلت الأصابع واحداً تلو الآخر.

لم يتوقف هطول المطر لثلاثة أيام. وصل غراندساي مبكراً بربع ساعة إلى موعده في (بورت دوفين) ووصلت سولانج متأخرة خمس دقائق.

"أنت ساحرة اليوم،" قال لها الكونت ذلك ممرراً يده بنعومة على الفراء.

ارتدت سولانج من رأسها حتى قدميها فراء الثعلب الأزرق، ليس المعطف فقط بل كان الحذاء والعمامة مغطيين بطبقة خفيفة من الفرو ذاته، وينضح كل شيء بقطرات الماء.

استهل الكونت الحديث بصوت هادئ فور جلوسه.

"شعرت لبعض الوقت بالتوق الشديد والخطير لاكتشاف عوالم محرّمة من التجربة...... أترين، فكرة أننا نوشك أن نقرر ماذا سنفعل بها............ بينما يجب أن أتحكم بصوتي لمتابعة الحديث معك....." توقف وكأنه يستعيد أنفاسه وتابع وهو يفعل ما بوسعه لكبح الانفعال في صوته: "قادني التفكير بهذا اللقاء إلى الجنون! هذا لا يُصدَّق، لكنني أرتجف كورقة شجر............ انظري!" أمسك بيد سولانج. كان يرتجف بالتأكيد، وكانت تصطك أسنانه بشكل غير محسوس.

"عزيزي،" قالت سولانج وهي تزداد شحوباً.

تابع حديثه بلطف واستبداد في آن معاً: "أنت شريكتي الآن، سوف تطيعين وتنفذين قوانين انحرافي بدقة كاملة".

أومأت سولانج بإشارة إيجابية قليلاً وحزينة.

تمتم وقد أصبح لطيفاً بالمطلق: "ستكون البداية مسألة صغيرة بالنسبة لك".

أومأت سولانج مرة أخرى إشارة مؤلمة وإيجابية قليلاً، محاولة أن تبتسم له بنعومة. كان غراندساي ولوقت طويل صامتاً، ليدعَم جيداً بهذا الصمت الامتثال الظاهري الذي وضعه أمام موافقة سولانج الثانية.

"لكن ماذا علي أن أفعل؟"

كتب بهدوء عنوان منزله في غابة (بولونيا) على ورقة من دفتر مواعيده ومررها لها بيد واثقة. بدت الآن يدها المرتدية القفازات هي التي ترتعش أثناء استلامها قصاصة الورق تلك، وكأنها تلقت صدمة ناعمة مستمرّة،

عصبية وكهربائية تقريباً. وبعدها أعطى توجيهاته باختصار وبعبارات قاطعة، موضحاً سير العملية من خلال المخططات التي رسمها على غطاء الطاولة، ومفصلاً طريقة تنفيذها............ تحت نظرة سولانج التي أصبحت وجنتاها جمرتين حمراوين بينما شعرت بأن شفتيها وجبينها كالجليد.

قال الكونت: "تلك هي البوابة الرئيسة إلى بستان الكستناء الصغير. ستكون مفتوحة. وهنا عليك أن تنزلي. لا يمكن للسيارات أن تدخل. البيت في نهاية الممر. ستقرعين الجرس وسيُفتح الباب لكنك لن تري أي شخص ولن يكون من أحد هناك ليريك الطريق. ستصعدين إلى الطابق الثاني، الباب الأول على اليسار في الممر، سيكون مخدعك. سيكون مضاءً. هناك ستتعرين."

سألت سولانج: "بالكامل؟"

"نعم، سوف تدخلين إلى غرفة نومي وتتمددين على السرير."

"كيف سأعرف أين غرفتك؟"

"إنها متصلة بمخدعك عبر الباب الوحيد إلى جانب الباب المطل على البهو،" أجاب مربتاً بقلمه الرصاصي على موقع غرفتها في مخطط الأرضية الشاحب الذي رسمه للتو، وتابع كلامه متحدثاً بسرعة أكبر: "سأكون في غرفتي بانتظارك، عندما تفتحين باب غرفتي سيصبح كل شيء مظلماً بشكل أتوماتيكي. ستبقين بلا حركة على سريري في الظلام حوالي خمس عشرة دقيقة. وعندما تشير الساعة إلى الثانية ستغادرين. خلال هذه الفترة يجب ألاّ يحدث أي شيء بيننا، لا لمسة ولا كلمة. وعلينا بعد ذلك ألاّ نعتبر أن لدينا الحق بإعطاء أدنى إشارة إلى هذا الحدث."

سألت سولانج بصوت طفولي قلق وكأنها تخشى إمكانية حدوث خطأ ما: "كيف سأصل إلى السرير في الظلام؟"

عندها قمع غراندساي بقسوةٍ ابتسامةً ربما تهدد بإضعاف مسيرة الانتصار الصاعد لاستبداده وأجابها بما أمكنه من جفاف: "توقعت ذلك.

سيكون سريري خلف الباب مباشرة. سيكون عليك خطوة واحدة للأمام للوصول إليه. سيكون هناك مصباح خفيف جداً موضوع في النهاية الأخرى من مخدعك وسيمكّنك نوره من إيجاد طريقك عندما تغادرين."

"يا إلهي!....... ومتى سيحدث هذا كله؟"

"الليلة."

"بأي وقت يجب أن آتي؟" سألت سولانج وهي تنهض وتسحب قفازها للخلف لتعرّي معصمها ليقبّله.

"تعالي في الواحدة والنصف." وبعدها وكأن الكونت لم يستطع أن يقاوم النزوة الأخيرة، طوّق ظهرها بيده للحظة وأضاف: "ستبهجني معرفتي بأني سأتشوق لقدومك إلى الموعد مرتدية الفرو نفسه الذي ترتدينه الآن."

خلف النافذة الضخمة المبقعة بالمطر، راقب الكونت اختفاء سولانج بمساعدة سائقها في سيارتها الرولز رويز. سحب بعدها سيجاراً نحيلاً جافاً من جيبه وعضّ نهايته بحيوية وقطعها ثم بصقها بالاستهتار السوقيّ نفسه الذي ربما يمارسه الريفيون في سهل (كرو دي ليبرو). أخرج من حقيبته المخملية مشرب السجائر الزجاجي المرصع بالألماس الذي نُقِشَ عليه ثلاثة من مخالب الصقر ومخالب ذهبية، وضع سيجاره به وأشعله النادل له.

أعادت سولانج، في المقعد الخلفي لسيارتها، عيش عواطفها القاتلة من موعدها المقتضب مع غراندساي. قالت في نفسها: "في النهاية، هو يفكر الآن فيَّ فقط، لم يتحدث عن الحرب ولا عن الحفلة الراقصة...."

في الساعة الواحدة والنصف تماماً عبرت سولانج دي كليدا بوابة من الحديد المطاوع تشكل حدود بستان الكستناء واجتازت نصف الطريق ورأت باب المدخل يُفتح. لا بدّ أن شخصاً كان ينتظرها كي لا تبقى تحت المطر ولا للحظة واحدة. لم تكن تريد ولا لأجل أي شيء في العالم انقطاع المطر. غلّف هذا الثبات للطقس الرمادي الكئيب كل شيء كانت قد عاشته

مـع الكونـت غراندسـاي لسـنوات ثـلاث أخـيرة في نـوع مـن اللاواقعيـة واللازمنية. شعرت أثناء صعودها السلّم أن قلبهـا في حنجرتهـا. قالـت في نفسـها: "أفضّـل المـوت علـى أن أتعثّـر!" لكـن بـدت قـدماها وكـأن لهمـا جناحين. فتحت الباب الأول إلى اليسار بحركة ثابتـة مـن المعصم ودفعتـه نحو مخدعها وأغلقته من جديد دون إصدار صوت. شعرت بالانبهـار وهـي محاطة بضوء حليبيٍ أبيض مختلط مع شذا مُسكِر وكثيف. كانـت الجـدران الأربعة لمخدعها مبطنة تماماً بالأزهار. هذا الديكور المُرتَجَل في هـذا الصـباح تحديـداً كـان مـن إنتـاج مصـمم الأزهـار المشـهور (غـريميرت)، مهنـدس الاحتفالات الرسمية لموسم "مدينة باريس". كانت الأزهـار قـد عُلّقـت علـى عرائش متناغمة مكوّنة مـن حبـال خضـراء وبيضـاء متقاطعـة قطريـاً تغطـي الجدران وتكاد لا تُرى تحت أوراقها. لكن في كـل تقـاطعٍ، تم تثبيـت عقـد صغير مصنوع من حبل ذهبي أعطـى المشـهد الكلـي بريقـاً كبريـق الشـمس. على الأرضية، كان البلاط مغطـى بسـجادة عاتمـة مـن الطحلـب السـميك، معطية المشهد الكلي وهماً بسـطح منـتظم مـن المخمـل. تـألق غطـاء الطاولـة بدوره بالأزهار ووضع في وسـطه تمامـاً جـوهرة متألقـة تمثـل رمانـة صـغيرة مفتوحة مكوّنـة مـن الـذهب واليـاقوت، تم تنفيـذها بدقـة حسـب الوصـف الـوارد في كتـابِ "حلـم بوليفيـل". يرافـق تلـك الجـوهرة صـفيحة محاطـة بحواف لؤلؤية كُتِبَ عليها باللآلئ أيضاً كلمة واحدة، "شكراً".

فتحت سولانج التي احتاجت لدقيقة واحدة فقط لتتعرى، باب غرفـة الكونـت وكـان كـل شـيء يغـط في ظلامٍ دامـس، تقـدمت خطـوةٍ واحـدة للأمـام واصطدمت ساقها بالسرير، انزلقت بخفة وليونـة روحانيـة تقريبـاً بـين المـلاءات الناعمة المشدودة، وتمددت بلا حركة محاولـة تهدئـة تنفسـها الـذي بـدا وكأنـه يخرج منها بصعوبة. ثبّتت وجهها المرفوع نحو السـقف وقاطعـت ذراعيهـا فـوق صدرها، لتهدئة الاضطراب في حواسها كلها، فرضـت علـى نفسـها بعنـاد فكـرة ثابتة تتعلق بساعة موتها، وأصبحت بالتالي قادرة على أن تدفع عنها خطوة إثر خطوة المتعة التي شعرت بها قريبة من عتبة جمودها.

يُسمَع في الخارج حفيف متواصل لأغصان تحتك بعضها ببعض بتأثير التنهّدات الفاغنرية[1] للرياح، وتسفع الأغصان المورقة المبللة بالمطر بشكل منتظم، الظلال المرسومة للنافذة، ويترافق هذا مع صوت حركة التفافية لقطعة قماش مبللة......... عندما أشارت الساعة إلى الثانية تماماً، نهضت سولانج خفيفة مثل ريشة لكنها كبتت اندفاعها في الحال، أسندت ركبتها على حافة السرير لثوان قليلة قبل إغلاق الباب خلفها، أضاءت النور في مخدعها المبطن بالزهور. حالما لبست فراءها أخذت الرمانة الذهبية والصفيحة الصغيرة ودسّتهما في جيبها. إنها تتحرك الآن بخفة كما لو أن الجنيات قد نفخنها بنفس واحد، وجدت نفسها مرة أخرى في غرفة نومها في شارع (بابيلون)، تبكي في سريرها.

حالما غادرت سولانج، أضاء الكونت غراندساي مصباح غرفته. ملاءات السرير التي كانت مدعوكة بشكل غير ملحوظ احتفظت بأثر بسيط من جسد سولانج. داهمه فجأة غيابها الذي لا علاج له وطارده، وأغرق رغبته في حالة من الحزن الشديد في قلبه الذي بدأت المشاعر المتناقضة فيه تهاجم بعضها بعضاً في معركة قاسية. الأمر الأول: أدان تحيّزه البرجوازي الذي صحا فجأة، سولانج على خضوعها له بسهولة، وعلى الفور، وخزت دفقة من احتقاره غشاء تقديره لتلك المرأة التي لم تكن قد مُسّت، والتي احتاجت فقط لحثّ بسيط لتظهر عارية في حضوره. لكن الألم كان مخضباً بالندم على تسرعه بحكمه غير العادل ربما، والمتبوع فورا بنوع من الحنان اللانهائي الذي وجد الخلاص من خلال الدموع. وحتى في ذلك الظلام الكليّ فقد شعر بعري سولانج كضحية ذليلة شهيدة!...

لكن ذلك الشعور بالشفقة لم يدم طويلاً بالرغم من حدته، كانت جميع أفكاره المترددة والفوضوية والقلقة تعطي المجال لشعور واحد أكثر وضوحاً بكثير، مخزٍ واستبدادي لا يُطاق – إنها الغيرة. نعم، كان

---

[1] إشارة إلى أوبرا فاغنر. المترجم.

مغتاظاً لشعوره بنفسه للمرة الأولى منذ أن عرف سولانج، يموت من الغيرة! ومجرد افتراض لا أساس له بأنها ربما كانت قد ارتبطت بشخص آخر بسهولة أكبر من الارتباط به، كان يرفع حرارة دمه. لذلك ظهر هذا الاحتمال الآن بالنسبة له واقعاً مُنجزاً لا مفرّ منه. تخيل سولانج فوراً، بعد مشهد "السحر" الذي مثّلاه، تسقط بإذعان بين ذراعي فيسكونت أنغرفيل، وجلبت تلك الرؤية العابرة ألماً قوياً إلى قلبه وأصبح ملزماً برفع يده نحوه. "أنا أصبح جياش العاطفة مثل طفل بعمر سنتين": قال لنفسه راثياً وضعه وهو يضغط على صدره بأصابعه المضمومة. "في الواقع تجري كل تلك الأمور معاً، مع تكرار عقدة عجزي الجنسي."

خط طريقه مشبعاً بتلك الأفكار إلى النهاية الأخرى من غرفته، وسكب في جو نصف معتم ملء ملعقة من دوائه الأخضر في كأس ورفعه نحو شفتيه، ثم بصق السائل فوراً إذ تهوّع بقرف وسعل بشكل عنيف. لم يكمل ابتلاع دوائه المرّ. أضاء النور بعدها: هل يمكن أن تكون الراهبة قد ارتكبت خطأ ما؟ لقد فعلت بالتأكيد، لأن الزجاجة الزرقاء كانت إلى اليسار في المكان الذي يجب أن تكون به الزجاجة الحمراء، وكان الكأسان مقلوبين أيضاً. اعتبر هذا التغيير بأماكن الأشياء فألاً سيئاً أيضاً، ورنّ بشراسة للراهبة.

لم يكن عليه أن يشرح لها لماذا أرسل بطلبها، إذ كان الكأس على الأرضية وفم الكونت المنحرف بقرف كافياً بالنسبة لها لتفهم. نظرت الراهبة بالتناوب ولوقت طويل إلى الزجاجتين اللتين كانتا دليلاً واضحاً على خطئها. لم تستطع في حالة ذعرها فعل شيء سوى تحريك رأسها بإشارة إلى الندم. أخيراً زالت تجاعيد جبينها لأنها انتزعت سبب ارتباكها من أعماق ذاكرتها. تذكرت الآن، وكانت تقول الحقيقية: في المرة الأخيرة التي كانت ترتب فيها زجاجتي دواء الكونت، كان ذلك في وقت متأخر من بعد الظهر عندما علمت أن الحرب قد أُعلِنت ...... كان على شيء كهذا أن يحدث ليعطي الكونت سبباً ليتذمر بخصوص الترتيب الذي تُحفَظ فيه أشياؤه الحميمة.

"حسناً، يا راهبتي الطيبة، يبدو أن الحرب تبدأ بطعم لانع بالنسبة لي!"

همّت الراهبة سلفاً باتجاه باب غرفته وما كان عليها إلا أن تمرر يدها فوق الملاءات لتمسدها فوق السرير، دخلت بعدها غرفة السيدة المزودة بالورد دون أي رغبة منها بالنظر، وبدا وجهها كما لو أنها لا تحتمل رائحة الأزهار.

"يا غراندساي المشوش:" تمتمت عائدة إلى فكرة ثابتة: "لا يحصل المرء على طفل من خلال الأزهار!"

رغم أنه كان يستعدّ للخروج فقد كان غاضباً وصار يتمشى في شقته بلا هدف، لا يستطيع أن يمحو من عقله الوجه الأنيق لأنغرفيل وذلك الشارب الغامض غير المحدد الذي يمكن استعارته بسهولة من الوجه الرياضي اللامبالي للورد معاصر في بلاط (سان جيمس) وكذلك من الوجه الخبيث بتحفظ لعضو سجلس في عهد (ريتشلو). حالياً، بدأت ابتسامة أنغرفيل البعيدة والشجاعة بشكل مهين تتخذ تعبيراً بغيضاً للغدر. أصبح أنغرفيل منافسه، وبإطلاق العنان لتخيّلاته، عذّب نفسه بافتراض نفسه متزوجاً منها بينما يستمر أنغرفيل كعاشق لها! كان كما لو أن أسود الحبّ قد أفلتت من عقالها في رأسه، واستطاعت الراهبة التي كانت تراقبه بطرف عينها بينما ترتّب الملابس في البهو، سماع زئير تلك الأسود في صمته. كانت ترتعب لرؤيته يوقف مسير خطواته للأمام والخلف ويخرج سلاحه من دُرْج مكتبه. يقوم بهذا بشكل اعتيادي في كل مرة يغادر فيها إلى بريطانيا، وكان ذاهباً في الواقع إلى لندن في اليوم التالي. ومع ذلك فإن هذا الإجراء في هذه الساعة يعني أنه لم يعد يعتزم العودة للنوم هنا هذه الليلة. وعلاوة على ذلك لم تحب طريقته المهووسة التي وضع بها السلاح في جيبه.

قال لنفسه بصوت عال بينما كان يلبس المعطف: "هذا الموعد هو كل ما كنت أحتاجه!" مشيراً بذلك إلى موعده في اسكتلندا والذي قبِلَه باليوم نفسه مستسلماً للمطالبة الملحّة الملتهبة للآنسة تشيدستر إيمز. زاد هذا الأمر من ارتباك مشاعره. لم يكن يأمل أية مصالحة من هذه الرحلة،

ومع ذلك فإن حقيقة العودة من جديد إلى صاحبته الأخيرة والأفضل بين عشيقاته، وعلى الفور بعد أول "ليلة حبّ" مع سولانج، والتي رغب بإحاطتها بالصمت لعدة أيام، أضافت إلى قلقه المتزايد خطأ جديدا من طرفه، إنه نوع من الخيانة لسولانج، كان كما لو أنه يخدعها سلفاً.

قال لنفسه وهو بحالة هذيان تقريباً، محولاً كل سخطه ضد شخص كائن واحد: "على أية حال، أنغرفيل شخص عديم الشرف!"

معذَباً بتلك الأفكار، ركب الكونت سيارة أجرة إلى مرتفعات (مونتمارت) إلى نادي (فلورنس) الليلي الذي تذهب إليه سولانج كل ليلة. لم تكن هناك. ذهب بعدها إلى (فندق مكسيم) حيث جلس إلى الطاولة التي يتمايل إليها العقل المتلألئ لبياتريس دي برانتيه. كم مَقَتها هذه الليلة — صرّ صوتها عليه مثل صوت عندليب! ولتزداد الأمور سوءاً تحدثا عن سولانج التي لم تظهر منذ يومين، وعن أنغرفيل الذي كان هنا منذ وقت.

قال الكونت بنفاد صبر: "أريد أن أراه قبل أن أغادر إلى لندن، متى خرج من هنا؟"

استشارا "المسؤول في الفندق". غادر أنغرفيل فندق (مكسيم) بسرعة كبيرة في الساعة الثانية والنصف تماماً. في تلك اللحظة قصّت بياتريس دي برانتيه حكاية رهيبة نسبتها إلى أمير أورميني. شاهد الأخير في شبابه إعدام الفوضوي (جيلارت) الذي حدث فجرا كما هي العادة......... بعد الانتهاء، حدث أن مرّ بالبيت الذي تعيش فيه عشيقته ولم يستطع كبح نفسه فاندفع إليها وأيقظها من نوم صباحي شهواني ليغرق بأكثر المعانقات العاطفية قوة. أراد أن يستفيد للحدّ الأقصى من حالته العصبية لإثارته برؤية رأس يتدحرج.

قال سينتونغ بسخرية: "إنه أمر طبيعي، الرجال يأتون ويذهبون."

أمضى الساعات الباقية حتى شروق الشمس جالساً خلف نافذة حانة تفتح طوال الليل حيث كان سائقو الشاحنات من (هالايس) يمضون

فيها استراحتهم. استطاع من نقطة المراقبة هذه أن يراقب بسهولة باب مدخل قصر أنغرفيل، وحقيقة أن سيارة الأخير كانت متوقفة أمام الباب تركت إشارة مؤكدة تقريباً لما تخيّله. كان يراقب سولانج لتخرج...... لكن ما إن بزغ النهار حتى شعر أن حالته تزداد بشاعة. شعر بنفسه فريسة للعار وتولدت لديه رغبة بالقتل. كان قد عزم على استفزاز أنغرفيل، ومن ثم بدأ لوم نفسه بشكل لاذع على خطئه الوحيد بأنه لم يتزوج سولانج منذ زمن طويل. كان من الممكن أن يعشقها أكثر من أية امرأة أخرى! فات الآوان الآن. في الساعة السابعة والنصف، لم يستطع الانتظار أكثر من ذلك، اجتاز الشارع إلى بيت أنغرفيل ورنّ جرس الباب. بدا الخادم الذي فتح الباب والذي كان قد نهض من سريره للتو، مرعوباً من ظهور الكونت الهائج.

"الأمر هام جداً، خذني إلى غرفة فيسكونت!" لكنه كان يعرف البيت ووجد طريقه ودخل الغرفة دون انتظار أن يُسمَحَ له بالدخول.

"ماذا يجري؟" سأل أنغرفيل مغلقاً الكتاب الذي كان يقرؤه وباحثاً عن السجائر على الطاولة المجاورة.

قال عائداً لطبيعته على الفور: "تبدو وكأنكِ كنت تنتظرني". لم يكن مستعداً لإمكانية أن يكون مخطئاً في شكوكه وكان يحاول الآن أن يكسب الوقت: "اسمع، يا عزيزي ديك، لم آت إلى هنا في هذه الساعة من الصباح لأجاملك، لكنك الشخص الوحيد الذي يمكنني الاعتماد عليه فعلاً."

أنغرفيل، بذراعيه الممدودتين على اللحاف المحشو بالريش ككلب سلوقي نحيل مستنزفاً من الحزن، لم يكن مهتماً بحديثه. وتابع غراندساي:

"ليس لدي الوقت لأشرح لك الآن. أنا مغادر إلى لندن خلال ساعة. ومن المحتمل جداً أن أحتاجك هناك، ولن يرتاح دماغي إن كنت سأغادر بدون تأكيدك بأنك ستلحق بي إن احتجتك بشكل طارئ."

"أفترض أن الأمر يتعلق بامتيازات التعدين في (ليبرو)، اتصل بي فقط وسوف ألحق بك."

"شكراً، على الأقل، لن أندم على إيقاظك. كنت تقرأ."

"نعم كنت أقرأ، أنا قلق جداً بخصوص حالة سولانج دي كليدا العصبية الغريبة. لم أرَ أبداً أي شخص ينتقل بشكل مفاجئ جداً من حالة عاطفية جداً إلى الجهة المعاكسة تماماً. لقد تركتها البارحة بوقت متأخر من بعد الظهر. كانت طليقة مثل حزمة من الألعاب النارية تحرق ملابسها الفرو. كنت قد وعدتها أن أتصل بها في الساعة الثانية والنصف صباحاً لنكمل حديثنا. وجدت صعوبة في سماع صوتها على الهاتف وأغلقت السماعة قبل أن أكمل حديثي معها..... لم تكن تشعر بالنعاس، وبدت كشخص واقع تحت تأثير سحر!"

"إنها تتناول (اللومينال) كي تنام،" قال هذا متأملاً أن يخف الغموض لديه بهذا التفسير الدوائي. "وماذا كنت تقرأ؟"

"إنها دراسة علمية لـ (جانيت) حول حالة (ريموند راسل العصبية — "من القلق إلى النشوة".

سأل غراندساي بشيء من السخرية: "حالة كليدالية؟"

"كليدالية،" أجاب وهو يزين بدقة التعبير الجديد بينما التقط كتابه من جديد، "إنه شيء حتى أكثر غموضاً وجمالاً من هذا."

ومدّ يده النحيلة الناتئة العظام ليد الكونت المتناسقة بشكل مميز وكثيرة العضلات.

كان هذا اللقاء "الأخير بالتأكيد" هذه المرة، بين الكونت والآنسة تشيدستر إيمز في قلعة الأخيرة في اسكتلندا، واحداً من أكثر التجارب اضطراباً في حياته. والآن وهو في طريق العودة، جالساً في مقصورته، مغلفاً بالضباب اليانسوني لدخان سجائره، راقب المنظر الطبيعي الهادئ للكثبان

التي يتجاوزها، مهنئاً نفسه على حكمته ومطرياً نفسه على نجاحه بعدم قتل الآنسة تشيدستر إيمز. استمتع بالحظ الجيد التي جاء من السماء لكونه لم يصبح مجرماً. بينما كان يفكر بهذا كله، تسكعت عيناه متأملاً غيمة عظيمة رصاصية اللون تشبه حدودها الخارجية الخطوط الرئيسة لتابوت حجري عتيق. وبعدها استغرق بتخيّلاته النزوية ونقش في وسط هذه الغيمة وبأحرف لاتينية، بشكل مناسب جداً وكأنه على ضريح علاقته الغرامية الأخيرة مع الآنسة تشيدستير إيمز، العبارة اللاتينية المقتبسة المشهورة:

"مقبرة الأجساد البائسة التي أُصيبَت بالجنون بسبب الحب."

في غموض النوم العابر، أصبح هذا الضريح نوفرة كالتي لأدونيس. كان القطار يعبر مياه النهر المتعرج. من الأفعى الذهبية إلى صنبور نوفرة أدونيس إلى تدفق جوهر الشباب، أصبحت الغيمة الهائلة البيضاء سرير زفاف سولانج دي كليدا. استلقت الآنسةِ تشيدستير إيمز ميتة عند أقدام أريكتهما، وتحوّلت إلى شكل حيواني مشكّل من خنزير بري دموي.

عزم الكونت بقوة على الزواج من سولانج دي كليدا فور عودته. بدا له على الأقل، أن سعادتها هي الهدف الوحيد لحياته وأن انشغالاته الأخيرة في حقل تغاويذ الحبِّ الغامض لم تكن سوى البقايا المؤلمة الأخيرة لتعلّقاته الطفولية التي كانت في ضوء شغفه الجديد الناشئ، تذبل وتتلاشى واحدة تلو الأخرى مثل خفافيش عزوبيته المعذّبة أمام شمس الزواج الشفافة. فهم الآن كم عانت سولانج بسبب حبها غير المتبادل، لكنه عزّى نفسه على ذلك بالقول لنفسه إن سعادتها ستكون الآن أعظم وغير متوقعة، وستعوّضها بالتالي عن كل عذاباتها السابقة. لكن بدلاً من أن يشعر بنفاد صبره، أراد لرحلته أن تستمر وتستمر وتدوم لأطول مدة ممكنة، بحيث يستطيع أن يثمل أكثر بالمشاعر المتصاعدة الهادئة التي شعر بها تدخل كينونته وروحه بعد الفوضى الرهيبة ومحنة العنف والإكراه التي غرقت روحه فيها. بشكل خطير في فترة الأسبوع الأخير، والتي كانت جديرة بالَفعل بالنشر في المجلة السنوية لعلم الشياطين.

كان هذا قبل أسبوع فقط من يوم الحفلة الراقصة التي كان قد نسيها وأهملها تماماً. كانت ظروف الحرب قد علّقت تلك القضية بذريعة المساعدات الوطنية، بدا له أن الطعم غير المشوّق للمساعدات الخيرية قد خفف من تألقها الاجتماعي الذي كان صارماً مُسبقاً. لكن الآن، بدت له حفلته الراقصة لامعة كدرع، وستساعد في الإعلان رسمياً عن خطبته من المدام سولانج دي كليدا. لم يكن أحدٌ قد أُبلِغَ بعودته إلى باريس سوى كاتب عدله الذي سيقابله في المحطة لمعرفة الأخبار التي عاد بها من لندن بخصوص امتيازات التعدين في (ليبرو). لكنه وبسبب استغراقه الكامل بعلاقته مع الآنسة تشيدستر إيمز، أهمل تماماً الحصول على المعلومات الأخيرة حول هذا الموضوع. لكن مع معرفته بتعلّق السيد غيرارديان بمدام دي كليدا، لم يستطع كبح نفسه عن الابتسام وهو يتخيّل إعلانه عن زواجه غير المتوقع والذي سيكون مرحّباً به من غيرارديان أكثر من أي خبرٍ آخر يأتي به.

وهكذا كانت المعنويات في أعلاها عندما نزل الكونت من القطار. بعد الاحتضان الحميمي ركب السيارة مع كاتب عدله واتجها نحو فندق (موريس) للتشاور.

"لدي خبر رائع أعلنه لك": قال غيرارديان متألقاً من الأعماق المعذبة لقلقه.

"ليس أكثر أهمية وسعادة من الخبر الذي لدي، لكن دعنا نترك هذا حتى نصل إلى الفندق."

عضّ غيرارديان على شفته السفلى.

لا يمكن وصف الحنق الذي أصابه لمعرفته من كاتب عدله أن سولانج دي كليدا قد اشترت عقار طاحونة (دي سورس)، وقد ظهر غضبه للخارج حتى دون أن يقوم بأية حركة.

قال بصوت جاف يخلو من أية عاطفة: "حسناً، بهذا العمل فقد خسرت مدام دي كليدا صداقتي واحترامي."

لكن مع بصيص الكراهية الذي ظهر في عينيه، رأى غيراردديان أن غراندساي الحقيقي الأصيل الذي اختفى منذ زمن، قد عاد من جديد إلى الواجهة، عاد غراندساي المنتقم، صاحب القرارات الحاسمة، بقلبه العديم الرحمة وقوة ابتدائية انبثقت من المخزن القديم للفخر الهائل. أصيب غيراردديان بالذعر، عرف سلفاً أن من العبث القيام بأية جهود تصالحية لكنه خاطر بأقصى حذر ممكن: "مع ذلك لا يمكننا إغفال حقيقة أن العدو السياسي الأكبر للكونت أصبح بلا قوة من خلال هذا البيع. لقد عاد سهل (ليبرو) إلى أيدٍ أمينة وصديقة."

"لم تعد مدام دي كليدا صديقتي أبداً"

كان يكتب خلال هذا الوقت ملاحظة بخط يده الأنيق الناعم والدقيق. أعطاها إلى غيراردديان في مغلف مفتوح وقال له: "لا بدّ أنك سترى موكلتك بسرعة، أرجو أن تسلّمها هذا."

· مكتوب بالرسالة:

"مدام:"

"عرفت للتو من كاتب عدلي بيير غيراردديان أمر شرائك عقار طاحونة (دي سورس). يجب أن أبلغك عدم موافقتي على دوافع الشراء. ثروتك جعلت هذا ممكناً، لكن قلب غراندساي لا يرتشي بتلك الوسائل. ولهذا ألتمس منك ألا تفترضيني بعد الآن من بين أصدقائك.

الكونت أرفه دي غراندساي."

عندما قرأت سولانج هذه الرسالة في حضور كاتب العدل، أصبحت شاحبة بشكل مخيف لدرجة جعلت غيراردديان ينهض من

مقعده ويتقدم نحوها ويمسك يدها ويضغطها بين يديه. بعدها مررت له ملاحظة ليوصلها للكونت، لكن غيرارديان احتجّ رافضاً معرفة محتوياتها فقالت له: "أفضّل أن تعرف كل شيء. إن الدوافع التي عزاها الكونت لي بعيدة كل البعد عن كل ما كنت أفكر به، إن خمس دقائق معه كافية لتبديد سوء التفاهم هذا. أنا أخوّلك بقول ذلك إن سأل أي سؤال عني. أما بالنسبة لي فتمنعني كرامتي في الوقت الحاضر من طلب مقابلة كهذه معه."

أسرع السيد غيرارديان الدؤوب أكثر من أي وقت مضى بزيارة غراندساي.

"أيها الكونت، المدام سولانج فُجِعَت بعمق برسالتك."

"هل تحادثت معك بخصوص محتواها؟"

"لا يا سيدي، أخبرتني فقط أن خطأ مرعباً ظهر بينكما، وأن خمس دقائق معك تكفي لتبديد سوء التفاهم هذا."

"لتحدد الموعد إذن، يمكنك أن تطلب منها تحديد أي موعد تريده."

بذهابه بقي غراندساي لوقت طويل عالقاً في التخمينات. "ما الذي يمكن أن تكون قد فكرت به لتحاول تبرئة نفسها؟ بالتأكيد ليست هناك من حجة مقبولة، ستحاول فقط اختراع حيلة عاطفية مؤقتة لتخفيف الحرج من عدم ظهورها في الحفلة الراقصة على الأقل.

"يا له من جهد كبير كجهد نملة!" فكّر بذلك وشدد بالوقت نفسه على إعجابه بما اعتبره غدر سولانج بابتسامة ازدراء......... أمضت عشر سنوات في السعي يوماً بيوم، بالوسائل الإنسانية منها وفوق الإنسانية نحو هدف واحد: لتتزوجه وتصبح الكونتيسة غراندساي. كان في البداية صراع هيبة وكبرياء ولكن عندما أدركت أنه لا زال أقوى بتلك الوسائل، اختارت أن تكون ضحيّة ضعيفة وتسلّم نفسها لعذاب الحبّ من طرف واحد، بحماس التضحية وسموّ الروح بشكل لا مثيل له. كل ذلك لدفعه نحو الشفقة. لكن بالوقت ذاته لم تهمل المجتمع، بل على العكس، تسلقت وتسلقت ونشطت بطموح شيطاني نحو هدف

إبهاره المفرد والوحيد. وهو، غراندساي الغرّ الساذج، والذي لم يكن أكثر مراوغة من فلاح بسيط في (ليبرو)، كان على مسافة إنشين من الوقوع في فخّها، كان لديه شفقة عليها. لقد نجحت بإبهاره والأسوأ أنها نجحت بإيقاعه بالحب، نجحت بسلبه نظره. والآن ومن أعماق كراهيته تستمرّ رغبته بها. ثم تابع قائلاً في نفسه: "لقد كانت لعبتها ممتازة وبدون أخطاء، لكنها لا تعرفني بشكل جيد بحيث أنها ارتكبت في اللحظة الأخيرة خطأ نفسياً قاسياً لا يمكن الصفح عنه، وذلك بإيمانها بأنها أطبقت تأثيرها الكامل عليّ عبر وجود مصالح مشتركة بيننا. حسناً، هي لن تتلقى حتى دعوة مني لحضور الحفلة الراقصة!"

عاد غيرارديان مرة أخرى لاهثاً وخجلاً بشكل طفوليّ من حماسته. لم يكن قادراً على مقاومة المجيء لإخباره بالموعد الذي حددته سولانج دي كليدا للقائه.

"حسناً، متى هو موعد الدقائق الخمس هذا؟" سأل غراندساي بنزق.

"بعد عشرة أيام من اليوم، في الساعة السادسة في بيتها في شارع (بابيلون)"

سجّل غراندساي الموعد على قطعة ورق وكان في حيرة وتردد، غير قادر على الفهم، "بعد عشرة أيام؟"

قال غيرارديان بفخر: "الأمر مفهوم تماماً، المدام دي كليدا تريد بدون شك أن تنتظر حتى تنتهي الحفلة......."

"بالتأكيد،" وبدون استئذان انسحب إلى غرفته متكدراً خارجاً عن طوره. ماذا؟ الكبرياء يبدأ من جديد؟ نعم، هذا ما في الأمر! لم تكن تريد حضور حفلته الراقصة!

وهكذا، وأخيراً، وخلف الأفيون الواقي لتاريس (خط ماجينو)[1]، أقيمت حفلة الكونت الراقصة.

---

[1] خط ماجينو: منطقة التحصينات الدفاعية الثقيلة التي أقامتها فرنسا على طول حدودها الشرقية في السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية والتي نجح الألمان بالالتفاف عليها والدخول إلى فرنسا عبر هولندا وبلجيكا. المترجم

أيام الانتظار العشرة تلك والتي علّقت عليها جميع آمالها في السعادة، كانت من أشدّ المحن التي يمكن لامرأة عاشقة بظروف سولانج أن تفرضها على نفسها. لقد منح هذا التأجيل التفسير المعاكس تماماً بالنسبة للكونت، لقد أجّلت اللقاء الذي رغبت به على الفور من أجل الدقّة، لم تكن ترغب بوجود عوامل أخرى تخلق أدنى سوء فهم في لقائهما غير تلك الخاصة بهما وبعلاقتهما الصحيحة. وبهذا فقد هبّت لإنقاذ الموقف من الأفكار الشيطانية التي لا تُخفِق في الظهور بروح الكونت، الميل الكبير لمحاكمة الدوافع في كلٍ تصرف من تصرفاتها على أنها تتجه نحو كل الأهداف والطموحات بدلاً من سببها الحقيقي البسيط الواضح المتعلق بحبها.

أية معجزات من الإرادة لديها لتستدعيها في كل ساعة من حياتها لجعل تلك الأيام العشرة التي تفصلها عن لقائها معه تسير بسرعة! سمحت لنفسها أقل من أي وقت مضى أن تظهر في هذه اللحظة الحاسمة أمام عيني الكونت في الضوء غير المناسب لجمالها ولنزاهة روحها. على العكس، ما بين الآن وما بعد، كانت أكثر صلابة مما كانت عليه أبداً، تفرض على نفسها عذاب تحولها إلى ذلك المخلوق الرائع المُخترع من خيالاتها المحترقة، التي رغب الكونت بالتواصل معها من خلال السحر! بعدها بدأ عذاب سولانج دي كليدا بدون هدنة أوٍ شفقة، عذاب انفصال روحها عن جسدها، وعذابات أحداها يجب ألا تنتهك إحداها وتذوي جمال الآخر الذي لم يُمس، بحيث تتمكن من الوصول إلى هدفه في الدقائق الخمس التي تكرم غراندساي بمنحها لها، لتنزل على ركبتيها مرة أخرى، كما كانت قد قالت مرة بشكل سام: "بينما تبقى معه على قدم المساواة"............. لكن كما كانت اختُبرت حالة عدم الخجل في قبول الإذلال بعرض عريها بدون تكريس للحب، فهي في هذا الوقت لن تركع على الأرض مرة أخرى، ستبقى راكعة على منصتها، تماماً كما تمددت دون إهانة نفسها على قبر أوهامها.

وكما هي الساعات في هذا العالم، تطول وتتكرر في ظروف ما، ما عدا في الموت الذي تكون ساعته جامدة تماماً، مرت الأيام المرعبة وجاءت لحظة الموعد في النهاية. كانت سولانج جميلة ومبجّلة كملكة، نقية في الجسد والروح. ماذا يمكن للمرء أن يحتقر فيها؟ لم يكن شغفها؟ أما كان الوضوح في نواياها كلها ليسقط نوايا الكونت المعذبة أيا كانت.؟ هي لم تحفظ عن ظهر قلب ما الذي ستقوله له لأن قلبها من كان سيتحدث إليه. لكن الأسوأ كان ينتظرها مع أنه ليس الأسوأ حتى الآن: جاء السيد غيرارديان حوالي الساعة السادسة لينقل اعتذار الكونت ويعلن أن الأخير لم يستطع المحافظة على موعده لتلقيه دعوة عاجلة للذهاب إلى إنكلترا. وحيث أن إقامته قد تطول لأشهر عدّة، فإن غيرارديان مسؤول عن إبلاغها حالما يعود إلى باريس. عدّة أشهر! عرفت ما يعني ذلك، تحملت كل ساعة من تلك الأيام العشرة كما لو أنها سنوات عشر. لكن طالما كان لديها مبرر واحد لأمل تعيش من أجله فسوف تستمر بالعيش بيأسها. بدأت بعدها حياة من المثابرة اليومية بشكل لا يرحم.

كانت تستيقظ كل صباح مع هذا العذاب الذي كانت قد تجاوزته بفضل (اللومينال) مُخدّرة بفقدان الذاكرة الذي يسببه الدواء، مكتشفة أن له الأثر الأكبر في الإحياء المفاجئ القاسي لذاكرة تعاستها. من هذه اللحظة وما بعد وبينما روحها المسكينة تعبر عتبة جحيم شغفها، سلّمت جسدها العاري الجميل للتدليك والهز والنقر والتربيت والعصر والحك والفتل للأيدي القاسية للمُدلّكين لديها. يأتي بعدها معاينة الطعام، مُراقب وكثير فيتامينات ولا طعم له، منظم وموزون بالموازين، وكانت بينما تمضغ بشكل أتوماتيكي بكل طاقة عضلاتها فكيها المتألمة، تفكر فقط بترك نفسها تموت من الجوع. بعدها العمل القسري لفترات راحة مضبوطة تُقاس بالثواني وساعتها في يدها، ثم جلسات طويلة في صالونات التجميل، في جوٍ يشبه جو مشرحة الجثث التي عاشت بها جميع دقائق مراسم دفنها واحداً تلو الآخر، من الإدراك الرهيب لإحساس الاختناق وضغط الكفن والنزول في القبر الذي كان يُقلّد بالحركات السلسة للأسرّة المصنوعة من النيكل بآلياتها الدقيقة، وبعد ذلك بقليل ظهور مرعب لأول قطرة من السوائل

والكريمات والمراهم وعصائر تفسخها التي بدأت تتدفق وسط روائح الأمونياك القوية، ومن ثم الجزء الأسوأ، البعث أو القيامة، الصعود الوحشي، دروس الرقص العديمة الرحمة حيث تُعاقب مع كل دورة بسقوط مذل، تتصلب رؤوس أصابعها مع كل حركة، ويتسمّر ذراعاها على صليب الإيقاع، ويتلى رأسها وجسدها على الصُلبان البهلوانية للقديس أندرو.

سولانج دي كليدا، ما الذي تفعلينه بجسدك؟ ما الذي تفعلينه بروحك؟

ليس هناك من شفقة على الأرض لأي منهما وهناك الكثير من الإطراء من المجتمع لكليهما! يدخل الرسامون والشعراء في حالة من النشوة أمام التعبير الملغَز لإيماءتك، يمدح مدرّس الباليه ليونة حركاتك الراقصة، ويمدح اختصاصي المكياج بشرتك النقية الخالية من أي بقعة. لكنني أراك على ركبتيك، سولانج دي كليدا في غرفتك، عندما تكونين وحدك ورأسك مرفوع إلى معبودك، تشبهين أولاء النساء الغامضات، مرغوب بهنّ وموتى، مرسومات على يد (غريكو)[1] ، أنت مثلهنّ، لديك عينان أصبحتا متألقتين بالاصفرار المستمر للدموع التي لا تنتهي، صلبة وشفافة مثل قوقعة النشوة نفسها.

في استشهاد شغفك، تجعلك كل إيماءة من إيماءاتك ترتعشين، تصبح كل حركة من حركاتك خنجراً حاداً في الفراغ الحساس لبئر عذاباتك ويبقى مسمّراً في قاعه. يجعلك هذا تسعلين وتتسع شقوق جراحك. بعدها تسعلين عمدا، تسعلين بكل ما تستطيعين لتتخلصي من السيوف العالقة في قلبك. تتنهدين أحياناً بشكل عميق لأنك تخشين أن تفقدي نفسك، وبعدها تتوقفين عن التنفس نهائياً لتوقفي الحياة. تنتفخ الأوردة في عنقك ويهتز رأسك، تتحول كل ثانية جديدة لتصبح انتصارا، لكن في النهاية لا تستطيعين منع نفسك من الوقوع مسعورة على البلاط اللامع القاسي، ينتفض صدرك بتشنجات تنفسك المهتاجة، ويتألم جانباك من الحزن!

---

[1] إل غريكو: كان رساماً ونحاتاً ومعمارياً في عصر النهضة في أسبانيا. عاش بين عامي (1541-1614).

عَرَضَتْ سولانج دي كليدا للطب النفسي، حالة جديدة بالتأكيد، لأنه حتى في أعلى الانحرافات المؤلمة لعقلها، أصبحت تشنجاتها الهيستيرية وسيلة لتجعل مراكزها العصبية أكثر طواعية ووظائفها البيولوجية أكثر تنظيماً بشكل عام. كانت تصبح أكثر ازدواجية يوماً بعد يوم بفضل سماتها الجسدية تحديداً، بدت تقارب المطلق لهذه الثنائية من الجسد والروح [1]، والذي يُعتبر مستحيلاً سريرياً.

وقفت فيرونيكا على رؤوس أصابعها لتسمع بشكل أفضل ..... كان في البداية مثل أنين ملحّ ورقيق من بعوضة. بعدها تضخّم الصوت وأصبح أكثر دقة، فأطفأت الغاز والنور. كانت في الواقع إشارة هجوم جوّي! وبالفرح المفاجئ الذي غمرها، أدركت فوراً ما هو الشيء الذي كان ينتظره لاوعيها ليلة بعد ليلة وبتوق سرّي لكي يحدث. وعلى الفور، ترددت أصوات المستأجرين في بئر السلّم كتدحرج حبات الجوز في صندوق فارغ. زأرت صفارات الإنذار بصوتها القوي جدا مما جعل النوافذ تهتزّ، كانت مستعدّة ومعها مواد حمامها أيضاً لأنها تنتظر ومنذ أشهر من أجل هذه اللحظة فقط. وقعت مع ذلك تحت تأثير المفاجأة، كانت ترتدي حذاءً لم تكن تحبّه. فتّشت بشكل عقيم ثم حملت قناعها الواقي من الغاز على كتفها ونزلت القبو والابتسامة على شفتيها.

بدا على جميع من في الأسفل التعبير نفسه الذي كان من المستحيل قمعه – بالرغم من التقلصات التي فرضها كل شخص على شفتيه ليبدو جدّياً إن

---

[1] هي القدرة على التحمل وحتى "الصحة" المرافقة لبعض تأثيرات خطيرة معينة في العقل في حالات محددة من العته. وهكذا تمكنت من تحليل بقايا الكليدالية لدى نابليون والعديد من الرجال الآخرين الفعّالين. حيث يبدو أن العقل يعمل ليس فقط بشكل مستقل عن بعض قوانين المتعضية بل بشكل متعارض معها حتى، وبهذا يكون استثناء للفكرة القديمة التي تقول إن الجسد مرآة الروح.

بدفعها لنفسها بشكل مستمر، بكل قوة ميولها الرُهابية، لمعارضة كل القوانين الطبيعية بشكل مستمر، وبينما كانت (سولانج دي كليدا) بانتظار عودة الكونت، كانت تتحول إلى مسخ بشكل تدريجي وغير قابل للإدراك.

لم يكن ليبدو رزيناً – أنه أكثر اطلاعاً على الظروف. بدا وكأن الوهم المختلط والمعاناة من هذا الإنذار الأول، أعادهم أطفالاً مرة أخرى. قيل في كثير من الأحيان إن القصف الحديث سوف يدمر كل شيء، وقد شعروا جميعاً تحت تهديد الخطر الخارجي، برغبة الإنسانِ المكثفة بحماية الرحم، ما إن نزلوا في أسفل عتمة الكهف الواقي الأمومي. غطّى بعضهم أقدام بعض ببطانيات وأحضروا وسائد وجلسوا على أكياس في وضعيات صعبة للانتظار. قامت مشرفة السكن بالواجب في القبو وقدّمت القهوة وفُتِحَت زجاجة من النبيذ ووُزِّعت علبة بسكويت قديمة على الحاضرين، وانصبّ الاهتمام على الراحة والسلامة.

وحدها فيرونيكا لم تجلس، ووقفت منتظرة، قليلة الكلام. لم تكن ترتدي إلا عباءتها الطويلة البيضاء ولم تلبس من مجوهراتها سوى صليب صغير من اللؤلؤ مع ثلاث ماسات ثُبِّتت مكان مسامير الصلب. يتدلى الصليب من سلسلة من البلاتين غيرِ مرئية تقريباً أمسكته بوضعية استرخاء، وكأنه في عشّ من لحم حريري تماماً في وسط التجويف الطري لعظم القص البارز جداً لديها. عندما دخلت مدام مينارد مع بابا المتكئ على ذراعها، ربما قارن الأخير قوام فيرونيكا النقي المحاط بسواد هذه الأقبية الباقية من أقبية القرن السابع عشر، براهبة خارقة أسطورية أكثر منها كائناً معاصراً.

وقفت فيرونيكا متكئة على الجدار الرطب المتقشر. خلعت فردة حذائها ووضعت قدمها العارية فوق الأخرى. نظر بابا مطولاً إلى تلك القدم المقوسة ذات البشرة الجافة والغمازات المخضبة بالأزرق، الخالية من أي ندبة لأقل احمرار يلامس أو يدنس أصابعها، والتي بدت وكأن كل مفصل لكل سلامية موضوع على الأرض كان واقعاً تحت نظرات رفائيل الموافقة وكأنه قد رسمها بنفسه، كان الإصبع الكبير مفصولاً بشكل واسع عن باقي الأصابع وكأنه يخضع لتأثير حزام صندل غير مرئي. نظر بابا، وربما يقول المرء إن وزن خوذته الجلدية حافظ على رأسه منحنياً للأمام، ملزماً إياه بالتالي لينظر إلى الأسفل، بدت روحه

مستغرقة بالكامل في التأمل. كان كما لو أن هـذا الكـائن المعتـاد علـى ثقـب الغيـوم مـزوّداً بخـوذة وقفـازات وأسـلحة آليـة صـغيرة ودروع، اكتشـف في النهاية الجمال الذي كان يبحث عنه بإلحاح في السماء، ببساطة قدم عارية تستقر على الأرض في أعماق قبو. بعد انغماسه العميـق، ومثـل غطـاس عـاد إلى السطح مجدداً، تبعت عينا بابا ببطء الحركة المتصاعدة لخوذتـه ماسـحاً الطول الكامل لجسـد فيرونيكـا العفيـف، لكنـه بالوصـول إلى عنقهـا بقيـت نظراته مجدداً مثبتـة وكأنهـا قـد صُلِبت بالألماسـات الـثلاث علـى صـليب اللؤلؤ. تحركت فيرونيكا بعدها معطية تألقاً جديـداً لوجههـا مـن أجـل أن تكسر ثبات هذه النظرة التي رغبت في النهاية أن تمتلكها بنظرتها.

مضـى الوقـت بسـرعة وكانـت بهجتهمـا مثـل لدغـة لامعـة لرغباتهما. سألا السماء متى سيكون لحنهما الرعوي الصامت التالي؟ لأن الوجه اللامبالي لفيرونيكا كان محكماً كما هي خوذة بابا، وحبهـا المؤكـد لم يعد يعرف أي خوف أو غرابة. تعرف الآن أنه ما من شيء تحت هذه الخـوذة يمكـن أن يعـدّل المسـار المسـتمر لمشـاعرها. إن رغبـت بتخيلـه لنفسها، عليها فقط أن تضع وجهها في مكان وجهه، لأنهـا كانـت هـو. وعرفـت وروحهـا الشـبيهة بـروح وسـيط روحـاني منـذ الآن مسـتقبلهما القريب: "ستفرقنا هذه الحرب ... لكنه سيعود بعد مرور سـنة، سـيكون في أمريكا، في الشتاء ..... سيكون لديه بعض الندب، لكن أياً منهـا لـن تشوّه عينيه. ربمـا سـوف يعـرج" كانـت قـد فكّـرت عنـدها بالوضـعيات المحنيّة لتماثيل قديمة يستقرّ وزن الجسد فيها على قدم واحدة.

بعد هذا النزول الأول إلى القبو، لم يعرف اللحن الرعوي المضـمر بـين فيرونيكا وبابا تعبيراً ظاهراً أكثر من مشاهد مشابهة أثناء إنـذارات أخـرى وفي بعض اللقاءات المتكـررة علـى الـدرج. بينمـا كانـت الأحـداث تتخـذ انعطافـاً سريعاً، عادت بيتكـا إلى بـاريس لكنهـا وبتحـريض الغريـزة، انتظـرت حتـى اللحظة الأخيرة. كـان واضـحاً لـدى وصـولها بـالرغم مـن اسـتحالة شـرح مـا

يتوقف عليه التغيير، أن الصداقة بينها وبين فيرونيكا قد بردت. تابعتا العيش معاً، لكن بيتكا رفضت النزول إلى القبو أثناء الإنذارات، ولم تتحدث أيٌّ منهما عن بابا. ترددت بيتكا خلسة تقريباً على مجموعة أصدقاء سيسيل غودرو، وبدأت شيئاً فشيئاً تتعاطى الأفيون مرة أخرى دون أن تكون فيرونيكا متصلبة جداً حيال ذلك، وقد جرحتها هذه اللامبالاة بعمق.

أمير أورميني بسماته التبشيرية المتعلّقة بإدمان المخدرات، كان قد قال عنها لسيسيل غودرو: "إن استطعنا أن نتدبر أمر منع فيرونيكا من أخذها إلى أمريكا فسوف تكون لنا خلال فترة الحرب. لكن علينا أن نجد دار رعاية لطفلها في مكان ما. سيكون هذا أسهل من تبرير وجوده". أصدر أورميني حكماً بأنه سيكون من السهل إفساد بيتكا. لقد كان مهتماً جداً بها لأنه كان يشتهيها بشكل مُبهم كعشيقة، لكنه لم يجرؤ على إغراقها بالهدايا بسبب الخوف من فيرونيكا. بدا في ذلك الوقت وكأن الشخصية العنيدة لفيرونيكا قد بدأت تَضعف ولم تقم بأي جهد لتتفحص علاقات بيتكا الخطيرة طالما أنها تُركَت في حلمها دون إزعاج. في تلك الفترة القلقة من الانتظار، كانت القواتَ الألمانية قد طوّقت (خط ماجينو) مكتشفة أن ما من عقبات تؤثر في طريقها، وبدأت تقدمها الصاعقي المنهجي وتلقى الرعايا الأمريكيون الأمر الرسمي من سفارتهم بمغادرة فرنسا.

في شقة باربرا ستيفن في فندق (ريتز)، كانت فيرونيكا تضرب والدتها. أولاً انتزعت الهاتف من يدها بالقوة، ثم هاجمتها به بضربة حادة على يدها مسببة تطاير القلم من بين أصابعها، ومن ثم رمتها على الأريكة وضربتها بركبتيها. بدا الآن وكأن الأدوار قد انقلبت، لأن فيرونيكا كانت تبكي وترتجف بغضب، بينما باربرا، خائفة من نوبة ابنتها العصبية التي لا سابقة لها، أخذتها إلى صدرها لتواسيها وتطلب السماح. المشهد العنيف الذي جرى كان تتويجاً للنقاشات التي لم تنته والتي وضعت الأم وابنتها إحداهما أمام الأخرى خلال ثلاثة أيام من

الحنق المتبادل. أرادت فيرونيكا مهما كلف الثمن أن تأخذ بيتكا وطفلها معهما إلى أمريكا. تريد باربرا ولا تريد بالوقت نفسه، مغيرة رأيها كل خمس عشرة دقيقة، في حالة من نزوة هيستيرية ارتفعت حدتها بسبب خطورة الوضع. أصرّت بشكل خاصٍ على أنه من المستحيل جعل وضع بيتكا قانونياً خلال وقت قصير كهذا. تعقبت فيرونيكا بمساعدة الآنسة أندروز، المسار الذي يبدو كالمتاهة للأعمال الروتينية التي تجعل رحيل بيتكا ممكناً، وأخيراً تحققت المعجزة وأصبحت الفيزا والوثائق الرسمية المطلوبة لمغادرة فرنسا ودخول الولايات المتحدة جاهزة على مكتب باربرا ستيفن.

في تلك اللحظة فقط وبعد صمت طويل مرتبك صرّحت باربرا بصلابة وعناد عن رفضها أخذ بيتكا معها. "أقصى ما يمكنني فعله أن أكتب شيكاً بمئة ألف فرنك لتجنيب نفسي أيٍ قلق،" ومن ثم التقطت القلم وأوشكت أن تملأ الشيك. لم تقل فيرونيكا شيئاً، لكنها اندفعت نحو أمها بعينين مشتعلتين. ما إن رأت اقتراب ابنتها حتى انفجرت بضحكة عصبية حادة. ومن ثم هزّت كتفيها متظاهرة بعدم الاهتمام بها، بدأت تكتب الشيك بصمت.

قالت فيرونيكا بصوت بارد: "أنا لن أخيّب أمل بيتكا بهذا الشكل، ونقودك لا تحل أي مشكلة،" وتابعت بصوت أبرد من الأول: "تعرفين تماماً أن الألمان لن ينسوا أنها كانت تنتمي للوكالة الدعائية النشيطة المناهضة للألمان."

ترددت باربرا قليلاً وأجابت: "أنت لا تتجرأين ببساطة على إخبارها بقراري. حسناً – سأخبرها بنفسي!" وأمسكت باربرا الهاتف وطلبت بيتكا التي كانت تنتظر في الأسفل لمدة ساعة لتعرف قرارها. وبهذه اللحظة وضعت فيرونيكا أصابعها الطويلة بشكل لطيف على اليد التي تمسك بها والدتها الهاتف، وارتعشت الأخيرة من الخوف من شحوب تلك الملاطفة. لكن تمالكت نفسها وضغطت سمّاعة الهاتف بقوة أكبر محاولة للحظة أن تصارع، لكن عبثاً. لجأت فيرونيكا إلى القوة واستخدمت الهاتف كمطرقة. وأقحمت مسمار إرادتها الحديدي في خشب تردد أمها. بعد الرائحة

العطرة لدموع فيرونيكا وباربرا، اتصلتا ببيتكا معاً بالمطرقة نفسها وطلبتا منها الصعود. تم الاستقرار في نهاية الأمر على أنها سوف تغادر معهما وسيكون الرحيل بعد ثلاث ساعات. قبّلت بيتكا والدموع في عينيها الأيادي الأربع لحاميتيها، اللتين قدمتا راحات أكفهما لها بترحيب مثل هيكل لسفينة بُنيت مؤخراً، والتي ستستطيع من خلالها أن تعبر المحيط في النهاية.

بكت بيتكا طويلاً من الفرح وقالت: "سوف أذهب لإحضار الطفل،"

"لا، أنا سأذهب لإحضاره،"

"سأذهب معك!"

"لا، ابقي أنت هنا،" أجابت فيرونيكا بشكل قاطع، مشيرة بإصبعها إلى الأريكة. "ستأتي الآنسة أندروز معي."

وكما توقّعت، رأت فيرونيكا شقة بيتكا وقد غزتها جموع الأصدقاء الذين تم تنبيههم من خلال الإشاعات حول احتمال رحيلها، أتوا راكضين ينتظرون عودتها ليثنوها عن مشروع الرحلة ووضع نهاية لهذا الخطأ غير القابل للعلاج، الخيانة الافتراضية التي ترتكبها برأيهم عبر ذهابها إلى أمريكا. كانت سيسيل غودرو هناك طبعاً، وكذلك سولر، الأمير أورميني، وشخصان آخران موسيقيان شاذان كانا في أوج إهانة أحدهما للآخر عندما دخلت فيرونيكا متبوعة بالآنسة أندروز بدلاً من بيتكا، وساد في الغرفة صمت جليدي. توقف صوت قرع الأقداح الحاوية على براندي من نوع نابليون والذي كانت قد قدّمته هدية لبيتكا وكان الحشد يشربه الآن.

ذهبت فيرونيكا للحظة إلى غرفة بيتكا ولم تجد شيئاً تأخذه معها سوى الطفل، أخذته بذراعيها وأعطته للآنسة أندروز. بحثت في الجوار عن قطة بيتكا لكنها لم تكن بمجال نظرها. قررت فيرونيكا أن ترحل وعبرت الغرفة المليئة بصمت بيتكا وعبوس الأصدقاء المشابه لبذور الهندباء الطافية على المياه السوداء الراكدة لمستنقع. نزلت الدرج بخطوات ظبي رشيق إلى

فسحة أمام منزل السيدة مينارد أوينت. توقفت هناك وطلبت من الآنسة أندروز أن تنتظرها لحظة، ورنّت جرس الباب. يمكن أن تُسمع من الطوابق العلوية الأصوات المشوشة لخلاف بين أصدقاء بيتكا، والتي اندلعت بحدة بعد أن تركتهم. كان لكلٍ واحدٍ منهم نوبة عصبية خاصة به، يمكن للمرء أن يسمع أحد الشاذين باكياً مطلقاً تنهيدات يخترقها التأنيب، بينما الآخر ينهق بإهانات مكتومة، ثم صوت تكسّرِ كأس، وفرض صوت سيسيل غودرو الصمت بخطبة عصماء (سوفوكليسية)[1]. شخص ما وربما يكون أورميني، أغلق الباب بتروٍ لمنع الفضيحة من أن تدوّي على السلالم.

فتحت الخادمة باب شقة مدام مينارد ودخلت فيرونيكا. تقدمت ربة المنزل ممسكة بيديها. يلمع على فستانها الدانتيل شعر القطة اللامع ويفضح حقيقة أنها استفاقت للتو من قيلولة. قالت لها فيرونيكا ناسية كل قواعد الاحتشام: "هلا تركتني على انفراد للحظة مع...." سحبت تلك الكلمة الأخيرة وتركتها معلقة ...... فتحت مدام مينارد وهي مندهشة، الباب المجاور لغرفة الاستقبال بدون أن تقرعه وبعد تأكدها من أن بابا لم يكن نائماً، دعت فيرونيكا في الحال مغلقة الباب خلفها وتركتهما وحدهما. كان بابا جالساً في كرسي له ذراعان وظهره باتجاهها لكنه رأى فيرونيكا تتقدم في المرآة المقابلة.

قالت فيرونيكا في نفسها: "بهذه الطريقة سوف أراه يصل في اليوم الذي يعود فيه." نهض بابا بصعوبة. كان متفاجئاً بقدوم شُقرتها غير المتوقعة، لكنه كان شاكراً لها أيضاً لأنه كان قد سمع أنها مغادرة، وعرف أنها جاءت بنفسها إلى هنا لتقول له وداعاً. ومن دون تردد أمسكت خوذة بابا بين يديها، وضغطتها إلى وجهها وثبتت شفاهها للحظة على الشق الفموي للقناع. بعدها بقيا وجهاً لوجه، ثابتين بدون حراك مطلقاً. كان منخفض الرأس وكأنه يشعر بالخجل لكونه غير قادر

---

[1] إشارة إلى سوفوكليس: أحد أعظم التراجيديين الإغريق القدماء عاش بين عامي 496 – 406 قبل الميلاد.

على الاستجابة لدفقها العاطفي، كانت أطول منه، جامدة ومشدودة بكل عضلاتها. بعد بضع لحظات من الترقب الذي لا يمكن الإبقاء عليه، رفعت ذراعيها الطويلتين بفظاظة وعقدتهما تحت ذقنها بوقفة مميزة (لفرس النبي) وانتزعت بقبضتها الباردة الصليب الحاوي على اللؤلؤ والألماس من عنقها وأعطته له دون أن يتحرك. ومن ثم غادرت.

عندما خرجت، كانت الآنسة أندروز ومشرفة السكن قد نفد صبرهما. "إن لم تلحق فيرونيكا القطار سيكون الوقت قد فات وربما لا نستطيع السفر غداً." تنهدتا براحة لدى رؤيتها تظهر. في هذه اللحظة سُمِع انفجار من الضحك الصاخب من أعلى الدرج، وظهر أحد الشاذين الموسيقيين للحظة مرتدياً عاكس ضوء صغيراً متوازناً على رأسه مربوطاً بمنديل بيتكا الحريري ومن ثم اختفى خجلاً. لم تنتبه فيرونيكا جيداً لشبحه الرائع لأنها كانت مستغرقة جداً بأفكارها وخاضعة لانفعال شديد من الارتياح بسبب المشهد الذي رأته في غرفة بابا. لقد تركته دون أن تقول وداعاً لمشرفة السكن والتي أعطتها الآنسة أندروز مبلغ خمسمئة فرنك، وراقبتها وهي تنصرف بحالة من الذهول، صارخة وهي تفرك الورقة النقدية بيدها:

"هذا ليس مهماً بالنسبة إلى قلبك، فهذا ليس وطنك."

أدارت فيرونيكا وجهها نحو أمريكا، لكن خلافاً لزوجة لوط لم تنظر للخلف، لأنها امتلكت سلفاً بطبيعتها العذرية الاستقامة البيولوجية لبلد قوي لم يُمس، كانت تُسافر الآن إليه وكان وطنها.

في الحادي عشر من حزيران، بعد غياب عدة أشهر وفي صباح وصوله من لندن، كان الكونت غراندساي يستيقظ على يد الخادم غريمارد في شقته في فندق (موريس). أعلن غريمارد أن الأمير أورميني ينتظر في غرفة الاستقبال ويرغب برؤيته.

"دعه يدخل" قال غراندساي ذلك رافعاً نفسه ومعدلاً ظهره على الوسائد، وحالما فتح الخادم الباب وجد نفسه مواجهاً الأسنان الصفراء للأمير بابتسامته الحصانيّة نوعاً ما، يرتدي بشكل لا تشوبه شائبة ملابس ركوب الخيل والسوط في يده.

قال أورميني بعد أن طوى اللحاف وجلس على حافة سرير الكونت: "أمضيت للتو أحلك ليلة بيضاء في حياتي، من شقة (أولغا) بشارع (ريفولي) التي تشبه المقصورة الرائعة المطلة على ساحة الكونكورد، شاهدت عرض دخول القوات."

قال غراندساي وهو يحاول أخذ السوط من يدي أورميني: "تخيل شخصاً متحفظاً مثل غريمارد، هذا الإنسان الساحر الذي لم ينطق بكلمة عن أن الألمان أصبحوا هنا عندما أيقظني!".

"حسناً أيها العجوز، لقد رأيت وصول أول جنود هتلر، جندي متوسط الطول وخفيف البنية نوعاً ما. كان ذلك في الرابعة والنصف صباحاً، كانت ساحة الكونكورد في ذلك الوقت خالية بالكامل، لم أرَ حتى أية قطة. فجأة بدأ قط رمادي باجتياز الساحة قلقاً وزاحفاً تقريباً، وينظر بين الحين والآخر نحو شارع (رويال). وفجأة انطلق عدواً. بعدها ظهر سائق دراجة نارية وقام بدورة واسعة سريعة خفيفة، ثم توقف في الوسط، وبعدها ترجّل، أوقف دراجته النارية وسحب زوجاً من الأعلام التي كان يحملها في جيبه. رفع ذراعيه كما لو أنها مهنته اليومية، وبدأ يحرك يديه مثل قائد أوركسترا، أعطى أمر الدخول وبدأ تنظيم المرور.

وصل الحرس الأمامي لقطاعات الآليات النازية بقوة وبدون توقف، الدبابات إلى اليمين، العربات إلى اليسار.... يا صديقي العزيز، كان مشابهاً لملء حوض الاستحمام، إنهم يتحركون حتى هذه اللحظة، بالرتابة نفسها — أتعرف، كان ذلك مضحكاً". وتابع الأمير محاولاً أن يضرب بسوطه ذبابة كانت في الغرفة وكانت مستمرة بالعودة بشكلٍ ملحّ إلى البقعة ذاتها على اللحاف المحشو بزغب الطيور: "كان مضحكاً رؤية ذلك الشاب الهزيل، المعادي لأنه كان حقاً من العدو، وحيداً في وسط الساحة العظيمة في قلب

باريس، ضمن مرمى النيران من أي نافذة محيطة ..... لا يمكن أن أكون الشخص الوحيد الذي يراقب ويفكر بهذا.... أوه يا عزيزي غراندساي، عندما ترى هذا" قال أورميني ذلك بتنهيدة طويلة محبطة.

"يا له من لون بشع يصبغ تلك الدبابات والآليات كلها: جيشٍ من الأخضر الرمادي القذر القاتم جداً، كيميائي جداً. إنه لا يتماشى أبداً مع اللون اللؤلؤي الرمادي، لون الظل المتأرجح، لون روث طائر السنونو الخاص بباريس". وبينما كان يتحدث بدا وكأن الأمونيا الواخزة التي ينضح بها "الروث" حتى في الذكريات، لها تأثير في جلب الدموع إلى عينيه.

قال غراندساي وهو ينهض ويرتدي ثوب الاستحمام: "هؤلاء الألمان أوغاد، ليس لديهم أية لباقة". عاد بعدها وجلس على سريره الذي نهض عنه أورميني ليستلقي على الأريكة قرب النافذة. "هم يبجلوننا في القلب، وإلا فلماذا يعانون مشاكل القدوم كل تلك المسافة محملين بالمدافع والكثير من الإرادة الطيبة؟ ألا تجعلك هذه الأمور تشعر بأنها انتحار؟"

"لا تمزح بهذا الأمر، نحن من يتكلم دائماً عن الانتحار وننتهي بتنفيذه. وقد أصبت في واقع الأمر، صدّق أو لا تصدّق. شعرت في هذا الصباح برغبة بالانتحار، لكن لم يكن يأساً، لأنه بالرغم من كل شيء لا أستطيع أن أصبح متشائماً حول الوضع ...... لكن الأمر سيحتاج إلى وقت............ هذه المرة كان الخمول، الخمول بسبب الاضطرار للهروب من مصادفة آلاف الصعوبات، وباختصار، خمول لا يُقهر في وجه كل شيء. عندما نظرت إلى المرآة لأحلق ذقني، بدت هذه العملية التي أقوم بها برزانة يومياً، مملة بشكل لا يُحتمل، ومن المستحيل بالنسبة لي إتمامها مرة أخرى، أقسم لك أني ترددت للحظة ما بين الحلاقة وقطع عنقي."

"عندئذ قررت أن تطلق لحيتك."

أجاب وهو يحف بانغماس ذقنه التي كانت خشنة سلفاً: "صحيح تماماً، هذا هو الشيء الأول الذي عليك القيام به إن قررت المواصلة. يمكنك أن ترتجل أي شيءٍ في جواز سفرك، لكن اللحية الحقيقية تحتاج وقتاً لكي تنمو..... حالياً توازنها الملابس الخاصة بالبولو التي تضمن أن أتجول اليوم في باريس. خيولي بحاجة لي، وإلا ستحتاجها القوات الألمانية. أنا ذاهب إلى أفريقيا غداً. متى ستأتي؟ ممتلكاتي قرب الدار البيضاء تحت تصرفك دائماً. يرسو يختي في الخارج وحسب. إن كنت تخشى التورط في تجارة الأفيون فما عليك إلا الإقامة في مقصورتك على المركب ويمكنك اعتبار نفسك في بيتك. سيسيل غودرو راحلة معي..... لا تنسَ بأن أفريقيا سوف تقرر كل شيء!"

"تقرر!" غضب غراندساي ونجح هذه المرة بالاستيلاء على السوط وليّه إلى اثنين.

"ما المشكلة؟" سأل أورميني، فخوراً بالجلبة إذ نجح في النهاية بإخراج الكونت من لا مبالاته الظاهرية. "بشكل طبيعي لم يتم إقرار شيء،" وتابع أورميني بنبرة نفاد صبر: "عام 1918 أوقف الماريشال (بيتان)[1] تقدم الألمان على (سومي)[2]، والآن سوف يوقفهم في باريس!"

قال غراندساي معيداً إليه السوط المكسور إلى قسمين: "توقف عن المزاح أرجوك!"

ترك أورميني السوط على رف المدفأة الرخامي منتزعاً مشبك اللؤلؤ من ربطة عنقه محاولاً إعادة تثبيته في الوسط من جديد. أخذ

---

[1] هنري فيليب بيتان: قائد عسكري فرنسي وسياسي اعتبره الفرنسيون بطلاً قومياً في الحرب العالمية الأولى لانتصاره على الألمان في معركة فردان في ١٩١٦ وبعد ٢٥ عاماً صار محط جدل واسع بعد قبوله منصب الرئاسة في القسم غير المحتل من فرنسا بدعم ألماني. المترجم.

[2] سومي: نهر في شمال فرنسا ويصب في القناة الإنكليزية. كانت المنطقة حوله مسرحاً لصراع قوي في الحرب العالمية الأولى. المترجم.

غراندساي الأمير بذراعه بالرغم من أنه كان حذراً من ألا يشتت انتباهه، بينما كان منغمساً في عمليته، وانتظر بينما كان يراقب أداءه في المرآة. عندما استقر المشبك في مكانه قال غراندساي: "صحيح أن لدينا أسطولاً وقوات استعمارية، (ويغاند)[1]، (نيغوي)..... ما الذي سيفعله (دارلان)[2]؟

"إنه انتهازي، لكنّ لديه دوراً يقوم به............."

واختتم غراندساي بصوت منخفض: "ونحن أيضاً."

كان غراندساي قد توجّه نحو البوابة الخارجية وكان مترقباً نظرات أورمني الحازمة وراء غشاء من المشاعر. قبل المغادرة، قبّل الصديقان أحدهما الآخر على خديه بقوة غير متوقعة ضاغطاً أحدهما أظافره بكتف الآخر في مصافحة وجيزة بعد أن اتفقا على اللقاء في أفريقيا.

في الليلة نفسها التي كانت الأولى من احتلال الألمان لباريس، كان لغراندساي موعد مع سولانج دِي كليدا في السادسة والنصف في بيتها في شارع (بابيلون). وكما هي الساعات في هذا العالم، تطول وتتكرر في ظروف ما، ما عدا في الموت الذي تكون ساعته جامدة تماماً، كانت سولانج مرة أخرى مستعدة لزيارة غراندساي تلك والتي كانت تنتظرها منذ بداية الحرب، منذ سنة تقريباً!

من خلال تلك الأحاسيس التي لم يكن قلبها قد تجاوزها، ما بين الإفراط في التمرّد وتوسّل الحنان! في الشروط الهشّة التي كانت لعاشقين، كيف أمكن أن لا تنكسر بيضة روحها الكريمة بعد؟ إن كانت الإغاثة الأسرع قد تأخرت بالنسبة للشخص الذي يحتاجها، فأي أبديّة قد بدت أمام ذلك

---

[1] ماكسيم يغان: كان قائد الجيش الفرنسي في الحرب العالمية الأولى والثانية. قاتل ضد الألمان أثناء غزو فرنسا في عام 1940 لكنه استسلم وتعاون مع الألمان كجزء من حكومة فيشي.

[2] جان لويس دارلان: إميرال فرنسي وشخصية سياسية. كان قائد الأسطول والقائد العام للقوات البحرية الفرنسية في عام 1939. المترجم.

الذي كانت تنتظره سولانج أن يتجسد! كل ما أرادته هو أن تتلقى حباً بالمثل. كانت مستعدة لتطلب الصفح من كل قلبها، دون مزيد من الاستدعاء لكبريائها المتعجرف ليدافع عنها، خاضعة للطغيان ويُستخفّ بها بكل السبل؟ يمكن أن تُظلَم وتُهان، نعم! شريطة ألا يجدها غراندساي جاحدة لكل المزايا التي تحصل عليها بمجرد احترامه. المغفلة المسكينة سولانج، لم تحمل أية أحقاد ضد مُستبدّها إلا ذلك الذي كان خارجاً عن إرادتها — الوقت المبالغ في طوله والذي كان عليها الانتظار لمقابلته في ظروف خاطئة، وهي أن الحرب قد فَرضَت. سولانج وفي عمق عرفانها بالجميل ذهبت أبعد من ذلك لتشكر القدر مَرة أخرى على تعذيبه إلى هذا الحد من عذاب انتظارها الذي لا ينتهي، لا شيء يكون متأخراً جداً في اللحظة التي يحدث فيها، والآن على الأقل فإن حظوظهما في المصالحة كانت مؤكدة بتنازلها الكامل عن كل بقايا الكرامة والكبرياء التي كانت لا زالت تحركها أثناء اجتماعهما الأخير المحبط والذي ربما كان يقلل فرصها في النجاح. حالياً ستعرف كيف تُسكِت احتجاجات تقديرها الإنساني لذاتها وتدوسها بحذاءيها! ليس هناك المزيدِ من السويات ولا المزيد من الدفاع — المرأة التي تمنح نفسها، أكثر جمالاً من قبل، أكثر نقاءً في نواياها! بأية بلاغة ستكون قادرة الآن لتطلب الرحمة منه، أي تبذيرٍ في أسفها الصادق المتعاقب سوف يعزز كلاً من مقاطع كلماتها اللفظية، مهدئاً حتى الحلاوة، آخر شكوك حقد غراندساي. لقد راكمت الكثير من الشغف والحنان لهذه اللحظة بالتحديد.....

عندما رن جرس الباب الرئيسي لم تستطع سولانج أن تكبح توقها. اندفعت إلى المدخل ووقفت هناك، أمسكت بيديها الكرة الكريستالية التي تزين أعلى الدرابزين المصنوع من خشب الأبانوس. استمعت بتلهف إلى وقع خطواته بينما بدأ يصعد الدرج بمشيته المتأرجحة، التي لها الإيقاع المنتظم لنواس أعرج. سيحتاج الأمر منه لدقيقة أو دقيقتين على الأقل ليصل إلى الطابق الثاني، قبل أن يظهر قوامه أمام ذلك الالتفاف الأخير للجدار في الرخام الزائف اللامع المخضر

والذي أبقت عينيها مثبتة على الحركـة المتموجـة عليـه. واقفـة هكـذا في الضوء الكهربائي الخافت الذي ينثر ضياءه على تلك البقعة، تشبه هيئته المتوقعة هيئة (الكمير)[1]، وجه (المادونا) السماوي معلّق بجسد أبي الهول الغامض نصف الحيواني والمنحني بالكامل.

ظهـر مرتـدياً اللبـاس الرسمـي لقائـد الفرسـان. وكأنـه لم يلحـظ حضورها، تابع صعوده بالسرعة نفسها حتى وصل إلى الدرجـة مـا قبـل الأخـيرة من مكان وقوفها وعندها توقف. سيطرت على حافز الذهاب نحوه برؤيته يـرفض أية إيماءة طيبة، انسحبت للخلف مقلصة حجمها وكأنها سطحت نفسـها خلـف الجدار قرب الباب، وكأنها تدعوه ليدخل قبلها إلى شقتها.

قال دون حركة وكأنه التصق بمكانه: "مدام، أخبرني كاتـب عدلي بيير غيراردیان ادعاءك بأنٍ لقاءً معـي لخمـس دقـائق هـو كـل مـا تحتاجينه لتوضيح سوء تفاهمنا المُفترض. أنـا هنـا لأثبـت العكـس. لـيس بإمكانك إيجاد كلمة واحدة لتبرري لنفسك.... لقد حاولت إجباري علـى الزواج منك،" وبعدها أضاف بهدوء: "غداً مساءً أنا مغادر إلى أفريقيا."

ارتعشت شفتا سولانج عدة مرات كما لو أنهـا أوشـكت علـى أن تتكلم، لكنها بقيت صامتة، في حين أنها عبّرت من خلال اهتزاز لطيـف مـن رأسها عمّا لا يمكن لكلمة أن تفعل، عبّرت عن كـل الظلـم والنكبـات المسـببة لتعاستها. لو أنه رأى التعبير في هذه اللحظة...... لكنـه لم يعـد ينظـر إليهـا بعد ذلـك. وقعـت عينـاه بالصـدفة علـى الرسم المطبـوع لظلّـه معروضاً علـى الجدار المقابل وكان منتظراً فقط أن تمضي الـدقائق الخمـس. جميـع الحجـج، جميع التوسلات، جميع الكلمات الحماسية التي كانـت سـولانج قـد كررتهـا لنفسها يوماً بعد يوم، كانت تحلّق هناك علـى شـفتيها لكنهـا لم تقـل شـيئاً.

---

[1] الكمير: في الميثولوجيا الإغريقيّة، كائن خرافي أنثوي، ينفث النار وله رأس أسد وجسم ماعز وذيل أفعى. المترجم.

ما هي الفائدة؟ أدار ظهره وبدأ نزول الدرج. وفي هذه اللحظة اتخذت خطوة نحوه...... وتوقف هو للحظة. كانت ممسكة بالدرابزين وتنتظر المستحيل، استطاعت بصعوبة أن تحافظ على نفسها منتصبة.

"اعتنِ بنفسك جيداً!" كان هذا كل ما قالته.

عندما رحل، بقيت لوقت طويل في الموقع ذاته، عيناها مثبتتان على الجدار الرخامي الأخضر فوق ذلك الالتفاف الأخير من الدرج أمام المكان الذي كان يعبره قبل أن يختفي عن النظر. بدا وجه سولانج دي كليدا وكأنه أصبح هادئاً، لكن في هذه اللحظة إن كان لدى شخص ما فضولٌ ليقترب منها وينظر بين جفنيها نصف المغلقين، فلربما سوف يرعبه رؤية أنها كانت بلا نظرة، وأنه في الشقّ بين جفنيها وبدلاً من بؤبؤين ثابتين كان هناك البياض وحسب. بياض العينين المصقولتين كأعين التماثيل العمياء التي ترغب مخيّلة سلفادور دالي بتخليدهما في نهاية هذا الفصل بنقش كلمة "نيهيل" اللاتينية والتي تعني "اللاشيء".


Twitter: @ketab_n

5/ الحرب والتجلي

عندما وصلت سيسيل غودرو إلى فيلا أورميني قرب الدار البيضاء تأملت في الواجهة المربعة الكلسية الهائلة لها وقالت: "لا يعرف المرء إن كان ضوء القمر يتلقى ضياءه من المنزل أم أن المنزل يتلقى ضياءه من القمر، إن رائحة الياسمين لطيفة جداً هنا!" في تلك الليالي الشذيّة المقمرة من بداية تشرين الثاني لمنطقة شمال أفريقيا، تم خلط الأوراق الأكثر خباثة ومكراً للسياسيين المعاصرين، وتم إقرار الصراعات وفضّها.

على خطوط العرض هذه دخلت السياسة نفسها في الطور القمري، طور الغبش والبرق الذي يصبح من الصعب فيه ألا تخطئ ما بين الضوء الحادّ الصحيح للوجوه الأليفة وانعكاسات الخيانة والجاسوسية. كانت الشجاعة والولاء والخيانة تتصف بالشراسة والاتحاد بقوة. كانت مثل (سيرابيس) الذي عبده المصريون برأسه الحيواني والأفواه الثلاثة المزمجرة – الكلب والأسد والثعلب – محاطاً بأفعى الانتهازية المغوية: كان ذلك من ذهب خالص ساطع يتوج تمثال (سيرابيس) الوحيد المزروع في قلب الصحراء، عارضاً ظلاً حزيناً متطاولاً يتلاشى على حدود الرمل الذي كان جافاً ومتعطشاً للدم الجديد للتاريخ.

في بدايات هذا "الفاصل الموسيقي" المسرحي الإفريقي، أصبح كل شيء متردداً – صعباً وسهلاً، وليس هناك من مستحيل. لمجرد أن تصبح قادراً على تحريك إصبعك الصغير، عليك في الواقع أن تجعل القوى المتصارعة المتشاحنة في العالم ترضخ أو تتساهل مع هذه الحركة إن لم توافق عليها. لكن يمكن لأي

شخص قادر على المناورة بذكاء وليونة وميكافيللية، تحويل تلك الشبكة المعقدة كلها وتلك التأرجحات غير القابلة للتبسيط ظاهرياً، إلى آلية مناسبة، وتصبح بعدها لعبة المصالح المتناقضة في الوقت نفسه، ذراعاً سريّة قوية هائلة قادرة مثل أرخميدس، على تحريك العالم بمجرد أن يُطبق عليه ضغطاً من إصبع صغير واحد. لكن ذلك يحتاج إلى رجل استثنائي، شديد ومتعصّب في قراراته، يشكّ في كل شيء، ولا يثق بأحد، يمتلك علوم الاستفزاز، كما أنه قادر على إخفاء أي دوافع لتصرفاته بمثل إخفاء القسم الغامض من تعاطفه، وأن يجمع مع ومضات غضبه الضباب البعيد لأناقته المؤثرة والمفضّلة. كان هذا الشخص هو الكونت إرفه دي غراندساي، أو على الأقل هو اعتقد بأنه هو، نظراً لأنه ولوقت قصير، كان فعلاً هو. لكن إن امتلك غراندساي درجة عالية في معظم المواهب المطلوبة للعب دور هام في شمال أفريقيا في نهاية عام 1941، فقد افتقد الموهبة الوحيدة التي لا بدّ أن تكون هامة كالبقية، ألا وهي التعاطف. نجح غراندساي في فرض نفسه، لكن افتقاده للتعاطف سبب تدهور النجاح الذي تم تحقيقه بشكل سريع جداً.

وصل غراندساي إلى شمال أفريقيا في بداية تشرين الثاني، وأسس على الفور مقره الرئيسي على يخت الأمير أورميني ثلاثي السواري الذي كان راسياً على خليج صغير قرب الشاطئ.

"يبدو وكأنه رسميّ جداً!" هتفت سيسيل غودرو لرؤيتها من نافذة غرفتها ملامح اثنين من المارينز حصل عليهما غراندساي للحراسة على الجسر. وفي الأسفل، نجحت الراهبة لوناي بإيجاد مساحة كافية لكل عادة من عادات غراندساي، واضعة كل أشيائه الحميمة بترتيب معين بحيث كان وضعها مماثلاً للوضع الذي كانت عليه في قصر لاموت أو في بيت في بستان الكستناء في غابة بولونيا، من ضمنها شراب الحب. وتماماً كما في (ليبرو) كانت تُشاهد غالباً في فترة بعض الظهر، محاطة بثلاثة أو أربعة ريفيين بركبة واحدة على الأرض، يحملون بين أيديهم سلالاً مُحاكة وقطعاً من الخبز الخشن، مما يذكر المرء بلوحة

(لونن)[1] ، والآن كان من الشائع رؤيتها في شمس الشتاء مع جريدة على رأسها محاطة بثلاثة من العرب مقرفصين على أوراكهم، والذين يأتون يومياً محضرين المؤن، تذكر بلوحة من لوحات (فورتوني)[2] . لكن إن كانت الراهبة تذكر بواحدة من اللوحات، فإن الكونت يذكر دوماً بالفصل الثالث من مسرحية لـ (راسين)[3] ، وفي أفريقيا توشك الستارة أن ترتفع عن ميلودراما مذهلة.

بدا الكونت منذ وصوله إلى إفريقيا وكأنه أصبح أكثر شباباً، كانت حركاته أخف وأسرع، واتخذ عَرَجُه رشاقة خاصة في الدخول والخروج إلى رصيف المركب الشراعي، وفي الصعود والنزول على الدرجات الرخامية لمنزل أورميني، التي يجتازها على رؤوس أصابعه تقريباً. أصبح أكثر نحولاً، ويأكل ببساطة.

كانت فورات غضبه لاسعة وقصيرة مثل لسعة سوط، ويتلاشى تعبيره بنار الطموح. لا يظهر إلا في تلك الليالي التي يتناول فيها العشاء بصحبة سيسيل غودرو وأورميني، حيث يرافقه الأخير حوالي الساعة الحادية عشرة غالباً بالعودة إلى اليخت. يكون الأول بالزي الرسمي والثاني باللباس المدني، يبقيان حتى الساعة الثالثة صباحاً في مؤامرة عميقة. كان ذلك أيضاً وقتاً محجوزاً لزوار غامضين إلى حد ما. كان أورميني الذي كانت معلوماته في القانون خارقة للغاية بالنسبة لمعلومات الكونت التي كانت غير موجودة تقريباً، يساعد الكونت في حلّ المسائل

---

[1] كان الأخوة الثلاثة لونن رسامين في القرن السابع عشر، وهم أنطونيو (1599 – 1648) ولويس (1593 – 1648) وماثيو (1607 – 1677). أنتجوا أعمالاً كثيرة من لوحات وجهية وصوراً منمنمة. المترجم

[2] ماريانو فورتوني كان رسام الكتالونية الرائدة عصره وكان له سمعة دولية. كانت مسيرته قصيرة شملت مجموعة متنوعة من المواضيع تتضمن السحر الرومانسي مع المواضيع الاستشراقية. المترجم.

[3] جان راسين: كان دراميا فرنسياً وواحداً من أعظم ثلاثة مسرحيي القرن السابع عشر في فرنسا وهم (موليير، كورنيل) بالإضافة له، وشخصية أدبية هامة في التقليد الغربي. المترجم.

المعقّدة التي رأى نفسه فجأة في مواجهة معها والتي لم يكن لديه أي فهم لها تقريباً. ويعاد المشهد نفسه دائماً.

يرفع غراندساي الصوت عالياً: "ليس لدي حاجة لتعلم القوانين، أعرف كل شيء! لدي ثلاثة آلاف سنة من الخبرة، أنا قديم قِدَم العالم!"

وينفجر أورميني بضحكة صفراء بأسنانه الصفراء، وقبل ذهابه للنوم سوف يترك جميع الملفات مرتبة بشكل جيد على طاولة الكونت، جاهزة بالنسبة للأخير ليستخدمها في الصباح التالي ليتقدم في خطته. صحيح أن استخدام الكونت لتلك الملفات في الصباح التالي يكون غريباً وغير متوقع في معظم الوقت. لأنه وبالنسبة له، ولنستخدم كلماته: "ليس هناك من قانون واحد في العالم بين يدي "شخصية حقيقية" إلا ويمكن استخدامه بدون تحوير ليصل إلى غايات معاكسة تماماً لتلك التي وُضِعَ من أجلها." لقد سمّى تلك المَلَكة اليسوعية الغريبة لديه في تحويل الأشياء كلها، حتى أكثرها معارضة، إلى ذوقه واستخدامه الخاص، "لمسة النعمة" "الطلسم الميكافيللي". وابتسامة الأخير التي اعتبرها الأكثر اتقاداً، منعته من إظهار سعادته في لحظات نجاحه ومكنت وجهه من البقاء جدياً.

تم إرسال غراندساي من قِبَل حكومة (فيشي)[1] في مهمة خاصة للتفاوض على زيادة الواردات من شمال أفريقيا وخاصة من السكر والقطن: في هذه المسألة كان دعم إدوارد كورديه الذي بقي في فرنسا، لا يُقدّر بثمن، ومكنه على الفور من تمثيل الغالبية من أكثر الصناعيين الفرنسيين قوة، من الناحية المادية والأخلاقية. أسبغ هذا على شخصيته أهمية مفاجئة في مجالات لم يكن يتوقعها

---

[1] حكومة فيشي: حكومة فرنسية كانت موالية لألمانيا النازية وتسيطر على القسم غير المحتل من فرنسا، تشكلت أثناء الحرب العالمية الثانية بعد أن اقتحمت القوات الألمانية الأراضي الفرنسية عبر هولندا وبلجيكا، وكانت برئاسة الجنرال بيتان الذي أصبح محط جدل واسع بعد قبوله هذا المنصب إذ اعتبره بعضهم خائناً لتعامله مع النازيين واعتبره الآخرون بطلاً قومياً لإنقاذه جزءاً كبيراً من فرنسا دون تدمير. المترجم

أبداً، لكنه قيّم سلطته الجديدة فقط كوسيلة لإدارة دسائسه السياسية بفعالية أكثر. أتت اللحظة عندما حدثت ظروف مناسبة جعلت من الضروري بالنسبة له أن يذهب إلى مالطا لتحقيق المهمة التي كانت واجهة لاستمرار مهامه الأخرى الأكثر غموضاً. تمكن الكونت بصعوبة من احتواء غضبه عندما بدأ أورميني بتعداد العوائق الصعبة التجاوز التي بدا أنها تقف في طريق رحلته.

قال أورميني: "أول شيء، هناك قضية كيفية الوصول إلى هناك، عليك إيجاد طائرة وطيارين........."

قاطعه غراندساي، مشيحاً بوجهه للخلف بشكل خفيف كما لو أنه يتجنّب رائحة نفس الأمير السيئة، محاولاً بالوقت نفسه بتلك الحركة إثارة مشاعر أورميني الدونية الحادّة. "يمكن أن تأخذني، وإلا فما الفائدة من كونك كنت طياراً لعشر سنوات، وكنت برتبة ملازم؟"

"أنا لم أعد في الخدمة الفعلية. وطائرتي لم تعد تحت تصرّفي،"

"ألا زال لديك الزي الرسمي؟"

"سننظر بكل هذا لاحقاً، لكن لا أعتقد أنني سأكون قادراً على الطيران بك." كان أورميني يتحدث ويبتعد عن الكونت ثم جلس خلف المكتب الآخر كما لو أنه يعاني من ألم حاد.

"قمر جميل!" قال غراندساي وهو ينظر من نافذة المقصورة حيث يضيء القمر وجهه. كان شعره الذي بدأ يتموج باللون الرمادي مخضباً بضيائه.

نظر إليه أورميني بعطف وقال: "لدي تصوّر عنك كما ستكون عندما تصبح عجوزاً، سوف تتغير بشكل كبير، لكن نحو الأفضل فقط."

لم يجب غراندساي. كان يفكر في نفسه: "سوف أتركك تُعجب بي لبعض الوقت وسوف أهينك بعدها. أنت في الحالة الذهنية المناسبة، مخلص ومحب بشكل استثنائي. تشعر بالأسف على نفسك معتقداً أنك ستموت

سريعاً ومتخيلاً أني أنجو بكل شيء كما تصبح حساساً حتى. وهكذا فهذا هو وقت الانقضاض عليك بلا رحمة لإحياء روح النشاط لديك، لهزك من الأعماق، وربط كل طاقتك بحيث تسقط كل مواردك عند قدمي وتسطح نفسك أمام رغبتي — تتسطح مثل سجادة." بعدها متخيلاً أورميني متحولاً إلى بساط سحري طائر يأخذه إلى مالطا، لم يستطع أن يكبت ابتسامته لكنه حوّلها على الفور إلى ابتسامة ازدراء، كسر صمته الطويل وأضاف بنبرة قاسية.

"الروح الشجاعة بالفعل، لا تنغمس في ظروف كهذه، بنوع التأملات الشخصية التي تعبر رأسك في هذه اللحظة. عقدة الانتحار لديك ليست مهمة بالنسبة للتاريخ. عندما تحدثتَ للتو عن تقدمي في العمر كنت تفكر في نفسك فقط. أنا أحترمك، لكني لن أبالي بموتك. سوف تجنبني الاستماع إلى أسرارك كريهة الرائحة على الأقل. لا أعرف إن كان أحدٌ قد أخبرك بأن عليك الاعتناء بأسنانك."

نهض أورميني وذهب."

قال غراندساي لنفسه: "جيد، سيذهب ويبكي مثل طفل عند سيسيل غودرو. لكن عليَّ اللحاق به قبل أن يبدأ تدخين الأفيون. ربما تماديت قليلاً، لكني أستطيع أن ألطف الأمر برسالة." جلس إلى مكتبه وكتب:

عزيزي الأمير: أندم بعمق على وقاحتي قبل حين. أنا من أقل الناس تشكيكاً بشجاعتك الأخلاقية وتفانيك الوطني. كنت ظالماً، لكن عندما تعرف كم هو مهم بالنسبة لي الذهاب إلى مالطا، ستتفهم حالة أعصابي قبل أن تتقبل اعتذاري. أترقبك على الفور. الوقت ضيق، أنا أستدعي بهذا صداقتك وحسب.

إرفه دي غراندساي"

عندما عاد الأمير أورميني قبّل خدّ الكونت ببرود وجلس. كان الأخير مرتبكاً للحظة لأنه وبمراقبته لأورميني خلسة لاحظ من عينيه أنه لم يكن يبكي كما توقع منه. على أية حال، مزاج أورميني بالرغم من موقفه المتحفظ بدا أنه مؤات جداً لأنه هو من بدأ على الفور الحديث عن مالطا.

"لا أريد إحباطك أبداً، لكنك ستحتاج لكي تنجح إلى تصريح علنيّ أو ضمني من خمس دول: يجب أن تُبلغ جميعها وستبلغ جميعها بمغادرتك، جميعها تقريباً على مشارف الحرب أو أنها دخلتها بشكل فعلي. لا يجب أن يُنظَر إلى مهمتك بشكل سلبي جداً من قِبَل أي منها!"

استمتع غراندساي بتعقيد الحالة وقال: "ليس هذا فقط، تتطلب مهمتي تعاون كل شخص..... هل تعرف ما الذي يشكّل قوة رجل الدولة؟ إنه عكس ما يعتقده الناس تماماً: بدلاً من المزيد من التقسيم لأولئك الذين هم أعداؤه سلفاً، يجب أن يوحدهم بنوع من التعاون. العدوان اللذان أجبرتهما على المصافحة ليأتيا لمهاجمتك يُهزمان من البداية تحديداً، تعاونهما سوف يضعفهما. لكن دعنا نتوقف لهذا اليوم عن التعمق في نظرية الحركة،" اختتم كلامه بتنهيدة.

قال أورميني بشكل متساهل: "أنا أستمع إليك فقط وأخضع للمبادئ القاسية من أدائك السياسي".

هل ستدّون بعض الملاحظات؟ سأملي عليك التفاصيل التي سيتم اعتمادها مع القوى المختلفة، وبعد ذلك سنرى من هم الأفراد المؤهلون تماماً لإيصال أهدافي بشكل علنيّ أو سريّ لهم."

فتح أورميني القائمة التي أمسكها بأصابعه وقال: "سأدوّن كل شيء على هذه القائمة. بالنسبة للبريطانيين، عليك أن تتعامل مع مجلس الحرب الاقتصادية."

"أنا أصبحت موالياً للبريطانيين وهم الوحيدون الذين يعرفون ذلك."

"هذا من المسلمات،" علق أورميني وأضاف بينما كان غراندساي يرمقه بنظرة شك: "أنت تعرف أن شعوري نحوهم مثل شعورك."

"كيف ستكون ردة فعل البريطانيين حيال هذا؟"

"سوف يتركون الأمريكيين يفعلون ما يريدون،"

"وأي وكالة أمريكية من المتوقع أن تتدخل؟"

"وزارة الخارجية والمراقبون الأمريكيون في شمال أفريقيا."

قال غراندساي عندها: "لا شيء أبسط من هذا، تحتاج أمريكا إلى مراقبين من أجل المراقبة، وتحتاج المراقبة من أجل أن يكون لديها مراقبون. وهكذا سأزودهم بفرصة رائعة ليراقبوا ويحلوا حالة غراندساي، حالة اختبار حقيقية يكونون قادرين من خلالها على توجيه سياستهم المستقبلية."

"إن كانوا مهتمين بالمراقبة، فلن يجدوا أفضل منك،"

تابع غراندساي متظاهراً بأنه لم يسمعه: "المسار الذي نتبعه هنا لن يحتوي صعوبات ضخمة، على شخص ما أن يتعهد الإعلان عن "سرّ" رحلتي إلى مالطا بشكل واسع، عناوين صارخة كأنها لمسرحية في (برودواي)[1]" وبينما مضى أورميني بوضع الملاحظة حول هذا، أوقفه غراندساي قائلاً: "لا تسجل أياً من هذا — فقط كلمة: (مسرح)."

قال أورميني: "كوميدي،"

الطريقة التي لفظ بها الأمير هذه الكلمة أعطت غراندساي نقطة بداية وتابع بعدها أورميني بشكل لاذع ولا مبال: "تعتقد أنك عندما أهنتني منذ قليل، لم أفهم أنك تصنعت الكوميديا عمداً للتأكد من بقائي هنا حتى الساعة الرابعة بشكل أبدأ معه في الصباح بترتيب رحلتك إلى مالطا؟ أعرفك جيداً جداً الآن! وهذا شيء مضحك! ليس مهماً كم تجعل من نفسك بغيضاً، أنت تبقى ساحراً. أترى، لست خائفاً من الكلام معك كما تفعل عشيقاتك. لكن لا يمكنك أن تعاملني مثل عشيقاتك بدون المخاطرة بجعلي عدوك."

لم يُجب غراندساي، مدركاً من نبرة أورميني المتصلبة أنه من الممكن للشجار في هذا الوقت أن يصبح متعذر الإصلاح. كان الأمير ممتناً له على هذا.

---

[1] برودواي: هو مسرح برودواي ويُطلق عليه ببساطة "برودواي"، المترجم.

"أترى، بالرغم من أنك لم تنجح في خداعي، فقد نجحت على الأقل في شيئين، الأول الذي كنت تريده، والثاني شيء لا تهتم به. الأول – بما أنك تعرف أن كل ما تريده يجب أن يتحقق – تكتسب دعمي غير المشروط لرحلتك، والثاني أنك آلمتني بعمق.... لأن رائحة الموت عالقة بي منذ أن كنت طفلاً!"

وضع غراندساي يده على كتف أورميني، وتدلّى من نجمة القائد على كمه، خيط ذهبي يرتعش. أبعد أورميني يده وعاد بنبرة صوت متغيرة إلى موضوع المهمة المستقبلية إلى مالطا.

قال: "بالنسبة للألمان، علينا أن نتعامل مع لجنة الهدنة."

بدأ غراندساي يتمشى في الكبينة. "الأمر بسيط مع الألمان. سيكون عليهم التأمل في ضرورات تعزيز حكومة (بيتان)"

وأضاف أورميني: "والحاجة الملحّة لمنع ثورة العرب،".

"نعم، هذا مهم جداً. أعتقد أن هناك تحت تصرّفي وسائل لخلق ثورة عرب صغيرة نستطيع التحكم بها. أنا سأرى بروسيون، البروفسور الشيوعي، غداً مساءً........"

"لن يتحرك العرب الآن."

لقد قلت: "ثورة صغيرة،". وعدني بروسيون بالتحريض على الشعب في الأسواق التونسية في الوقت الذي أرغب به..."

"لكن إلى جانب الألمان، لدينا أيضاً الفرنسيون لنتعامل معهم، علينا في حالتهم أن نتعامل مع السفارة، والسلطات الحاكمة في شمال أفريقيا."

"أنت تعرف، يبدو الأمر متناقضاً، لكن سيكون الفرنسيون هم الأصعب. كيف سأتمكن من إقناعهم أنه يجب التحضير بنشاط للمهمة التي ائتمنوني عليها كي أقوم بتنفيذها؟ هذا بسيط جداً، وماذا عن الإسبان؟

"سأتولى أمرهم، أنا على توافق جيد معهم، وعلينا فقط ذكر كلمة واحدة – "نظام"........."

قال غراندساي بطريقة مختصرة: "إذاً فأنت ترى، علينا تقديم مهمتي بحيث تميل نحوها جميع القوى في تحليلها الأخير، بينما تتظاهر بأنها لم تُبلَغ بنشاطاتي بشكل واضح." غاص بحالة من الصمت التأملي وقال بعدها: "الحرب في التحليل الأخير، هي حالة من أشياء تكون فيها كل الفرق متوافقة لكنها تتصارع، بينما السلام حالة يكون الجميع فيه غير متفقين، لكنهم لا يتصارعون. الأمران هما مجرّد مراحل مختلفة في الحياة السياسية. وماذا فعلتُ بمشطي؟ لا بدّ أني تركته في بيتك – كان معي ليلة البارحة!"

وبينما صار يعاني من الصعوبات التي بدأت تهاجمه تدريجياً، أصبح غراندساي نزوياً أكثر وأكثر، كامرأة حامل، وبدا الآن أن غضبه المكبوت منذ فترة في محادثته مع الأمير، يوشك أن ينفجر، بناء على الكراهية التي كانت تخرج من عينيه.

تابع بغضب: "يمكنني تحمّل أي شيء، أستطيع العيش دون أكثر الأشياء جوهرية، لكن علي أن أكون قادراً أن أفرق شعري بخط مستقيم تماماً بمشطي المعدني!"

"مشط بارد،" قال أورميني مبتسماً له كما لو أنه طفل لديه نوبة غضب. بينما أمسك غراندساي نفسه.

أضاف: "صحيح أنه مع تصفيف شعري بدقة وتلميع حذائي مرتين يومياً – مع إتمام هذين الطقسين، فإن جميع بقع الشك، والندم تُغسل وتُزال من روحي، و أشعر بنفسي نظيفاً وجديراً بالقيام بالأعمال."

قال أورميني وقد نهض ليذهب: "أسوأ ما في الأمر أن ما تقوله صحيح. لا تنسَ أني أرتّب في صباح الغد مقابلتك مع ضحيتك الجديدة – السيد فوسيريه."

في الصباح التالي وبينما باشر اتصالاته ليمهد الطريق لمهمة (فيشي)، كان الكونت غراندساي قد باشر بحماس مناسب ونشاط ليس أقل منه، بالمفاوضات السرّية التي تضمن له نجاح الهدف الثاني الرئيس لرحلته إلى مالطا: وهو تحديداً، التآمر ضد (فيشي)، عملاً بالنشاط الثوري الذي كان قد باشر به قبل مغادرة باريس، الذي كان هدفه تنظيم القوى المستقبلية للمقاومة ضد الغزو. وبالتالي كان يحاول من جهة تعزيز أبهته الرسمية في عيون أولئك الذين عهدوا بالمهمة إليه باذلاً كل جهد لتتويجها بانتصار شخصي. وكان يستعدّ من جهة أخرى لشنّ حرب لا رحمة فيها ضد أولئك الذين كان يخدمهم، وبالتالي خائناً رؤساءه الذين وضعوا ثقتهم وأملهم بتفانيه، حسب التسلسل الهرمي. ستكون مساعدة الأمير أورميني الشخصية وغير المشروطة هي كل ما يحتاجه تقريباً للنجاح في مهمته إلى (فيشي). الأمير الذي كان موقفه السياسي قريباً من الوسط، كان لديه في الواقع نفوذ عظيم في أكثر الميادين السياسية تنوعاً ويمكنه فتح جميع الأبواب أمامه. لكن من أجل السيطرة على الوضع في دوره الجديد كمتآمر متدرب، كان أمراً لا غنى عنه أن يؤسس اتصالاً مع المتطرفين، بكلام آخر، مع أتباع الملكية من جهة والشيوعيين من جهة أخرى. كيف يكسب دعم الاثنين في آن معاً؟ كان اهتمامه مقتصراً على هذا الأمر تقريباً في الأسبوعين الأخيرين.

من الجهة الأولى، اختلق غراندساي اهتماماً غامضاً بالمؤامرة الملكية من أجل أن يحرز ثقة فوسيريه، الملكي النشيط جداً ورجل الموهبة الذي كان يحاول أن يخلق في شمال أفريقيا سياسة تفاهم مباشر مع بريطانيا وأمريكا. أسس غراندساي بالوقت نفسه اتصالاً مع البروفيسور الشيوعي بروسيون، الذي يُقال إنه على اتصال مع النواب الثلاثين الشيوعيين السجناء في باريس والذي يعرف جميع الطرق المخادعة اللاشرعية. عندما شعر غراندساي أنه قد كسب هيمنة كافية على فوسيريه و بروسيون، قرر اللجوء إلى التكتيك نفسه معهما والذي استخدمه باليوم السابق مع أورميني: أن

يفقد أعصابه فجأة ويبتعد عنهما. بما أنهما أكثر سذاجة من الأمير ولا يعرفان شخصية الكونت، سيؤخذان بشكل حتمي بلعبته. ومع شعوره أن اللحظة المناسبة لنيل ثقة ضحاياه قد حانت، حسب الكونت بدقة مذهلة وخداع مطلق اللحظة التي سيقدم فيها عرض غضبه.

قال في نفسه: "سأدخل حالة غضب مع فوسيريه، في اللحظة التي يلفظ فيها كلمة "في بعض الأحيان"، بينما بالنسبة لبروسيون، سأطرده في اللحظة التي يلفظ فيها كلمة "عمل تخريبي".

حدث كل شيء بحسب توقعات غراندساي تماماً. بعد أن سرق الخوف من الاتهامات النوم من عينيهما أصبح الهدف من حيلته سهلا: حث فوسيريه وبروسيون على توحيد القوى، كما سيفعلان لا محالة في مؤامرة ضده كعدو مشترك، ثم إيقاف تلك المؤامرة في اللحظة الملائمة بأن يتصالح مع عدويه اللذين ستقيدهما من ذلك الوقت فصاعداً التزاماتهما الخاصة وتسكتهما. وهكذا سيعيش فوسيريه في خوف من أن يُخدَعَ مجدداً من بروسيون، ويعيش الأخير كذلك الأمر في خوف من أن يُخدَع من فوسيريه. يستطيع بمعرفته سرهما المشترك، المحافظة على تعلقهما به والتلاعب بهما متى أراد، ينشّط شغفهما، يثير طموحاتهما، ويجعلهما معاً متواطئين بدون إرادتهما، مسخَّرين لعربة خططه الميكافيللية.

"لا، إنه ليس ذكياً جداً!" قال غراندساي في نفسه متأملاً خطته، "لكنها الطريقة التي تمكنت بها دائماً من السباحة والحفاظ على جفاف ملابسي."

الأمير أورميني كان قد قال الحقيقة: تختلف طرق غراندساي بتصرفاته السياسية بشكل بسيط عن تلك التي يستعملها غالباً لدى اصطدامه بعداوات عشيقاته. يضمن له استفزاز الغيرة المشتركة، أو الكراهية بين الاثنتين إن أمكن، تعاليه دائماً عليهما. يوشك كل من فوسيريه و بروسيون أن يتصرف أحدهما تجاه الآخر مثل عشيقتين تشعران بالغيرة! عندما شعر غراندساي أن الاتحاد ما بين فوسيريه وبروسيون ضده كان ناضجاً، رتب أموره ليرى كلاً منهما على انفراد في اليوم ذاته.

أدخل أحد عناصر المارينز السيد فوسيريه إلى مقصورة غراندساي بمشهد محضّر مسبقاً. دخل فوسيريه منحنياً باحترام ونهض غراندساي مقدماً التحية العسكرية وأشار له بالجلوس.

كان فوسيريه واحداً من أولئك الرجال الذين توضّعت وجناتهم في غير محلها والتي أنزلت ملامحها الجغرافية غير المنتظمة الأحمر الشفاف تقريباً إلى فوق الفكين، بينما بقي عظما الخدين، اللذان يتبع هذا اللون لهما، شاحبين. كانت إثارة اللحظة قد بالغت بإظهار هذا التناقض أكثر، برزت البقع المخضبة باللون الأرجواني على وجهه بشكل أكثر حدة، بينما كان أعلى الوجنتين اللتين نضب الدم منهما ملونين بالأصفر الشاحب وبدت كما لو أن المرء يرى العظام من خلالها بشكل مباشر. كان يرتدي بذلة بيضاء مع قميص أزرق، وكان شعره أحمر. كما يمكن للمرء أن يخمّن أنه ذكي وسريع وجريء من خلال تلك التجاعيد الثلاث العميقة كسهام مجتمعة تشير إلى الزاوية الخارجية من عينيه. كان وجهه مسطحاً نوعاً ما، كما لو أنه انضغط على واجهة لوح زجاجي. كان موسوماً بذلك الطابع المتناظر الذي يجعل المورفولوجيا[1] الوجهية، لأولئك الذي قُدِّر لهم موت عنيف، مميزة بشكل غير قابل للخطأ.

تدقيق فوسيريه وحدّة ذهنه، جعلا غراندساي يرتعب للحظة أو اثنتين وأصبح في حالة تأهب. قال في نفسه: "لنكن حذرين – إنه طير جارح!" أجبره الأمر على بذل المزيد من الجهد لدعم نفسه لكنه عالج الوضع ببراعة حقيقية. أولاً: جلس الكونت مرة أخرى ضاغطاً يديه بقوة على جفنيه ثم مسح عينيه بمنديله وترك نظرته الشاحبة تطوف في الأفق عبر الباب نصف المفتوح.

قال غراندساي: "كنت أفكر ببعض الأمور، وأنا أؤمن بولائك. بعد مقابلتنا الأخيرة كان بإمكاني القبض عليك. بالرغم من أني لم أفعل ذلك، فقد

---

[1] المورفولوجيا: علم يقوم على دراسة أسس تشكّل الأشياء. المترجم

استمرّت خططك معتمدة على تعقّلي الذي لا مبرر لديك للاعتماد عليه. بعد ثورة غضبنا ربما حاولت التخلص مني، بالتآمر علي. لدي الدليل على أنك امتنعت عن القيام بذلك، وإلا لما كنت هنا." ابتسم وتابع: "ليس لديك الآن ما تخشاه — بل على العكس. أصبح الوضع في فرنسا متفاقماً، وأتيحت لي فرصة مراجعة أفكار قانونية معينة كانت قد تجذرت في عقلي لقرون." أطلق في هذه اللحظة تنهيدة وقال كما لو أنه سحب بألم هذا الاعتراف من نفسه: "حسناً، دعني أصوغه بتلك الطريقة: أنا لا أوافق على أية نشاطات سياسية عنيفة لكني لم أعد أدينها!" بينما قال ذلك قدّم يده لفوسيريه، وقَبلها الأخير، ضاغطاً شفتيه على بعضهما بقوة، وعندما باعد بينهما كانتا بيضاوين كورقة بيضاء. قال بشكل درامي: "فرنسا، ستكون ممتنة لك دائماً على هذا."

تابع غراندساي الآن بنبرة صوت أكثر هدوءاً وبعداً: " لن أشارك أبداً بشكل مباشر في مؤامرات من هذا النوع على أية حال........... لكن سأعرف كيف أغضّ النظر عن كل شيء." واتخذ صوته فجأة نبرة صوت الشخص الذي يعطي الأوامر. "أريد بالمقابل أن ترافقني إلى مالطا. سوف تسافر معي بصفة سكرتيري. عليك في غضون ذلك أن تحصل على الدعم السرّي من حزبك للقيام بمفاوضات مع بريطانيا. سيتم إبلاغكِ غداً بموعد مغادرتنا." التصق فوسيريه بالجدار، كما لو أنه انسحق بمتطلّبات الكونت التي شعر بأن من غير الممكن رفضها........

"لدي حالة هلع من الطيران........... إنها حالة مَرَضيّة بالنسبة لي!" توسل فوسيريه وتصبب جبينه بالعرق.5

"دعنا لا ندخل في مسائل الذوق الشخصي. ربما لا تحبّ الطيران، لكنك تعرف أيضاً أنني من جهتي ليس لدي تلك الرغبة المستنزفة بالزحف فوق تضاريس تعجّ بإجرام القتل السياسي."

"هذا قليل على أمثالك......!" هذا ما شعر به نحوه عندما نظر إليه مُغادراً في النهاية، تبرز بذلته البيضاء أمام السماء الزرقاء وتنبثق

ذراعاه الجامدتان بشكل متناظر من جسده.......... مثل شعار (زهرة الزنبق)[1]. في الفترة الأخيرة من بعد ظهر اليوم نفسه تلوّنت الغيوم في السماء باللون القرمزي. "سماء حمراء – أمطار أو رياح،" هذا ما قالته الراهبة بينما كانت تُحضر كوب الشوكولا الكثيف الساخن للكونت. أحرق غراندساي الذي كان ينتظر بروسيون، لسانه بالشوكولا المغلي، وجعله انخفاض مقياس الضغط الجوي الذي يشير لاقتراب العاصفة، يضغط قبضته بقوة أمام خده ليسيطر على إحساس الوخز في جرحه القديم.

في الساعة المحددة تماماً، أعطِي الأذن بالدخول من قِبَل عنصر المارينز واندفع بشكل مباشر نحو الكونت، وركع بشكل درامي، وتوسله بدموعه المنسكبة التدخّل لصلحة تلميذين شيوعيين تم الحكم عليهما بالموت.

كان بروسيون واحداً من تلك الشخصيات الغامضة المكن العثور عليها على هامش كل حركة ثورية. همجي وعديم الضمير، حاقد وفوضوي ويتعذر كبحه في القلب، أصبح معزولاً عن عضوية الحزب وأوشك أن يُطرَد منذ وقت طويل. بفقده كامل الدعم من قيادة الحزب أصبح نقطة تجمّع المجموعات المنشقة، ولم يحافظ على مظهره كشخص ذي سلطة إلا بفضل التشوش الحاصل في ذلك الوقت. كان قادرا بتلك السهولة علي إساءة تقديم نفسه كشيوعي مسؤول أمام غراندساي، لأنه كان بحد ذاته تجسيدا لكل أفكاره المسبقة الأرستقراطية.

لديه رأس كبير وشنيع قليلاً، مليء بالنتوءات ككيس بطاطا. كان جلده التالف من تعرّضه للمناخ الخارجي مشكّلاً من بشرة خشنة ومسام عميقة بدت وكأنها قد توسّعت بعدسة مكبّرة، وكان الشعر على رأسه مماثلا له في القساوة، وقد نما الشعر الرمادي في لحيته وشاربيه وأنفه وأذنيه بشكل عشوائي، كما لو أن البطاطا التي تملأ وجهه قد اكتست شعر فرشاة قاسياً

---

[1] شعار زهرة الزنبق: شعار تم استخدامه لتمثيل الملوك الفرنسيين، للدلالة على الكمال والضوء والحياة. تقول الأسطورة أن ملاكاً قدم الملك كلوفيس مع زنبقة ذهبية كرمز لنقائه عند تحوّله للمسيحية. المترجم.

ومن ثم خرجت الشعرات من ثقوب الكيس السميك لبشرته وبكل الاتجاهات. صححت نظاراته ذات الإطار الذهبي الدقيق ويداه اللتان كانتا أكثر دقة، بل الأنثويتان تقريباً، هيئته القرديّة كثيفة الشعر، معطية له شخصية ذليلة منحطة تقريباً، تفضح كل نقيصة فكريّة لديه.

على ركبتيه وبرأس محني انتظر ردّ الكونت. ارتشف غراندساي رشفة صغيرة من كوبه بحذر. بعدها قال بنبرة صوت سئمة وعنيدة: "انهض! أنا لا أمنح شيئاً عبر هذه الوسائل. توسلاتك تحرجني. أنت لست خرقة بالية ولديك عمود فقري، وإن أرسلت بطلبك فهو بهدف التعاون المخلص. يؤسفني أن أقول لك أنني أحتاجك فقط في اللحظة التي وجدت نفسك فيها بهذا الوضع."

نهض بروسيون مذهولاً على قدميه.

تابع الكونت بالنبرة نفسها التي قال فيها الكلمات نفسها لفوسيريه في ذلك الصباح: "أصبح الوضع في فرنسا متفاقماً، الوقت ضيق وأصبح التصرف واجباً! نعم! مئات المرات، نعم! لم أعد الآن أنكمش أمام كلمة "تخريب" التي أثارت سخطي والتي سببت شجارنا." وبينما قال تلك الكلمات قدّم يده إلى بروسيون الذي أمسكها بشعور صادق عميق، وكبت دوافعه بصعوبة كي لا يلقي بنفسه مرة أخرى على ركبته عند قدمي الكونت.

"دعنا نتحدث بسرعة. لدي فقط خمس عشرة دقيقة من الوقت معك". دون أن يجلس وليمنع بروسيون من الجلوس وليمحو أي أثر للحميمية في حديثهما، عاد فوراً للطريقة القاسية بالتعامل وتابع: "لست بحاجة اليوم لأن تخاف من سؤالي عما ألمحت إليه في لقائنا السابق. تمت الموافقة عليها مقدّماً. كل ما أريده بالمقابل أن يثور العرب خلال ثمان وأربعين ساعة."

قال بروسيون ببساطة: "ستكون لك ثورة العرب، لكن ربما يكلّف هذا حياة العديد من الشيوعين هنا، وبناء عليه عليّ أن أسألك عن اسم شخص ما في فرنسا ينفذ كلامك بجميع الظروف أياً كانت العواقب."

فكّر غراندساي على الفور ببيير غيرارديان، لكنه تردد للحظات. يعرف أن بروسيون الذي يتذلل الآن أمامه ليتوسل الشفقة لحياة شخصين كان يطالب بشكل صريح بإنقاذ حياتهما كعربون عن شيء يريد تقديمه. كان ثمن الثورة العربية باهظاً جداً: لقد أحبّ غيرارديان بشكل كبير!

"أخبرني أولاً شيئاً عن هذا. لدي بالفعل في فرنسا أشخاص مخلصون مستعدون لتقديم حياتهم طاعة لأوامري، لكن ليسوا عبيداً أستطيع تسليمهم للمتمردين الشيوعيين في حال فشل المهمة المنوطة بهم، أو حتى إن قاموا بارتكاب أخطاء خطيرة أثناء تنفيذها. عليك أن تقبل دون أي سؤال احترام الشخص الذي أسمّيه."

"هذا مفهوم،" أجاب بروسيون على مضض قليلاً وأضاف: "هل تعرف بأمر الخطة الواسعة حول تحويل (ليبرو) إلى منطقة صناعية والتي وُضِعت قيد التنفيذ فوراً بعد أن قررت الحكومة لا مركزية الصناعات العسكرية؟"

"لقد تم إبلاغي بشكل غير مباشر حول تلك المسألة، بالرغم من أني لم أرجع في الواقع إلى ممتلكاتي في (ليبرو) منذ بداية الحرب، لكنني أتابع هذا الأمر عبر لندن، لأن البريطانيين كانوا من طوّروا تلك الخطط الصناعية."

"نحتاج تلك الخطط، إن استطعنا بنجاح نسف السدود الثلاثة التي تعتمد عليها الطاقة الكهربائية كلها، نكون قد قمنا بعملية تخريب تاريخي."

ساد صمت طويل. "تخريب تاريخي!" فكر الكونت في نفسه، "أي انحطاط في هذا العصر!" بدت له كلمة "تخريب" تقريباً بالبشاعة والاشمئزاز نفسه الذي تثيره كلمة "البث الإذاعي" التي مقتها أكثر من كل الكلمات التي نشأت في العصر الحديث. لكن هذه الكلمة القميئة المُعدّة الآن لتنظّف سهله الحبيب من القمل الميكانيكي الخاص بالتصنيع، رنّت في أذنيه الانتقاميتين كصوت بوق يوم البعث. لأن ذروة العار كانت أن يزدهر قمل التقدم هذا في يدي الغزاة. تخريب! تصوّرْ مسألة التجمّع الخسيسة للمصانع الخمسة، الإسمنت، المطاط، حشوات الكابلات، قضبان السكك الحديدية، إطارات سيارات. تُنسف

أحشاء الحديد الصب في وميض انفجار إصبع ديناميت واحد. تخريب! وفي النهاية ربما ينمو نبات الآس ونبات صريمة الجدري مجدداً على البقعة التي فجروها بعد ثلاثة آلاف سنة لتعمل على شفاء الندب في الأرض المشوّهة. تخريب! ربما ينسل الحلزون مجدداً فوق الصخور نفسها، التي بقيت بنفس المكان منذ أيام الرومان!

ظهر غيرارديان الآن له كشخص اختاره القدر، ليس فقط لحيازته على كافة المعلومات الضرورية، بل لإطاعة أوامره. لقد نجح في إخفاء نسخ مكررة من خطط تحويل (ليبرو) إلى منطقة صناعية في قبو عائلة الكونت عندما أمر الألمان بتسليم جميع النسخ الموجودة حول هذا الموضوع لسلطات الاحتلال تحت طائلة الموت. وبالتالي كان كاتب عدله، بيير غيرارديان، أحد أهمّ الأرواح المحافظة الأكثر تقليدية في فرنسا، هو الشخص المعيّن لتنفيذ واحدة من أكثر أفعال التخريب روعاً في فترة المقاومة البطولية ضد الغزو التي بدأت بالنمو بغموض سلفاً.

قال الكونت بعد أن انتهى من تأمله: "أعرف الشخص الذي في حوزته نُسَخٌ من كل تلك الخطط، وهذا الشخص سيسلّمها بناءً على تعليماتي. لا!" صرخ متوقعاً الاستفسار الذي أوشك بروسيون أن يستعلم عنه: "سوف نتحدث مرة أخرى عن تخريبك لدى عودتي من مالطا. أتوقع عندها أن تكون الثورة العربية التي وعدتني بها قد سفكت كل دمها، بما فيها القمع. وبالنسبة لي، لا أريد بقاء أي آثار. لديك عشرة أيام لكل هذا!"

عندما غادر بروسيون، بقي غراندساي للحظة متكئاً على الحاجز مراجعاً في عقله نتائج نشاطات اليوم. كان قد استلم رسالة من الأمير أورميني أعطى بها الأخير حسابات مفصّلة عن تقدم اليوم، باستثناء قيادته للطائرة إلى مالطا. كان الكونت من جانبه قد نجح في أهدافه المظلمة وشعر الآن أن فوسيريه وبروسيون قد التزما بشكل لا رجعة فيه بخطته الخطيرة. كانا ضعيفين جداً لدرجة يستحقان بها أن يضحّى

بهما بالكامل إن دعت الحاجة. فكر بعدها بحنان بغيراردیان. رآه واقفاً على مسافة بعيدة في قصر (لا موت)، يبدو رأسه الأصلع في الشمس مثل كرة لعبة البلياردو، لكنه كان صغيراً بقياس حبة الفيتامين، كان مشابهاً لواحدة من تلك اللوحات الحزينة التي يراها المرء بالنظر من النهاية الأخرى لمنظار أوبرا. "لا أريد ولا من أجل أي شيء في العالم أن يُطلق الألمان عليه النار." تصوّر بعدها، ما يشبه صفوفاً من شخصيات يسوع من العاج المصقول، الأسنان العفنة والمتفاوتة للأمير أورميني الذي أساء التصرف معه في الليلة السابقة — مُخلص له الآن دون شروط.

حاول غراندساي أن يلخّص رؤاه مجتمعة في شعور عام من الشفقة، لكن فشله بإثارة روحه بتلك الطريقة، جعله يشعر برعشات سعادة لا يمكن كبحها تسري في جسده، متأملاً بتشاؤم أن حب الإنسان للسلطة لا حدود له، وأدرك أنه كان جائعاً مثل ثعلب. طلب نقله نحو الشاطئ ليتعشى برفقة سيسيل غودرو والأمير أورميني. بدت له سيسيل متحفظة وأكد أنها كانت مستاءة من نبرة صوتها عندما قالت: "يمكننا الجلوس لنتعشى. لن ينضم إلينا أورميني."

"ماذا حدث؟"

كان يعمل من أجلك طوال اليوم. إنه مُنهك................ لكن أسوأ ما في الأمر أنه قام بطيرانه الأخير: كان قد مُنِعَ من الطيران بشكل قطعيّ .... هل تفهم،" تابعت غودرو محاولة التخفيف من حدتها، عبر مزج بعض الفكاهة فيها، "أنت تفهم نوعية الحياة التي مشى بها أورميني، جميع تجاوزاته — وخاصة ولعه بالرياضة — ليس هناك شيء أسوأ على الصحة من هذا. البولو، الطيران، لا بدّ أن تخرّب تلك الأمور بناء الجسم على المدى الطويل وتؤثر على القلب. لحسن الحظ أن الأفيون ساعد على الحفاظ عليه! لكنه أُصيب بنوبة ما."

هدر غراندساي الذي لم يعد يستمع لسيسيل وكان على حافة الانفجار. "غبي! من جعله يطير اليوم؟ يعرف بما يكفي تماماً أنني

أحتاجه الآن فقط، تعتمد كل ثانية من مهمتي إلى مالطا على نطاق واسع، على نشاطه!"

اندفعت سيسيل مليئة بالسخط، مجعدة منديلها وغير مهتمة بالأكل: "حسناً يا عزيزي، لقد طار من أجلك بالتحديد، وقد عانى من خيبة أمل كبيرة في حياته، وكان مصمماً على قيادة الطائرة التي ستقلك إلى مالطا!" ونظرت غودرو بعيني غراندساي بشكل مباشر وقالت بنبرة عتاب لاذعة: "لقد جعلتك الحرب أعمى وغير ممتن لأولئك المخلصين لك، سوف ترى، ستدرك ذلك عندما نرحل."

قال غراندساي: "هل ستغادرين مع أورميني إلى أمريكا؟ الأمر هكذا، أليس كذلك؟ لماذا أخفيت ذلك عني؟ كان علي أن أخمن!" لم يقطّب جبينه وأصبح صوته متسامحاً ومشوباً بازدراء حزين.

"نعم، يا عزيزي، سيأخذني أورميني معه إلى أمريكا خلال تسعة أيام. نحن لسنا أشخاصاً فعّالين، نحن نفضّل العيش في بلد ودود أكثر من العيش تحت نظام يُصبح أكثر شبهاً بالغزاة في كل يوم حيث، حتى المؤامرات تجتمع مع الخيانة وغالباً ما تصبح غير قابلة للتمييز عنها. ما فعلوه ضد اليهود لا يوصف! وهكذا ستكون قادراً على البقاء هنا، محاطاً فقط بأعدائك وتصرف عليهم كل حيطتك المتعة وحدة ذهنك السيكولوجية!"

نهض غراندساي ببرود عن الطاولة بعد أن انتهى من التهام جراد البحر المشوي بسرعة معتبراً أن العشاء قد انتهى، كان يتهيأ للمغادرة. قال لها: "أعتذر بسبب مغادرتي بهذه الطريقة، وأسف لأنك رأيت أن من المناسب البدء بهذا البغض."

نهضت سيسيل بدورها عن الطاولة وقالت بشراسة: "ليس من أجلي بدأت بهذا البغض، بل بسبب الأمير. أعرف أنه ضعيف وأنه مخطئ لعدم ضربه أصابع استبدادك بدلاً من البقاء باكياً في الأعلى. لكنك

كنت بلا رحمة، والطريقة التي أهنته بها غير إنسانية. هل اعتقدت أن القساوة التي أظهرتها له البارحة بعد الظهر ستكون مناسبة لسخريتي؟"

سأل غراندساي بتنهيدة تنمّ عن التنازل: "لماذا كان عليه أن يأتي ويبكي لك بسبب هذا؟"

لم يبكي البارحة يا عزيزي، عندما أهنته. هذا ما كنتَ ترغب به. إنه يبكي الآن لأنه يعرف أنه لا يستطيع أن يكون بخدمتك! كما أنه لم يقل لي أي شيء، هل تفهم؟ قال فقط — وبكرامة — "لقد أبعدني غراندساي وقال إنه لن يكون آسفاً أبداً لموتي، لأن رائحة تنفسي نتنة، وإنه لن يضطر أبداً للاستماع لرائحة أسراري الكريهة عندما أموت!" ثم وقف هناك فقط دون إضافة أي شيء حتى اللحظة التي أرسلت فيها بطلبه."

قال غراندساي بعد صمت وجيز وبقدر عظيم من الرقة مقدماً يده لها: "دعينا ننسَ ذلك، تعالي هنا، قبلي أصابع هذا المستبدّ!"

اقتربت سيسيل وقبّلها غراندساي على رأسها بشكل متعاطف. "أنا ذاهب معكم إلى أمريكا. كان ذلك جزءاً من خططي. لكن قبل ذلك عليّ مهما كلف الثمن أن أنجح بمغامرتي في مالطا......... إنها ليست قسوتي، إنها مالطا التي تصرخ بداخلي! لو تعلمين كم أن هذا الأمر مهم بالنسبة لفرنسا!"

بسبب اضطرابه، وضع الكونت يده على شعره لتمسيد بعض الخصلات التي شعثت قليلا بينما كان يعانق سيسيل غودرو.

"حسناً، سيكون لديك مشطك. لقد وجدناه وأعطيناه لراهبتك. وستكون لديك مالطا، كما ستقوم سيسيل بترتيب شيء لك. علي أن أسرع. لدي موعد بعد ساعة مع بطل، ذلك تماماً ما تحتاجه في هذه اللحظة، مشطك الذهبي والرجل المستعدّ للمغامرة بحياته من أجلك دون حتى أن يعرفك."

"أنت رائعة ومرعبة لأنك تعرفينني بهذا الشكل،"

"هل سمعت يوماً عن الطيار الأمريكي الملقّب بـ "بابا" في باريس؟"

قال غراندساي مستكشفاً ذاكرته: "بابا، .... لا."

"حسناً، هو الشخص الذي عليّ إقناعه، سأجعله يقول نعم في هذه الليلة تحديداً،"

"اعتقد أني تذكرت الآن، كان هناك الكثير من الكلام حول الخوذة التي يرتديها لأكثر من سنة لتقويم عظامه. هل عاد شخصاً معافى؟"

"بالكامل، في المرة الأخيرة التي رأيته فيها بدون خوذة، عند مدام مينارد أورينت، تماماً قبل قدومنا إلى هنا، كان من الصعب أن تلحظ أي أثر لحادثته. لا تقلق، إنه رجلك."

وهكذا أتت سيسيل غودرو على لعب دور هام في هذه المؤامرة الدرامية الغامضة إلى مالطا، عبر إيجاد كائن استثنائي يهب نفسه لهذه المغامرة ويوصل الكونت إلى الجزيرة. بابا الذي عرف الأخير من خلال سمعته المبهرة كشخصية اجتماعية، شعر بإطراء فوري بسبب اختيار الكونت له. بالإضافة إلى أن ذهن سيسيل، المباشر والعنيف أذهله وأقنعه.

قالت سيسيل لبابا: "استمع إلي يا طفلي، إن مجموعة من الناس مثلك ومثل الكونت غراندساي هم من سيجعلوننا نكسب هذه الحرب في النهاية. أنت تعرف ذلك أكثر مني. ليست كمية القنابل التي تفرغها هي ما يشكل فرقاً: إنها تشكل فجوة في شرفة بنك متداعٍ، أو شرفة خلفية لا يستخدمها أحد."

قال بابا: "في بعض الأحيان، يفعل المرء أكثر من ذلك، بضع مئات الآلاف من الشرفات تحولت إلى حطام!"

"حسناً، نعم يا عزيزي، لكن هناك الكثير، الكثير من الشرفات، الكثير منها في المدن، والتي لا يفكر أحد أطلاقاً باستخدامها،" كما لو أنها شعرت فجأة بوزن كل تلك الشرفات غير الضرورية وغير المفيدة في العالم.

"أحياناً لا تكون شرفات فقط، قد تكون مداخن المصانع التي سحقناها."

"حسناً، نعم يا طفلي، لكن في أيامنا، هذه المدخنة التي دمّرتها إلى آلاف القطع سيعاد بناؤها بالسرعة ذاتها كما لو أُعيد تشغيل فيلم تدميرك بشكل معاكس. يعاد كل شيء مرة أخرى، ويكون أبشع من السابق في كل مرة — لا يمكن إنكار هذا — لكنه يكون أيضاً أكثر فعالية وحداثة ومناسباً للحرب أكثر. من جهة أخرى، فإن الطيران إلى مالطا بصمت والهبوط بالكونت غراندساي هناك، يبدو وكأنه لا شيء. لكنك ترى، بالنسبة للبريطانيين تحديداً هو غامض — مخادع مثل فلاح من (ليبرو)، مع إحساس بالشرف يدفعه نحو التطرف، كما هم الإسبان. لقد فتن الأشخاص الذي اقتنعوا بقضيته واستعدّوا للحاق به بالفعل، سوف يمكنونه من أن يبذر في كل قلب فرنسي، جراثيم الأسلاف لقوى المقاومة التي لا بدّ أن تصل في النهاية لتحرير الوطن. وبذور غراندساي هي تحديداً البذور التي تُنتج أشجار البلوط الأقدم والأنبل على الأرض.......

وتابعت حديثها حالمة متطلعة عبر المدى بعينيها نصف المغمضتين:

"ينسى المرء أشجار البلوط في أعلى مرحلة من موسم النمو، ويندهش المرء بالنظر عبر الحقول بمراقبة النمو السريع أسبوعاً بعد أسبوع، لنباتات معينة تبدو منبثقة من الأرض بنشاط فسيح مترف معربد مُستعمر بحيث لا تستطيع حجزه ولا السيطرة عليه، نباتات غريبة عن محاصيل "الحرب الخاطفة" لعائلة الحبوب. وبينما النمو في أعلى مراحله، يمتص ويزيل كل شيء — إنه الانتشار المسعور لحبوب الفاصولياء والبازيلاء الهتلرية الألمانية البيولوجية!— ينسى المرء أشجار البلوط. لكن فجأة وفي يوم جميل، تبدو تلك الساق المنتصبة التي تدعم الفاصولياء وكأنها بائسة، تدلي الفاصولياء رأسها، ينتهي الموسم ولا يبقى خلال بضعة أيام سوى بقايا النبات الأسمر الذابل في الحقل الذي كان منذ فترة مضت أخضر مذهلاً. يلاحظ المرء بعدها أن بعض شتلات البلوط قد اتخذت جذوراً بينها، ويرفع المرء عينه لينظر مرة أخرى إلى تلك

الأشكال المهيبة التي شَهدَت فترات من الثورات والهدوء تتبع إحداها الأخرى عبر ألفي سنة من الَزمن. البلوط هو فرنسا. الجذور تهدم الجدران في النهاية. أعرف أنك لا زلت تشعر بنفسك منجذباً لما يبدو جديداً ومثيراً."

"لا، أنا أيضاً أؤمن بالقوة المتعذر استئصالها للتقاليد والأرستقراطية، وأشعر اليوم بأوهامي الثورية حول أيام الحرب الإسبانية مثل النبات الذي تم حصاده سلفاً في حياتي. لم أعد أشعر عندما أطير، بثورة الفخر لرؤساء الملائكة الذين انطلقوا للفوز بالفردوس الخيالي، بل على العكس تماماً، تحثني الرغبة لاسترداد الأرض بصلابتها، بنبلها..... حالة ارتداد........ لاستعادة كرامة أقدام عارية ترتاح على الأرض. أعرف الآن أن على الإنسان أن ينظر إلى السماء بتواضع. هل ترين، جعلتني هذه الحرب كاثوليكياً."

استمعت سيسيل إلى بابا بكبرياء وإعجاب كما لو أنه مجرد اكتشاف مترافق بالدهشة لكونه كان بالإضافة لبطولته، ذكياً وقادراً على التعبير عن نفسه.

قالت مداعبة شعره بأصابعها: " يا عزيزي، يا بابا الوسيم!"

"لا تناديني باسم بابا بعد الآن، أنا لم أعد الرجل ذاته الذي كنته في إسبانيا أو باريس. أنا معروف هنا باسمي الحقيقي فقط، جون راندولف، الملازم راندولف. ليس بابا من سيأخذ الكونت غراندساي إلى مالطا، إنه أنا، الملازم راندولف."

"أعرف أنك ستأخذه، هذا رائع!"

ساد صمت طويل. قبّلت سيسيل يد راندولف وتابع الأخير: "أستطيع أخذه إلى هناك، لكن هذا كل شيء، لا أستطيع إعادته. لقد حصلت على إذن القيام بهذه الرحلة بشرط أن أطير من هناك مباشرة إلى إيطاليا حيث عليّ أن ألقي بمظليين اثنين في (كالابريا).... وكما ترين، لم يكن بابا يخاف من ذلك، لكن أنا خائف. إنها المرة الأولى التي أخاف فيها من مهمة. لطالما قدمت إيطاليا لي الحظ السيئ. كنت مرة على عتبات الموت في (نابولي) بسبب الحمى التيفية

– والشيء الأسوأ: دُهِس كلبي في الطريق إلى فينيسيا .... في فينيسيا أيضاً، تشاجرت مع واحد من أفضل أصدقاء طفولتي....."

"دعنا ندق على الخشب،" قالت سيسيل غودرو، ضاربة مفاصلها المشدودة على واحد من القطع العرضية تحت الطاولة، بينما داعب راندولف، بمبادرة خرافية، الصليب المكون من الألماس واللؤلؤ المتدلي من عنقه حيث تواجه أصابعه الفتحة الموجودة في قميصه.

"كيف يبدو غراندساي؟"

"إنه أقل طولاً منك، لكنِ عيناك تشبه عينيه في الثبات. عيناه أقل زرقة، لكنها باللمعان نفسه تقريباً. شعره كستنائي. هو وسيم جداً جداً. وهو أكثر وسامة منك."

"ما الذي سيفعله الكونت بعد ذلك؟ هل سيعود إلى فرنسا؟"

"لا، بعد مالطا هو ذاهب مباشرة إلى أمريكا."

قال راندولف وهو يغرق في أفكار خيالية: "ربما سأعهد له بشيء،" وبعدها، كما لو أنه يتابع أفكاره بصوت عال. "نعم، لدي شيء أعهد به إليه............ إنه يعني الكثير بالنسبة لَي......... شيء يوصله إلى شخص في أمريكا. أخبريه ذلك نيابة عني."

بعد يومين وعندما صعد غراندساي برفقة فوسيريه إلى الطائرة ثلاثية المحركات من نوع (فارمان)، التي كانت ستحلق بهم إلى مالطا، كان راندولف هو الطيّار.

قال غراندساي: "يذكرني هذا بسفري إلى لندن."

قال فوسيريه: "في الواقع، كانت هذه الطائرات هي نفسها التي قامت بالرحلة بين باريس ولندن، لدينا هنا فقط سلاح آلي جاهز مع خادمه المخلص. أهنئك، تبدو طائرة متكيفة جداً مع الظروف." تابع حديثه بالمرح الذي كان أسلوبه الشخصي في ردّة فعله على الخوف والعُصاب.

"ماذا كنت تتوقع؟ ربما تخيلت أن الطائرة التي وجدتها سيسيل غودرو ستكون آلة مغطاة باللبلاب، وفيها تشققات بين فجوات أجنحتها وأرائك شرقية في الداخل للجلوس وتدخين الأفيون."

"لا ينبغي أن أتجرأ على تخيل هذا، لكن يا لها من صورة مذهلة لما بعد الحرب، أليس كذلك؟ سماء مليئة بطائرات مندفعة بجميع الاتجاهات بسرعة سبعمئة ميل في الساعة، مليئة بمدخني الأفيون المتكاسلين الهائمين بدون هدف!"

" المفارقة التي لا يمكن تصورها ذاتها عن السرعة والثبات تم اختراعها سلفاً واتخذت شكل النعوش المنظّمة!"

"يا لها من فكرة مرعبة، هل أصبحت موجودة فعلاً؟"

"لقد رأيتها في الكاتالوكات. هذا بالفعل ما أعلنوا عنه. لدى النعوش النوع نفسه من الانحناءات التي ظهرت على السيارات الجديدة منذ سنوات مضت."

"أمر لا يُصدّق!"

تابع غراندساي: "شيء مُعد للجمود القسري للأبدية، لديه جميع الميزات التكيّف مع السرعة المشوشة للذهن ...."

"هذا جنوني! لا يمكن لهذا أن يحدث إلا في عصرنا"

"ما كان عليك أن تطرح هذا الموضوع " هتف بنبرة لاذعة من العتاب.

سأل غراندساي: "هل تؤمن بالخرافات؟"

"مصارع الثيران الإسباني لا يدخل الحلبة إن صادف في طريقه عربة دفن الموتى،"

"أنت لست إسبانياً ولست مصارع ثيران."

"لكني مؤمن بالخرافات مثلهم،" لحسن الحظ أن حضورك يطمئنني."

"هل تعتبرني محظوظاً جداً؟"

"ألا تعتقد أن هذه الرحلة مذهلة نوعاً ما؟" يُحلق بك الآن راندولف، أفضل طيار في أفريقيا، وأقنعتني بمرافقتك بالرغم من قَسَمي بأن لا أضع قدمي في طائرة مجدداً، أنت السلطة الوحيدة التي نجحت بكسب ثقة جميع الأحزاب السياسية وليس لديك حتى الآن سياسة واضحة المعالم. هل يعرف أحد منا لماذا يطيعك بالفعل؟"

سارت الطائرة على الأرض وعندما حلّقت قال غراندساي: "الطيران ليس عواطف أفروديتية مثيرة للرغبة الجنسية كما يطيب للمرء أن يفكر، بل هو على العكس من ذلك، عواطف أبولونية عقلانية تتعلق بجوانب الانضباط الذاتي للجنس البشري. مع هذا الطقس الساحر وبدون أدنى هزّة، يبدو الأمر كما لو أننا لم نتحرك أبداً. في القطار هناك دائماً أعمدة التلغراف التي تعطينا لمحة نسبية حول تحركنا من المكان أما هنا فليس هناك من شيء. لديك دائماً شعور بأنك لا تتحرك، بأنك ستصل متأخراً. الطائرة نوع من فقدان الإحساس بالزمن والمكان.

كان على فوسيريه أن يبذل جهداً ليلتقط كلمات غراندساي بسبب ضجيج المحركات ومع ذلك فقط كان مغموراً بالإعجاب بها إذ قال في نفسه: "ليس هناك من مقاومة لهيمنة هذا الرجل!"

كان الفجر قد ارتفع. كانوا يحلقون فوق البحر المتوسط، الذي كان أزرق بشدة، متلألئاً تحت سهام أبولو، مُغطى بحراشف السمكة الباردة الضخمة المنحنية المرسومة في الأفق. هناك غيوم ناعمة خفيفة منخفضة تلامس سطح البحر بدت وكأنها تطفو عليه، تجعله الأشكال المتغيرة الهادئة آهلاً بالسكان مثل انتصارات (نيبتون)[1] الأشقر. اصطفت

---

[1] نيبتون: إله الطقس والبحر. المترجم

حوريات بحر بنفسجية، ودلافين وفرس بحر، بوضعيات أبطال على سطحه، وكتبت عليه هبّات قصيرة من الريح رعشات فرح باللونٍ الفضيّ. يرتفع من باخرة تجارية مقصوفة عمود دخان وردي كثيف جداً يتلألأ مثل لون جسد (فينوس)، وتتناثر في كل مكان حول الباخرة المشتعلة نقاط سوداء نحيلة تعود للطاقم الذي يكافح ليعيش. تنتشر بقع من النفط على الماء مشكلة ما يشبه سطح بيانو هائل ناعم، يعكس شفافية السماء. أراد فوسيريه أن يلفت الانتباه لرجال يغرقون، لكن غراندساي كان نائماً ولم يرغب بإيقاظه. شرح مساعد الطيار لفوسيريه أنهم استلموا رسالة تتعلق بغرق السفينة قبل الإقلاع، لكن هناك حاجة لطائرة مائية للإنقاذ. كان بإمكان المرء أن يصل مبكراً دون شك، لكن ما من شيء يمكن القيام به لإنقاذ هؤلاء الرجال. استيقظ غراندساي عندما جلب مساعد الطيار أقنعة الأكسجين. كان عليه أن يطير عالياً جداً ليتجنب مقابلة الطائرات الإيطالية التي ربما تأتي نحو (بانتيليريا)، وبالوقت نفسه أعطوه السماعات الرأسية، يرغب راندولف بالتحدث إليه.

"مرحبا! راندولف يتحدث. لن يكون لدي وقت لأتحدث إليك عندما نصل إلى مالطا. سوف أعطيك على الفور الشيء الذي تحدثتُ معك بشأنه سيسيل غودرو. هذا في حال لم أعد من مهمتي التالية."

قال غراندساي: "لن أكون قادراً أبداً على تعويضك عن الخدمة التي تسديها لي،"

بدا راندولف الآن وهو يعطي الأوامر لمشغّل الراديو، وفقد مساعد الطيار فجأة أعصابه لأسباب لم يعرفها غراندساي، كما ساعد راندولف على وضع قناعه ومن ثم وضع قناعه واستلم القيادة عن راندولف. جاء الأخير وجلس قرب غراندساي، ساحباً من داخل معطفه الجلدي السميك علبة خشبية تبدو وكأنها علبة دواء، مربوطة بقوة بعدة عقد من شريط أحمر وأعطاها لغراندساي بالإضافة إلى رسالة تحمل اسمه على المغلف. نظر

راندولف وغراندساي أحدهما إلى الآخر، بدت عيناهما من خلال التعقيدات الوحشية لقناعيهما، متشابهة ومتساوية في النقاء، ولم يكن باستطاعة المرء بأية حالة أخرى أن يعرف إن كانت البرودة أم التسامي، هو ما منح تلك العيون بريقها الأروع. وبلحظة واحدة نزع الاثنان قفازاتهما وتعانقت أيديهما للحظة، كأولئك المتصارعين. نهض بعدها راندولف وعاد إلى القيادة وحالما نزلت الطائرة إلى ارتفاع منخفض أصبحوا قادرين على نزع أقنعة الأكسجين. بفقدانه تسريحة شعره بهذه الطريقة سحب غراندساي مشطه الذهبي وبدأ تنسيق مفرق شعره مستخدماً لوح الزجاج كمرآة، وفجأة بدا اللون المنعكس عن ذلك الخط الأبيض بالتحول إلى لون ناري بينما كان يلامس المشط. كانت هناك طائرة تحترق على مسافة قريبة منهم.

سأل غراندساي فوسيريه: "ما هذا؟"

كان الأخير يحرك رأسه بانفعال شديد مثل سمكة ذهبية خرجت للتو من الماء. كانت لدى غراندساي صعوبة بسماعه وكان عليه أن ينزع سدادات الأذن القطنية.

صرخ فوسيريه منفعلاً جداً: "لقد أسقطنا للتو طائرة معادية!"

"لم أكن أعرف أن هناك معركة،" قال غراندساي، منهياً تمشيط شعره. بعدها سأل فوسيريه: "هل نسينا النسخ التي أرسلها كوردييه؟"

في هذه اللحظة، هزّة مرعبة جعلت الطائرة تتصدع، كانت كحبة الجوز يُطَبّق عليها ضغط شديد قبل أن يصل إلى مرحلة التحطم، بينما ألقى غراندساي مشطه في الهواء، رأى فوسيريه ينهار بجانبه وقد هرع مساعد الطيار ومشغّل الراديو إليه. كان ميتاً. كانت النافذة فوقه مثقوبة بسلسلة من الثقوب الحادّة كذيل مذنّب متجمد. تُرك فوسيريه حيث كان ممدداً. غطوه فقط برداء محمرّ كان يضعه غراندساي على ركبتيه، وبينما كانت يد فوسيريه ممددة خلف الغطاء، أمسكها غراندساي لإبعادها عن مجال نظره.

كانت اليد دافئة وكان لها لون الخوخ. ضغطها غراندساي بامتنان. ظهر في هذه اللحظة مشهدٌ أفقده الانتباه كله، إنها مالطا! كانوا يحلقون على ارتفاع أقل من ألفي متر فوق الجزيرة التي كانت قد خضعت لقصف عنيف. مالطا لا تُقهر! مجمرة الكبرياء البريطاني، محاطة بالزبد!

ظهر راندولف الآن كما لو أنه مُحاط بهالة سماوية، كان متوهّجاً بالأضواء الداخلية لغضبه، لكن الضوء الأحمر الذي ينيره كان مجرد حرارة غضب أطلق لها العنان في الخارج، كالنار نفسها. لم يلفت رأسه، هل كان يعرف أن فوسيريه كان ميتاً؟ كان أديم السماء الغاضب المتورّم لا يزال مغطى بالثوران المرعب لجمرات مضادات الطيران الخبيثة، بينما تومض آخر أشعة السلاح الآلي الحارق لامعة مثل شفرات، وتنتشر على شكل صلبان، مفجّرة الصفار المقرف لبيض تم قليه في زيت مغلي مع أورام خبيثة من المتفجرات، مزيّنة النجوم بالقيح السميك لدخانها الكثيف الدموي وملطّخة الغيوم بقيء أحشاء القذائف المنفجرة.

تحتها كانت المدينة المشوّهة، جدائل كثيفة من الدخان، مثل قطع أدمغة من الزبدة السمراء، تنبثق من الجماجم المفتوحة للأبنية الكبيرة، والبيوت التي اقتُلِعت عيونها بملاعق غير مرئية من القنابل. هنا وهناك في القذائف الفارغة لواحدة من تلك المدارات المفتوحة، بقايا سرير عالق بزاوية مجنونة، وكأن عيون الأبنية احتوت على هياكل عظمية كربونية. تستلقي هناك بالكامل، قوية مثل قبضة إنكلترا المضمومة التي لا يستطيع أحد أن يخفف قوتها، ليست صلبة مثل الغرانيت الذي ينكسر، بل على العكس، متخمرة مثل جرح منتصر عظيم، مثل قطعة هائلة مصفرّة من جبنة (غرويير) ومعدّة للتضحية، كل فتحة فيها مُلقّحة بالموت، كل فتحة فيها ترشح بأخلاط وتزدحم بالحيوات التحت أرضية، ويُطلق على كل حياة بدورها ثقوب في الروح والجسد، يمتلئ الأول بأشواك الانتقام الكثيرة بينما يمتلئ الثاني بالأشواك العقيمة والجشعة للكزاز.

وعي كونت غراندساي فجأة على أن قبضته الملتهبة تمسك شيئاً بارداً ومزعجاً، نظر إليها وأدرك أنها كانت تمسك يد فوسيريه. ضغطها بشدة! أعطى راندولف الآن إشارة الهبوط.

جاء ملازم بريطاني وملازم أول لاستقبال غراندساي. حين خطا الأخير من الطائرة قال: "أحضرنا مُصاباً." وقف الجنود وقفة عسكرية حتى تم إخراج جسد فوسيريه من الطائرة ووُضِعَ على الأرض، بينما أصبحت السماء مغطاة بالحزم الهادئة المتقاطعة لكشّافات قوية ترسم صلباناً هائلة وكان باستطاعة المرء أن يقرأ في شبكتها المعقّدة إشارات النقمة والرثاء لعواطف الرجال المضطربة. كانت كما لو أنه من العمق البطولي لتاريخ مالطا، ترتفع قدمان عملاقتان ثابتتان إلى مركز السرداب السماوي، قدما (تمثال عملاق رودوس) اختفتا منذ فترة طويلة ويستطيع المرء أن يسمع من صدره البرونزي، الصوت الضعيف الحزين كصوت رجل مريض عجوز........ لقد تمت التضحية، أوقفت آخر صفارات الإنذار تأوهاتهم: لقد انتهى الإنذار.

بقي الكونت غراندساي أسبوعاً في مالطا دون مساعدة فوسيريه، مسترشداً بالإرشادات الحكيمة لأورميني. بُحِثت خططه بجرأة وبدون أدنى كبح خارجي، تتوجت بالنجاح المطلق بالرغم من الجرأة والخطر. كان قادراً على العودة إلى شمال أفريقيا منتصراً.

بعد أن نجح راندولف بإلقاء المظليين الاثنين فوق (كالابريا)، تم إسقاط طائرته خلال عودته وتم التقاط حُطامها والتعرف عليها بما لا يدع مجالاً للشك. كُتِبَ في الرسالة التي تركها راندولف للكونت غراندساي ما يلي:

"لدي هاجس قوي بأن مهمتي في (كالابريا) ستكون الأخيرة. إن كان الأمر هكذا، أريدك حالما تصل إلى نيويورك، أن توصل الصليب المحتوى في الصندوق إلى فيرونيكا ستيفن، لتنقل إليها الخبر وتخبرها بأنني لم أنسَها لحظة واحدة. فيرونيكا ستيفن ليست عشيقتي ولا خطيبتي ومن الصعب حتى أن أقول إنها صديقتي لأنها عرفتني عندما كنت أرتدي خوذتي وتقابلنا فقط صدفة خلال

تكرار الغارات الجوية في ملاجئ باريس. ومع ذلك بدا من تلك اللقاءات أن شغفاً قوياً قد تشكل لديها نحوي. شكراً لك وحظاً سعيداً لكما.

جون راندولف."

وصل غراندساي متأخراً ليلاً إلى فيلا أورميني. كان الأمير وسيسيل ينتظرانه فيها بنفاد صبر.

قال غراندساي لدى رؤية صديقيه: "نجحت مهمتي بشكل كامل." وأضاف: "قُتل فوسيريه في الطريق في طائرتنا. وأُسقِطت طائرة راندولف لدى عودته من (كالابريا). لكن ما المشكلة لديكم هنا؟" سأل ذلك وأصبح على الفور غاضباً من الأسلوب المتحفظ واللامبالي تقريباً والذي استقبل به أورميني تلك الأخبار الهامة.

"قُمِعَت ثورة العرب بالدم،" قذفت سيسيل تلك العبارة مبدئياً.

"أعرف،" قال غراندساي ، متوقعاً على الفور العواقب الأسوأ.

"بروسيون في السجن،" تنهد أورميني وهو مشغول البال جداً ومراقباً عن قرب ردّة فعل غراندساي.

"هذا سيئ،" قال الأخير بجفاف، وأضاف بنبرة حادة من العتاب: "ليس عليك أن تخبرني بهذه الأمور الآن. لا يسعنا القيام بشيء قبل الغد، لا بدّ أني بحاجة ماسة للنوم، أنا منهك من التعب."

علّق أورميني: "علينا أن نخبرك لنمنعك من الذهاب للنوم في القارب. عليك البقاء هنا من أجل الأمان. نحن نتعرض للملاحقة بشكل دائم منذ أن رحلت، والعرب وبدفع من الشرطة يطوفون حول البيت على مدار الساعة بشكل دائم،"

"سأنام هنا، سأشعر على القارب وكأني سجين الحارسين الشخصيين."

صعد إلى الطابقِ الثاني واعتزل. صحا في الساعة الثامنة صباحاً ونـزل مباشرة إلى اليخت عازماً على طرد حرّاسه. وجد قرب الرصيف طـائرة ورقيـة موضوعة على الرمل، وخيطها الطويل ملفوف بعنايـة إلى جانبهـا. لم يسـتطع غراندساي الذي تعيل شخصيته النزوية لإظهار شـذوذاتها بشـكل مبـالغ فيـه عندما يكون تحت القيود، مقاومة إغواء التقاطها. نظـر نظـرة سـريعة للأعلـى ونحـو الشـاطئ وأخـذ الطـائرة الورقيـة بجشـع طفـولي كونـه لم يـر أي أثـر لصاحبها، ثم أخـذ المركـب الشراعي وذهـب إلى اليخـت. قـام هنـاك بفصـل عنصري المارينز طالباً منهما ترك موقعيهمـا فـوراً. وبـالرغم مـن المفاجـأة فقط نفّذا الأمر دون ضجة.

هبّت رياح قليلـة صـباحية منعشـة، لم يسـتطع الكونـت التركيـز أو حتى الاهتمام بالأمر الخطير الذي لا يمكن إنكـاره بعـد تلـك الطاقـة الخارقـة التي استهلكها أثناء رحلته إلى مالطا الأسبوع الماضي. وبحالـة نصـف واعيـة، حل عدة لفات من الخيط المربوط بالطائرة الورقية وأطلقهـا في الريـاح المواتيـة. أفلتها وجذبها ومن ثم أفلتها مرة أخرى. كـان صـفاء السـماء مطلقـاً ولم يكـن هناك من غيوم إلا غيمة على شـكل معيّن، تشـبه ندفـة ثلـج نزويـة، معلقـة بنهاية الخيط الذي يمسكه بيديه، تحلق حيناً وتبقى بلا حـراك حينـاً آخـر. حل عدّة لفات أخرى من الخيط بينما كـان يفكـر في مواضـيع أخـرى، وكـأن الطائرة كانت تتوسل إليه أن يفعل ذلك منذ وقت طويل.

عندما أتى مساعد البحار الثاني ليُعلِم الكونت أن الأمير أورميني طلب بشكل عاجل أن يراه، استدعى غراندساي راهبتـه وأخبرهـا بينمـا كان يعهد إليها بطائرته الورقية: "امسكيها بينمـا أذهـب إلى الشـاطئ — ولا تجعلي الخيط يتعقد!"

"تخيلي غرانـدسـاي! — لا أسـتطيع منـع نفسـي مـن الإعجـاب به!" هتف أورميني مقتحماً غرفـة سيسـيل غـودرو ويـداه مرفوعتـان إلى السماء. "هل تعرفين ماذا يفعل؟ لن تستطيعي أن تخمّني!"

"أخبرني أنت!" صرخت سيسيل، نصف خائفة ونصف مستمتعة بالتوضيح الذي من النادر أن يعطي الأمير متنفساً له.

قال أورميني وهو يغوص في كرسيه الجلدي الإنكليزي القديم ذي الزراعين: "حسناً، الكونت غراندساي يطير طائرة ورقية! انظري، انظري فقط! ليس مجرد تخيلات. أنا لا أستطيع التفكير بالمطلق بشيء كهذا،" وأشار إلى النافذة. لكن سيسيل كانت تنظر سلفاً إلى اليخت الراسي في الخليج. وهتفت: "هذا غريب جداً! لكن هذا ليس الكونت، إنها الراهبة من تُمسِك بالخيط."

"لقد أعطاها الخيط، لأني قد أرسلت له كلمة ليأتي إلى هنا. عليه أن يعرف ببساطة خطورة وضعه بشكل كامل. نحن لم نر نهاية لهذا. لأن غراندساي أخذ هذه اللعبة دون أن يزعج نفسه بسؤال فيما إذا كانت تخصّ أحداً ما. والآن، لدينا في المطبخ شاب عربي رأى طائرته الورقية تطير فوق يختي وهو يصرخ بأعلى ما يستطيع بأنها سُرِقَت منه وأنا أتساءل فيما إذا كان هذا الشاب واحداً من أولئك المدفوع لهمَ من قبل الشرطة وما إذا كانت تستخدم ما يُسمَى................"

دخل الكونت غراندساي في هذه اللحظة إلى الغرفة. "أنتم بالفعل تصنعون من الحبّة قبّة،" قاطعهم، "لقد أعطيت الشاب مئة فرنك وقد ذهب سعيداً مثل قُبَرة."

ساد صمت مُخجِل وقال أورميني، "أنا لم أرغب بأن أقول لك في الليلة الماضية. رفضت السلطات بشكل قاطع أن تمنحك الفيزا الدبلوماسية، وجعلت من المستحيل عليك أن تغادر معنا إلى أمريكا. علينا التصرف بسرعة لأنه في الخامسة من مساء الغد تُبحِر سفينة (فرانسوا كوبيه) إلى جنوب أمريكا. أنا ألحّ جداً، هل تفهم، ألحّ على ذهابك معنا. لأن بقاءك هنا سيكون انتحاراً. لا أنا ولا سيسيل سوف نتركك هنا وحدك، محاطاً بأسوأ أعدائك!"

سيسيل والتي كانت مصدومة جداً بموت راندولف، جلست الآن باكية بصمت.

"لا أعرف إن كان من الصحيح المغادرة!" بقيت تكرر بصوتها الأجش الذي تكسره التنهدات. "هذه البقعة من أفريقيا لا تزال فرنسية!"

ردّ أورميني بحزم: "نحن لم نعد في وطننا هنا منذ أن أصبح من المستحيل علينا أن نتصرف،"

تمتمت سيسيل غودرو: "البقاء هنا مشابه للموت، والمغادرة تقتلني!" قفزت على قدميها وصرخت بصوت غير مفهوم: "فرنسا! ما الذي فعلته بسيفك!" وألقت بنفسها على السرير، تتعذب بتنهداتها المتشنّجة.

لم يبادر أي من أورميني أو غراندساي بأدنى تصرف لمواساتها لأن أعينهما لمعت فجأة بحل غير قابل للتغيير بمشكلة المغادرة.

قال أورميني واضعاً يداه على كتف الكونت: "أطلب إليك أن تنفّذ خطتي حرفياً وللنهاية،" وتابع بطاقة غريبة، "وسوف أتلقى التأييد هذه المرة، لأنها الخطة الوحيدة الموجود لدينا. وما سأقوم به من أجلك يعرّض حياتي للخطر. كل ما أريده هو ست صور لك. وكلما كانت أقل وحشية كان أفضل. في الواقع، باستطاعتك البقاء هنا مع سيسيل وتنتظرني حتى المساء،" وبينما كان احتجاج غراندساي أقل ما يمكن، ابتسم الأمير له بأكثر الابتسامات التي ظهرت على وجهه خلال حياته إنسانية وامتلاءً بالمشاعر وقال: "ابق هذه المرة، والعب بطائرتك الورقية."

أتى الأمير أورميني متأخراً في المساء وأحضر أخباراً لغراندساي. كلاهما مع سيسيل غودرو والراهبة التي تلقت التعليمات النهائية للمغادرة، كانوا يروحون ويجيئون بهدوء على سطح اليخت، يتوقفون لحظة ويبدؤون من جديد. كان البدر قد ارتفع للتو في السماء. قالت سيسيل: "إنه رائع جداً – يشبه الصيف،". تحدث الجميع بصوت

منخفض. قال أورميني: "اسمع، أسمع تجذيفاً." استمع الجميع بصمت. كانوا مواطنين في قارب صيد وكانت الراهبة تعرفهم، إنه باتا وأولاده الأربعة في طريقه لصيد سمك السلور الذي يستطيعون الحصول عليه عندما يختفي القمر." انسلّ القارب وخطا بنوع من السلام الخارق.... صمت رائع........ يسمع المرء فقط الارتطام الخفيف للماء على العارضة. بدت الطائرة الورقية منقوعة بضوء القمر مقابل حاجز السفينة مثل شعاع نجمي نزل هناك كبرج من الأبراج الفلكية.

تنهدت سيسيل "يا إلهي، هذا السلام وكل هذا الجمال — أكثر مما يستطيع المرء تحمّله، إنه ليس من هذا العالم! هل سنقدر يوماً على الرحيل؟"

قال أورميني: "غداً في الساعة الخامسة،"

قال غراندساي: "إن لم نكن جميعاً في السجن."

أجاب أورميني: "نجاحك في مهمة مالطا سيجعلهم ينتظرون، للتفكير بأشياء أخرى،"

قال الكونت وهو يرفع صوته بدون إرادته: "كم هي رائعة مالطا!"

قالت الراهبة: "صه!، هناك قارب آخر خارج لصيد السلور."

قال غراندساي لأورميني همساً: "أنا خائف جداً من أن يتحول بروسيون إلى مخبر عندما يسمع بموت فوسيريه،" لم يجب الأخير الذي كان غارقاً في التفكير وساد هناك صمت طويل. كان أحد الصيادين العرب يغني أغنية حزينة باللغة الإسبانية. وعند كل توقف لكي يلتقط أنفاسه، يمكن للمرء أن يسمع الماء يتقطر من المجذافين:

آمالي ميتة

ذهبت إلى القبر

وقابلت حبيبتي

التي كانت في الحداد!

آه، آه، آه

سأل غراندساي الراهبة" "كيف هي قدمك؟"

"لا زالت تؤلمني،" أجابت محاولة تركيز وزنها على القدم التي كانت تعاني من النقرس. وبفظاظة ضربت القدم نفسها بكامل قوتها بالأرض، مغلقة عينيها لتسيطر على الألم وصرخت: "أستطيع الذهاب إلى أمريكا على قدم واحدة، حتى عرجاء إن كان ضرورياً. حتى سمك السردين الصغير الذي نأكله له رائحة الألمان!"

"إذن، أنت سعيدة لمغادرتك في الغد؟" سألها أورميني، مستمتعاً بنفاد صبرها.

قالت الراهبة مختتمة بغضب كوميدي: "غداً؟ أردت المغادرة البارحة!"

أخذ أورميني الذي كان مستغرقاً بالتفكير كلاً من غراندساي وسيسيل بذراعيه وقادهما إلى الطابق السفلي، بينما حاولت الراهبة التي تعرج من الألم اللحاق بهم لخوفها من نسيان بعض تفاصيل محادثتهم.

قال أورميني: "انظر، بدءاً من الغد، يجب أن يبقى القارب بدون طاقم على السطح، يجب أن يبقى إضافة لنا نحن الثلاثة فقط البحارة الثلاثة الذين سيعيدوننا إلى الشاطئ. في الساعة الثالثة والربع سيأتي قارب ويأخذ غراندساي والراهبة إلى سفينة (فرانسوا كوبيه) التي ستغادر إلى (بوينس أيرس) في الخامسة. تم إبلاغ قبطان السفينة بكل شيء – تم شراؤه بمبلغ غال جداً لكنه موثوق! عليك أن تغادر المكان مرتدياً الملابس الرسمية كملازم طيار. بينما على ظهر (فرانسوا كوبيه)، تغلق على نفسك في الأعلى مع الراهبة في مقصورتي ذات الغرف الثلاث. ليس عليك مغادرتها ولا لأي سبب. كل ما عليك القيام به هو أن تنتظرنا. سنصل أنا وسيسيل في اللحظة الأخيرة"

"لماذا عليّ تمويه نفسي بلباسك عندما أغادر هذا المكان؟"

"لكي ننجو، لقد وضعت في هذا الصباح تحديداً منزلي ويختي في تصرف الحكومة. وغداً حكومة الجندرما سوف تستولي على البيت. سنكون تحت المراقبة. قال موجهاً كلامه إلى الكونت: "عندما تغادر، سوف يعتقدون بأنك أنا. أعطيت كلمة شرف بأنك باق، لكن بالمقابل تلقيت وعداً رسمياً بأنه ليس من الحكمة أن يتم إزعاجك بحضوري — سيجنّبونني هذا ويتصرّفون ضدّك بعد أن أغادر."

"بعد ذلك قرروا اعتقالي؟"

"لبعض الوقت فقط."

ساد الصمت. وسأل غراندساي بعدها بنبرة متشككة: "وماذا عنك؟ كيف ستغادر المركب في اللحظة الأخيرة دون أن يروك؟ وكيف سنتجنّب تفتيش الشرطة قبل أن ترفع (فرانسوا كوبيه) مرساتها؟ تبدو لي كل تلك الأمور بطفولية مطلقة!"

"تلك هي نظرتي الشاملة!" قال أورميني بقوة، وهو يبذل جهداً ليقف. "تذكّر الآن ما قلته لك: أدنى انحراف عن خطتي سوف يكلفني حياتي، وعلى أية حال، إن للإخلاص حدوداً. أكره دائماً أن أتوقع مخاطر شخصية!"

جلس أورميني مرة أخرى ضاغطاً جبهته المجعّدة من التعب، أمام أصابعه الممدودة من يديه المرهقة التي بدت محنّطة بسبب الإحباط. بقي هكذا لوقت طويل. كانت سيسيل قد علقت نفسها بعنق غراندساي وكانت تتوسل إليه: "هيا الآن، دعه يقوم بالأمر بطريقته! دعه يقوم به بطريقته لمرة واحدة!"

"حسنا، سأغلق عيني عن كل شيء، لكن اعتقد أن علي أن أخبركما أن بعض الجنود قد أتوا بعد ظهر هذا اليوم برسالة لي من قائد الشرطة."

"ماذا؟ وبماذا أجبت؟" سأل أورميني، مندهشاً.

"لا شيء! رفضت قبولها وأعدتهم خائبي الامل."

"ليست قضية، سيعودون في الغد على أية حال....."

باكراً في الصباح التالي قام الأمير بزيارته الأخيرة لغويميه قائد الشرطة الذي كان يعرفه منذ الطفولة.

قال له: "اسمع، أيها العجوز، لا أريد إعاقتك عن القيام بواجبك، لكن الكونت كان واحداً من أهم أصدقائي. أطلب إليك، أياً كانت مسؤوليتك ألا تدع أي شيء يحدث قبل مغادرتي. أيضاً، وكما وعدتني البارحة، لا أريد لأي شخص أن يأتي ويزعجنا في مقصورتنا في (فرانسوا كوبيه). إن شرف الآنسة التي تغادر معي يعتمد على ذلك. سيسيل غودرو ليست ذاهبة. أنا أعهد بها إليكم وأتركها تحت حمايتكم. إنها صديقة حميمة للكونت: هي الشخص المناسب الذي سيكون وسيطاً بينك وبين الكونت – أنت تعرف أنه مندفع وغير متوازن قليلاً."

أجاب غويميه: "أعرف، رفض البارحة حتى أن يقرأ الرسالة التي أرسلتها له."

في الساعة الثالثة أتى قارب من (فرانسوا كوبيه) لنقل الكونت غراندساي والراهبة وبقي الأمير أورميني وسيسيل وحدهما على ظهر اليخت. بقي البحر هادئاً ناعماً ولامعاً كلوح من الرصاص. امتزجت السماء مع البحر وبدا انعكاس الجبل عبر الخليج قاسياً ومادياً مثل الجبل نفسه، كما لو أن الزيادة المتناظرة لمظهرها المزدوج ما كان إلا استمرارية مقلوبة لها. في فترات متباعدة فقط يقوم سمك البوري بالقفز من الماء ويبدد أوهام المطلق، مجعّداً سطح الماء بدوائر متحدة المركز.

قال أورميني: لا يزال أمامنا ساعتان، لن تخمّني ماذا أحضرت معي." صعد إلى المقصورة وسحب غليونين من الأفيون. "سوف ندخن، إنه يهدّئ أعصابنا. يمكننا من هنا أن نرى كل شيء يحدث في الجهة الأخرى....." وقاما بتدخين الأفيون.

على الشاطئ، أمام بيت الأمير أورميني، وقف مجموعة من الجنود يتحدثون. كان بينهم خمسة مدنيين، ثلاثة رجال وفتاتان. كان الجميع قلقين وخاملين، جلسوا على الرمل بوضعية غير مريحة فقط لينهضوا مرة أخرى على الفور، متوقفين ليلتقطوا الحصى التي سيرمونها على نحو مرتبك في الماء ليجعلوها ترتدّ، جالسين على مقاعد ليقوم أحدهم بتصوير الآخر.

"يا للقدرة التي لدى البشر على القلق العقيم!" هتف أورميني، متماسكاً وكأن لديه المَلَكَة المعاكسة للبقاء دون حراك كدمية عرض أزياء لساعات طويلة.

"يا للمساكين، إنهم مرضى بشكل رهيب. يبدون كما لو أنهم بحاجة ماسّة لتفريغ مثاناتهم، لكن ذلك ليس خطأهم في الواقع. هذا واضح تماماً. ليس لديهم أفيون! أنا أتفهّم غراندساي الآن، عندما تشعر أنك لم تعد تستطيع التحمّل وأنك عاجز تماماً، ما الذي يكون أكثر متعة من أن تطيّر طائرة ورقية!"

في الساعة الرابعة والربع، صعد ثلاثة من الشرطة قارباً صغيراً كافياً بصعوبة لحملهم، وبدؤوا التجذيف بهدوء قرب اليخت.

"ها هم، إنهم قادمون لإحضار الإنذار الأخير لغراندساي. يعتقدون أنه هو الموجود بدلاً مني. اخرجي واستقبليهم. أخبريهم أن الكونت نائم، وأنك ستعطينه الرسالة وتحضرين الإجابة خلال نصف ساعة."

"وماذا بعدها؟

"سأقول لك فيما بعد،" أجاب أورميني وأغلق على نفسه في مقصورة غراندساي.

سار كل شيء كما توقّع، أوصل الجنود الرسالة من غويميه رئيسهم وعادوا كما أتوا، متريثين قليلاً وملتقطين الأعشاب البحرية الحمراء العالقة في نهاية المجذاف، أو مستخدمين الأخير لنقر قطع الفلين الطافية بمحاولة لجعلها تغرق. أمضى أورميني وقتاً طويلاً يقرأ رسالة غويميه. أصبح أسلوب الأخير نحو الكونت قاسياً. أرسل بطلبه ليغادر القارب ويظهر أمامه. وفي نهاية الرسالة، على

أية حال، ناشد وطنيته حتى أنه استحث الألوان الثلاثة. قام بعدها أورميني إلى بار اليخت وفك العلم الفرنسي الصغير المعلّق بين زجاجتي نبيذ من نوع (أميه بيكون) والمحاط بأعلام أمم أخرى، طواه مرتين ووضعه في مغلف وختمه بالخاتم الرسمي الذي تركه الكونت على مكتبه.

قال الكونت لسيسيل: "هذا هو يا عزيزتي، اذهبي إلى الشاطئ وأعطيهم هذا المغلف. أخبريهم أنك ستعودين خلال عشر دقائق، لكن بدلا من ذلك، ودون أن تخسري لحظة واحدة، قومي بالهرب، لديك الوقت الكافي فقط للوصول إلى سفينة (فرانسوا كوبيه). ستلتحقين هناك بالكونت فوراً وتنتظرينني. لدي أشياء أنهيها هنا، لكني سوف ألحق بك بأسرع وقت، وسأكون على السفينة بعد نصف ساعة من وصولك كحد أقصى."

دخلت سيسيل إلى المقصورة للحظة لتستعدّ للمغادرة، وعندما أصبحت في القارب الشراعي بدت مترددة. أثنى أورميني على الزينة التي وضعتها للتو – "حجارة كثيبة" عمامة رمادية تنتهي بحجاب تنزل إلى خصرها، تلتصق وتحيط به مثل حزام.

"إنه مناسب جداً للسفر" لكنه فوق كل هذا باريسي جداً. من حيث أقف وبإغماض عينيّ قليلاً، يبدو تماماً كما لو أنني أنظر إلى مشهد بانورامي لباريس."

نطق أورميني تلك الكلمات بينما وقف منحنياً فوق درابزين الجسر، مائلاً قليلاً، يبرز جذعه فوق حافة المركب مثل أحد التماثيل المحسّنة على الأبراج القوطية لنوتردام. "والآن سيري بطريقك يا عزيزتي. سأراك عما قريب!"

ابتسم ابتسامة عريضة وداعية بينما كان يراقب رحيلها، ضاغطاً بقوة أسنانه التي كانت تلمع سلفاً في شمس بعد الظهيرة مُظهرة اصفراراً أشدّ من المعتاد، كما لو أنه كان يعصر نصف شريحة من الليمون في فمه، وكما لو أن هذه الفاكهة قد تمكنت على الرغم من المسافة من بخ نقط الحموضة في كلتا عينيه. نصف شريحة الليمون من ابتسامة أورميني

تضاءلت تدريجياً، ولاحقاً، استطاعت سيسيل أن تخمّن أنه لا زال يلوّح بيديه بسبب خاتمه الذهبي الذي يلمع في أشعة الشمس.

ضغطت سيسيل المغلف المنتفخ إلى حد ما والمحتوي على العلم ببعض القلق. أنتج التلامس "الطري" غير المتوقع الذي أحدثته المحتويات فيها إحساساً شريراً غير قابل للتعريف. بعد أن دار القارب نصف دورة حول الشعب المرجانية، توجهت بشكل مباشر إلى الشاطئ حيث كان يقف مجموعة الجنود. سلمت سيسيل المغلف وغادرت على الفور، هذه المرة باتجاه ميناء الدار البيضاء، لتركب سفينة (فرانسوا كوبيه) وتلتحق بالكونت والراهبة، اللذين كانا بانتظارها.

في اللحظة تحديداً التي فتح فيها رئيس الشرطة غويميه المغلّف، كان ينظر بحالة من الغيبوبة إلى العلم ثلاثي الألوان الذي أمسكه بين أصابعه والذي كان الإجابة الوحيدة على رسالته المطالبة تسليم غراندساي لنفسه، سيسيل غودرو، كانت سلفاً بعيدة في وسط الخليج، أدارت رأسها لتلقي نظرة أخيرة على قارب الأمير أورميني وأصيبت بالعجز لرؤيتها الطائرة الورقية تتدفأ بأشعة الشمس، تحلق بشكل مهيب فوق اليخت. فكرت بشكل غريزي: "شيء مرعب سوف يحدث!" لكن لم يكن لديها الوقت لبلورة الانطباع عن خوفها. مزّق انفجار ضخم صمت بعد الظهر المتأخر، وارتفع عمود من الدخان على شكل دوامة من يخت أورميني الذي بعد أن انغمس بعنف في القوس المائي بدا للحظة وكأنه يستعيد استقراره بينما انفجرت الشعلة منه في جميع الاتجاهات واستقرّ تدريجياً على جانبه. كان أورميني قد انتحر، مفجّراً غرفة المحرك بالديناميت!

أبقت سيسيل عينيها ملتصقتين بذلك اللهب، وبالدخان الأسود الذي يرتفع الآن عمودياً وعالياً جداً في السماء، بينما كانت تصرخ بالبحارة، "بسرعة بسرعة! ما فعله غراندساي ليس محور اهتمامنا! أسرعا! عليّ أن أبلغ أورميني بذلك."

"أنا سيسيل،" طارقة على باب مقصورة الكونت. فتح غراندساي الباب وسأل: "ما المشكلة؟" وعلى الفور صُدِم بنظرة سيسيل المرتبكة بالمطلق.

"ما المشكلة؟" كررت العبارة بنبرة حاسمة. لفّت حوله ذراعيها اللتين أصبحتا قويتين كذراعي رجل وقادت الكونت نحو الشعاع الطويل من الضوء الذي يأتي من الفتحة.

قالت سيسيل: "تعال إلى هنا، تعال هنا إلى الضوء. أريد أن أراك. أشعر بالفضول لمعرفة ما الذي ستفعله عيناك عندما تسمع ما أريد أن أقوله لك. انظر إلي.... تعال، إرفه!"

الراهبة التي تعاني من تكرار هجمات النقرس كانت قد اقتربت عبر سلسلة من العرجات المؤلمة والرشيقة بالوقت نفسه.

"هل أُلقي القبض على أورميني؟" جاذف الكونت بينما هزّت سيسيل رأسها بابتسامة مرعبة لامرأة مجنونة، وتوقّع هو الأسوأ.

"إذن، حاول الهرب وأطلقت الشرطة عليه النار و........."

تابعت سيسيل غودرو هزّ رأسها لكن ببطء ومرارة، وقالت أخيراً، وهي تطرق بكل كلمة، "لقد قتل نفسه مكانك وأغرق قاربه."

تركت الراهبة نفسها في هذه اللحظة تجثو على ركبتيها، مطلقة بعويل حزين يشبه صرخة بشرية تكاد تكون طفولية لدلفين تم إخراجه للتو من الماء. وأخفت وجهها بمئزرها محاولة خنق تنهيدة أخرجتها بسلسلة من هزّات متشنجة متقطعة متناقصة والتي تبدأ مع كل انفجار للدموع بالأنين المبدئي نفسه. لتسلم الراهبة نفسها لليأس بشكل أفضل تركت نفسها تسقط من ركبتيها إلى وضعية الجلوس. سيسيل غودرو، بعنادها الاستحواذي الذي جعله تعاطيها الأخير الأفيون أكثر قوة، أمسكت وجه الكونت بيديها، وبمخالب يديها حفرت وضغطت محجري الكونت الجافين المليئين بالأحلام وأملت أنها بهذا النوع من التدليك القلق، ستسحب منه الدليل على بعض الضعف في لامبالاته. كانت تكرر بعتاب وتملّق وتوسل في الوقت نفسه، "بربك الآن، ابك، ابك، لماذا لا تبكي!"

غراندساي الذي كان قد تحمّل هذا السيل بلامبالاة رزينة، أوقف فجأة يدي سيسيل، ممسكاً بمعصميها الصغيرين الغاضبين اللذين كانا ينتظران هذا فقط، بيد سلطوية وقال: "لماذا تريدينني أن أبكي على تصرف يملؤني فخراً بصديقي؟"

حررت سيسيل إحدى يديها من القبضة التي أصبحت حنونة، رفعتها وداعبت خصلة من شعر الكونت الرمادي، الذي نادرا ما يصبح أشعث، وناظرة بعينين مليئتين بالدمع إلى تينك العينين اللتين ترفضان أن تدمعا وقالت لغراندساي بنبرة عتاب رقيقة بشكل لا نهائي: "أنت ترى الآن.......... أورميني المسكين! ليس علينا بعد الآن الاستماع إلى رائحة أسراره النتنة!........"

وبعدها استدارت بفظاظة ومشت بسرعة نحو المرآة، معدّلة خمارها كما لو أنها تستعد للمغادرة فوراً.

"أنت لن تتركيني الآن؟"

لفتت غودرو رأسها قليلاً إلى الكونت وتطلعت إليه من خلال خمارها الذي يغطي وجهها وأجابت: "نعم! أنا باقية إلى جوارك."

"أراد أورميني أن تذهبي معنا، أردناكِ أن تأتي إلى أمريكا معنا!"

كانت ردّة فعل سيسيل المتواضعة على هذا الضعف هي بالفتح السريع لحقيبتها الصغيرة التي أحضرتها وبسحب عقود اللآلئ الرائعة التي ألقت بها على السرير بحركة مليئة بالضجر. وقالت: "خذها، أعطها لراهبتك. ربما تكون مفيدة لك. أنا لم أعد بحاجة إلى أي شيء. كانت هدايا من أورميني، هل تفهم؟ هي تخصّ عشيقته، الكونتيسة ميهاكوسكا، لقد أعطتها لي. هل تتذكر تلك الملاك المسكينة؟ وتعرف الطريقة التي أجبرَت بها لتمسك كلاً من هذا اللآلئ بأسنانها!"

"نعم، كنت قد سمعت تلك القصة لكني لم أصدقها."

"حسناً، إنها صحيحة كما هو صحيح وجود هذا اليوم. كان أورميني يربط يديها خلف ظهرها ومن ثم تجثو على ركبتيها......... ما الذي يعنيه هذا بالنسبة لنا، الآن أو في أي وقت آخر؟"

عادت سيسيل إلى طبيعتها ثانية. وأملت بترك كلامها عفوياً وعادياً أن تجعل غراندساي يقبل اللآلئ التي وضعها في حقيبتها مجدداً والتي سحبتها مجدداً ووضعتها على السرير.

"لا يزال قلبي يخبرني طوال الوقت، "ليس صحيحاً! ليس صحيحاً أن أغادر!" سأعود مجدداً إلى باريس – إلى وكر الأفيون – الطحلب الأخضر – قبو العائلة! أنا لم أعد خائفة من ذلك مطلقاً. سوف أبقى مع الموتى."

في هذه اللحظة أعطت صفارات الإنذار أول إشارة لها للمغادرة. كان صوتاً طويلاً، وعندما توقف قال غراندساي مجدداً، عارفاً سلفاً أن جهوده لتغيير رأيها ستكون عقيمة، "لقد كلفت مغادرتنا سلفاً حياة أورميني. عليك فقط أن تخلعي خمارك لتغيير مسار قدرك. نحن هنا في أمان كامل. لقد تحدثت لنصف ساعة مع القبطان. ليس بوسعك المغادرة لاحقاً، حتى ولو أردت ذلك."

"ليس عليّ ذلك، لن أرغب بذلك،" أجابت سيسيل متحدثة بعجلة.

قال غراندساي وكأنه يحاول أن يسمح لنفسه بأن يقتنع: "أعرف ذلك، ليس هناك من إحساس يسحبك نحو تلك البلاد!"

أصبحت سيسيل أقرب إليه، مستعدة تماماً للرحيل، وقالت بظلال مقلقة من الغنج: "ما الذي تعرفه عن مشاعري؟ هل تساءلت يوماً إن كنت ربما أحبك؟" وبينما ضحكت له بتلك الحلاوة الصريحة التي بدت بلحظة أنها أصبحت أكثر شباباً بعشر سنوات. سحبت خمارها وقالت: "قبلني، على أية حال!"

تعانقا بحماس ومن ثم غـادرت. وأدرك غراندسـاي أنـه اكتشـف للتـو وللمـرة الأولى أن تلـك المخلوقـة الخريفيـة بلـون عينيهـا التشـريني يمكنها أن تثير رغبته.

غادرت سفينة (فرانسوا كوبيه) ميناء الدار البيضاء قبل ساعات، وكانت تبحرِ الآن في البحر المفتوح تحت الهلال الأول لقمر مضـيء قـاسٍ محدّب قليلاً ومتكسر مثل طبق خزفي للكة غجرية.

"لم أعد أريـد الـتفكير بـأي شـيء، أريـد النـوم حتـى نصـل إلى (بـوينس أيـريس)..................... ليـت تلـك الراهبـة تتوقـف عـن النحيب!" كانت متلهفة جداً، وتلح عليه ليكون أول من يغادر، وبما أن السفينة رفعت مرساتها بدأت تبكي بكل طاقتها.

القسم الثالث

ثمن المجد

6/ قوة القدر

خلال ثلاثة وعشرين يوماً من العبور من الدار البيضاء إلى (بوينس أيرس)، لم ينسى الكونت غراندساي حلقات المؤامرات الدرامية والدسائس التي عاناها فقط بل أيضاً حقيقة أن الحرب بحد ذاتها موجودة. لم يعد قادراً أن يرى بوضوح ما هو المختبئ خلف الضباب الكلي لنشاطاته السياسية المستقبلية، وقرر مع ذلك الاستبداد النزوي الذي يميّز القليل من استغراقه وتمنعه، إبعاد ذاكرته عن كل شيء ربما يسبب له أدنى إحباط، ما ترك بخبث ثغرة صغيرة من السماحية مفتوحة لحضور المتعة.

رغم أنه وعد نفسه بهدوء تصالحي، وأخذ ينبوس دماغه عطلة من فقدان الذاكرة، فقد تعرض لهجوم سريع لا هوادة فيه من تداعيات عنيدة مهلوسة للشهوة الجنسية، كانت قد كمنت له مدة طويلة جداً خلف نشاطاته اليومية الكثيرة التي توقّفت الآن فجأة. أصبح عقله فريسة سهلة و "مرعى" لأفكار خيالية لا تنتهي — تدحرج الأمواجُ حصيّات شفافة من مواضيع السحر المتعاطف العظيمة، ومن الهوس الشيطاني، بشكل رتيب على الرمل وتجعلها أفضل وأكثر صقلاً.......... حصيّات باهتة تحوّلت إلى لون أخضر مثل حماسة قديمة متلألئة تنبعث من رماد النسيان.......... جميع الذكريات الحقيقية منها والخيالية، لتجاربه حبّه المسهبة المتناثرة باضطراب على طول الشاطئ الثمين لحياته، تجمعت الآن معاً وترتبت من خلال الشهوة الجنسية في آنية برّاقة عظيمة من الأنانية المترفة التي خزّن بها كنز متعته السرّية. استطاع

الكونت مع الضربات الثابتة الماهرة القليلة لمطرقة هوسه وإزميله وامتناعه المنحرف عن الجنس، أن يثير المزيد والمزيد من ومضاتٍ سحريّةٍ، لكنها انتهت بخسارة الشبكية الدماغية واللب البصري والمادة النخاعية.

كما لو أن قبلة سيسيل غودرو السريعة، بالرغم من حدوثها بظروف المغادرة الدرامية، قد استثارت فيه تأثيراً مقلقاً شحذ كل أحاسيسه وحفزها بسرعة. وإن لم يكن في ذاكرته، التي أصبحت مؤخراً مُفعمة بالعواطف، عن حادثة مالطا، سوى شبكة عنكبوتٍ أعرج مغطاة بالغبار وثلاثة لطخات عار سوداء شريرة لرفاقه الثلاثة الموتى الذين دُفنوا كما يُقال، في الزاوية المعتمة من الإسطبل الذي تهجع فيه الحيوانات المدجّنة لغرائزه السياسية، لا تزال قبل سيسيل غودرو غير المتوقعة حيّة، وغدت إحساساً أكثر حقيقية من اللحظة التي حدثت بها. كما لو أنه كلما استحضر صورة سيسيل بالخمار الذي كان يغطي وجهها حينها، وجد لديها القوة لتجدد اللدغة التي أصابت رغبته بلسانٍ سريع متحمّس باردٍ غير مرئي لأفعى، بالرغم من المسافة والزمن.

كيف له أن يشكك بإمكانية حدوث أمر كهذا؟ لقد صرف العديد من الليالي الطويلة في الحديث مع سيسيل وحدهما ودون أي مراقب سوى أربعة رؤوس لأربع سجادات من جلد الدبّ، موضوعة مع الساتان المناسب لجو إدمان الأفيون، دون أن تمرّ ومضة واحدة من الشهوة الجسدية في التلال الجافة غالباً من كبته الطويل. بدت له سيسيل الآن مغطاة بسمات تمزج ظلالاً جذابة لانهائية من الخبث والشفقة. تخيّل ساقيها الجميلتين اللتين لا عيب بهما، تنبثقان صامتين مطيعتين من الأماكن التي تحققت فيها أعظم عربداته وانغماساته الخياليّة المعرفية. وليس نادراً ما كان يُستبدل، في ذروة المشاهد المثيرة للقلق وفي اللحظة الأخيرة، وجه سيسيل المحتجب بنعومة بالخمار الرمادي بذلك الوجه العادي للآنسة تشيدستر إيمز الذي كان قد قدّم بدوره حتى ذلك الحين، التجسيد الإنساني لآلهة الحقول والقطعان عند الرومان بسيقان لا عيب فيه وأجساد مغطاة بفرو لامع ناعم لمخنثين.

لكن إن حملت صورة سيسيل الآن لجاماً ذهبياً من مواكب مسرفة من فسوقه، مسرجاً على الفهود المرغة بالطين لانحرافه، بدا كائنٍ مفرد من الجهة الأخرى يفصل نفسه عن هذا الجزء من نفسه ومعذباً جداً بشهوات أساسية، كائن مفرد واحد ينبثقٍ في كل مرة أكثر انتصاراً من كل المحن الجديدة لرغبته التي تتزايد تطلباً، كائن مفرد واحد يبدأ الظهور له ككائن نصف سماوي – سولانج! سولانج دي كليدا التي وجدت طريقها إليه من خلال كل جدران كبرياءه، مدرّعة وحسب بالكرامة وجمال صورتها، صورتها العارية التي تمر عبر الحفر العميقة الشائكة المسممة بأفاعي الظلم الفظيع للاحتقار الذي حاول الكونت أن يسجنها به. نعم! هو لم يعد يخفي ذلك عن نفسه منذ أن ركب تلك السفينة، لقد وجدت روحه المستغرقة منذ زمن طويل بمأساة وطنه، الآن وقت فراغ لتسهب التفكير بها: أصبح مدركاً للندم العميق الصادق بسبب تصرفاته القاسية عديمة الرحمة واللاإنسانية نحو الكائن الواحد الذي عرف أنه عَشِقَهُ بشغف كامل حتى العبادة.

سولانج دي كليدا! التي تخيلها الآن كاملة، نافورة لويس الرابع عشر الشفافة، التي تحوّلت فيها كل سمات شخصيتها إلى معادن ثمينة "نُصِبَت" عليها روحها كتمثال. ينظر إليها ولا يراها: منحوتة بهندسة سماوية، كان "حرير" الكريستال الصخري لروحها فقط مرئياً من خلال شفافيتها. لكن إن بدت له روح سولانج أبعد عن مدارك الحواس أكثر فأكثر بسبب نقائها الشفاف، فإن كل ما يمكنٍ تسميته زينة "لنوفرتها" لم يعد يظهر له كضوء وسمات واقعية. على العكس تماماً، كانت كل ورقة من تواضعها وكل تاج من كياستها منقوشاً بتفاصيل دقيقة وفن مصقول، كتحفة نادرة من الجواهر. وهكذا فقد أظهرت الزخارف المنحوتة المنفذة بشكل دقيق في الحدود المعدنية غير الشفافة، النعومة والشفافية الصافية للإناء الذي وقف في مركز كيانها العميق. أي عناد وصرامة كان قد أظهرها نحوها! أرادت أن تتزوجه؟ ما الخطأ في هذا إن كان مجرد رغبة من شغفها؟ ما الذي لم يفعله بنفسه ليحوذ على جزء صغير من السلطة في روح بلده الذي حكم عليه بالظلم نفسه لتعذيب مرثيات النفي بدون محاكمة عقاباً له على كبريائه.

ربما كانت سولانج زوجة لا تُقارن، تماماً كما كان أورميني واحداً من أفضل أصدقائه، تماماً كما امتلكت سيسيل غودرو فضائل شيطانية، قادرة مثل تشيدستر إيمز على إيقاظ سحر رزيلته المعذبة.

أبحرت السفينة بإيقاعٍ محركاتها الرتيب. تفتحت الآن من خلال تجاربه الأخيرة، عيناه المغمضتان دائماً أمام متطلبات شخصيته التي لا تُقهر. لكن ألم يفت الأوان؟ في مواجهة أميال المحيط الأطلسي الذي كان يبدد بلا مبالاة كل ساعة من رحلتهم، بدا له سوء التفاهم مع سولانج كقطرة ماء مالح تصغر وتصغر وصولاً إلى لحظة التبخّر دون ترك أي أثر سوى طعم مرّ بعض الشيء.

كان يكرر لنفسه أنه لم يحبّ أحد غيرها أبداً كما وعد نفسه أن يبدأ مراسلات الحب معها حالما يصل إلى أمريكا. هل ستقدر أن تأتي وتنضم إليه؟ تذكر هذا الرجل، الذي لم يفكر لحظة واحدة بفوسيريه المسكين، والذي لم يستطع انتحار أورميني أن يستجرّ منه دمعة واحدة، تذكر الآن بعواطف لا حدود لها الجملة الأخير التي تلفظت بها سولانج عندما تعاملٍ معها بشكل شنيع ونزل الأدراج دون كلمة وداع. "اعتني بنفسك جيداً!" متخلية عن كل جهد للدفاع عن نفسها. لم تفكر حينها إلا بهذه الكلمات وقد لفظتها بنبرة حب مؤثرة ومليئة بحنان أمومي.

وبينما كانت سفينة (فرانسوا كوبيه) تخلّف وراءها دوّامات الزبد سريعة الزوال لخطى رحلتها واحدة بعد الأخرى، خرج الكونت إلى ضوء النهار بعد واحدة من أوهامه الحسية الاستبدادية السوداء، كان يحرك شفتيه تدريجياً ليكرر لنفسه بدون صوت، "اعتني بنفسك جيداً!" تطلب الأمر حجم محيط من المرارة لتبلل عينيه: "ستقتلعني مرارة الحرب وعارها من جذوري وتجعلني أشعر بك تغرسين جذورك في قلبي، سولانج دي كليدا!

كانت صورة أمواج المحيط من على سطح المقصورة تمرّ بشكل مقلوب رأساً على عقب. أغلق عينيه ورأى بحدّة بصر غير معهودة، مواكب انتصارات مشابهة لتلك الموصوفة في لوحة (حلم بوليفيل) التي رسمها (بيرو

ديلا فرانشيسكا). إن رَغِبَ أن يتفحص واحدة من خيالاته بتمهل، عليه فقط شدّ عضلات جفنيه. بدا وكأنه يركز الغشاء البصري لهلوساته ، ليتمكن من حل شيفرة النقوش الغامضة لكل نصب تذكاري، وليستمتع بزخارف الزهور المنقوشة على كل قضيب من القضبان الذهبية لعجلات العربة التي تدور على محاور العقيق الأسود الذي رأى فيه بعض الأوردة البيضاء بوضوح.

استطاع بفضل تلك المقدرة على إثارة تخيلاته إلى حدّ الوضوح المسبب للعمى، ومن خلال التركيز على ابتسامة عابرة، أن يرى الخطوط المجعّدة للسفالات المباركة المرسومة بالحدة نفسها على تمثال نحته (كاربيو)، واستطاع تمييز الشذوذات الدقيقة لكل من الأسنانَ النقية المبللة باللعاب – تخيلاته بدورها مبللة، سناً سناً. تمكن حتى أن يميز من خلال الحِجابات التي على أجسادها، ظلالاً مختلفة للون قرمزي خاص بأسماك السمون، على حلمة نهود حوريات راقصات.

كل عربة انتصار من الشذوذ مرّت عبر رؤياه، سُحِبَت من قِبَل مخلوقات مختلفة، من قِبَل كهنة متوجين بأوراق تحمل مزهريات أحجارَ نفيسة عربية من "رغبة سَائلة"، حيوانات وحيد القرن بأرداف أنثوية، ثيران بيضاء كالزبد، أسود بوجوه ملائكة.............. افتتحت سيسيل و تشيدستر إيمز المرتديتان جلد بقرة البحر الموكب، تسلعان بسوطيهما المصنوعان من أغصان الآس وتتركان شكل الآس معلماً على الأجساد التي لا تعد ولا تحصى لعبيد عشيقاته التي أعطاها كراندساي المنغمس في الملذات الآن أسماء عاشقات مشهورات من العصور القديمة – (سيلتا مورغانا) التي تحولت إلى نهر من الحليب، (أليمبريكا) ذات اللثة البيضاء، (هيموفيا) اللطيفة التي أحبت الدم، (كورينا) ذات الثديين الطفوليين، و(ناكريا)! لكن في وسط هذا الحشد الخاضع لملذاته الشخصية يرى المرء عربة رئيسة كانت في الوقت نفسه ضريح ونوفرة أدونيس. يتمدد على هذه العربة حصان التعاسة الشاب الأبيض بالكامل، الذي امتطته سولانج مثل ملكة، سعيدة لكنها

مرعوبة قليلاً، تمسك يداها بعرفه لخوفها من السقوط على منافستيها السابقتين الجميلتين اللتين كانتا تقومان بإيماءات تدعو إلى الرثاء. لبست سيسيل ثوباً من الذهب الأزرق حيث تُجرّ عربتها ستة قناطير من سلالة (إيكسون) مزودة بسلاسل برونزية قوية مسطحة الشكل – يا إلهي، كم كانت تلك السلاسل البرونزية المسطحة مناسبة بشكل جميل! لقد استعارها من ساعة لويس السادس عشر، واحدة من أخر مكتسباته قبل مغادرة باريس – لدى الكونت عادة الخلط بين عشيقاته اللواتي يمتلكهنّ مع التحف القديمة والأنتيكات التي كان قد اشتراها. كان يكرر غالباً: "ليس هناك شعور واحد من مشاعري إلا ويمكن نحته في حجر – ربما كانت عبارة عن طفيليات حدباء قليلاً "إن شئت"، لكن حدبتها تشكل زينة بشكل نصف دائرة وتبدو أوضح بسبب أوراق الشوك النبيلة." كانت سولانج دي كليدا الآن هي الآنسة تشيدستر......... لقد استحضرها مغروسة في سهل (برو دي ليبرو)، السهل المضيء. فكر باليابسة بينما تراقب عيناه باحتقار البحر الذي يجتازه........ البحر مرّ للبعض، لأولئك الذين يحبونه، الرومانسيين، والبعض طعمهم مرّ بالنسبة للبحر، الكلاسيكيون. ينتمي غراندساي للنوع الثاني، والمحيط الذي يعرف ذلك أظلم بسوداوية بينما ابتسم الكونت غراندساي لدى الوصول إلى حدود القارة الجديدة.

منذ وصولهم إلى أمريكا، باربرا ستيفن وفيرونيكا وبيتكا وابنها والآنسة أندروز، يعيشون في قصر لباربرا في وسط الصحراء قرب (بالم سبرينغ). هناك، حول قصر المزرعة، لا شيء يشبه النباتات الطحلبية الموجودة في فرنسا – مجرد فراغ تتناثر فيه صخور تنظر نحو السماء القاسية بثقوبها الفارغة. وبينما بقيت باربرا داخل قصرها بشكل دائم لتتعامل بإجراءات احتياطية دقيقة مع دائها القلبي المتفاقم، أهدرت فيرونيكا معظم وقتها في الخارج تعدو على ظهر حصان، تدوس قلبها كما يقال، تحت حوافر حصانها الذي يستجّر شرارات النار من الصخور وتنثرها إلى فتات من التورمالين الخام، مخيفة السحالي الملكية العظيمة

التي كانت مثل "جبنة التورمالين المصقول،" تنزلق دون أن تجرح نفسها بين سلاسل الصبّار القديم المجروح في الخاصرة. يشكل الصبار في كل ليلة مجموعات من الإيماءات المتحجّرة للصعود إلى الصليب والنزول عن الصليب والتي تظهر ظلالها أمام عقيق غروب الشمس.

كانت فيرونيكا تركب حصانها الكستنائي، تنحني جبهتها المدوّرة بعناد وتضغط بفخذيها اللؤلؤيين ككماشة على خاصرتي الحصان وتمتزج معه في تواصل لؤلؤي من عرق القنطور. عاشت هكذا، تركب أوهامها محافظة على الإخلاص المطلق لصورة "الرجل ذو الوجه المختبئ"، وبين العمق المعتم الرطب لقبو منزل (كو ديس أورفيفر) حيث عرف أحدهما الآخر وبين الطمي المشع المتكلس للمكان الذي ربّى عليه حصان نفاد صبرها أمله، لم يكن هناك إلا الصحراء والجفاف البطولي للحب. تظهر في كل ليلة كوكبة الألماسات الثلاثة للصليب الذي أعطته له، معلّقة بارتعاش في السماء. على أي خط عرض كان هذا الصليب الآن مُبحِراً نحوها؟ لأنه أشرق بشكل مختلف متناسباً مع إشارات قلبها. مع كل لعابها المعالج الذي جففه تمرين ركوب الخيل العنيف، كانت تطمس آثار الندبات التي أصابت وجه بطلها واحدة بعد الأخرى ليتحرر قريباً من العناق الواقي لخوذته التي ستنفتح كشقرة بيضة. عندها سوف يأتي إليها دون أي ندبات سوى المتعلقة بالمجد.

توشك أن تنفتح ستارتان لتُظهرا الأفق البعيد لحياة فيرونيكا المأساوية. كانت الأولى سوداء بالكامل وعليها نقشاً: "لا شيء أكثر تأكيداً من الموت." كانت تلك ستارة الحداد على أمها التي توفيت بمرض القلب بعد شهر من وصولها إلى أمريكا. كانت الستارة الأخرى راية بيضاء نقية، لها رائحة خشب الصندل العطرة القوية، يمكن للمرء حلّ رموزها بأحرف لاتينية أربعة مشكّلة من أزهار متداخلة مزخرفة – IMHN – والتي تعني العذرية. أُسدِلت تلك الستارة أمام النوفرة لتخفي ما خلفها، وكانت فيرونيكا، تعلّق خمارها الممزق بجسم هذه النوفرة التي كانت على شكل

جسد أدونيس الإنساني. كانت فيرونيكا في نوبة من الخجل ومزاج عذري قد جرحت وجهه وأدمته، وكان هو يبقيه مخفياً بخجل وراء غصنين من الآس.

أيقظ موت باربرا ستيفن حب الأبناء الناعس لدى فيرونيكا، تماماً كما توقظ أجراس الكنائس المرء أحياناً في اللحظة التي تتوقف فيها عن الرنين. أحبت فيرونيكا الآن أمها لأنها لم تكن مدركة أبداً لحياتها. وبما أن عينيها لم تكونا معصوبتين بتشويش العواطف، كانت قادرة أن ترى "ما هو الموت"، لقد بدا لها مشابهاً تماماً للصورة التي لديها عن الرجل ذي الوجه المختبئ. لقد أصبح حبها مَرَضيّاً بشكل خطير وامتزج حبها المتنامي لوالدتها وتبجيلها لها بشغفها به، بدا حضوره مؤكداً بالنسبة لها مثل موت والدتها التي مر وجهها أمامها لحظة واختفى، بدت لها عذوبة هذين الشعورين متساويتان. لقد أصبح الصليب الصغير مصبوغاً بالانعكاسات الشريرة للكسوف وأصبحت تلك الألماسات الصغيرة مجدداً مسامير المسيح المصلوب.

لأنه كما لو أن موت باربرا ستيفن الذي لم يهدئ أبداً قلق ابنتها المتهور، أبرز نوباتها إلى حد المبالغة كما شحذ مواضيع هوسها. أصبحت سريعة الغضب بشكل مرضي. في الليالي، وعندما تعود من ركوبها المجنون على الحصان عبر الصحراء، تسرع وتغلق على نفسها في غرفتها وكأنها خائفة أن يأتي شخص ويقطع عليها حلمها. متجاهلة كل الاتفاقيات، كانت تعبر الفناء الكبير المزدحم بالمحامين والصحفيين ورجال الأعمال الذين المنتظرين يوماً بعد يوم موعداً مستحيلاً معها. كنت بوجهها المقطب تتلاشى في كل وقت مثل عصفة ريح وكأنها ممسوسة بأرواح شيطانية، ولم تكن تعترف بحور الآخرين إلا من خلال حركة يدها الممسكة السوط. لحسن الحظ، ساعد إخلاص بيتكا الكامل غير المحدود، والمدعوم بتفاني الآنسة أندروز، جزئياً من غفلتها الكاملة. أخذت بيتكا على عاتقها الاهتمام بالمصالح الواسعة للوريثة الغنية ورتبت أن تقود مصالح صديقتها بحكمة كبيرة. لكن فيرونيكا التي كانت غير ممتنة لتضحيتها ولساعات جهدها

الطويلة، امتعضت من كل ذلك. نعم، تنامى شعور عميق لدى فيرونيكا ضد بيتكا: تدخلت بيتكا بعلاقاتها الخاصة، بالرغم من أن فيرونيكا تعرف أن ذلك كان فقط من أجل صالحها. بيتكا لديها طفل وتدّعي فيرونيكا أنه يكرهها. كانت بيتكا قد تركت نهديها يكبران. حاولت أن تتصيد مشاعر فيرونيكا السرية، كانت تحب أن تتأمل جسدها بإعجاب، وفوق كل شيء، تستاء فيرونيكا من حقيقة أن الأخيرة ترفض بعناد مشاركة أسرار شغفها، وهي لم تتنازل أبداً أبداً لمقاربة الهذيان البدائي لفيرونيكا.

إن الخطأ الوحيد الذي كانت بيتكا مذنبة فيه في الواقع هو أنها لم تستسلم لأي نوبة بوح لمكنونات القلب التي كانت السبب الوحيد لرغبة فيرونيكا بصداقتها. تقول فيرونيكا بغضب: "يا لها من صلابة!" وتشعر بالغيظ باستمرار وتقول لنفسها: "كيف تفعل ما في وسعها لتتجنب الحديث عنه، الرجل ذا الوجه المختبئ!" فيرونيكا بدورها، وبدافع الكبرياء فقط، تفضل الموت على القيام بأقل مبادرة لفتح هذا الموضوع الذي شعرت أن صديقتها تحمل عدوانية مريرة تجاهه، كان كما لو أن بابا، الذي استُبعِد من حياتهما المشتركة، كان حبيب بيتكا الوحيد!

وبالتالي كان هذا الصمت المتبادل الضمني هو الموضوع الأساسي الوحيد الذي يفرق بينهم جاعلاً من علاقة صداقتهم قوية ومبجّلة أكثر من أي وقت مضى، وأكثر تمجيداً وحدّة حتى من قبل لأنها كانت أقل إشباعاً، كانت معذّبة و مُشبعة بالتعاسة كألماس فيه بعض قطرات من المرارة في مركزه. تعاني بيتكا بدورها بصمت، ينهشها الكثير من عذاب الغيرة، ليس نحو بابا الذي نسِيته، بل نحو تعدد المُتع المرتدة من الأقواس المنتفخة بالدم التي تكّون الرجل، والتي عرفت أنها تجعل جسد فيرونيكا البيولوجي المتيقظ النقيِ الذي لم يُمس، في حالة من الهلوسة الدائمة من الترقب، بينما شعرت أكثر وأكثر بهروبها من حياتها الخاصة. نعم، لن يكون الرجل الذي سيظهر في أية لحظة،

مجرد عدو للرجل الذي تخلت عنه من أجل صديقتها، بل سيكون عدوها وجلادها. سواء أكان مخلوقاً فاقد الحس بملامح مطموسة اختارته فيرونيكا أو شخصاً آخر بوجه حقيقي، ليس هناك من فرق، لقد كرهته سلفاً! لأن هذا الرجل، وبسبب إحساس صديقتها بالمطلق، كان سيضع علامة نهاية غير قابلة للإصلاح لكل شيء بينهما وستكون تلك النهاية هي البداية لكراهيتهما — سوف تكره فيرونيكا — هل كان ذلك ممكناً؟

بانتظار ظهور الرجل، كانت بيتكا وفيرونيكا تتخاصمان بصمت حول طفلهما، طفل بيتكا، وبينما كانتا تجلسان بشكل جانبي كما في لوحة قديمة تمثل مشهد الختان، ستمسك الأولى الطفل من ذراعه بينما الأخرى من ساقه، وبدلاً من أن تقدم اليدان المداعبات، كانتا تضغطان على جسد الطفل بمخالب الغيرة. كيف لهما أن يتشاركان به وهو الذي لم يعد يميز في عواطفه إلا على أنهما شخص واحد؟ اثنتان، يجب أن تكونا واحداً! واحداً بالنسبة له، واثنتان بالنسبة لهما!

بين فيرونيكا وبيتكا، تُنظَّم في كل يوم دراما صغيرة، يتبعها مصالحة مثل شرائح المندرين المرّة، أصبحت المعارك الدائمة تدريجياً أفضل ما في صداقتهم. عاملت فيرونيكا بيتكا في واحدة من تلك المناسبات بخشونة شديدة وأخضعتها إلى أهوائها المتطرفة ووصلت حدّ طردها من المنزل. توسلت لها لتبقى وجعلتها تبكي ومن ثم واستها وجعلتها تبكي من جديد، وأخيراً هتفت بيتكا المليئة بيأسها بحقد وقالت: "ليس هناك ما هو أشرس من عذراء!" قالت الحقيقة، لأن للعذراوات أسنان حادة تبدو مثل الحراب، وأفواههنّ مثل السلال المليئة بسهام يحملها (كيوبيد) [1] بحزام يتدلى على كتفه.

وفي مناسبة أخر أخذت الأمور منحى أكثر خطورة عندما ضربت فيرونيكا ساقي الصغير بلسعة من سوطها الذي تستخدمه أثناء ركوب الخيل. وعلى الفور،

---

[1] كيوبيد: إله الحب عند الإغريق، وتظهر صورته كرسم لطفل بجناحين يحمل قوساً وسهاماً ويرمي للناس بسهام الحب. المترجم

أسرجت حصانها وامتطته هاربة في الليل أثناء عاصفة رملية قوية، وانطلقت بيتكا خلفها لخوفها من قيامها بتصرف متهور بسبب حالتها غير المتوازنة. لحقت بها أخيراً. بدت فيرونيكا، بعينيها اللتين تستحمان بضوء القمر الجديد، وكأنها لم تعد ترى، كانت عيناها مليئتان بالرمل. للمرة الأولى كان لدى بيتكا الشجاعة لتقول لها: سوف تتحولين إلى أشلاء إن تابعت التفكير بمخاوفك عديمة القيمة. أنت تعرفين أني كتمت عنك حقيقة معرفتي بالطبيعة المرعبة لانحرافاتك، وقد كرهتنا سلفاً أنا وابني بسبب ذلك الشخص الذي لم تري وجهه ولم تسمعي صوته."

"أعرف أني مريضة. وسأراجع طبيباً لأجل هذا، لكن ليس لمعالجتي: أريد منه أن يعرف ما أريده! أنا بحالة من الجنون!؟

لفظت تلك الكلمات في انفجار من الاستياء بينما أصبحت هادئة بالوقت نفسه مثل الحديد المحمى عندما يتحول للأبيض، هادئة ومركزة كتمثال أعمى من الحماقة، عته ثابت يتأمل بأوهامه. بعدها كررت: "طبيبي سوف يساعدني على إيجاده! ابقي هنا واعتني بنفسك وبابنك. أنت غبية. سأنطلق وأحاول أيجاد مخاوفي عديمة القيمة............ أشعر بالحنين للتشظي. حتى عندما كنت صغيرة كنت أفضّل أن تكون الدمى دون رؤوس، وكذلك أفضّل بالنسبة لحشرات كنت أراقبها في الصحراء. تشويه، سراب جميل! لا تملك النُبل إلا الآلهة المحطمة وأبولو المشوه ووجوه الفلاسفة عديمة الأنف. أما بالنسبة إليك، أنت مثل القديسة (أغاثا)[1] التي أنظر إليها كل يوم أحد في القداس، كلما رغبت أن أحبك، شعرت برغبة بقطع نهديك!"

غادرت فيرونيكا وحدها إلى نيويورك في اليوم التالي وبقيت بيتكا وابنها والآنسة أندروز في (بالم سبرينغ). استقرت بشكل باذخ في قصر (بارك

[1] أغاثا: القديسة أغاثا من صقلية، عاشت حياة مكرسة لله وكانت شابة جميلة ثرية، لكن لسوء الحظ جذب جمالها أنظار الحاكم كوينكتيانوس وحاول ابتزازها لتصبح عشيقته كجزء من اضطهاد المسيحيين وعند رفضها سلّمها إلى ماخور دعارة لمدة شهر، وعندما رفضت الخضوع أيضاً عاقبها ببتر ثدييها. المترجم.

أفينيو) الذي كانت قد ورثته من أمها. لقد كانت على الدوام فاترة جداً وأرادت الآن أن تحيط نفسها بالعناية، بمحيط دافئ منسوج من أعشاب النزوة وريش الوهم. خرجت أنوثتها المراهقة من نوافذ روحها، وصارت تلك الأخيرة مثل منقار حمامة، تأتي وتذهب، محضرة خصلات قش الزواج بمنقارها. كان كما لو أن فيرونيكا، بغريزتها الحيوانية، تصنع عشها. لقد كانت بالفعل تصنعه.

كان تجار الأثريات أشبه بطيور صغيرة جافة، يضعون دبابيس ربطات العنق على كشاكش الدانتيل، وكانوا يساعدونها لبناء عشها بشكل طقسي، قافزين حوله بأيديهم المليئة بخزف يشبه البيض النادر، برقصة بطيئة التي لا ينكسر فيها شيء. بدت حياة الأمازون العنيفة التي كانت تعيشها مؤخراً، جحيماً من التعذيب الذي ينحني فيه جسدها المتهور بغموض ويأس لتمزيق نفسه لأجزاء دون أي نجاح. يكفي حصى حادة كالسكاكين! يكفي صحراء من الحب! الحرية الحرية من بيتكا وابنها والجياد، من الرياح الحارقة التي لا زالت تسفع بشرة وجهها وتجعل أسنانها تصرّ برمل قاحل من الأحلام الجارية، متنبئة بنهر نيل لموسمها الجاف! "أنا مستعدة الآن لتشويه نفسي، أريد أن أتخلص "منها،" لكن بدلا من ذلك، ربحت الحرب مرة أخرى اليوم، مُقحِمةً في هذه المرة بلدها هي، وشعرت فيرونيكا بخنجر اليابان البارد يدخل جسد مشكلتها الشخصية فاتحاً فجوة من الماء الجليدي الذي أغلق فتحة الرغبة من لافتضاضها.

تم إنهاء عشها في يوم (بيرل هاربور)[1] تحديداً. وفي دوامة من الدخان الأسود، ومع الهياكل لمعدنية للبواخر الأمريكية الملتوية المنكمشة كأذرع نجم بحر جاف هائل انقلب تحت سماء ليس فيها نجوم، شعرت

---

[1] يوم بيرل هاربور: هو اليوم الذي قامت فيه القوات البحرية اليابانية بضربة عسكرية مفاجئة على القاعدة العسكرية الأمريكية في منطقة (بيرل هاربور) في هاواي في السابع من كانون الثاني 1941 وأدى الهجوم إلى دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية.

فيرونيكا بقرار تضحيتها الشخصية لبلدها يخدش جسدها برايات الأمجاد القديمة ورفرفت رغبتها مثل الراية الأمريكية. لأنها لم تحب وطنها فقط بل عرفت نفسها به. نوفرة أدونيس؟ قبرٍ أدونيس؟ هو، وفقط هو! حياً أو ميتاً، حقيقياً أو مزيفاً، يبقى وحيداً ومميزاً في أفكارها، الآن وخاصة منذ أن كان وجهها سيختبئ بدوره بسبب الحرب، منذ تلك اللحظة التي كان يتحضّر فيها شق فمها لينفتح، كان سيُغطى بغشاء بكارة التضحية، بالقناع اللاهث الذي يضفي لمسة غامضة على وجوه ممرضات العمليات الجراحية.

قررت أن تصحب ممرضة، وطلبت على وجه التحديد أن تُعيَّن للعناية بالجرحى بشدة. أرادت أن تقترب من الحرب، من أكثر ما تقدمه حدّة وبتراً. بالإضافة لذلك، خلال الشهرين الذين أمضتهما في نيويورك منذ وصولها، كانت مصادر المدينة من الإغواء قد استُنفِذت. كم من الأحيان قالت لنفسها خلال تلك الفترة، مختبرة التعبير الساخر الذي لم يكن يناسبها أبداً، "أستطيع في النهاية أن أمنح نفسي الراحة من العذاب المرهق للصحة والهواء النقي بأن أسيء إلى كبدي بأسلوب برجوازي جيد، في الجو المنشط والمريح للملاهي الليلية، مرتشفة المشروبات الكحولية التي تقلب معدتي لكنها تمنحني وهماً لمدة ساعة ونصف يومياً بأني ذكية!"

تركت فيرونيكا الآن القشة التي كانت بزاوية فمها تسقط بقرف، وبدلاً من الجولة على الملاهي الليلية بدأت برؤية الطبيب النفسي ألكان، الذي بدأت معه صداقة عندما قابلته لدى عودتها إلى أمريكا على الباخرة (إكس كاليبور) نفسها. أرادت شيئين منه — استعادة توازنها العقلي واستخدام علاقاته كي تكسب القبول في المستشفى.

يمكن للطبيب ألكان، ودون أن يكون وسيماً، أن يكون مغوياً بذكائه النشيط معطياً المرء شعوراً بأنه كان على الدوام يلعب لعبة الغميضة مع عقله، من خلال وجهه العاري جداً المسطح، الذي كان يسمو بالإثارة الدائمة للأفكار. لكن فيرونيكا كانت تعرف الكثير عن التحليل

النفسي ولن تغفل عن ميلها الطبيعي المحتوم "للتحول" وتمكنت من تحديد حاجتها لرؤيته باستمرار، أحياناً مرتين في اليوم، لصداقة مخلصة بسيطة، صداقة تعرف أنها ستكون ملزمة بإعطائها الكثير من نفسها، ربما أكثر مما يجب، بمجرد أن يطلب الدكتور ذلك.

كل ما كانت تتوق لإخباره لبيتكا التي كانت تعبدها والتي كانت مستعدة لكرهها تقريباً بسبب هذا ولم تتمكن يوماً من إخبارها به، كان بوسعها أن تقوله الآن الذي لم تشعر بميل تجاهه إلا ما سببه لها اعترافها بخيالاتها الهذيانية المتعلقة دوماً بالموضوع الهوسي للرجل ذي الوجه المختبئ. تلك الاعترافات قربتها يومياً منه بفسق العادات السرية التي جعلت لقاءاتهما في النهاية لا غنى عنها أكثر وأكثر، والأسوأ أنه لا بديل عنها. من غيره في الواقع، يستطيع أن يستمع لها بفهم شديد؟ وبالتالي، عندما أعلن لها في فترة العلاج، أنه كان مغادراً لفترة قصيرة إلى أفريقيا لينضم إلى الجيش الفرنسي الذي يقاتل في سوريا، كان ذلك نوعاً من الضربة لها وكانت ردة فعلها ضخمة جداً بحيث بدت غير قادرة على التغلب على خيبة أملها. ولتعتاد على فكرة حتمية انتهاء جلساتهما، قررا عقدها بفترات أبعد، مقلصان عددها إلى الحد الأدنى. أصبح حزنها الآن مضاءً بالأضواء المفتوحة لليال لا تنتهي من عدم النوم رافقها فيها الأرق بعينين عششت فيهما الدبابير، أرقٌ بثوب الطويل تتساقط منه خرزات الساعات واحدة تلو الأخرى.

نصحها ألكان بإصرار بالعودةِ إلى (بالم سبرينغ)، لكن فيرونيكا وجدت نفسها الآن غير قادرة أن تفكر بالمكان الذي ماتت أمها فيه دون خوف. ما الذي أصبحت عليه الطاقة والإرادة، والصحة النقية لحصان أصيلٍ جعل منها قلعة منيعة أخلاقية؟ تقترح الإرادة ويتصرف اللاوعي، وبدلاً من الشجاعة الفعالة التي وعدت نفسها بها بدا كما لو أن أبراج روحها قد انهارت فجأة بصوت الحرب، تماماً كما انهارت جدران أريحا مع صوت بوق موغابي. لأن فارس الهوس الذي لا وجه له،

والذي يحاصر روحها، كان قد أكمل للتو الدوائر السبعة المطلوبة حول حصن عذريتها. تأخر رحيل ألكان وتأجل من يوم إلى يوم، وأصبح عدم التأكيد هذا أسوأ من أي شيء آخر بالنسبة لها.

وهكذا مر عام وأصبحت حالة فيرونيكا العقلية مستقرة تدريجياً، غارقة في تشوش ضبابي لذاكرتها وتخيلاتها. أصبحت الأعراض المرضية المبطنة أكثر إثارة للقلق بالنسبة لألكان، منذ أن بدأت فيرونيكا "الاستمتاع" في البحث عن ملجأ بي ذراعي مرضها النفسي كما لو أنها تستند على الصدر المواسي للحل الوحيد.

في الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، كان اللقاء بين أندريه ماريون و ألكان في الساعة الخاصة بالذكور والمخصصة لتناول شراب سريع في بار (كينغ كول) في فندق (سينت ريجس).

سأل ماريون: "ماذا تطلب؟"

"لقد طلبت للتو (دوبونيه). ما الذي تريده؟"

"سآخذ نوعاً تقليدياً" قال ماريون لدومينيك الساقي. بعدها، تنهد وتوجّه بالحديث إلى ألكان: "أترى، أنا أتكيف. إنها الويسكي، ماء وسكر. ليست مقرفة جداً وتحافظ على وعدها. لقد تعلمت ذلك من سنة مضت."

"لكن أخبرني أيها العجوز، هل تعرف من هنا؟"

"الكثير من الناس!"

"هل تعرف من هنا؟" أصر ألكان مرة أخرى بحالة من الإثارة.

"من؟"

"الكونت غراندساي!"

"لا أصدق ذلك!"

"قابلته البارحة بعد الظهر في متحف (فريك)،"

"لقد قيل أنه توفي،" اعترض ماريون، وهو يقرمش رقائق الشيبس.

"أعرف، نشرت أخبار الدار البيضاء، أنه قد فجر نفسه على ظهر يخت الأمير أورميني،"

"اسمعٍ أيها العجوز، الجميع كانوا موتى والجميع بُعِثوا إلى الحياة، وعاجلاً أم آجلاً، سوف يظهرون هنا. قيل أن الجنرال (دوتيليل) قتِل في حادث طائرة. حسناً لم يكن صحيحاً. كذلك المغني (تشارلز ترينت)، هل تعرفه؟"

"ما الذي حدث معه؟"

"لا أحد يعرف عنه شيئاً،" قال ماريون. شربا بصمت. نظر ماريون إلى الفتاة المثيرة وقال: "بالمناسبة، ماذا يفعل غراندساي هنا؟"

"لم يرى أحداً ولم يعطي رقم هاتفه الخاص لأيٍ شخص، لكنه يعيش هنا. لا بدّ أنه في مهمّة. قال لي أنها سيسافر قريباً."

قال ألكان فجأة: "يجب أن أسرع. تأخرت. لدي غداء أخير مع فيرونيكا ستيفن. هل تُقيم في فندق (سينت ريجس)؟"

"نعم، حالياً،"

"إذن سأتصل بك — سنتعشى معاً. لا تقل ليٍ أن ليس لديك وقت. سأغادر بعد ثلاثة أيام إلى سوريا. أعرف مكاناً، حانة صغيرة يقدمون فيها طعاماً مميزاً!"

طلب ماريون من دومينيك: "أعطني كأساً آخر من الشراب التقليدي"

قال ألكان الحقيقة، لأنه ومنذ أسبوع فقط، وصل الكونت غراندساي إلى الولايات المتحدة على متن طائرة من أمريكا الجنوبية. وأخذ شقتان متصلتان، واحدة له والأخرى لراهبته، في الطابق التاسع

عشر من فندق (سينت ريجس)، وعمت فوضى من أكوام أنيقة من عدة حزم غير مفتوحة من أفضل متاجر الأنتيكات في غرفة استقباله. منذ وصوله إلى أمريكا، بذريعة رغبته بالانفصال عن ماضيه واحترام الطرق الديمقراطية للبلد والتي قدم له حسن الضيافة، تخلّى الكونت بشكل رسمي عن لقب الأمير أورميني المغتصب، وحافظ على استخدامه اليومي على الاسم الغامض وغير الواضح للسيد جولز نودير، الاسم المدني للأمير أورميني. في ظروف معينة يستفيد لنفسه من رتبة الملازم المتقاعد للأمير ويلبس وسام الطيران الخاص به. بالوقت ذاته، استخدم على الفور، محاميين كانا يحاربان مثل ديكين يابانيين ليسديا له خدمة وكانا يحاولان تحرير قسم الثروة التي كان أورميني قد حوّلها إلى الولايات المتحدة منذ وقت طويل.

البدايات العملية لحياته الجديدة كانت تعمل بشكل جيد، لكن نيويورك لم تكن ساحرة بالنسبة له. لم يستطع بالخصوصية التي تمييز مشاعره دائماً أن يرى وجهاً أنثوياً آخر غير التذكر والمعشوق الآن الخاص بسولانج دي كليدا. كان يقول في نفسه: "الحياة صعبة ومرّة وتشكل عبئاً ثقيلاً بعيداً عن سولانج،" سوف يشرب الآن – بالرغم من أنه كان دائماً نموذجاً للرصانة – كما لو كان يسعى لنيران النبيذ الأبيض القديم عن نكهة الروح الأرضية لغيابه وبعده عن (ليبرو). كان يقول لنفسه كل صباح: "هناك شيئين لم أعد أستطيع تأجيل القيام بهم، الأول هو أن أرسل لسولانج رسالة طويلة بحقيبة رسمية لإصلاح كل شيء، والثاني هو التخلص من واجبي نحو راندولف بأفضل ما أستطيع، بإعلان موته لفيرونيكا ستيفن وإعادة الصليب لها. عندما ينتهي مشهد الألم هذا سيصبح كل شيء أفضل!"

من خلال الدكتور ألكان حصل غراندساي على مقابلة مع فيرونيكا. كان ألكان قد حذّره: "إنها سريعة الغضب. أعصابها ممزقة، لكن لا بدّ لنضارتها البيولوجية أن تنقذها. الناس في هذا البلد يتمتعون

بصحة جيدة جداً لدرجة يمكنهم فيها أن يسمحوا لأنفسهم ببعض الفوضى مرة كل حين. عندما يحين الوقت، لا يفشلون بوضع المواعيد الدقيقة والتي لا رحمة فيها لقراراتهم."

"ما أريد أن أخبرها به مؤلم جداً لها وهذا صعب علي،"

"أياً كان ما سيدمر أحلامها سيكون لصالحها حتماً،"

: "سأسألك شيئاً، أرجو ألا تخبر أحداً باسمي الحقيقي. أنا متستّر هنا، وربما تتعرض مهماتي للخطر. تذكر ذلك، أنا (نودين) وحسب، الملازم الطيار المتقاعد – حتى إلى فيرونيكا."

لقد قال (ألكان) لفيرونيكا: "إنه قادم من أوروبا، لديه رسالة لك. أصرّ على أن يخبرك كل شيء بنفسه، حتى اسمه."

فوجئ ألكان أن فيرونيكا لم تُظهر أية ردّة فعل، كما بدا وكأنها تتوقع ذلك. أصبحت بسبب امتعاضها من رحيله، تبتعد عنه ببرود وحاولت بعقلها الذي يطوف في مكان آخر أن تنهي هذا الحديث. كان ألكان مغادراً إلى سوريا في اليوم التالي.

غراندساي الذي أصبح إنسانياً ومستنيراً ومفعماً بفضائل عظمة روح سولانج دي كليدا، شعر بالتفاهات الإلحادية لشخصيته تتطور نحو تقاطع ثابت ومركزي مع الإيمان الناضج. كان في الخامسة والأربعين من العمر، وكان متفاجئاً الآن بإيجاده نفسه منغمساً بمشاعر جديدة على قلبه – شفقة. كان صحيحاً أن هذه الشفقة احتوت بقايا نرجسيته، لأنه بدأ بممارستها وخاصة على نفسه. كان يقول لنفسه: "أنا أتقدم بالعمر، وللمرة الأولى في حياتي أشعر بالوحدة، أثناء خلواتي الطويلة وشبه الرهبانية في قصر (لا موت) كان المجتمع الباريسي بعواطفه التافهة كافياً ليطارد وحدتي، وكان اللهو الصاخب لعشيقاتي يطوف في الخارج، حول سرير عزوبيتي، تحت العين المراقبة لكلب البولدوغ الدامع، راهبتي. هنا لا أحد يعرفني، والبعض الذين ربما أقابلهم يجب أن أتجنبهم بسبب حالة العجز المهينة لتغيير

شخصيتي. الراهبة حزينة، هي تخفي ذلك قد استطاعتها، لكنها حزينة، وهي تصبح أكثر بشاعة!"

سابقاً، لم يكن يخلو نشوء هذا القبح غير المرئي الناضج بسبب العادة، من غواية شيطانية معينة تركت سحرها عليه، لكنه استطاع في حالته العقلية الحاضرة، أن يراقب وحسب النموِ المسخي للقبح بموضوعية. لم يشعر بشيء سوى الشفقة عليها وكان هذا شيئاً لم يستسلم له حتى الآن! بما أنه لم يعد هناك من يمارس استبداده عليه، اعتقد الكونت فجأة بأنه إنسان ضعيف. "أعرف! أعرف!" سوف يعيد في نفسه: "أزمة الكاثوليكية!" لكن بدلاً من أن يخيفه كالسابق كما لو أنه هجمة من (ألم النسا)، يرغب الآن تقريباً أن تحدث الأزمة الدينية وأزمة (ألم النسا) معاً، بشكل ربما يعادل فيه اتحاد ألمهما الجسدي والعقلي، الفراغ المخيف في حياته.

"على أية حال، أعاني من حالة قوية من الروماتيزم،" قال ذلك لنفسه محاولاً تمديد ساقه المريضة التي ألزمته مرة أخرى ولعدة أيام على السير بألم واللجوء إلى العكاز. ذلك المساء وبعد تناول وجبته وحيداً في غرفته، نام قليلاً وكان يفكر بالواجب الحزين الذي عليه أن يؤديه حالياً: وهو مقابلة فيرونيكا ستيفن ليعلن لها موت الملازم راندولف ويعطيها الصليب الصغير ذا اللآلئ والألماس، الذي عهد له به الأخير لإيصاله. "أين وضعته؟" تسائل الكونت ونهض على الفور ووجده في الدرج الأول الذي فتحه. "إنه مؤثر،" قال لنفسه ملتقطاً العلبة الخشبية الصغيرة المربوطة بخيط، "لكن لا أستطيع أن أعطيه لها هكذا،" وحاول أن يفكر بحقيبة يمكنه أن يضعه فيها. وفتحه وأمسك الصليب بأصابعه وتفحّصه. "ببساطة، سأعطيه لها بيدي، هذا هو الأكثر طبيعية." كم تمنى لو أن هذا الأمر قد انتهى سلفاً! لأنه ما من شيء يُحبطه في العالم أكثر من مشاهد البكاء، ولأنه يعرف أن دور المعزّي غير مناسب له. يستطيع بصعوبة في كل مرة منع نفسه من أن يكون وحشياً، لذلك عليه أن ينهيه بأقصى سرعة.

أخذ اليوم علي عاتقه إنهاء تلك المهمة المسيحية باستسلام أكبر، بدا وكأنه يستمد منها سلفا عذوبة غير مدركة من التعويض. بعد تدريباته كمتآمر، هل كان يوشك الآن أن يدرّب نفسه على الشفقة؟ على أية حال، شعر أن دوره الثاني كان مقدراً له الفشل مثل الأول. ومع ذلك، كان قد فرض على نفسه واجبات أخرى من هذا النوع، كالحديث إلى راهبته لمحاولة التغلب على حزنها الذي رآها تغرق فيه، وإعطائها فرصة لترفه عن نفسها وتنزع عنها أعباء مرارتها. والأكثر من ذلك، ذكر نفسه يوماً بعد يوم بالضرورة الأخلاقية بالكتابة لسولانج دي كليدا لإصلاح جميع الأخطاء التي ارتكبها بحقها.

قال لنفسه عندما انطلق بمهمته: "ربما كانت فيرونيكا ستيفن إنسانة ممتعة، وربما تمدني زيارتي بفرصة لعلاقة صداقة هادئة وتهبني لمحة عن الصالون السري الذي أستطيع الذهاب إليه من وقت لآخر."

عندما نزل إلى بهو الفندق، لاحظ أنه سيصل أبكر بخمسة عشر دقيقة عن موعده معها. زاد الطقس العاصف من عطشه، الذي تفاقم بشكل كبير في الآونة الأخيرة بسبب تناوله الدائم للكحول. منذ برهة قصيرة، وفي عمق نومه، مخدراً بسبب تهييج المعدة، حلم ببهجة من رشقات مياه صغيرة ترش على طحالب جديدة وأذرع عارية معلقة بأكتاف في ينابيع جليدية نما على حوافها خصل من النعناع. دخل الكونت إلى بار (كينغ كول) قائلاً في نفسه: "أنا ذاهب لأشرب بعض الماء المعدني البارد، لكني أقسمت لنفسي ألا ألمس قطرة أخرى من الكحول." كان البار في هذا الوقت خالياً تماما.

"نبيذ أبيض؟" سأل دومينيك، مراقباً وصول الكونت. "نعم" أجاب مستسلماً فوراً للإغواء، "سوف يعيد إلي روحي. يسحقني التفكير بهذه الزيارة!"

"سيكون هناك عاصفة أخرى، وعندما تحدث عاصفة هنا، تكون رهيبة فعلاً!" قال دومينيك بينما كان يسكب البراندي، مالئاً بسخاء الكوب ذي القاعدة العريضة متجاوزاً الخط الأبيض. رفع غراندساي يده بدون وعي منه إلى خده ليواجه إحساس الوخز الذي كان يشعر به .

كان الجزء الخارجي من قصر فيرونيكا ستيفن الخاص على الطراز الأكثر بزخاً للقصور النيويوركية القديمة، لكن لا شيء يفرقه عن باقي القصور. بردّته الرحلة في السيارة حتى النخاع، وجعل البرد القارس لشتاء نيويورك جلده يتخدر وبدا وكأنه يغطي وجهه بالتشوهات. أُعجِب بالخادم الإنكليزي المرتب جداً، الذي أتى ليفتح الباب له. استمتع بخلع قفازيه ببطء، شاعراً بالتقدير للمرة الأولى منذ أسابيع، من خلال هذا الخادم الذي يخفض عينيه. اجتاز خلف الخادم غرفتين بإنارة خفيفة ودخل بعدها ممراً طويلاً ينتهي بغرفة الاستقبال حيث تقف فيرونيكا وتدير ظهرها، مرتدية روبها الطويل الأبيض المنشى، محاطة بثلاثة أفغانيين سوداً يجثون عند أقدامها كما لو أنهم يحمونها.

كانت فيرونيكا تواجه مرآة كبيرة فوق المدفأة، وقد راقبت انعكاسه عندما وصل. كان الممر الذي كان عليه اجتيازه ليصل إلى غرفة الاستقبال، نوعاً من معرض ضيق للمرايا وسقف مرتفع بدا متلاشياً في ظلمة الظلال. كان هذا المعرض مضاءً بشكل خفيف بشمعدانات جدارية من الكريستال الصخري موضوعاً أحدها تلو الآخر على بعد قدمين، لكن الظلال الوردية للحرير المطوي بعناية والمغطى بطبقات رقيقة من شبك ناعم، كانت تخفف من الضوء وتنشره لدرجة ربما يعتقد المرء فيه أنه يقف في قاع حوض مائي. بدا الممر بلا نهاية، تقدم الكونت وكأنه يحلم، يتكئ على عكازه بيد واحدة، يسير بألم ويمسك الصليب الصغير باليد الثانية. شعر أثناء كل خطوة خطاها بكامل الضغط الجوي للطقس المشحون كهربائياً يثقل على ساقه، وأُضيف إلى الكسل الذي سببه الهضم، النار الثقيلة لكأس النبيذ الأبيض الذي سكب في أوردته كل الرصاص المصهور الذي في وطنه. عواطف المشهد الوشيك جعلته ضعيفاً وأخرق، والأكثر من ذلك، كان قد أهمل التخطيط مقدماً كيف سيعلن النبأ الرهيب. ساقيه بالكاد تحملانه. ليت هناك ممر آخر كهذا يعبره ليمنح لنفسه وقتاً أطول! لكنه قد وصل إلى المدخل ولا شيء يمكنه أن يؤجل مقابلتهما المؤلمة.

توقف متفاجئاً بجمودها حيث لم تقم بحركة واحدة. هل راقبته في انعكاس المرآة حينما وصل. بالتأكيد فعلت، لأن اللحظة التي التفتت فيها لتقابله تولد له انطباع بأنها كانت تراقبه منذ أن ظهر في نهاية الممر وأنها عرفته. لم يكن لدى غراندساي الوقت ليحني رأسه لتحيتها عندما اقتربت منه ونظرت في عينيه بتعبير من التفحص الدقيق والصدمة العميقة. بدت وكأنها تشعر أو تعرف الخبر الذي أتى الكونت لإعلانه.

عندما أوشك أن يتحدث، دفعت بيدها نحوه دون انتظار كلمة واحدة وفتحتها أما اليد التي حشر فيها الصليب الصغير. تراجع بحيرة بشكل غريزي. كيف خمنت ذلك؟ لم يكن هناك من كلمة يمكنها في تلك اللحظة الحرجة أن تكون أكثر بلاغة من حركة يدها المفتوحة، وقد استجاب لها. أمسكت الصليب وبدأت تنتحب بين ذراعيه. ضمها إليه بتلك الرقّة التي بدا وكأنه ورثها من أوراق الشجر المشذّبة لحدائق باريس القديمة. كانت حركاته مخملية ورصينة مثل شجرة واقية، وبدت هي بالرغم من انحناء رأسها ودفق انفعالها، شامخة مثل برج. بينما كان ينتظر انتهاء أول دفق من المشاعر الحزينة، تابع ضمّها بصمت واستطلع بعينيه المضطربتين المبللتين بالحنان، وعبر جدائل شعرها التي تخدش شفاهه، الشكل المتناسق الغني اللطيف لغرفة الاستقبال.

أوشكِ النهار في الخارج أن ينتهي وبدأ انهمار الثلج، بينما بدا كل ما في الداخل مقبلاً على الحياة بحرارة المدفأتين الرخاميتين السوداوين التي تقابل أحدهما الأخرى وتطقطقان بانسجام بنيران الخشب المرتب بشكل متناظر. انتصبت فوق كل مدفأة مرآتان مستطيلتان متناظرتان تكرران الصور إلى ما لا نهاية إلى أن تضيع في ضبابٍ الانعكاس النمطي للمجموعة المتشكلة من صورها باكية بين ذراعيه. ترك نظره يستقر على هذا الثنائي الذي منحهما اللهب المرتعش حياة خاصة بهما، بينما بدا وكأنه يجمعهم بارتعاش واحد. عَبَرَ الأفغان الثلاثة السود الغرفة حولِ الثنائي بحركة لحنية مخملية مثل صدى التشيللو، وأعطى حضورهم إحساساً غريباً من الألفة للمشهد.

حدث فجأة هذه اللحظة تحديداً شيء غير متوقع. توقفت فيرونيكا عن البكاء ورفعت رأسها المحني، وبعينين نصف مغلقتين قرّبت وجهها من وجه الكونت ومنحته شفاهها. أدرك في تلك اللحظة سوء الفهم المرعب الذي سببه وجوده، وهتف وهو يدفعها عنه بصوت مكبوت كأنه يقوله لنفسه: " ، هذا مريع! هذا مستحيل!"

ما إن تكلم حتى رفع يده المنقبضة إلى خده ليكبت الألم القوي في ندبته، بينما تسببت حركته السريعة لإبعادها بوقوع عكازه على الأرض مصدراً ضجيجاً قوياً. لم يحاول التقاطه خوفاً من ألم الروماتيزم وعَرَجَ بألم نحو الأريكة دون عكازه ومدد ظهره. بقي هكذا لدقيقة ورأسه معلق كما لو أنه يشعر بالخجل وكان عقله يتلقى هجوماً من أفكار متناقضة. أثارت تلك الحركات الأخيرة كبريائه ووضعته في موقف مهين بحسب رأيه – تعذب بألم، مقيداً وعالقاً بالإهانة المحرجة لخطأ مريع بالهوية.

لم تتوقف فيرونيكا عن مراقبة أصغر حركاته بنظرة تحقيقية جليدية، مؤمنة بدورها أنها فهمت تصرفه بشكل كامل – كان يتراجع بسبب عجزه الفعلي! لقد أحبّته أكثر بالرغم من ذلك. اتخذت خطوة حازمة نحوه وقالت بلهجة ازدراء ربما كانت ستبدو دليلاً على الغضب لو لم تكن تدل على شغفها:

"إن لم تعد، فربما أموت من المرض الذي يعذب روحي منذ سنة! هل تساءلت يوماً ماذا يعني الحب بهذه الطريقة؟ كيف يمكنك أن تخشى تلك الندوب أو أية جروح أخرى يمكن أن تدخل بيننا. عندما كنت قادرة أن أحبك بدون وجه! لا شيء كان باستطاعته أن ينتزعني من حلمي الذي أدركت الآن أنه حقيقة. لا يمكنك أن تتخيل ما الذي عانيته. لقد فقدت في ظروفي المُربكة حتى ذكرى نظرتك، وكان بوسعي كامرأة مخيفة عمياء، أن أتعرف عليك فقط من خلال إيجاد ولمس هذا الصليب الذي أعطيته لك."

وفعت الصليب الصغير بحماس إلى شفاهها، لكن بدا غضبها كله ينزلق في لحظة فوق منحدرات حادة من طاقتها المتشنجة المستنزفة بعد أن تجمع في إحباط يأسها الأسود. بدأت تروح وتجيئ بشكل عصبي في الغرفة، متبوعة بالنظرات الغاضبة لكلابها الثلاثة، كانت كمن يتجنب نوبة من الجنون. كان يرتسم على وجهها التعبير الذي كان متوعداً، مهيناً وطفولياً بالوقت نفسه وارتجاف رقيق وكأن خوفاً هزّ طول جسدها بالكامل بينما بدت وكأنها تنحني تحت ثقل شعرها وتوشك أن تنكسر إلى نصفين. أبعدت أخير تلك الخصلات بجهد وكأنها تساعد نفسها على الكلام، لأنها كانت قد أصبحت فجأة بدون صوت، تمكنت فقط أن تتمتم كلاماً غير مفهوم بذلت لقوله جداً كبيراً: "إنها السعادة التي تجعلني أبكي بهذه الطريقة — لا شيء! سوف ينتهي.........."

اختنق صوتها في النهاية بزفير مؤلم عاجز عن التعبير وأظهر وجهها ابتسامة ثابتة مرعبة. اقتربت منه متخلية عن موقفها المتحدي، وكأنها تتوسل مسامحته على موقفها لكي يضمها بذراعيه مرة أخرى.

قال غراندساي: "يا للأسف، ومع ذلك علي أن أخبرك بكل شيء!"

"لا، لا،" بدأت بالبكاء، "لا! لا! أنا أحبك! لا يهمّ ما سأسمعه!"

ألفى نفسه متردداً مرة أخرى. وأمسك بجسدها الدافئ الجذاب كجسد الجنون الذي يغلي ويتأكل............. . بينما يقفان هكذا، يرتبط أحدهما بالآخر بقدرهما الشيطاني، وينضغط أحدهما للآخر بأفعى الحظ ذات الرأسين، وجدت فيرونيكا الراحة بدموع رحيمة هادئة ساعدت حلاوتها على ربطهما معاً بقيد أقوى............. ولأنه بقي صامتاً بشكل إجرامي، أصبحت كل لحظة جديدة من سوء الفهم غير قابلة للإصلاح أكثر. بدأت في عيونه، كل تحفة أثرية صغيرة، وكل قطعة خزف وحجر كريستال، وكل زاوية ذهبية وكل خصلة من شعر فيرونيكا، تلمع بينران

المحرقة المتقزحة اللون للحجر الكريم. رأى شرارات شهوته الجنسية تلمع في كل شيء، من زهر اللوتس المتفتح على السجادة، إلى قلب كل ندفة ثلج تنهمر خلف النافذة، شعر بأنها تترك علامة حارقة في أعماق العيون الستة للأفغان الثلاثة الذين كانوا ينظرون إليه بإغواء.

كان يسأل نفسه الآن كجبان: "كيف سأجرؤ على إخبار هذه المرأة التي استعادت للتو سعادتها بأن الرجل الذي تعتقد أنه أنا قد مات. وبدلاً من كوني الشخص المعزي لها، أكون مجرد مبعوث من الموت! لماذا أتفوه بكلمات يتعذر إصلاحها، تقوم بتدمير هذا الوهم الكبير دون أن تغيير مسار القدر من جهة أخرى؟" لماذا يحكم على نفسه بالغرق عبر الكلام عندما يتحتم عليه أن يبقى صامتاً ليحمي نفسه؟ وبما أنها كانت جميلة بشكل خارق — وحتى إن لم تكن كذلك، فإن حمى حماسها ستكون كافية لتجعله يرغب بها.......... كان من الجيد جداً ألا يعرفا أياً منهما بين ذراعي الآخر، وأياً منهما كان مخدوعاً أكثر.......... كانت متعة تشوش المشاعر والشخصيات عظيمة جداً. بعدها، أمسك وجهها بين يديه وقبّلها بكل إتقان حسيّ من تجربته المحققة، ومع تلك القبلة المدروسة لمغتصب وخائن، ختم كذبة الشفقة الخيرية الخارقة التي وجدا اتحاد حياتهما المستقبلية فيها.

تلقى الكونت في الصباح التالي رسالة من فرنسا، من كاتب عدله بيير غراردیان:

عزيزي السيد غراندساي،

"في الوقت التي تصلك فيه هذه الرسالة تكون محنة سهل (كرو دي ليبرو) على أشدها. تتقدم عملية التعدين والصناعات الحربية الأكثر تدميرا على أيدي الغزاة التي لا هوادة فيها. لقد غزت الكروم القديمة من حقول (سان جوليان) إضافة إلى كل الغابات المحيطة التي قُطِعَت بدورها ولم تدّخر الينبوع القديم الذي يتدفق عبرها والذي أسميتها كما تذكر "نوفرة أدونيس". أصبح كل ذلك الآن تضاريس لا يمكن دخولها محاطة ومحمية بأسلاك

شائكة وكوابل ترتر عالي. ماذا كان سيحصل لعقار لطاحونة (دي سورس) لـو أنه لا زال يـنمتي إلى روشـفورت؟ كانـت الطاحونـة، كمفتـاح رئيسـي لطاقـة الميـاه، سـتتحول دون شـك إلى مشـروع كـبير لتوليـد الطاقـة. يبـدو هـذا الآن حتمية قد لا نضطر لمواجهتها، أو يمكن تأجيلها على الأقل.

"من واجبي الآن أن أخبرك، في هذا الصـدد عـن الشـجاعة والـولاء، وروح التضحية والإخلاص لكل أفكارك التي بالرغم من الظروف الصعبة لهـذه الفترة كانت مبدأ سلوك المدام سـولانج دي كليـدا. إنهـا تطلـبني في كـل مـرة تظهر فيها مشاكل قضائية وتسألني السـؤال الوحيـد التـالي: "مـا الـذي كـان سيرغب بـه الكونـت في هـذه الظـروف؟" وأنـا، جـاعلاً مـن نفسـي مترجمـك المتواضع، أنقل رغباتك بالمحافظة على سهل (ليـبرو). وكانـت تطـيعني دون تردد وبشكل أعمى، وغالباً دون أن ترغب بالاستماع إلى آرائي بالتعقل عنـدما يمكن تحقيق الهدف بشكل كامل أكثر.

"بعد حفلتك الراقصة مباشرة، استقرت المـدام دي كليـدا في طاحونـة (دي سورس) وهي باقية فيها حتى الآن. كان الشيء الأول الذي قامـت بـه، إعطاء أوامر لإعادة غـرس الأمتـار الثلاثمئـة المربعـة بأشـجار البلـوط، مدركـة رغبتك القوية بذلك. تمت الزراعة في أكثر الظـروف الجويـة ملائمـة — أمطـار خفيفة تتقاطع مع فترات من الشمس الحارة. كان الأخـوين مـارتين مسـؤولان عن العمل، واختارا أشجاراً يافعة جداً من بستان (سان جوليان) وزرعاها بمـا يتناسب مـع الاتسـاق الغـني نفسـه لمحتويـات (دي سـورس). لقـد تجـذرت جميعها في فترة الأشهر السبعة تلـك، ونمـت عليهـا أوراق جديـدة وأصـبحت كل واحدة منها بقوام رجل صغير. أتى والد الأخوين مارتين المصاب بالشـلل في ذراعه الأيمن، لرؤيتها يوم الأحد الماضي وقال إنـه إن كـان الشـتاء معتـدلاً "ولم يحدث تغير كبير " ستصبح جاهزة بالوقت المناسب لاستخراج الفلين.

"عزيزي الكونت، لا أرغب بتولي الحق في الانغماس في تكهنات حول تعاسة العلاقة بينك وبين المدام دي كليدا. لكن سيؤنبني ضـميري،

بعد مراقبة سلوكها يوماً بعد يوم وما أعرفه عن حالتها، إن أخفيت عنك بشكل إجرامي هذه الحقيقة: المدام دي كليدا تتدهور من الداخل بسبب نقص رحمتك ومسامحتك لها. لم أسمع أبداً أقل تلميح حول طبيعة معاناتها، لكن من خلال ما احتفظنا به من بصيرة الفلاح السليمة الفطنة، نعرف أن الشجرة تعاني من تلف بجذورها من خلال التجعّد الخفيف في أوراقها العلوية. إن نُبل المدام دي كليدا يجعلها تعاني دون شكوى، مثل أكثر الأشجار جمالاً وهشاشة والمزروعة حديثاً في أرضك. وأنا أستعطف رحمتك ولو من أجل شجرة واحدة منها.

"أرجو أن تتقبل الإخلاص الحنون غير المشروط من خادمك المتواضع، بيير غيراردیان."

لم يكد الكونت يقرأ تلك الرسالة من كاتب عدله حتى جلس وكتب إلى سولانج دي كليدا الرسالة التالية:

"عزيزتي سولانج،"

"ما من شخص أبداً يمكنه أن يكون أكثر مذلة وانحناء في هذا المصير أكثر مني في كتابة هذه الرسالة لك. نعم، أنا ملزم بالاعتراف لك، تحديداً في اللحظة التي أصبحت فيها متزوجاً من فيرونيكا ستيفن، أنني أحبك. حبي الآن لك لم يعد منتجاً زائفاً من هذيانات دماغي. أنا أحبك كما كنت دائماً، كزوجة. يجب أن أتحلى بالشجاعة لأخبرك أن هذا الخليط البغيض من التناقض ليس هذياناً. أنا نفسي، حاولت عبثاً الصحو من هذا الكابوس. لا، مع الأسف، إن زواجي حقيقياً بشكل لا مفر منه مثل شغفي نحوك. ومع ذلك، رغم أن هذا قد يبدو لد غير قابل للتصديق، فإن الظروف المذهلة التي صادرت قراراتي بصدفة جنونية، ستبدو لك أكثر إثارة للذهول. لكن يحب أن تعلمي أنني أقدر فيرونيكا وقد التزمت بواجبات مقدسة نحوها بأن أجعلها سعيدة، وسيكون تحقيق هذا الأمر وسيلتي الوحيدة للتكفير عن خطأ مضاعف ارتكبته ضد المرأة التي تشاركني حياتي وضد شخص ميت خنته بعد أن وضع ثقته بي.

"عزيزتي الجميلة الحبيبية سولانج، اسمحي لي أن أتوجه إليك بتلك الطريقة للمرة الأولى والأخيرة. سأعرف الآن التعاسة التي تعيشينها وسوف تستطيعين نسياني بسبب احتقارك لي بينما لا أستطيع أنا نسيانك! يتذكر الأسود الأبيض وتتذكر العتمة الضياء ويتذكر الندم الضمير. لقد أصبحت ضميري، أرضي المضاءة في (ليبرو)، سولانج الفرنسية! شفاه الورد — تلك هي الطريقة التي أتذكر بها شفاهك، في ليلة انفصالنا عندما حكمت عليهما بالصمت، أسأت معاملتك بظلم كبير. يا شفاه الياسمين!

"شيء واحد يعزيني فقط. ربما جنبت نفسي عار إخبارك أنني أحبك ولم أفعل ذلك. هذا الاعتراف يدين ويعاقب للأبد كل الكبرياء العنيف الذي هيمن على حياتي كلها. ليكن كذلك. لو لم أخبرك بكل شيء ستكون خسّة شديدة مني. سوف تفصلك الصورة الأخلاقية الحقيقية لي عن أوهامك الكريمة. أعرفي الآن أني مهزوم، لا زلت أنتظر كلمة منك، إن كان هناك من كلمة. وإن لم يكن ممكناً، فقد تخليت مقدماً عن معرفة أي شيء لاحقاً عن الكائن الوحيد الذي أحببته في حياتي، والذي أعبده.

"أحييك باحترام، شكراً لك، سيدتي، على البلوط الذي غرسته.

إرفه غراندساي.

7/ أقمار من مرارة

على مدار أسبوعين، لم يهدأ الهطول الثاني لأمطار تشرين الأول بعد الاحتلال الألماني، وقد روت بوفرة سهل (كرو دي ليبرو). سهرات طولة على ضوء الشموع مثل أيام بلا خبز، كان الخبز قاسياً والابتسامات مريرة تحت عيون الألمان، وفي عمق التجاعيد الخشنة ليد الفلاح التي تصلبت، بقي ما يكفي من التراب لاحتواء جراثيم الانتقام

كان من الغريب رؤية الصليب المعقوف مطرزاً على كمّ نازي حقيقي يحرس وكر سلاح ألي مبني من أكياس الرمل مع سقف بسيط من الحديد المتموج موضوع على زاوية الطريق إلى مقبرة (ليبرو) القديمة. على الجانب الآخر من موقع الحماية هذا هناك كوخ حجري صغير يحمي جنديين ألمانيين آخرين تم تعيينهما للتحكم بحركة الفلاحين المضطرين للعبور ما بين المنطقة العلوية والسفلية من سهل (ليبرو) والمخصصة حالياً للأعمال التي كانت سريّة بمعظمها في أوج حمى التصنيع الحربي. كان من الغريب رؤية نموذج جندي نازي حقيقي لم يكن يُرى حتى هذه اللحظة سوى بشكل غير واضح في الصحف أو بصورة أكثر وضوحاً في المجلات. كان لا يُصدّق بالفعل. كان الجندي النازي جالساً هناك بصبر، ينعصر ظهره الثمين بحزام جلديّ وينظر من تحت خوذته إلى المطر المنهمر على التربة الطينية الثمينة مثل ذهب، سرّ خصوبة هذا السهل. لا بدّ أنه نظر إليها بازدراء، كعار على أية دولة متحضرة، بعينين زرقاوين ملطختين بغياب الطين، عينين تما إخصائهما وتعقيمهما بالنظافة الوحشية لطرقات

المحركات الفاشية السريعة. كانٍ غريباً فعلاً ومسبباً للهلوسة، مراقبة ذلك النازي الذي في غير محله فعلاً، جالساً متراجعاً أمام سلاحه كممرضة سمينة تحيك وتصلح جوارب الغزو والاحتلال.

من الجيد رؤية الأخوين مارتين الطويلين المرحين يعبران مرتين في اليوم من وإلى عملهم في طاحونة (دي سورس) أمام النازي الذي يعرفهم، لم يعد يجبرهما على التوقف لرؤية تصريحهما. يبقى الأخ الأصغر واقفاً في كل مرة بينما يصرخ الآخر على الجندي الألماني بحركة حادّة من رأسه "هل كل شيء على ما يرام؟" ويبدو وكأنه يغتاله بنظراته التي تحرق كفص الثوم. كان هبوط الليل حزيناً في ريف (ليبرو) حيث يتوجّب على كل شخص وفي كل قرية، البقاء في بيته. حتى المقاهي الصغيرة التي كانت تعجّ بالحركة، عليها أن تغلق بعد خمسة عشر دقيقة من صوت أجراس الكنيسة. لكن من جهة أخرى، أصبحت العلاقات العائلة التي مالت نحو التراخي في السنوات الأخيرة، محبوكة مرة أخرى تحت ضغط سوء الحظ ووجود العدو الخارجي، أصبحت محبوكة في حزمة صلبة مؤلفة من الجذور، من عرق الإنسانية ومن حيوانية التدجين.

في الخارج، وتحت السموات الخالية من الشمس، كان منظر (ليرو) يمتص المطر مثل نبات البيلسان. كانت تتلاشى آثار الفصول البعيدة من الحصاد وجني المحاصيل، بينما كانت الجدران داخل كل مزرعة قد بدأت ترشح من خلال التصدعات القديمة التي التأمت بشكل سيء. دخلت بقعة رطبة كبيرة إلى قلب طاحونة (دي سورس) وظهرت على الجدار الرئيسي، تماماً على تقاطع القبو الضخم الذي يشكل سقفاً لغرفة الطعام التي كانت في بداية القرن السابع عشر غرفة الطعام لدير "للعزاء" لليسوعيين. بالرغم من الطبقات المتعددة من الدهان الكلسي الأبيض، والنحت النافر لمستطيل كبير تمثل المسيح مستلقياً ووجهه للأعلى مستقيماً كقضيب معدني فوق قبره، كانت تحمل نقشاً لاتينياً

بأحرف استهلالية، "التصلب الجمودي بعد الموت". البقعة الكبيرة من الرطوبة التي بدأت من تقاطع القبو، انتشرت فوق نصف هذا النحت النافر، ممتدة عمودياً بخط طويل ضيق على الجدار إلى الأرض المبلطة، وبدت بذلك وكأنها تتدفق من جرج من جانب المسيح. أية مشاهد لم يشهدها هذا القبو خلال تقلبات الزمن! مؤخراً فقط، جعلته إشاعات السهل مسكوناً بذاكرة عربدة روشفورت بحالته الدائمة من السكر. يتشاجر ويتعارك طوال وجبات طعامه الهائلة مع حريمه الفتيات المفضلات الخشنات الطبيات ذوات العيون والأيدي الحمراء، اللواتي كنّ جميعهنّ حوامل تقريباً.

استُعيدَت الكرامة الصارمة للأوقات الماضية منذ أن اشترت سولانج دي كليدا الطاحونة. بسمعتها بكونها المرأة الأذكى في باريس، فصلت نفسها عن المجتمع وتقاعدت هنا في الغد البائس لحفلة غراندساي الراقصة التي لم تحضرها. كان تعيش هنا في بساطة رهبانية تقريباً منذ ذلك الحين. كانت جالسة حوالي الساعة السادسة في تلك الليلة، إلى طاولة العشاء المستديرة الكبيرة المغطاة بغطاء بلون الشوكولا المسودّة. تلبس ثوباً بلون العقيق الأحمر وتبكي حاملة بيدها رسالة الكونت غراندساي. وراء الباب المطبخ المفتوح دائماً بشكل جزئي، كانت خادمتها إيوجين قد قتلت أرنباً للتو، كانت تراقب سيدتها بينما يتدفق الدم من عنق المخلوق في الوعاء الخزفي المصقول. رفعت جيني، كما كانت تُسمى، أكمامها ونقلت نظراتها ما بين الأرنب وسولانج بينما كانت تُطلِق تنهيدات واسعة من الأسف. لأن ثقافتها الكاثوليكية الصارمة علمتها أن هذا العالم هو وادٍ من الدموع، آمنت أن هذا مثمرٌ لتربة الروح وحرائتها مثل المطر بالنسبة للريف والحقول. ملأت الكمأة جذور أشجار البلوط وسال لعاب الحلزون، والروث تروّث والمقبرة تجذّرت وحفظت المواد المحفوظة، ودم الأرنب سال........... توقفت سولانج عن البكاء لسماعها جرس باب الباحة الصغيرة يوقظ نباح (تيتان)، وإيقاع الحذاء الخشبي لواحد من الأخوة مارتين يخفق في الطين ليدع الزائر يدخل. سرعان ما ظهر أنغرفيل

في غرفة الاستقبال ببذلته الريفية الخضراء بلون الزيتون. قبّل سولانج على جبينها وعلى راحتي يديها ومرة أخرى على الجبين.

"هل ستسمحين لي بالصعود للأعلى والاستلقاء لمدة ساعة قبل العشاء؟ سأحاول التفكير أثناء استراحتي بما يمكننا أن نفعله وما هي الأجوبة التي سنعطيها للألمان غداً. لا يمكنهم التأجيل أكثر من ذلك، يبدو أن السيد غيراردديان قد تلقى أخباراً وتعليمات سرية. سوف يأتي في التاسعة لشرب القهوة وقضاء السهرة معنا."

"نعم، تصرف براحتك يا عزيزي، عليّ أن أكتب رسالة خلال هذا الوقت،" قالت سولانج هذا وأعطته جبينها مرة أخرى ليقبّله. قرّبت مصباح الزيت منها وبيد تصارع بشكل بطولي لتحتوي اضطراب مشاهرها، كتبت ما يلي:

"عزيزي إرفه – حبيبي – هل هو حلم أن أستطيع مناداتك هكذا؟ اعلم يا حبيبي أني احتفظت من كامل رسالتك، فقط بكلماتك الأولى من الحب التي ستبقى مدفونة في قلبي حتى بعد أن أموت. حتى الديدان التي ستنخر هذا القلب، ستفنى وتبقى في قاع كفني ملتفه على شكل حروف من النقش الذي التهمته، وهكذا، يجب أن يكون هذا النقش وسيكون، الحقيقة الأخيرة التي ستُمسَح من وجودي! سولانح الفرنسية! شفاه الياسمين! إن كانت المشاعر التي عبّرت عنها نحوي أمكنها أن تصبح تأكيداً في روحي البائسة بشكل لا يُصدَّق، فإن تلك الكلمات ستكفي للسعادة لما تبقى من حياتي. أنا لا أريد، ولا يجب أن أتلفظ بأية كلمة اعتذار. أنت سيدي. إن كانت إرادة القدر أن تكون فيرونكا زوجتك، فليس علي أن أقبل فقط بل عليّ أن أكون قادرة على احترام هذا الزواج بتصرفاتي. لكن إن كان حبك لي كما عبّرت عنه، وبما أن عدم إخلاصك لها بالأفكار لا يمكن أن يتفاقم بمزيد من الرسائل. أتجرأ أن أطلب منك الاستمرار بإخباري بأنك تحبني. أتعلم اليوم عشقك بشكل أفضل بسبب حبي لسهل (كرو دي ليبرو). اليوم فقط

لبست جزمة طفل طويلة سوداء للذهاب تحت المطر للنظر إلى الغابة اليافعة من البلوط، لقد وصلت بعضها إلى مستوى طولي.

"أتوسل قبلة لشفاه ياسمين

سولانج دي كليدا."

بعد العشاء المقتضب الصامت مع أنغرفيل، نظّفت إيوجين فتات الخبز بيدها وطوت غطاء المائدة الأبيض أربع طيات، تاركة الطاولة مرة أخرى مغطاة بالغطاء العاتم بلون الشوكولا. سحبت سولانج رسالتها المغلفة من جيب ثوبها العقيقي اللون ومررتها إلى أنغرفيل.

"يجب أن تصل هذه الرسالة إلى غراندساي بالسرعة الممكنة."

أخذ الرسالة من يد سولانج وترك يدها في يده بينما تطل جيني من عمق الدخان المسودّ للمطبخ من خلال الباب نصف المفتوح، تاركة عينيها ملتصقة بالمستطيل النقيّ للمغلّف الذي التقت عليه يدي كل من سولانج وأنغرفيل. بدا أنهما يحافظان بلا نهاية على الاتصال دون تلميح بعناق. يعيش أنغرفيل في طاحونة (دي سورس). كان قد أتى منذ ثلاثة أشهر بعد تصرفها المتهور، وهو يشعر بالقلق بسبب نوبة اليأس العميق الذي بدا وكأن سولانج ليس لديها رغبة للتغلب عليه. هو لم يتركها منذ ذلك الوقت. لا لم يتجرأ على تركها لأن روحها كانت معرّضة لتغيرات مزاج قوية مفاجئة، كانت النشوة التي تأتي في فترات "اليوفوريا" — حالة من السعادة نصف الواعية — مُقلِقة تقريباً مثل المزاج الذي يتبعها، يجعلها شعورها بعبثية حياتها وقلقها اليائس تبقى في السرير لأيام بينما مصاريع النوافذ مُقفلة. بالرغم من معرفته بأنها رغبت أن تُطلعه على شيء ما، تظاهر باللامبالاة. وكما لو كان يفكر في أشياء أخرى، راقب جيني وهي تراقبهما من المطبخ واحتفظ بصمت طويل. قالت أخيراً بصوت منخفض: "لقد تزوج غراندساي من فيرونيكا ستيفن في أمريكا."

كانـت تنظـر بعينيـه لتكتشـف ردّة فعلـه، لكـن عينيـه بقيتـا تائهتين في التأمل اللامبالي في المطبخ. تابعـت سـولانج نظراتـه، حيـث كانت جيني تسحب الباب جزئياً وتفتح وتقفل الصنبور فوق المصرف.

"الكونـت تـزوج،" أعـادت سـولانج وتابعـت بغضـب، "لكـني سعيدة، سعيدة جداً، لأنه كان قد كتب لي عن ذلـك — كـان القـدر قـد أجبره على ذلك، لكني المرأة الوحيدة التي أحبّها، هل تسمعني؟"

"لا زلت أسمعك، لكن لبعض الوقت، اكتشـفت الآن أنـي أفكـر بنفسي أثناء الاستماع لك."

"ما الذي تعنيه بذلك، هل كنت أنانية بالغة مني أن أسألك عن مشاعرك الخاصة؟ نعم، لا بدّ أن هذا ما تفكر بـه! لكـن لمـاذا، لمـاذا يـا عزيزي،" تابعت بلباقة: "ألم تتوقع بأن السبب هو أنني لا أجـرؤ علـى سؤالك .... وبالتحديد لأنني أعرف!"

بعدها وبشكل مفاجئ، أمسـكت بقبضـتها الصـغيرة قميصـه مـن وسك الصدر وسحبته نحوها بشـكل قسـري، كمـا لـو أنهـا تجـبره علـى الاعتراف، "هل تحبني يا ديك؟"

أطرق عينيه إلى غطـاء الطاولـة، حيـث واجهـا المغلّـف الأبـيض الموجّـه للكونت غراندساي، "نعم، لقد أحببتـك لثمـاني سـنوات." سـاد صمت مـريح، وعندما تكلم ثانية كان بدا وكأن السنوات الثمان تلك قد أزالت كل العواطف مـن صوته. "الآن فقط — عندما سألتني، "هل تسمع؟" —فهمت أخـيراً وبتأكيـد أنـه ليس لدي أدنى أمل. لكن على الأقل يجب أن تعترفي بأنهـا المـرة الأولى منـذ أن تعارفنا، أكون غافلاً عنك. عليك أن تسامحيني! لقد تابعـت حبّـك لغراندسـاي يوماً بيوم. كما أنني شجّعته قدر استطاعتي متى كان ذلك ممكنـاً، لكـني لم أرى مشاعرك متوهجة بهذا الشكل أبداً، لم أراها مبهرة بالقـدر الـذي كانـت عليـه

عندما أخبرتني به عن زواجه! لا تزالين مثابرة على الأيمان به بتعصب كامل! وأي حق لدي لأتجرأ على الحديث معك بهذه الطريقة؟"

قالت سولانج: "تعال، يا عزيزي."

اقترب ووضع رأسه على صدرها العقيقي اللون. بقيا هكذا دون أن أية كلمة، بينما بدأ ضوء المصباح الزيتي يخبو أكثر وأكثر. ظهر تسرب المطر أمامهما على الجدار مثل طريق غروي لحلزون ليلي عملاق. أتى من المطبخ صوت أطباق تُفرغ وصحون تتكدس فوق بعضها على لوح التجفيف. وحالما عاد السكون، صرخت سولانج: "جيني!"

"نعم يا مدام."

"يمكنك إحضار القهوة،

أحضرت جيني القهوة بينما بقي أنغرفيل وسولانج يشابك ذراع أحدهما لآخر حتى عادت جيني إلى المطبخ. ثم نباح تيتان في الساحة وصدر صوت الجرس بضعف.

"لا بدّ أنه غيرارديان،" قال أنغرفيل مانحاً يد سولانج قبلة طويلة.

فُتِحَ الباب وظهر غيراديان. وبخطى قلقة قليلاً دخل غرفة الاستقبال الكبيرة الباردة غير المضيافة، وجلس بألفة كبيرة بينهما بعد أن انحنى باللطف الذي بدا على الدوام مؤثراً لوجود فائض من الإخلاص وقال معتذرا: "أنا أجلس بالوسط بشكل أستطيع به أن أتحدث إليكما بشكل أفضل،"

"أحضرت جيني كوباً آخر من القهوة لغيرارديان، وزجاجة من البراندي القديم.

قالت سولانج لغيرارديان: "بإمكان جيني أن تبقى، تستطيع أن تسمع، ويجب أن تسمع كل شيء، وخاصة منذ أن خاطرت هي وابنها بالكثير من أجل هذا المكان. اجلس يا جيني. توسلت لها.

جلست جيني التي كانت للتو قد سكبت القهوة والبراندي إلى النهاية الأخرى من الطاولة. قبل أن يبدأ قصته حكّ غيرارديان وجهه بيده بعنف، وحرّك أنفه عدة مرات وبكل الاتجاهات كما لو أنه يستجمع أفكاره كلها في الدم الذي انتبج بألم في أوردة جبينه وأضاف مسحة من اللون الأرجواني إلى وجهه. وبعدها، وضغط ذقنه بشدة بين إبهامه وسبابته بحالة من التركيز وتوجه بالحديث إلى سولانج.

"استلمت هذا المساء رسالتين من الكونت غراندساي، من خلال بروسيون، البروفسور الشيوعي الذي فرّ مؤخراً من أفريقيا، والذي بقي على اتصال مع سيسيل غودرو. أحضر مارتين الرسالة الأولى لك وكانت الثانية موّجهة لي. لقد أحرقتها فوراً بعد تدوين بعض الملاحظات الدقيقة. كانت تحتوي على معلومات سرّية من الكونت وأنا أعتبرها بمثابة أوامر. طلب مني تسليم نسخ جميع المخططات المحفوظة لدي، إلى المنظمة الشيوعية المسؤولة عن تخريب كامل خطة تصنيع المنطقة العليا والدنيا من منطقة (ليبرو)."

اعترض أنغرفيل قائلاً: "أرى أن هذا سيعقّد وضع أملاك المدام دي كليداً بشكل أكبر،" كان يفكر بالانتقام.

قال غيرارديان بهدوء: "اسمح لي أن أعتقد العكس تماماً، ما هي متطلبات قائد المقاطعة النازي بما يتعلق بعقار الطاحونة؟ يريد الأحواض الثلاثة الكبيرة للطاحونة لإيصال الكهرباء إلى السهل. أعرف أن هذا يمثل قوة كبيرة بيد العدو، وقد نصحت حتى الآن، وباسم الشرف، بالرفض القاطع والمقاومة، بالرغم من خطورة القيام بمصادرتها تعسفياً. لكن الآن وكما قلت، لدي رأي معاكس تماماً. في ضوء التخريب المحتمل الذي نشارك به جميعاً ضمنياً أو بشكل مباشر، يصبح الرضوخ لمطالب العدو له ما يبرره. سيزيد امتثالنا الظاهر في إخفاء خطط تدميرنا السرّية. لأنه وبدلاً من أن نُعامل بالشكّ كما نحن الآن، سيكون لنا اعتبارٌ ونُعامل بترو كمتعاملين مع العدو. وبهذا نتجنب أن نصبح رهائن، سيكون هذا عذرنا المشتَرك!"

قالت سولانج وهي تنهض: "لا، لا شيء يشابه التعاون حتى ولو بشكل خفيف! في يوم الحساب، سيكون لكل شخص ذريعة أو أخرى يحاول بها تبرير تصرفاته. أنا امرأة، لا أفهم شيئاً من تعقيدات النشاطات السياسية للرجال، لكن سوف لن أفعل أي شيء يورّط فرنسا إلا ما يُمليه علي قلبي: وأنا لن أسلّم حفنة من تراب (ليبرو) في أي نوع من المساومات. عليهم أن يقطعوها مني!"

سُمِعَ تيتان في هذه اللحظة ينبح.

"من يمكنه أن يأتي في هذه الساعة؟" سألت سولانج بقلق.

نزلت جيني وفتحت الباب وظهرت ثانية مع الأخ الكبير مارتين ويتبعهما تيتان. مارتين بعينيه المحتقنتان بالدم والخدين المترهلين إلى حد ما، ظهر وكأنه يشبه القديس برنارد العجوز.

"أخبرتني جيني أنكم تعقدون مفاوضات حول (البوتشن). يجب أن أتحدث إلى السيد غيرارديان بعد أن تنتهوا من حديثكم. سأنتظر في المطبخ."

قالت سولانج: "اجلس هنا قرب جيني، ليس في منزلي أية أسرار عن أشخاص من (ليبرو) عندما يتعلق الأمر بسهل (ليبرو)."

هي تعرِف أن مارتين كان واحداً من أكثر الفلاحين المخلصين للمنطقة وأنه كان مستعدا لأية تضحية في ولائه للقضية. التفتت إلى غيراردیان الذي بدا متردداً بالرغم من معرفته بمارتين، توسلت إليه باطمئنان، مع شيء من الحزم، "تابع — يمكنك أن تتحدث بحرية عن أي شيء سنفعله بملكيتي ووضعي."

"أفضل الا أتحدث عن الأخير، لأنه يحتوي مشاكل شائكة أكثر بكثير من مجرد التفاني للوطن. إن رفضتِ أن تسلمي الطاقة المائية للطاحونة سيكون التصرف الأول هو قطع جميع غاباتك. لقد تم إعلان هذا في إنذار قائد المقاطعة."

بقيت سولانج صامتة.

"صحيح أنك بتسليم الطاقة المائية ستضحين بالمحاصيل المروية كلها بجرة قلم، وأدرك تماما مشاعرك المتعلقة بتلك الأشجار، لكن قطع واحدة من الغابات أو تدمير المحاصيل، هو أقل خطورة بالنسبة لي من رفضك القاطع الذي سيعرّضك للمصادرة الكاملة. وبما يتعلق بهذا فإن ضميري لن يجعلني أنسى الكلمات التي قلتها يوم قررت شراء الطاحونة على عكس نصيحتي، عندما سمحت لنفسي بالحديث عن مصلحة ابنك. أنا أذكر كل كلمة، وما قلته سابقاً، يشرّفك اليوم كما شرّفك حينها. حيث قلت: "سوف يجد ابني في قلبه مسامحة لي عندما يحين الوقت، وسأتحمل مسؤولية مستقبله بشرفي............. سيكون إخلاصي في التعويض غير محدود!"

كان غيرارديان قد كرر كلمات سولانج بنبرة صوت فيها تمجيد. قال بعدها بصوت منخفض، مطرقاً رأسه وكأنه يطلب المسامحة: "لم أسمح لنفسي أن أذكر ابنك في هذا المناسبة من أجل تذكيرك بحبك له، لكن إلى ما رفعك حتى فوق كل هذا، هو حبك لفرنسا. المقاومة المطلقة هي التدمير الكامل، يجب أن يتابع الوطن العيش بالرغم من الاحتلال، وسيتابع العيش!"

كان الجميع صامتين، وأصبح من الممكن الآن سماع صوت المطر يهطل في سيول كما لو أن بوابات الجنة كانت تُفرّغ. أحنت سولانج رأسها وعقدت يديها فوق عينيها وبدت مُستغرقة تماما.

"ما الذي كان سيرغب به الكونت غراندساي في هذا الوضع؟"

أجاب أنغرفيل بدون تعاطف: "هذا القرار أخطر من أن يستطيع أي شخص الإجابة عنه، لكننا سنشهد جميعاً على ولائك المثالي لبلدك، ليس مهماً ماذا سيكون قرارنا."

قال غيرارديان بصوت منخفض: "مدام..... أبنك"

رفعت سولانج دي كليدا ذراعيها ومدتهما نحو السقف المحدّب وقالت: "بالنسبة لولدي جون بيير، وللأشجار الصغيرة التي غرستها، سأوافق على جعل الألمان يستخدمون مصادر المياه من أجل طاقتهم الكهربائية. ويشهد الله علي، لتنزل عقوبة السماء علي وعلى أخطائي مثل هذه الأمطار التي تهطل على (ليبرو)! إن كنت أخطأت"

بدا وكأن عنف هطول الأمطار قد تضاعف.

قال مارتين: "إن استمر هطول المطر على هذا الشكل، لن نقدر في الغد على إيقاف جريان النهر فوق المنطقة المنخفضة من (ليبرو)....... وبهذه الطريقة ليس هناك من فرصةٍ لتوقفه قبل ظهور القمر من جديد..........." ساد صمت طويل. نظّم فلاحوا (ليبرو) التقويم اليومي لرفاههم بحسب الزيارات الوثنية لأقمارهم.

لكن كل الأقمار كانت أقماراً من مرارة بالنسبة إلى سولانج دي كليدا! تعرف الآن أن نزوتها في شراء طاحونة (دي سورس) كانت خطأً قاتلاً. سيكون هذا العقار تدميرا لها ويهدد بأنه سيصبح تدميراً لابنها أيضاً عند أقل ضعف في مثابرتها اليومية بالإدارة الشخصية لشؤونها. كانت قد احتضنت هذه الحياة البطولية من أجل جون بيير، كان واجبها كأم، وكانت تؤديه بدقة بالرغم من عذابات روحها. لم تسمح لنفسها أبدا بترف الانغماس في حزن روحها المنكوبة إلا تلك الجلسات التي لا نهاية لها التي أمضتها منكبة على الحساباتِ وتوزيع الصدقات ومتابعة مشاكل وحاجات الأرواح الثلاثمئة التي تشكل قوة ذلك الجزء من الأرض الفرنسية التي صممت على حمايتها. كم من المرات كانت قد تراجعت بإنهاك مطلق في كرسي تعذيبها القاسي، من جهدها الذي أمِلت عبره الحصول من خلال ضميرها المذنب على فداء عن خطأها المبدئي! من اجل امتلاك الطاحونة، ميراث جون بيير، عليها أن تقوم بتضحية كاملة. لا! ليس لديها الحق بالموت عشقاً!

كما لو أنه بعد تفكير كافٍ، كسر غيراردِيان الصمت أخيراً وقرّب كرسيه من مارتين: "اصغي إلي يا مارتين، جميعنا بحاجة ماسة لك ولأخيك، لأنكما الوحيدان اللذان يعرفان جيداً كل الممرات الصغيرة للجزء العالي من (ليبرو). رغم إيماني بأنني أقوم بالعمل المناسب فقد أكون قد ارتكبت واحداً من أسوأ الأخطاء في حياتي. لقد حافظت منذ بداية الاحتلال على نسخة من مخططات التصنيع في قبو عائلة الكونت غراندساي. لا زالت المخططات هناك ملفوفة حول كومة من الشموع المكدّسة بجانب المذبح الصغير........... علينا في الأسبوع القادم أن نحصل على تلك المخططات! كيف نستطيع القيام بذلك الآن ومنطقة المقبرة القديمة بكاملها تقع داخل المنطقة المحروسة؟ أنا لا أعرف طريقة أخرى للوصول إليها سوى عبر المرور في الطريق الرئيسي التي تخضع للمراقبة من مركز التحكم الألمانية."

كان مارتين يتأمل ويهزّ رأسه.

ألح غيراردِيان بإحباط: "نعم، لا بدّ من وجود طريق آخر للوصول إليها – دروب الرعيان........... "

قال مارتين: "لا، لقد دخلت في المشاكل سلفاً بمحاولتي اتخاذ طرق مختصرة. تسير دوريات دائمة في جميع الممرات والوديان في الليل والنهار. إن ذهبت حتى في الطريق الرئيسي كي تحفر من أجل الكمأة فسوف تُعتَقَلُ بشكل أكيد."

كان الجميع مكتئبين بعمق وبدوا مستغرقين بالاستماع إلى صوت المطر، عندما نهضت جيني فجأة وذهبت لتلتقط القبضة المكسورة للمكنسة القديمة الموجودة بين المخالب الأمامية لتيتان، الذي كان مستلقياً عند قدمي سولانج. جلست الأخيرة مرة أخرى واسترخى رأسها مائلاً في راحة يدها. لتفتت جيني نحو غيراردِيان، حاملة قبضة مكنستها.

"ليس على السيد أن يقلق حول تلك المخططات! وموضوع إعادتها بسهولة ظهور ضوء النهار. كل ما على السيد فعله هو الذهاب إلى قبو الكونت ولفّ كل مخطط حول شمعة بهذا الشكل — أترى!"

كانت جني قد أمسكت جريدة على شكل شريط ضيق ولفّتها حول إحدى نهايات قبضة المكنسة. "تلك هي الطريقة التي تُحمَلُ بها الشموع الكبيرة، بقطعة من الورق تُلف حوله بشكل لا يصل فيه الشمع إلى يدك."

حتى الآن لم يفهم أحد الأمر تماماً، واعترض غيراردديان: "لكنني لا أستطيع المرور تحت أنف النازيين حاملاً شمعداناً مضاءً في ضوء النهار دون لفت أنظارهم."

هتفت جيني بجو من الانتصار والخبث، مقوّسة جسدها وواضعة قبضتها المغلقة بشدة قرب وركها: "سيكون الأمر هكذا: بعد ثلاثة أيام سيكون عيد جميع القديسين. قالوا في السوق صباح هذا اليوم أن الألمان أعطوا تصريحاً للسماح للموكب بأخذ طريق المقبرة القديم إلى صومعة القديس جوليان، كما يحصل في كل عام، حيث ستُتلى صلاة المساء في الساعة الخامسة. هناك تذهب وتأتي مع أغاني وموسيقى."

"والآن ما رأيك بهذا!" هتف مارتين، حاشراً قبعته في ركبتيه حتى تشققت، "إن جيني على حق!"

بتشجيع من ابتسامة الفلاح الخبيثة التي أعطت توهجاً خفيفاً لتوتر وجه غيراردديان، بدأت جيني، بالتقليد الهزلي لسير الموكب، تتبختر ملوّحة بمكنستها بدلاً من الشمعة بينما سارت للأمام والخلف أما مارتين.

هتفت: "مارتين هو البوشز، هل تعتقد أنه سيكون قادراً أن يخمن أن الأوراق المرشوشة بقطرات الشمع التي نحمل الشمعات بها تحتوي مخططات مهرّبة؟"

قال غيراردديان: "نحتاج إلى ستة أشخاص ليحملوا كامل المخططات،"

قال مارتين: "أنا وأخي وجيني......."

قال غرارديان: "أنا أيضاً، بالطبع، سيكون أول موكب أسير به طوال حياتي!"

قالت سولانج لأنغرفيل تنشد موافقته عبر أول ابتسامة مرحة بانت على وجهها منذ وصوله: "حسناً، سوف نذهب إلى صومعة القديس جوليان أيضاً،"

قال أنغرفيل: "لماذا تعرضين نفسك بشكل لا داعي له؟ إن الخطر الذي تتعرضين له يومياً يكفي سلفاً؟" كان يحاول بنصف إخلاص أن يثنيها وكأنه يتحدث من أعالي جدران حزنه التي أغلِقَت نحوها جميع المداخل منذ أن حطّم اعتراف سولانج بأنه لا تحبّه، الجسور المتحركة لأمله بشكل نهائي.

قررت سولانج: "أريد أن أذهب، إن كنت قد تنازلت عن القضية الأساسية، أريد على الأقل أن أستمر بالحيات عبر المشاركة بالقلق والمخاطر كأي واحد منكم.......... يوم جميع القديسين هذا وقبل قدوم الشتاء سيكون أول تسلية لي منذ أن عشت هنا في عزلتي." وبينما كانت تتحدث رسمت على شفتيها ابتسامة حسيّة غريبة جداً، إذ ذهب أنغرفيل مندهشاً مضطرباً وجلس قرب تيتان، تاركاً رأسه الثقيل يسترخي على ركبيته. راقب سولانج من موقعه هناك.

ما الذي حدث لها؟ غيّرتها رسالة غراندساي وجعلتها أكثر جمالاً، بالرغم من أنها مؤخراً كانت جميلة بشكل لا مثيل له ومرغوبة في حزنها. كيف سيكون ممكناً بالنسبة له ألا يُغرم بها إلى حد الجنون؟ الكلب! أوه، ليتني كلب مثلك! تيتان العجوز!

وقف الجيمع على أقدامهم. أصبح الوقت متأخراً، قريباً من التاسعة والنصف، ووقف تيتان بدوره. لكن غيرارديان، سأل ماريتن قبل المغادرة: "ماذا كنت ستخبرني؟ لقد أتيت لتتحدث معي؟"

"نعم، " أجاب مارتين بحيرة، "لكن الأهم أولاً..... لقد مات والدي هذه الليلة حوالي الساعة السادسة."

"هل توفي والدك؟" استوضحت جيني راسمة إشارة الصليب أمام وجهها، بينما لا زالت تحمل يد المكنسة الصفراء، بالحركة النشطة لنمس يغسل خطمه.

"كنا نتوقّع ذلك! ساءت حالته منذ خمسة أيام مضت ولم يعد يأكل. أمضى كل لياليه مع حشرجة في حنجرته ولم يستطع أن يبقى في الفراش — كان يرمي كل شيء على الأرض. قد كان قوياً جداً! كخنزير بري يصارع في كيس وقدماه موثوقتان. لم يكن منظراً جميلاً. بكت أمي ولم تستطع النوم عارفة أنه يموت هناك قربها. بعدها قمت أنا وأخي بإنزالها إلى الإسطبل."

صرخت جيني وهي تفرك يداها بذعر: "صنعتم لها سريراً في الإسطبل؟"

غرس مارتين أسنانه في حافة قبعته وبصق الحشوة القوية السوداء وقال: "لا، ليس هناك من سرير. وما المؤلم في ذلك؟ جلست في كرسيها الخشبي بالطريقة التي فعلتها دائماً في السنتين الأخيرتين. لقد أوثقتُ رأسها بقوة إلى ظهر الكرسي ونامت بتلك الطريقة بهدوء وفمها مفتوح. وإلا كانت ستختنق. إنها مثل أبي، لا تستطيع التنفس، لكنها الآن لم تعد تستطيع أن تحني ظهرها أيضاً."

"وكالعادة، لا وصية،" تنهد غيرارديان موبخاً.

قال مارتين: "تعال نتحدث في المطبخ." أغلق الباب هناك وبدأ ينظر متشككاً عبر النافذة الصغيرة ثم سحب بخفة الستارة الحمراء أمامها وركل القطة البيضاء جانباً حيث أسرعت إلى الزاوية العاتمة من حيث يمكنها أن تراقبهما. اقترب مارتين من كاتب العدل وقال له بصوت منخفض: "ترك لنا الوالد ثروة مدفونة، لقد شرح لنا كل التفاصيل قبل

ساعتين من وفاته. كن هناك في التاسعة صباحاً وسوف أبدأ الحفر. حتى بين الأخوة، لا يعرف الإنسان ما يحدث، نريد شاهداً." وقال بصوت أضعف: "هناك الكثير، الكثير من الذهب!"

عندما ظهرا من المطبخ تقدمت سولانج من مارتين وقالت له: غداً، سنأتي أنا وجيني إلى بيتكم لنعتني بأمك ونلقي نظرة على الجسد."

عندما غادرا، أحضرت جيني آخر كوب من القهوة لسولانج وأنغرفيل، وذهبت بعدها مباشرة إلى السرير. كان كما لو أن كلاهما كانا ينتظران تلك الحظة ليكونا لوحدهما معاً مرة أخرى، لكن بدا أيضاً كما لو أنه ليس بمقدورٍ أي منهما أن يكسر حالة الصمت، كان الخجل الذي سيطر عليهما كبيراً جداً. كانت سولانج من بدأ الحديث في النهاية.

"اسمع يا عزيزي، لا أرغب أن يحرمنا اعترافي لك بأني لا أحبك من تدفق الحنان الذي جعل مرارة حياتنا مقبولة حتى الآن." ضمها أنغرفيل إلى كتفيه وجعلها تتمدد بين ذراعيه.... وتابعت: "ما الذي يمكنني فعله أمام السحر؟" وبعدها قالت فجأة برنة صوتها العميقة "لأني أؤمن بهذا، أن أؤمن به الآن. لدي الكثير من الأدلة الموجودة."

"ما هي؟ أخبريني عنها" قال أنغرفيل بنبرته المهمومة الخالية قدر الإمكان من السخرية.

"هناك شيء يشبه السحر المتعاطف – تعاويذ الحب....... أنا لا أجرؤ على التحدث لأي شخص عن ذلك دون الخوف من أن يهزأ بي، لكن آن لك أن تعرف شيئاً حول شذوذ روحي كي تستطيع إيقاف شغفك، وإن كان هذا فقط بسبب احترامي لشغفك، لأن حياتي كما تعلم، بدون صداقتك........"

مسّت شفتا أنغرفيل جبينها قريباً من خط الشعر.

"أوه، أعرف، لن أكون خائفة أبداً من أن تخييبي ظني! لكن عليّ الآن أن أخبرك يا عزيزي أنه وبشكل أكيد كتأكيد وجودك بجانبي، أن الكونت غراندساي يأتي لزيارتي. يكون قدومه مسبوقاً في كل مرة يحدث فيها، بفترة طويلة من الإشارات والبشارات التي تبدو تدريجياً أنها تستحوذ على كل أحاسيسي، تخدرها وتقيدها دون أن تستطيع إرادتي القيام بأي شيء حيالها............ هذا ما أشعر به يستولي علي من فترة لأخرى .... واقترابه المُسكِر يُشعرني دوماً بنوع من الخدر. بعدها يتغير كل شيء، يصبح متحولاً، كما لو أنه بفن السحر، لا يهم إلى أين أدير عيني المليئتين بالدموع............
تبدأ الحالة في كل مرة بلا شيء. ألاحظ فجأة أن ألوان ريش طائر الحجل جميلة، وكلما فكرت بعدها بذلك الريش، تغمرني ذكراه ببهجة لا يمكنني تفسيرها، لكنها حية جداً!............... أفكر بعد ذلك بأي شيء تقريباً — الصورة الحجرية الملونة لمشهد الصيد التي تزيّن واحداً من جدران غرفتي عندما كنت صغيرة — وعلى الفور تحت الابتسامة المطمئنة على الوجوه المتوردة للخيّالة، بداخلي شعوراً لا يمكن تعريفه من السعادة ومن حب الحياة. لذة من الوهم والبهجة تعبر بداخلي. تلك هي البداية فقط، لأنه حالياً أشعر أن كل العناصر، حتى أكثرها كآبة وابتذالاً في الحياة اليومية، تتحول يوماً بعد يوم............ هل ترى غطاء الطاولة البشع الذي بلون الشوكولا هذا،" قالت وهي تمسك الغطاء بيدها وكأنه شرح للقسوة المعززة بلونه:
"عندما بدأت الإحساس بأن إرفه سيزوروني، بدأت عيناي تكتشفان الدفء في هذا اللون نفسه، تدرّجات ذهبية تشع في أعماق هذا البني....... وهذا اللون العقيقي الذي ألبسه — يبدو متحولاً إلى الوردي المشابه للون الجسد."

"عندما يأتي "هو" إلي، يتحول هذا السقف المحدَّب الذي يغمرني وكأنه قبر، إلى لون مخضَّب بالأزرق كألوان السموات الشاحبة

التي رسمها (تيبولو)[1]." أشارت بعدها إلى النحت النافر الذي يزين الجدار الرئيسي في حجر الطعام وقالت: "أترى يا ديك، حتى جسد المسيح هذا، الذي يبدو وكأنه منحوت بفأس صغيرة وكله عبارة عن خطوط مستقيمة، يصبح عندما أوشك أن أتلقى الزيارة ناعماً وجذاباً مثل القديس سيباستيان الممدد، ويظهر لي قبره لطيفاً مثل شجرة فتيّة. حتى النقش الصارم كما الموت ذاته لا يعود يثير في روحي الخوف الذي كُتِبَت هذه الحروف المنحوتة لتخلقه. هذا يعني أن إرفه يصل، أنه قادم لزيارتي! وليس في الحلم! أنا لا أحلم أبداً أبداً! يحدث هذا دائماً في وضح النهار! ليس مهماً أين، ولا متى، ولا بأية ظروف. ليس هناك من طريقة للتخمين. لو أستطيع على الأقل أن أستعد لقدومه — لكن لا! إنه عنيد، ليس مرناً. عليّ كأسيرة أن أخضع لهذه المتعة التي تصبح قاطعة وبلا رحمة مثل هذا النقش، الذي أستطيع ترجمته إلى: (الحب جامد ومستلط)."

خلّصت سولانج نفسها بصعوبة من بين ذراعي أنغرفيل ونهضت. لكن على الفور بدت كأن أنفاسها تنقطع واتكأت على الطاولة، تركت نفسها تسقط فوقها بكامل وزن جسدها الجميل، وبقيت بتلك الوضعية، ذراعيها متقاطعان فوق صدرها وتجول عيناها في السقف. "نعم! أنا تحت تأثير السحر، وفي كل مرة أكون ضحية متعتي تكون لدي الصورة المفردة نفسها أمامي والمشهد القاسي ذاته يتكرر أمام عيني — اللحظات الأكثر مرارة في حياتي، لحظات انفصالنا، عندما عاملني الكونت باحتقار. ما الذي يمكن أن تكونه تلك العقوبة التي تجمع في روحي المسكينة، الاستبداد اللاإرادي لنشواتي مع القسوة والإذلال الذي عاملني به الذي أحبه بشكل غير مبرر؟

---

[1] تيبولو: رسام إيطالي عاش بين عامي (1696-1770) المترجم

"مباشرة وبعد زيارات إرفه هذه يصبح الوضع أسوأ من أي شيء مضى ويكون لديّ تلك الرغبة بالموت التي تعرف كل شيء عنها. يصبح كل شيء من جديد كئيباً ومعاكساً لما كان من قبل. يختفي بريق اللون الوردي اللحمي عن الثوب الذي أرتديه ويعود ثانية إلى اللون العقيقي الجلي لعباءة التوبة، وينقلب غطاء الطاولة البني أيضاً إلى اللون الأسود تقريباً، أو اللون البني غير المريح الذي يكفن فيه الرهبان. تفوح من الأزهار رائحة عفن السجن، ولا تثير الأمل لدي سوى ذرا أشجار البلوط المخضرة."

دون قول كلمة واحدة، أجبرها بشفتيه أن تغمض عينيها وحملها بين ذراعيه كطفل صغير إلى غرفتها ووضعها في سريرها. عابراً الممر الطويل المليء ببقع الماء المتسرب من النوافذ الجانبية، أغلق على نفسه باب غرفته وأمضى الليل يقرأ. كان يغلق عينيه من وقت لآخر.

"يبدو أنها تمطر بقوة أكثر مما سبق،" يقول ذلك من وقت لآخر في نفسه: "الكليدالية — شذوذ النبلاء.... لتحمني يا إلهي من محاولة إقحامه في حزني الخاص!"

كانت السماء في الصباح التالي أقرب وأشدّ عتمة، لكن المطر المتواصل بدا وكأنه قد خف قليلاً ولم يكن هناك نسمة ريح واحدة. في الغرف العلوية من البيت الريفي للأخوة مارتين، خلف المصاريع المغلقة، كانت امرأة من الجيران تتلو صلواتها بصوت عال قرب جسد الأب مارتين المضاء بشمعة نحيلة واحدة مغروسة في يديه المتشابكتين. جاء في الليلة السابقة صديقه العجوز الذي اعتاد الذهاب معه للصيد كل أحد، ليرى الجثمان.

سأله الأخوين مارتين: "ألا يبدو وكأنه على قيد الحياة — طبيعي وحسب؟" أجاب الصديق القديم بعد أن نظر إليه بصمت ولفترة طويلة. "نعم، طبيعي مثل أي شيء! يبدو وكأنه يصطاد!"

هناك في الإسطبل كانت الأم مارتين العجوز في حالة حداد على زوجها، جالسة متصلبة في كرسي خشبي أسود قاس يمكن للمرء أن يخمّن من الشقوق فيه أنه كان مطليا سابقا باللون الأحمر الدموي. كانت الأم مارتين تقطع نحيبها لتنظر بفم مفتوح إلى ما يفعله ولديها الغرقين حتى الخصر في الروث يحفرون المنطقة التي أشار إليها والدهما الراحل – "تحت البقرة الثالثة". وفجأة، أتى بيير غيراردبان الذي كان واقفاً ويديه مضمومتان إلى صدره يراقب هذا المشهد، مسرعاً إلى الحفرة بينما سحب نظارته من الحقيبة ووضعها على أنفه، لأن المعولين قد اصطدما بشيء قاس، وأطلقا صوتاً جافاً معدنياً فضح بشكل لا لبس فيه وجود الكنز الذي كانوا يبحثون عنه. ألقى الأخوين الذين عملا بجهد بمعوليهما من أيديهما لإخراج الصندوق الذي يحوي الكنز وأتوا به إلى الضوء خلال لحظات. تجمّع الثلاثة حوله وبدأوا يتفحصونه. رفعت الأم مارتين رأسها بشكل يائس، وبذلت جهداً عقيماً لترى ما يفعلونه من فوق أكتافهم.

كان الصندوق الذي يحتوي الكنز مصنوعاً من البيوتر مثل أواني المطبخ وكان حجمه كحقيبة سفر صغيرة. لم يكن الغطاء مثبتاً بأية طريقة ولا محكم الإغلاق، وهذا وليروا ما بداخله رفعوا عنه بعض التراب المتبقي. وجدوا تلة من عدة مئات من النقود الذهبية، البعض منها ملفوف ومربوط بأكياس أكلها الدود مصنوعة من قماش مخطط مثل تلك التي تستخدم لتغطية الفرشات. للتأكيد، لم يكن الكنز رائعاً كما تخيلته العيون الأربعة للأخوين مارتين المحتقنة بنار العجب، مع ذلك، بالنسبة لفقراء مثلهم يعيشون على حافة العوز، تمثل هذه الحقيبة التي أخرجوها للتو من لأرض ثروة تمكنهم من العيش براحة لباقي حياتهم.

قال غيراردبان وعيناه تقيسان تعقيد مختلف أنواع القطع الموجودة في الحقيبة: "يحتاج الأمر منا إلى اليوم بأكمله لجرد كل ذلك". لكن الأخ الأكبر نهض وثبّت نفسه على ساقيه وأعاد تعديل بنطاله ولف

حول خصره وشاحاً قماشياً طويلاً أسود أصبح فضفاضاً بسبب الطاقة غير الاعتيادية التي بذلها في الحفر. بهذا الفعل التفت إلى أخيه الذي كان يراقبه بصمت، استند أمام الجدار ويديه في جيبه.

قال الأخ الأكبر: "حسناً، ماذا تقول؟ هل نعيد دفنه؟ نحن لا نريد أن نلمسه، هل نريد؟"

"يجب أن أقول لا" أجاب الأخ الأصغر، وكأنه أُهين من كونه سُئِل هذا السؤال. التقط المجرفة وأصبح مستعداً لدفن الكنز مجدداً، بينما اعترض غيرارديان الذي كان يستمع بذهول دون أن يتكلم: "حسناً علينا على الأقل أن نحصي الكمية كي نغادر ولدينا جرد مفصل."

لكن الأخ الأصغر وبدون أن يهتم به، ألقى بأول مجرفة من التراب فوق الكنز.

قال الأخ الأكبر: "لم يقم والدنا بأي جرد! عاش حياته الطويلة كلها دون أن يلمسه. لقد أضاف إليه في الواقع، جميع الأكياس الصغيرة المخططة كانت له. حسناً، سنقوم بالمثل! لكن تأكد من أنك تتذكر ما شاهدته." ومن ثم بصق في يده وبدأ العمل. سرعان ما أصبح المكان الذي دفنوا فيه الكنز مرة أخرى مغطى بسرير كثيف من التبن والروث، وعادت البقرة الثالثة بلا مبالاة وجثت فوقها.

"حسناً، يا أصدقائي، أنتما قوة مقاومة حقيقية! لن يستطيع الألمان احتلال البلد الذي يعرف كيف يتخلى ويدفن رفاهيته في أعماق تربته. ربما يمتلكون الجسد ويلطخونه، لكن لن يستطيعوا ذلك نحو كنوز روح الأمة.

"سيبقى ضمن العائلة على أية حال،" قال الأخ مارتين الأصغر، ماسحاً جبهته بقفا كمه محاولاً بهذه النظرة أن يقلل من أهمية تصرفهما. فتّش الأخ الأكبر، مقترباً من الضوء الكئيب الذي أصبح أكثر رمادية بسبب الستارة المنتظمة من شباك العنكبوت، في جيب كتابه وأخيراً

سحب ورقة بيضاء مطوية أربع طيات، وتشير طياته السوداء لكونه انتقل كثيراً من يد إلى يد. "انظر إلى هذا،" قال مسلّماً الورقة لغيرارديان، "لقد استلمت واحداً للتو، وعليّ أن أعيده."

قال كاتب العدل، مليئاً بالفضول وواضعاً نظاراته على عينيه مجدداً، "ليس هناك من مشكلة، سأقرأه هنا.........أه، نعم! سمعت بهذا، يبدو أنهم بعض الخارجين عن القانون، لقد تسلل رجال الأدغال عبر الجبال في القسم العلوي من (ليبرو)."

قرأ الوثيقة بسرعة.

"هذه الوثيقة مؤرخة في شهر آب من عام 1943. يبدو أنها مكتوبة لتدور بين رجال الأدغال أولئك."

"هل أقرأها لكم؟"

أومأ بالموافقة وعندها عدّل نظاراته قليلاً بخجل، متنحنحاً وبدأ. أصبح صوته الجاف الرسمي دافئاً وخالياً ومتقداً بينما كان يقرأ:

"رجال الأدغال. يعرف كل رجل يقدم طلباً لكي يصبح عضواً في مجوعة رجال الأدغال في المقاومة المتحدة، أن الهدف ليس التمرّد على سيطرة العمل الألمانية بل التطوع أيضاً في حرب العصابات في الجيش الفرنسي.

"2. يوافق على الخضوع للتدريب القاسي جداً لجماعة الأدغال وأن يطيع ودون أي سؤال جميع الأوامر التي يتلقاها من القائد المعين من كوادر جماعة الأدغال المنظمة.

"3. يتخلى عن التواصل مع عائلته أو أصدقائه حتى نهاية الحرب. ويحافظ على السرية التامة لمواقع المخابئ وهويّة قادته ورفاقه. ويعرف أن أي انحراف عن هذه القواعد سوف يعاقب عليها بالموت.

"4. يعلن أنه يفهم أن ليس هناك من مساعدة خاصة يمكن أن تُمنح لعائلته دون أن تسبب غيرة جيرانه وخيانتهم.

"5. يعرف أن لا وعود بأية دفعات منتظمة له، وأن إعاشته وحتى تسليحه غير مؤكد. يعلن أنه يفهم أن أقل شيء يصله، يتم الحصول عليه وتوزيعه من خلال الجهد المتواصل وعبر صعوبات خارقة وخطر مفرط لكل الكوادر العليا وأجهزة التواصل. سوف يحترم الممتلكات الخاصة وحياة الفرنسيين، المواطنين الحلفاء أو المحايدين، ليس فقط لأن وجود جماعة الأدغال يعتمد على التفاهم الجيد مع السكان لكن لأن رجال الأدغال هم من النُخبة في البلد وعليهم أن يقدّموا مثالاً جيداً ودليلاً للجميع على أن الشجاعة والصدق يسريان يداً بيد بين الفرنسيين الحقيقين.

"6. ربما تفرض مسألة طعام وملبس جماعة الأدغال أمر وجود عمليات نهب على المحلات، على قوات الشرطة في فيشي وعلى مستودعات مؤن الملابس والطعام المخصصة للمساعدات الدولية أو السجناء.

المصادرات، التي سوف تحدد بما لا يمكن الاستغناء عنه ضمان بقاء عناصرنا، ستُنفذ على أيدي رجال مُختارين بعناية خاصة لجدارتهم وأخلاقهم العالية. حالما تتوفر واردات الأسلحة، فإن هذه العمليات سوف تنفذ حصرياً على احتياطات جيش الاحتلال.

"7. بشكل طبيعي، ليس هناك من تفريق بين انتماء ديني أو اتجاه سياسي يدخل في قبول المرشحين. كاثوليكي، بروتستانتي، مسلم، يهودي، أو ملحد، ملكي، راديكالي، اشتراكي أو شيوعي، جميع الفرنسين الذي يرغبون بالدفاع ضد العدو المشترك مرحب بهم فيما بيننا. يُلزم المتطوع نفسه باحترام آراء ومعتقدات رفاقه. بما أن التسامح واحد من خيرة الفضائل الفرنسية، فإن أتباع هتلر هم فقد من حاولوا إدخال التعصّب في فرنسا. ليس على الرجل من جماعة الأدغال أن يحترم آراء ومعتقدات رفاقه فقط بل سيكون الصديق المضحي بالنسبة

لهم، أخوة بالسلاح. تعتمد حياة الجميع على هذا وهذا وحده يمكن أن يجعل الحياة في المخابئ محمولة.

"يجب أن ينسى كل شخص هوسه وأنانيته وحتى ذوقه الشخصي. ليضحي بنفسه من أجل رفيق، ليأخذ مكانه في المهمة عندما يتعب، وفي حالات الخطر في كل المناسبات، هذا أقل ما يمكن أن يكون مطلوباً من رجال في وضعنا. لن يُهجر أي واحد من جرحانا. والميت سيُحمل ويدفن متى كان ذلك ممكناً إنسانيا.

"8. يتم تسليح المتطوع في جماعة الأدغال فقط عندما يجعله تحمّله وتدريبه مستحقاً لاستلام واحد من أسلحتنا النادرة والثمينة جداً. عليه أن يعتني به جدا، يحافظ عليه نظيفاً بشكل دقيق، ويتركه دائماً بيده أو إلى جانبه، باستثناء إن كان عليه أن يسلمه إلى مستودع الأسلحة في المخيم.

"يُعاقب على فقدان السلاح بالموت. تلك عقوبة قاسية، لكن لا غنى عنها لأمننا جميعاً.

"سيحافظ المتطوع على جسده وحاجياته نظيفة قدر الإمكان. يعتمد على ذلك صحته العقلية والجسدية، والتي هي ثمينة جداً بالنسبة إلى أمتنا.

كل فرد من مجموعة الأدغال هو عدو للماريشال (بيتان) وللخونة الذين يطيعونه.

"تعيش فرنسا وستعيش."

قال مارتين بكبرياء: "هذا هو قانونهم"

تنهد غيرارديان متأثراً لكنه اضطرب أيضاً: "ما الذي نحن قادمون عليه؟ هل سنتجنّب حرباً أهلية بعد كل هذا؟"

"تعال الآن." قال مارتين عندما أنهى غيراردِيان القراءة وأعاد الوثيقة التي طواها مارتين من جديد وأعادها إلى جيب كتابه.

سأل غيراردِيان: "أين؟"

"إلى السقيفة القريبة من هنا. ليس علينا الخروج من هنا. لقد بنينا أنا وأخي معبراً للمرور."

لم يسأل غيراردِيان أية أسئلة أخرى. تسلّق السقيفة لاحقاً بالأخ الأكبر. وهناك، عبر باب مخبّأ في خزانة، دخلا ممراً مبنياً من الخشب، كان عليهما أن يزحفا عبره على أطرافهم الأربعة إلى البيت المجاور. أشار مارتين إشارة متفق عليها وأضاف، "هذ مارتين!" انفتح الباب. كان هناك خمس رجال يدخنون في الغرفة، وكان الرجل الذي فتح الباب يحمل بندقية في يده. أجلس مارتين الأكبر غيراردِيان.

قال: "علينا انتظار القائد للحظة لكي ينتهي،"

لم يستطع غيراردِيان أثناء انتظاره أن يرفع عينيه عن الرجل الذي يحمل البندقية والذي كان يجلس إلى جانبه مباشرة بجو متواضع وخجول. ولم يجرؤ بدوره أن يرفع عينيه نحو كاتب العدل لشعوره بأنه مُراقب. لدى الرجل ذو البندقية شعر طويل رطب يغطي أذنيه بالكامل كما أعطاه مفرق الشعر في منتصف رأسه ملامح أنثوية. كان رأسه مغطى بحبوب الجرب المرشوش ببودرة الكبريت الصفراء وبدت بذلته المرتقة المتسخة بالوحل منسوجة من خليط من الطحلب المتعفن والقذارة والتصق على صدره بقايا من المعكرونة. يكتشف المرء إن حدث والتقت نظراته بنظراته، أجمل عينين زرقاوين في العالم، عيون الروح البريئة النقية كما يكتشف أيضاً وجود قلب من ذهب تحت هذه الروث. كان بقية رجال الأدغال على العكس من ذلك تماماً، وبالرغم من افتقارهم للملابس النظيفة فقد ارتدوا ربطات عنق وكانوا قد حلقوا ذقونهم في اليوم ذاته.

كان قائدهم يكتب شيئاً خلف طاولة رخامية وبدا وكأنه يحمي يده من برودة الطاولة بورقة ملطّخة باللون الردي مطوية طيتين تنزلق مع حركة يده متحكماً بها بإصبعه. لقد حكم هذا القائد للتو على شخص من رفاقه بالموت لأنه فقد سلاحه. كان لديه شعر كثيف بني مشوب بالرمادي ينزل إلى منتصف جبهته، وكان في الرابعة عشرة من عمره فقط. عندما انتهى من الكتابة، ذهب غيراردديان إليه. وقف القائد ومدّ يده بمودة.

بانتهاء المقابلة عاد برفقة مارتن على يديه وركبتيه عبر النفق الخشبي ووصلا إلى الغرفة في السقيفة ونزلا إلى الإسطبل، هناك وجدا سولانج دي كليدا وجيني، اللتان أحضرتا وسائد الريش بمساعدة الأخ مارتين الأصغر وكانتا تعدّلان وضعيّة والدته بشكل أكثر راحة. لم يكد يرحب بسولانج حتى همس لها بإشارة: "يجب أن تأتي معي. لا نستطيع البقاء هنا لحظة واحدة. الأمر خطير علينا جميعا. أرجو أن تخبري جيني أيضاً لتأتي معنا وبدون تأخير."

أخذ سولانج من ذراعها وأحاطها بمظلّته الفلاحية البنفسجية الكبيرة التي أضافة مزيداً من الحماية إلى قبّعتها الصوفية السوداء. عندما عادا إلى غرفة الاستقبال في طاحونة (ديس روس) قال لها" بعض الرجال من جماعة الأدغال قد دخلوا الجزء العلوي من (ليبرو)، طلب مني أحد قادتهم ترتيب مقابلة معك. لم أكن قادراً على الرفض، لأن هذا القائد هو ابنك."

"جون بيير هنا؟ متى سأراه؟"

"لدى عودته من رحلته القصيرة في يوم جميع القديسين، بعد الغداء تماماً. اعتقد أن هذا سوف يعطي المدام الوقت، إن رغبت أن تشارك في الموكب. سيدفن بيير مارتن في ذلك الصباح. رتبنا لتأجيله يومين — هذا سيمكننا من الدخول في المقبرة في وقت مبكر لنخفي جميع المخططات حول الشموع."

"جون بيير هنا!" كررت سولانج رافعة يدها إلى قلبها.

أطلّ صباح الحجّ إلى صومعة القديس جوليان في يوم جميع القديسين مبشراً بعدم سقوط المطر، بالرغم من أن السماء بقيت ملبّدة بالغيوم. جلست سولانج مقابل أنغرفيل يفصلها عنه قطر الطاولة المستديرة الكبيرة، كانت تنهي بصمت حساء الخبز المتلألئ بقطرات الدهن ونكهة إكليل الجبل. أثار صوت نقر ملعقتها بوعاء حسائها نظرات أنغرفيل.

قالت: "لا أستطيع تناول شيء آخر، لا زلت أفكر برؤية ابني مرة أخرى......... لا أعرف بماذا أفكر، أشعر بالصغر والضياع أمامه........... هل أستطيع التحدث معه كما تتحدث الأم في لحظة كهذه وأخفي في الوقت نفسه الفخر الذي أشعر به في أعماقي بشجاعته. إنه فتيٌ جداً وقد اختار الخضوع لمشاقّ حياة الخارج عن القانون بدافع الوطنية!"

قال أنغرفيل: "أراني غيراديان منشوراً مطبوعاً لرجال الأدغال، إنه مثير للإعجاب جداً بالفعل."

نبح تيتان في هذه اللحظة في الساحة.

"إنه هنا، إنه هنا!" نهضت عن الطاولة شاحبة وقالت لأنغرفيل: "أرجوك، اصعد وأخبر جيني أن تصعد أيضاً. أريد أن أكون وحدي مع ابني بدون شهود."

صعد على الفور تماماً في اللحظة التي دخل فيها غيراردیان غرفة الاستقبال. قال متقدماً ليقبّل يد سولانج: "مدام، أبنك هنا، لكنه جاء مع مرافقة. عليّ الانسحاب إلى الأعلى وانتظار أن أتحدث معك حول تفاصيل اللحظة الأخيرة. كل شيء مرتب، والعملية ستبدأ في صومعة القديس جوليان خلال ساعتين."

"أسرع الجميع للأعلى وأغلقوا خلفهم باب خشب البلوط الثقيل الذي كان يُترك مفتوحاً عادة عند نهاية السلّم. بقيت وحدها منتظرة

متكئة على حافة الطاولة التي لم يتم تنظيفها وكان في وسطها طبق الحساء لا يزال ساخناً. انفتح الباب دون أي نقرات مسبقة ودخل ثلاثة رجال: الرجل الذي كان في الوسط هو ابنها. تقدم نحوها وقبلها على جبينها وقال لها بقسوة:

"المادة الثالثة من قانوننا الأساسي تحرمنا بشكل رسمي من التواصل مع عائلاتنا. ربما كان في وسعي كقائد أن آتي دون مرافقين. لم أرغب بذلك لأنني أغضب من وجود شهود على جميع تصرفاتي. أنا موجود هنا ليس كابن لك بل كخارج عن القانون ومحارب عصابات. أتيت إلى هنا كي أطلب منك أن تخفي ستة من رجالي عندك لمدة يومين، لأجبرك على أن تؤدي على الأقل جزءاً من واجباتك التي يبدو أنك نسيتها."

كما لو أنها تحتاج للتفكير بعناية قبل أن تجيب، لم تجب على الفور لكنها قالت أخيراً: "جون بيير — أنت إذن تأمر والدتك القيام بأمر أنت تعرف تماماً أنها لن ترفضه — حسن الضيافة لك ولأصحابك، إن كانوا في خطر."

أجاب جون بيير: "أنا أعرف القليل عنك، والقليل الذي أعرفه سيء!" كان قد أشار إلى الرجلين المرافقين له أن يتراجعوا ويجلسوا في النهاية البعيدة من الغرفة.

"ما هو السيء؟" كانت تشعر بالضعف وتوشك أن تفقد الوعي لكنها استعادت السيطرة على نفسها وبذلت جهداً لتستجمع بعض الشجاعة.

"حول تسليم طاقة مياه طاحونة (دي روس) إلى العدو، في المقام الأول،"

"ما الذي تعرفه عن أسباب هذا التصرّف، ربما لدي مبرراتي؟" دافعت سولانج، شاعرة بأنها مسمَّرة إلى جدار إعدامها بإجابة عنيدة وتعرف أن ابنها سوف يفعلها.

"ليس هناك من مبرر لخيانة الوطن!"

"اسمعني، يا بني، سواء كنت مخطئة أو محقّة، لقد استثمرت في هذه الطاحونة كل ما أملكه أنا وما تملكه أنت، واتخذت على عاتقي المسؤولية الكاملة لتكون لك في المستقبل."

"المستقبل!" أجاب جون بيير بصوت عالٍ كما لو أنه في نوبة كراهية واحتقار لهذه الكلمة.

"تركتك تدرس في سويسرا، وتماماً كما جنّبك عمرك رعب الحرب، رغبت أنا تجنيبك رعب الاحتلال وإهانته. لقد رتبت كل شيء بشكل يمكنك أن تبقى هناك براحتك. لكنك هربت. أنت يافع جداً على المجازفة والمسؤولية التي فرضتها على نفسك، متنازلاً ليس فقط عن إذني، بل حتى عن استشارتي العاطفية، ربما كان عليك أن تُعلمني كصديقة على الأقل، إن اتخذت قراراً بأن تحتقر سلطتي كأم."

"نعم، أنا أحتقر سلطتك، وأحتقر كل عاطفة أظهرتها لي كأم أو حتى كصديقة؟ زيارة روتينية كل سنة إلى المدرسة، وهدايا كثيرة تسترضي ضميرك السيء. حسناً، دعيني أخبرك بأنني اعتدت أن أتلفها وأرميها، كما لو أنها تمثّل وجودك. أعرف الآن معنى كل هذا السحر الذي بنيته لنفسك في باريس. كان رمزاً لهزيمة 1940!"

"ابني، ابني!" بكت سولانج وتكسر صوتها بالتنهدات: إن أردت الاحتفاظ بطاحونة (دي سورس) فهي من أجلك يا جون بيير، من أجل مستقبلك!"

صرخ جون بيير: "مستقبلي؟ أنا واحد ممن لديهم مستقبل وحيد هو الموت!"

"كيف يمكننا معرفة أية نهاية ستأتي بها هذه الحرب؟ ما الذي ربما يحدث لميراثك؟"

"سأكون ميتاً قبل ذلك، لكن حتى وأنا ميت، سوف أرث عارك!"

اقتربت سولانج من ابنها ذليلة وبائسة. "انظر إلي يا بني، إن لم تكن ترغب بالاستماع لما أقوله فانظر إليّ على الأقل، قد ترى في وجهي أني لست خسيسة بالمطلق! انظر إلى شفاهي البيضاء، انظر كيف أعاني!"

"أنا أنظر إليك سولانج دي كليدا، ولا أرى في تعابيرك شيئاً سوى بقايا جمالك الخلاب الذي أغويت فيه محبّيك، وإن كنت هشة ومريضة فهذا فقط لكونك كنت في مخاض علاقة غرامية تعيسة مع ذلك الكونت غراندساي الذي أهانك!"

التفتت باكية، كئيبة بالمطلق وخاسرة، ترنحت على الجدار العظيم حيث دفنت وجهها بيديها واتكأت على الحجارة الخشنة. لا زالت الرطوبة تتقطر وقد ضغطت نفسها بقوة عليه شاعرة بماء بارد يتدفق ممتزجاً مع دموعها التي تغلي. أصبحت شهوانية تلك الأحاسيس أقوى من معاناتها الخاصة. توقفت عن البكاء وواجهت ابنها مجدداً، لكنها بدت الآن وكأنها لا تراه، غطت شفاهها المرتعشة ابتسامة غامضة من المتعة. لا بدّ أن ذلك التعبير الذي يزداد ثباتاً كان غير مفهوم بالنسبة لجون بيير.

سألها بغضب ودون اهتمام في آن معاً: "لماذا تبتسمين هكذا؟" هل هو احتقار؟ هل تحولين إثارتي؟ أم أنك أصبحت مجنونة؟"

"اهدأ،" قالت سولانج بهمسة عارية، رفعت يدها واتكأت على الجدار............ "أشعر به قادماً .... أعرف ذلك الآن، بدأ ذلك الليلة الماضية................ سيأتي لزيارتي......... أنه هو، الكونت غرانسداي، الذي أراد الإساءة لي مجدداً. كل شيء حلو ولاذع بالنسبة لي لأنه يشبهك، عنيد، وليس لديه شفقه......"

اتخذ جون بيير خطوة نحوها بينما كان محتاراً بالكامل، لكنها راوغته برشاقة كما لو أنها تتجنّب لمسته وجلست إلى الطاولة وتاهت في أحلامها غير متأثرة بالعالم الخارجي.

كانت تبكي بنعومة ولم تستطع مقاومة فيضان دموعها وانسحق صدرها على الطاولة. أبهرتها الملابس البيضاء من مسافة قريبة كهذه وأغلقت عينيها مخبئة وجهها بيد واحدة وقالتِ: "أنت أيضاً جئت لتسيء إلي،" وصرخت بعدها: "اتركني وحدي، ارتكني وحدي! لقد جرحتني بشدّة!"

ربما كان لدى جون بيير في تلك اللحظة نبض من الحنان لأنه مد يده وبدأ يلامس شعر أمه بلطف.

"ابتعد عني الآن، لم أعد أريد شفقتك أبدا!"

توقفت اليد. ألحّت سولانج ملسوعة بحقيقة أنه كان مستعداً ليطيعها، وأن حبه كان من السهل جداً تثبيطه: "ابتعد عني، أقول لك........" وبعدها أضافت: "أنا أرفض الآن أن أخبئ رجالك!"

شعرت في هذه اللحظة بأظافر جون بيير تنغرس بشكل مؤلم في فروة رأسها، واقتربت بعدها قبضته لتشدّ شعرها بشكل لا يُحتمل، هزّ رأسها للخلف ودفعه على مفرش المائدة حيث غرق خدّها في فتات الخبز الجاف. لم تسمع شيئاً بعد ذلك، لكنها عندما فتحت عينيها لم يكن في الغرفة إلى جانبها سوى أنغرفيل، قبّل زاوية فمها.

قال أنغرفيل: "متى غادر ابنك، لقد أغمي عليك، وكان هناك تعبير من السعادة على وجهك...... لم تتوقف بسمتك."

"لا أتذكر شيئاً....... لكني أعرف أنه سيأتي."

بعدها، نظرت بغضب نحو الباب نصف المفتوح إلى المطبخ.

"ذهب الجميع إلى احتفال يوم جميع القديسين، لقد أقفلت الباب في الأسفل، بشكل أن من يأتي عليه أن يدق الباب. نحن وحدنا هنا."

"يبدو لي فجأة وكأن الشتاء قد انتهى، كما لو أن الربيع بدأ للتو. خذني بعيداً عن هنا!" وبينما تردد أنغرفيل، كررت هي: "خذني بعيداً من هنا، بسرعة، يا عزيزي، جهّز الخيول، أحتاج إلى هواء نقي. سوف نمتطي الخيول لكامل الطريق إلى صومعة القديس جوليان، وسوف نصل هناك في وقت صلاة المساء."

عندما ظهر مجدداً ليخبرها أن الخيول جاهزة كانت تنزل من غرفتها، وتوقفت للحظة في وسط السلم، ترتدي زي الخيالة الضيق الرشيق الذي لم يراها فيه منذ ركوبهما الخيل في غابة بولونيا.

"كم تبدو باريس بعيدة، أليس كذلك؟" كان قد ربطت شعرها للخلف تحت قبّعة رقيقة متشابكة مع مروحة من ريش الحجل، تركتها تتهادى بحركة مسترخية خلف أذنيها وفوق كتفيها. اتجه أنغرفيل نحوها وأمسك يديها وأبعد ذراعيها عن جسدها وتركهما معلّقين للحظة بهذا الشكل وقال: "كم أصبح شعرك طويلاً!"

"إنه يترافق مع مشاكلي!"

"لا تضعين أي ماكياج، رأيت في مرة سابقة وأنت بهذا السوء — وككائن سماوي!"

قالت سولانج وهي تخفض عينيها: "أنا أتذكر ذلك اليوم أيضاً، كم تحبني لتتذكرني بهذا القدر، بأصغر تفاصيل بؤسي. كان ذلك في الطابق العلوي، في قصر.......... كنت أبكي حينها، أيضاً." رفعت رأسها ونظرت نحو القصر عبر النافذة الصغيرة. "مساء الخير أيها لحزن! هل تتذكر؟"

"لا، قلت لك هذه العبارة في الليلة السابقة، عند نهاية العشاء. لكن عندها كنت شجاعاً معك، أكثر جرأة مما كنت أحلم بأن أكون الآن. بعد أن لفتّ نظرك لحقيقية أن عيناك كانتا حمراوان .... "عيناك حمراوان."

"دعنا نذهب، هل يمكننا؟" قالت سولانج، ممسكة بذراعه: "نحن ذاهبان لامتطاء الخيل، عزيزتي. كيف لم نفكر بهذا الأمر من قبل؟"

في الطريق، توقفا للحظة في غابة غابات البلوط اليافع الذي كانت أوراقه ناعمة لامعة كالطلاء بعد تلك الأمطار. كسرت سولانج عصناً يانعاً ووضعته في اللجام لتزيين رأس الحصان. ثم انطلقا مجدداً. لدى وصولهما إلى صومعة القديس جوليان أرادت سولانج متابعة المسير، بدلا من الدخول للصلاة، وأضاعا طريقهما وهما يطوفان حول ممر ضيق في الأسفل حيث تلتفّ مياه السيل الجارف الأحمر مشكلا دوامات. لم يتفوه أحد منهما بكلمة. لدى عودتهما، لحقا بالموكب في اللحظة التي أوشكا فيه على عبور موقع مراقبة ألماني معزز بثلاث فرق من الجنود يقودها ضابطان يلبسان زي الاحتفال. كانت إثارة مكثفة بالنسبة لهما. أمسك أحدهما بيد الآخر بشدّة وكل منهما يعتلي صهوة حصانة على حافة الطريق ثم توقفا لمراقبة مسير الموكب. حمل الفلاحون الشموع المضاءة وغنوا الأغاني الحزينة يرافقهم مزمار القربة والدفوف متقدمين بلا مبالاة تحت المراقبة الدقيقة لنقطة التفتيش، مسبوقين بصورة العذراء المحمولة على أكتاف الأخوين مارتين وشخصين آخرين، يحمل الأربعة شموعاً بأيديهم الحرّة.

صرخ الأولاد: "أثداء من صخور حية،"

غنى الرجال: "سيقان من العشب الطازج!"

رددت سولانج: "شفاه من ياسمين! كل هذا جميل ويمكن أن يجعل .... رافقها إيقاع الدفوف، بوم، بوم، بوم"

رددت سولانج "شفاه من ياسمين! كل هذا جميل ويمكن أن يجعل المرء يبكي.......... انظر إلى غيراردیان، كم يبدو صغيراً........... إنه يغني أيضاً........ " امتلأت عينيها بالدموع.

قال أنغرفيل: "في الخلف هناك، جيني – كم هي جليلة، كم هي فخورة بزيها الفلاحي القديم."

حدث في هذه اللحظة شيء مرعب. فتح أربعة من الجنود الألمان ممراً عبر الحشد وتوقفوا أمام جيني. بعدها، كجرار حزن يصيب القلب بالشلل، توقف كامل الموكب عن التقدم. ولأن الحشد بدأ يتسلق منحدراً جبلياً تمكن أولئك الذين في المقدمة من مراقبة المشهد من نقطة أفضل. لا يمكن تخيل خوف الأخوة مارتين وغيراردیان وجميع أولئك الذي يحملون المخططات الملفوفة فوق شموعهم! أغلق سولانج عينيها شاعرة بمأساة وشيكة. لم تكن جيني وحدها في تعرّضها لهذا القدَر لأن جنوداً آخرين كانوا يفتشون الفلاحين ليتفحصوا ما الذي يحملونه في سلالهم وأكياسهم. لم يكن هناك من شك في حالة جيني سوى في تنورتها العريضة التراثية الطويلة جداً، والتي تحتوي على قضبان تقليدية منسوجة من القصب، من النادر رؤيتها في هذه الأيام، كان الريفيات يلبسنها في تلك المناسبات فقط. تصرفت جيني ببرود خارقة كونها أدركت ذلك. أعطت شمعتها المضاءة لأحد الجنود الذين كانوا يفتشونها ونزعت تنورتها بهدوء أمام الجميع. عندما بدا واضحاً أن لا شيء مخبأ تحت التنورة، أعادت تنورتها فوقها باللامبالاة نفسها واستعادت شمعتها من الجندي الذي كان مخدوعاً بخبث فلاحي سهل ليبرو.

"الآن وبعد أن زال الخطر، وقبل أن يصبح الظلام حالكاً، أودّ أن أعود للحظة إلى المقبرة لأضع هذا الغصن الطري من البلوط على مدخل سرداب والدة الكونت غراندساي كنوع من الامتنان. لاحظت أثناء عبورنا أن بوابة المقبرة مفتوحة وهي على مسافة قصيرة من هنا."

"عندما دخلا المقبرة، ترجلا عن حصانيهما وسارا. كان الضريح في نهاية الدرب الرئيسي من شجر السرو، مبني من غرانيت سهل ليبرو الرمادي الوردي، وعلقت سولانج غصنها بين نقطتين من التاج الحديدي المثبّت على الجدار، والذي ترك خيوطاً من الصدأ على الصخر.

"يمكننا المغادرة الآن. دعنا نعود بسرعة إلى طاحونة (دي سورس). لكن بدلاً من أن ينزلا الدرب بشكل مباشر من المكان الذي دخلا منه، إذ كانت المسافة الأقصر إلى السياج الحديدي حيث ربطا حصانيهما، بدت سولانج مترددة. سارت ببطء على ممر جانبي حيث وصل ارتفاع الأعشاب التي لا تزال مبللة بالمطر إلى مستوى الخصر.

"لماذا لا نأتي إلى هنا مرات أكثر، دعنا نبقى هنا دقيقة أخرى. لا أشعر هنا وكأنني في قبل، بل هناك، تحت السقف المحدب لطاحونة (دي سورس). لا أودّ أن أدفن بها. عندما أموت، سأرغب بأن تكون هناك سماء مفتوحة فوق قبري!"

وبينما كانت تتحدث مددت نفسها على التابوت الحجري القديم الذي نما بين شقوقه سيقان سنابل طويلة ناعمة.

"انظر إلي كيف سأكون عندما أموت!" وأوقفت تنفسها وشابكت يداها بين نهديها متخذة وضعية الإنسان الميت، لكن بدلاً من أن تتطابق تعابير وجهها مع هذا الدور المفترض، اتخذت تعبيراً مختلفاً قليلاً وبدت وكأنها لا تستطيع التحكم بشفتيها اللتان كانتا مفتوحتان بابتسامة شهوانية. لمع ضوء القمر الذي كان يقتحم تلك السماء الصافية على صفي أسنانها المرطب بلعابها.

"يداك باردتان وجبينك يحترق: كنت تتعرقين بالكامل من ركوبك العنيف على الحصان منذ فترة وسوف تصابين بالبرد!"

حاولت سولانج أن تنهض. "أشعر بدوار، ساعدني على النـزول" لكن في اللحظة التي وقفت فيها انهارت بين ذراعيه مرتعشة مـن الـبرد. "أمسكني جيداً وبإحكام، هذا مرعب، أشعر بأنه سيأتي."

قال وهو يضغطها بقوة أكبر: "أعرف. أعرف ما الذي تـرغبين به الآن. تريدين مني أن اتخذ مكانه وأسيء إليك أيضاً، هـل هـذا مـا تريدينه مني؟"

"أوه، لا! لـيس المشـكلة بـيني وبينـك الآن. إنهـا حالـة حبنـا المنفصل من سيفعل بكل شيء! نعم! أنا سأرغب بأن يأتي ويزورنـي.... الآن، هنا! لدي رعب من غرفتي."

"سأحضر الأحصـنة إلى هنـا لكـي نعـود" قـال أنغرفيـل تاركـاً جسد سـولانج بفظاظـة علـى التـابوت الحجـري. بقـي أحـد ذراعيهـا متدلياً، وكأنه جامد.

"لكن ما هي مشكلتك؟ هل تريـدين هـذا حقـاً؟" غمغـم أنغرفيـل مقرباً وجهها منه.

"نعم أريد!"

"سأذهب لإحضار الأحصنة،"

"قبّلني بقوة أولاً، قبّلني من فمي!" قالت سولانج.

ذهب دون أن يطيعهـا وعنـدما عـاد ممسـكاً الأحصـنة مـن لجامهـا، وجد سولانج ممددة وكأنها ميتـة بالفعـل، لم تُبـدي أي حركـة. نـزل بعـدها على ركبتيه وقبّلها كما طلبت. أصبح جسدها جامدا كقطعة خشـب. أمسـكها من خصرها ورفعها بصعوبة وبدأ يسحبها عن التـابوت الحجـري. علِـق أحـد كاحليها بين قطعتي قرميد، وأسفر الصراع عن تفتتهما إلى كومـة طـين. لكنـه

فقد توازنه وأوشك أن يسقط معها مصطدماً بعنف بحصانها الأسود الذي فر هارباً بين القبور يصهل بحزن في صمت الليل الذي بدأ للتو.

"قفي للحظة، بينما أمسكه لك."

"لا أستطيع، مددني هنا أمام شجرة السرو هذه."

قام أنغرفيل بذلك، لكن جسدها أصبح متصلباً كجسد عارضة في واجهة متجر أزياء. تخبط رأسها على أغصان الشجرة التي خدشت وجهها، بينما بدت الابتسامة الملغزة لإغوائها تبرز بكثافة وغالباً ما كانت تقلص جفنيها بعنف.

عندما نجح بوضعها على حصانه، سحب الآخر من لجامه واندفع كالمجنون نحو طاحونة (دي سورس) واجتاز الموكب أثناء مروره ببوابات قريبة (ليبرو). دخل غرفة الاستقبال حاملاً سولانج بين ذراعيه.

قالت سولانج: "ليس في غرفتي! مددني على الطاولة،"

صرخ أنغرفيل: "لقد وصل الموكب إلى القرية. سيكون غيرارديان وجيني هنا في أي لحظة،" لقد أصبح وجهه للمرة الأولى قاسياً وبشعاً.

بدت سولانج الآن وكأنها تصارع الموت وكانت أسنانها المنقبضة ترسم ابتسامة.

تقطعت الأزرار التي تُمسك تنورتها أثناء امتطائها الطويل للخيل. مرر يده عبر الشق تاركاً فخذ سولانج العاري يحرق يده بينما كان صدرها بارداً بالوقت نفسه. كانت يده الأولى في الجنة والأخرى في النار.

غمغم أنغرفيل سؤالاً بدت فيه فقط كلمة "تريدين" مسموعة، لكن بالطريقة التي تقلصت فيها حنجرتها المسترخية بوضعية ابتلاع مؤلمة، أدرك أن فيضن الرغبة قد أغرق إرادتها سلفاً.

أوما إلى الطابق العلوي لكنها أمسكت به بقوة. أرادت ذلك هنا، على طاولة امتناعهما عن ممارسة الجنس، حيث ولمدة سنتين، وفي كل وجبة لهما، كانا قد ابتلعا رغبتهما بطريقة خاطئة.

"لكن هذه المرة فقط!" وصله صوتها ضعيفاً من الشاطئ المنحسر للعالم المألوف.

شخص ما يطرق الباب بقبضته في الطابق السفلي، ونبح تيتان بقوة. عندما نزل ليفتح الباب وجد غيراردِيان وجيني والأخوين مارتين واثنان آخران من الفلاحين يساعدانهما في حمل صورة العذراء. يحمل الجميع الشموع المضيئة بأيديهم وينتظرون مجتمعين ككتلة متراصة ينهشها القلق.

قال أنغرفيل: "كان عليّ أن أحمل المدام إلى غرفتها، يبدو وكأنها مريضة....... لا بدّ أنها مصابة بنزلة برد. ليذهب مارتين ويحضر الطبيب."

توجّه الجميع إلى غرفة الطعام بصمت ووضع كلُّ منهم القسم المتبقي من شمعته على الطاولة وانسحب على الفور باستثناء غيرراديان الذي بقي ليجمع المخططات ويلفها بعناية. ساعده أنغرفيل في عمله وطلب من جيني أن تحضر كوباً من النبيذ القوي لغيراردِيان.

قال غيراردِيان: "علي الانتظار، لأرى ما يقوله الطبيب لا بدّ أنها منزعجة جداً من زيارة ابنها."

وجد الطبيب بأن سولانج بحالة خطيرة للغاية. كانت تعاني من نوبة حمى دماغية، وإحدى رئتيها محتقنة بشدة. ترك وصفة ووعد بأن يعود في منتصف الليل.

عاد غيراردِيان ومخططاته تحت إبطه إلى قصر (لا موت) حيث يحافظ برينس دائماً على غرفة جاهزة له في الطابق الثاني للحالات الطارئة عندما لا يتمكن من العودة قبل حلول الظلام إلى ملكيته الصغيرة في القسم الأدنى من (ليبرو). قال غيراردِيان عندما أتى الخادم العجوز

ليفتح الباب له. "يا له من مطر يا عزيزي برينس! أنا لم أرى مثله خلال السنوات العشر الماضية!" وسأله بعدها: "الكثير من المشاكل في الأسطح؟ يحتاج الأمر هناك في بيتي إلى أسبوعين طويلين لإصلاح التسربات."

أجاب برينس باحترام: "لقد تم الاهتمام بها سلفاً،"

"ماذا؟ هل كان وجد عمال البناء الوقت كي يأتوا؟"

"في أوقات كهذه، لا أريد أن يقلق الكونت حول أي شيء كهذا. حصلت على خمسة أكياس من الإسمنت............... ربما يتذكر السيد أنه وفي كل يوم أحد وقبل أن شراء روشفورت اللطاحونة، اعتدت أن أقوم بأعمال البناء على المقصورات المنتهية قرب بوابات قنوات المياه. يبدو وكأن الألمان سيدمرونها جميعاً الآن."

خلع غيرارديان معطفه وجزمته المطاطية. "أنت رائع يا برينس – أنت تحمل كامل أعباء القصر القديم على كتفيك. ألا زال هذا الزميل (تيكسر بوش) يزعجك مرة أخرى بتحريه عن احتمال انتحار الكونت غراندساي؟"

"تم تدبير هذا الأمر أيضاً! تم العثور عليه غارقاً أثناء صيد الأسماك "حادث" – كان ذلك منذ أسبوعين فقط."

"وابنك برينس؟"

"لا يزال سجيناً في ألمانيا. لكنه قال أنه سيأتي قريباً."

وبشعور مفاجئ من الاستعجال، قال غيرارديان لبرينس: "سأصعد إلى غرفة الكونت لدقيقة. بينما تحضّر لي شيئاً آكله – كما تعرف، أحب الأطباق الساخنة."

"أعرف، كنت أحضّر بعضاً من "الكروش والأمعاء" منذ صباح البارحة. عرفت أن الموكب سينتهي متأخراً وأن السيد لن يكون لديه الوقت ليعود إلى بيته في المنطقة السفلية من (ليبرو)"

أقفل غيرارديان الباب خلفه في غرفة الكونت غراندساي. وعلى الفور ألقى لفات المخططات على السرير، جلس للحظة على الكرسي بجانبها وبعد أن حكّ وجهه بيده أطلق تنهيدة طويلة تنم عن الراحة. نهض إلى الخزانة الطويلة المصرية الطراز ذات الأقدام البرونزية وفتحها وأمسك جمجمة القديسة (بولندين) بيديه، قلبها ووجد عليها من الخلق نقوشاً بالحبر الصيني كان قد نسخها بنفسه هناك وفقاً للتعليمات السريّة التي تلقاها من الكونت. نسخ النقوش على ثنية كمه ورسم خطأً تحت عمود الأرقام، كانت قد أضافه بطريقة احتياطية لتبدو وكأنها إضافة حسابية وعاد بعدها ليجلس على مكتب غراندساي. كان لديه عملية طويلة لإخفاء كل مخطط عبر إلصاقه على خلفية لوحات الخرائط في الأطلس القديم. بانتهائه من هذا العمل، أعاد بقايا شمعته إلى جانب جمجمة القديسة (بولندين) وأغلق الخزانة ووضع الأطلس تحت ذراعه وأطفأ الضوء وأغلق الباب ونزل إلى غرفة الطعام. كانت الطاولة مضاءة بشمعدان منقوش عليه ببراعة رسماً لإله الخمر (سيلينوس). كان برينس العجوز محلقاً مثل الروح الحميدة خلف الضوء الذي تصدره الشمعة، ينتظر ليقرّب الكرسي بطريقة رسمية في اللحظة التي يقرر فيها غيرارديان الجلوس لتناول العشاء.

بعد عدة أيام كان غيرارديان في باريس. في غرفة فندق صغيرة في شارع (فيفين)، اعتنى بنفسه تمهيداً لزيارة المجموعة الشيوعية التي رتّب معهم اللقاء. كان قميصه مرتباً ومصنوعاً بشكل متقن وخاصة حول ياقته بالإضافة لاحتوائها على طوق قابل للفصل، وكان صدره وأكمامه معسدان كدرع. أعاد بخيط رمادي وأصابع عنيدة، تثبيت الزر المقطوع على إحدى فردتي حزمته التي تعود إلى تاريخ زواجه منذ ستة وثلاثين سنة مضت، كان ذلك الامتداد الزمني قد مدها بمُسحة من لونٍ مخضرّ.

كان الاتصال بذلك النوع من الناس الذين يرى أنهم غافلين تماماً عن القوانين الإنسانية والسماوية وعن الهيئة الجديدة بشكل عام، بغيضاً

بالنسبة له بشكل غريزي. وبسبب ذلك على وجه التحديد، جعل نفسه ملتزماً بالظهور أمامهم بأفضل صورة ممكنة، لأنه لم يكن قد شعر بنفسه أبداً، يتحوّل بهذا القدر وبهذه الظروف الحالية إلى رمز لقدسية الممتلكات وحصناً متعصباً للتقاليد. مع احترامه وإخلاصه للمؤسسات الجمهورية وبقائه ملكياً في قلبه، شجب العبارات الغوغائية الدولية لأناس من هذا النوع.

بعد مروره ببعض الوسطاء وبعض الطرق الملتوية، تم توجيهه في النهاية إلى غرفة حقيرة تحت الأرض، مضاءة فقط بمصباح طاولة معدني، حيث قابل "المجموعة". وتحدث بتهذيب وجفاف معهم على الشكل التالي:

"أيها السادة، جئت إليكم لإحضار نسخة من المخططات التي على أساسها تعهد الألمان البدء بالعمل على تحويل سهل (ليبرو) إلى منطقة صناعية، وأنا كما تعلمون، أنفذ بدقة وحسب، الأوامر التي تلقيتها من الكونت غراندساي. لحسن الحظ أن الخطر الذي تعرضت له أنا ومجموعة من أصدقائي قد أصبح الآن من الماضي. لكن لأجل مصلحتكم ومصلحتي أنا أيضاً. أطلب منكم نسيان معرفتكم بي في اللحظة التي أخرج فيها من هذا الباب، وأطلب ألا ترسلوا لي أي شخص من أتباعكم بأي ذريعة كانت، لمقابلتي في (ليبرو). إن عدونا المشترك قد حذّر بشدة، وأية حركة أقوم بها تخضع لمراقبة دقيقة، وأي تصرف طائش من جهتكم قد يعرّضكم ويعرّضني للخطر. إن طلب الكونت شيئاً، سأكون الشخص الوحيد الذي ينفذ وسأعود إليكم مرة أخرى."

قال أحد الرجال بمزاج سيء: "أنت خائف سلفاً،" كان يتكئ على الطولة منشغلاً بالكتابة بشكل مستمر ولم ينظر إلى غراردیان.

أجاب غيراردیان بشكل لاذع: "عبارة كهذه تصدمني بعمق، إن لم يكن أسوأ"

تدخل البروفيسور بروسيون بطريقته المصلحية: "ومع ذلك، قال الرفيق ما قاله وسأحاول الآن أن أترجمه لك بلغة أقل صرامة وصدماً لعاداتك الأدبية. الواقع أن ثقافتك البرجوازية – ولا يمكن أن تكون غير ذلك – هي على النقيض تماماً من قوانين تقدمية معيّنة خاصة بالأخلاق الثورية. إنه (بُخارين)[1]، أعتقد أنه هو من صاغ بوضوح وجرأة مبدأ أن الحرية، بالرغم من الالتزام الضمني لأي تصرف ثوري، تستلزم واجب التنازل عن المطالبة بالأخلاقيات الفردية. وبما يتعلق بذلك أيضاً، هناك فصلين طويلين لـ (بليخانوف)[2] تُنير بشكل كبير وتساعد على فهم أن "النقد البناء" في المفهوم الأخلاقي للعالم............"

قال غيراردیان بفظاظة مقاطعاً كلامه: "أيها السادة، كل ثقافتي البرجوازية متضمنة في كلمة واحدة "الشرف". "

سادت لحظة من الصمت المرتبك. أجاب بعدها البروفسور بروسيون مدعياً الودّ لكنها كانت نبرة مازحة: "الشرف...... تلك كلمة جيدة، لكن من الصعب نوعاً ما إيجاد معاهدات خاصة يمكن للمرء فيها أن يقرأ ويعرف عنها."

أجاب غيراردیان وهو يلبس قفازيه بأناقة: "تعلمت تلك الأشياء من أمي".

---

[1] نيكولاي بُخارين: ثوري بلشفي روسي وسياسي، كتب الكثير عن النظرية الثورية، قضى ست سنوات في المنفى وعمل بشكل وثيق مع لينين وتروتسكي. وعندما بدأ ستالين عمليات التطهير في عام 1936 قام بتصفيه حلفائه ومنافسيه السابقين من أجل السلطة واتُهم بُخارين بالخيانة وأعدم في عام 1938. المترجم.

[2] جورجي بليخانوف: ثوري روسي ومنظّر ماركسي وهو مؤسس الحركة الديمقراطية الاجتماعية في روسيا وكان أول الروس الذين قدموا أنفسهم كماركسيين. المترجم

قال الرجل الجالس إلى الطاولة بنفاد صبر متابعاً الكتابة كما لو أنه يؤلف كتابا: "كن كما تريد، وداعاً أيها الرفيق! أنت زميل جيد والحزب لن ينسى الخدمة التي قدمتها له."

قال غيرارديان بتحفظ مستعداً للمغادرة: "آمل ذلك — ليلة سعيدة أيها السادة!".

وهنا قذف الكاتب قلمه على الطاولة ونظر مباشرة إلى غيرارديان للمرة الأولى وانفجر قائلاً: "انظر إلي، ما هذا الطريقة المتحفظة التي تخاطبنا بها بكلمة "أيها السادة"؟ في هذه الغرفة نحن متساوون ومتشابون — رفاق! على سبيل المثال! وأنت بالفعل ينبغي أن تكون خائفا قليلاً منا!"

"أوه، بحق الجحيم، دعه يخاطبنا بكلمة "سادة" إن كان يستمتع بذلك! هتف أحد الرفاق الذي كان يقرأ جريدة في نهاة الغرفة.

"حسناً، إذن!" اختتم الكاتب. "ليلة سعيدة، أيها السيد!"

أجاب غيرارديان برباطة جأش: "ليلة سعيدة، أيها الرفاق، عندما دخلت هذه الغرفة تصرفت بمساواة، لكنني أغادرها الآن بقناعة تقوم على أنكم إن كنتم رفاق فأنا سيد وإن كنتم سادة فأنا رفيق."

استعجله بروسيلون للخروج إلى الصالة وقال له: "لا تهتم، من الآن ولاحقاً يستطيع عدونا المشترك الاعتماد تليين وحدتنا الاجتماعية التي لا تزال صدئة حتى تأتي الثورة. لكن سوف نكون شاكرين لك جميعاً لباقي حياتنا، وما هذا إلا حبات رمل تافهة من ثقافاتنا المختلفة. لا تقلق — سوف نحافظ على كلمتنا، لن يأتي أحد ويعيقك في (ليبرو)". شكراً لك، وضغط على يد غيرارديان.

وبعد قضائه عدة أسابيع في باريس، استلم خلالها رسالة تحتوي أخباراً أكثر إيجابية إلى حد ما عن صحة سولانج دي كليدا، عاد

غيرارديان إلى (ليبرو). أول شيء خطط للقيام به هو الذهاب إلى طاحونة (دي سورس) ليحصل على الأخبار مباشرة، وليقوم بزيارة للمدام إن كانت ظروفها تسمح. لكنه اضطربٍ بشكلٍ كبير بينما كن لا يزال على بعد مسافة من الطريق، لرؤيته نوراً قادماً من إحدى نوافذ قصر (لاموت). "هل يمكن أن يأتي الضوء من غرفة الكونت؟" تذكر بشكل واضح أنه أطفأ الأضواء كلها قبل أن يقفل الباب وكان المفتاح في جيبه! زاد من وتيرة سرعته وصل إلى الزاوية الأخيرة من الشارع المؤدي إلى غابة البلوط وأدرك هناك صحّة مخاوفه. بما كان لدى برينس مفتاح آخر لهذه الغرفة، لكن عيه أن يذهب ليرى إنٍ كانت قد ظهرت أية تسريات جديدة....... لا، لم يكن هذا وارداً. لم يكن هناك أية تسربات في الغرفة. لكن تخيّل ذهوله عندما وصل إلى القصر، لقد وجد الباب الرئيسي موارباً. عبر برأسه في تلك اللحظة احتمال وجود لصوص. دخل بحذر وصعد السلالم كشبح ودخل غرفة الكونت. كان يجلس إلى المكتب ضابط نازي يحيط به حارسين ويجلس برينس على الكرسي المقابل لهم وقد نهض للحظة عندما رأى غيرارديان يدخل. كان الضابط النازي يحمل جمجمة القديسة (بولندين) ويوازنها على ثلاث أصابع من يد واحدة، ويدخل بهدوء إصبعاً من اليد الأخرى في قاعدة الشمعة. كان للضابط عينان رماديتان حالمتان ووجه متورد. كان أنفه المستدق شاحباً كما لو أن الدم قد تسرّب من طرفه، وقد بدت ضراوته مركّزة بالتحديد في الطرف الغضروفي من ذروة أنفه. أحضر الجندي كرسياً لغيراردیان، وجّه الضابط الكلام له بلغة فرنسية صحيحة تماماً.

"نريد منك تفسير أمرين، الأول: (وقذف جمجمة القديسة بولندين في الهواء وأمسكها ببراعة بشكل مقلوب)، الأمر الأول، سوف نسألك تحديد العنوان المكتوب بالحبر الهندي على الجهة الخلفية من الجمجمة" (وأشار بنهاية الشمعة إلى الرقم الدقيق الذي سجّله غيرارديان هناك): والثاني، إين هي صور المخططات التي كانت تحيط بالشموع؟"

وألقى إيماءة ذات مغزى على الأرض بجانب المكتب، حيث كان هناك كومة من الشموع كانت قد أحضرت إلى الغرفة من القبو. "أنت لم تنتبه إلى حقيقة أن الشمع يميل دوماً إلى ترك آثار، وخاصة تلك ذات الحبر الثقيل الخاصة بالمهندسين" المخططات الزرقاء. انظر بنفسك كيف يمكن للمرء أن يرى التفاصيل الصغيرة للمخططات، بالرغم من أنها شاحبة."

أخذ غيرارديان الشمعة التي أعطِيت له ليتفحصها. "أنت على حق تماما!" أجاب بهدوء.

"مجرد شيء آخر ربما أؤكده لك: خطتك الساحرة الوطنية حول التخريب تم قتلها في المهد."

قال غيرارديان: "حسناً، حاول فقط أن تتخيل أن سرّي مؤلف من صندوق أبيض ناعم يُفتح ولكنه لا يُغلق. بيضة تستطيع كسرها. وهذا الصندوق المسمى سرّي، لن تستطيع إعادة بناءه، لأن جسدي والسرّ هما واحد. وفي الداخل سوف تجد فقط صفاراً قليلاً وبياضاً قليلاً، والقليل من الزلال الناعم، والتي هي حياتي البائسة الصغيرة. التي جعلتك تشاهدها."

"جيد. التفكير انتهى،" قال وكأنه يريد وضع حدّ لهذا النقاش. "من المحتمل ألا يكون أي من السؤالين الذين سألتهما لك مثار اهتمام بالنسبة لنا لأننا نعرف كل ما نريد أن نعرفه عنهما. أليس هذا واحداً من المخططات التي استلمتها الأسبوع الماضي، كمثال؟" فتح الدرج وأظهر له واحداً من المخططات التي استلمها، ولم يستطع مقاومة أن يعضّ شفتيه بشكل تدريجي.

"في هذه الحالة، لماذا تصر على وشايتي برفاقي؟"

"مسألة مبدأ،" أجاب الضابط الألماني ببرود.

"نعم، أرى هذا، "مبدأ عدم الشرف" — إن مبادئي على العكس تماماً!"

استأنف الضابط الآخر بنزق: "من حيث المبدأ، سينفذ حكم إعدامك خلال ثلاثة أيام من اليوم. وربما يُخفف ذلك بناء على درجة العاطفية والدقة التي تهتم بها لترينا أولئك الذين أوصلوك لهذا الوضع. عليك أن تعرف أننا اكتشفنا المؤامرة بكاملها بفضل واحد من محمييك الشيوعيين الذي لم يستطع التفكير بشيء أفضل من مساومتك باتخاذه ملجأ في القصر عندما اقتفينا أثره إلى هنا."

"لا أستطيع رفض استقبال رجل مُضطهد من العدو، برينس يعفي نفسه، ولا أستطيع أن أتخيل أن....."

"اخرس! سوف نتذكر هذا أيضاً!" قال الضابط النازي وهو ينهض بالوقت نفسه الذي قبض فيه الجنديان على غيرارديان.

"أنا لن أتكلم،" قال غيرارديان مرة أخرى عندما كان يعبر الباب، وبينما كانوا يقتادونه بعيداً تمتم عدة مرات من بين أسنانه: "اللعنة على النقد البناء! اللعنة على الرفاق! سوف أريهم كيف يموتون كأسياد!"

قيل في (ليبرو) أن بيير غيرارديان قد اعتُقِلَ لكنه لم يتكلم، وفي اليوم الذي عرف فيه أنغرفيل خبر اعتقاله، وبعد أن أوكل العناية بسولانج التي كانت حالتها تزداد سوءاً، إلى طبيب (ليبرو) وجيني، غادر فوراً إلى باريس ليقوم بما في وسعه عبر اتصالاته ونفوذه ليحافظ على حياة غيرارديان. لكن الموعد المحدد لإعدام كاتب عدل الكونت غراندساي، أصبح قريباً دون أي خبر من أنغرفيل. ما الذي يمكن أن يحدث له؟

وبالتالي كان ذلك، مع فقدان كل أمل، حلّت يوم وساعة موت غيرارديان. في الخامسة والنصف صباحاً كانت الديوك قد صاحت معلنة الفجر بينما أحضرت فرقة إطلاق النار غيرارديان إلى حقل فارغ محاط بأشجار الحور الفتية. شكلت قطرات الندى لألئ على معدن البنادق وتبللت جزمته من السير عبر الأشواك. لم يكن

خائفاً، لكن .....عليه بوقت واحد أن يكبت دافعاً للبكاء — ليس على نفسه، لكن على سولانج دي كليدا ومرضها. لأنه تذكّرها الآن، ولأن أنغرفيل لم يرجع بعد، فقدكان يخشى الأسوأ. التفت غيرارديان بعدها إلى طاحونة (دي سورس).

قال في نفسه: "يا إلهي، كم تصبح الحياة عاجزة ووحيدة في بعض الأحيان!"

في طاحونة (دي سورس) في هذه الساعة، لا بدّ أن غرفة المدام دي كليدا كانت غارقة بالظلام الدامس لأن ضوء النهار، الذي ظهر للتو كان ضعيفاً جداً بمروره عبر شقوق المصاريع الغلقة. لكن هذا الضوء الشاحب الجاف نفسه، الغافل عن المأساة، كان قد بدأ يحرك ظلاله لا محالة ليغزو غرفة الطعام الكبيرة والطاولة المستديرة المغطاة بغطاء من لون الشوكولا والذي بدا أكبر مع سطوع الفجر. تلبدّت السماء بالغيوم من جديد وتوعّدت بمطر غزير. ترك غيرارديان نفسه معصّب العينين وصرخ، "تحيا فرنسا!"

صحا الطقس لساعتين بعد الظهر.

كان يشبه أجمل أيام الربيع. تتكشف المآسي العظيمة دوماً في ضياء من الروعة التي تتفجر بأدق التفاصيل. لوّنت الشمس التي تشارك في جميع المآسي الأرجل الستة لكل نملة بانعكاس متقزح اللون من المشهد...........

قيل لاحقاً في (ليبرو) أن شخص ما، وبإشارة للانتقام، نقش الصليب المعقوف على حجارة النهر الملساء بإصبعه المبلل بدم غيرارديان البارد وأقام النمل طقوساً عربيدية لشراهته حوله.

في ليلة إعدام بيير غيرارديان، بدأت تمطر من جديد، لكن في هذه المرة، توحّدت قوة الرياح وندف الثلج مع الماء. كانت جيني جالسة

في المطبخ وكان مارتين الأكبر الجالس مقابلاً لها، ينحت بسكينه غليوناً من جذور نبات بري. كان بينهما طاولة مطبخ خشبية طويلة، وعلى هذه الطاولة، إلى اليسار واليمين على مسافة واحدة، زجاجة من النبيذ الأحمر ووعاء متكسر بلون الأرض يحتوي على نبات الفطر المخضّب بالأزرق وحبتان من الكمأة بحجم قبضة اليد. كان بجانبه وعاء آخر أبيض يحتوي سيقان ديوك مقطعة وكبد...... كان هذا فرنسا كلها — دم الأرض، أزهار الجنة والجحيم، أزهار الماء المتدفق، نار سوداء من الأسفل......... وديك، الطوطم، "الديك المُضحى به."

تحت الطاولة، تماماً تحت الوعاء الأبيض، تمددت القطة نائمة. قال مارتين: "قلت في يوم الموكب أن الطقس لم يكن صافياً وذلك عندما كان ينبغي أن تكون لدينا الرياح التي بدأت تهبّ الآن."

"ليس لدينا حتى الآن أخبار عن السيد أنغرفيل،" تنهدت جيني وهي تنظر عبر الباب نصف المفتوح إلى الطاولة المستديرة في غرفة الطعام. كانت دائماً مغطاة بغطاء لون الشوكولا لكنها سوف تُغطى بغطاء أبيض اللون عندما تصبح المدام بصحة جيدة ويعود السيد أنغرفيل.

قال مارتين: "إن طلبت رأيي، فأنا لا أعتقد أن أنغرفيل سيعود إلى هنا مرة أخرى،" وبعدها سأل: "هل تشعر المدام سولانج بأي تحسن؟"

"إنها أفضل، بالطبع هي أفضل! على أية حال، ليس لديها الآن حمى، لكن هناك خطب ما في الأعلى،" وأشارت جيني إلى جبينها بسبابتها.

صاحت جيني: "هناك ضجيج!"

توقف مارتين عن طرق غليونهِ على الطاولة لإفراغ برادة الخشب التي سدّت الثقب الذي كان يفعله وعلّقه بشكل متدلي في الهواء.

"ما المشكلة؟"

"لا شيء،" قالت جيني، "اعتقد أني سمعت صراخ المدام."

مارتين، انهض واذهب إلى النافذة.

"هناك!" قال مارتين، "أسمع الشيء نفسه الذي سمعته الآن! إنه كما لو أن الكلاب في (ليبرو) تنبح بشكل جماعي لسبب غير معروف. اسمعي، اسمعي!" إنها تفعل بالتأكيد. "أنت تعرفين، عندما يحدث هذا، لا زال يُقال أن الكونت (أرنان) يركب حصانه الأسود عبر السماء."

قالت جيني: "حكايات الجن، أنت تحاول إخافتي."

كانت القطة قد استفاقت للتو وقفزت كما لو أنها شعرت بالخوف، واختفت باتجاه غرفة الطعام.

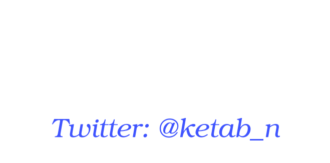
يقولون أيضاً أنه عندما يمر فإن الدجاجات ترفرف أجنحتها برعب، وينكمش الخروف على نفسه، ويستيقظ الأطفال في أسرتهم ويبدؤون بالبكاء."

"اهدأ، ألا تستطيع إيقاف هذا؟ ماذا تريدني أن أفعل، أعطيك كأساً من النبيذ؟" سكبت كأسين وتنهدت. "الحمد لله! عندما أفكر الآن كيف ستشعر المدام عندما تعرف بإعدام غيراردين! علينا أن نؤجل معرفتها بالأمر أطول مدة ممكنة — وأنا متأكدة أن لن أكون الشخص الذي يخبرها بذلك. القسيس سوف يقوم بذلك."

صراخ من الأعلى جعلها تسكب النبيذ على الطاولة. "إنها... إنها تستيقظ!"

"جيني!" تكرر صوت سولانج.

"نعم يا سيدتي!" أجابت جيني، وهي تصعد الدرج وتصنع إشارة الصليب.



Twitter: @ketab_n

8/ كمير الكمائر، كل شخص هو كمير.[1]

"أن تحب ولا تعرف من".

"كالديرون دِ لا باركا"

مرّ ما يقارب سبعة أشهر ونصف على زواج الكونت وفيرونيكا، كانا يعيشان بعد شهر عسلهما في قصر المزرعة الفخمة في (بالمس برينغ) التي كان فيها أيام (جون كورنيليوس ستيفن) حديقة حيوانات بريّة ومطار يلتصق بها. ثُكِلَت المنطقتان مع قيود الحرب بالأسود والطائرات وأصبحتا مغطاتين بالعشب.

كان هذا من بعد ظهر يوم الأحد. كان غراندساي جالساً وسط الفخامة الباردة لغرفة التدخين الواسعة، التي تُحاكي بأثاثها - الذي من عصر النهضة الإسبانية - غرف محاكم التفتيش الكبيرة التي عفا عليها الزمن..... بدا الكونت حزيناً وهو يراقب دودة كانت تقف دون حراك وسط الجدار الأبيض.

قال في نفسه: "إن أردت الانتحار يوماً ما، وهذا أمر مستبعد جداً، سأختار اللحظة التالية لإعلان الراديو العبارة اليائسة العنيدة: "نتابع الآن برنامج بولوفا"[1]، ولا يهم ذلك بأي ساعة من اليوم،"

---

[1] يقابل هذا العنوان، جملة مُقتبسه عن التوراة – سفر الجامعة: (بَاطِلُ الأَبَاطِيلِ، الْكُلُّ بَاطِلٌ.) وكلمة (كمير) تعني الوهم، كما تعني بحسب الميثولوجيا الإغريقية: كائن خرافي، وحش بهيئةٍ لَبُوءة ينفث النار، له رأس أسد وجسد ماعز وذيل ثعبان. وقد ورد في الرواية بالمعنى الأول والثاني.
المترجم.

في الساعة الخامسة تماماً، صدح صوت الراديو معلناً: " نتابع الآن برنامج بولوفا"، ودوّت تلك المقاطع المصيرية التي لا رحمة فيها مع دقات الساعة الجدارية التي أعلنت أنها الخامسة من بعد ظهر خال من الغيوم في كاليفورنيا. رغب الكونت غراندساي أن ينهض ويغلق الراديو الذي ربما تركه الخادم دون قصد، لكنه بقي جالساً دون حراك، مُغطى بالجرائد التي كان يتصفحها بشرود عندما يكون مستغرقاً بالتفكير بأشياء أخرى.

بعيداً عن أرضه في سهل (ليبرو) حيث بدأ المطر الذي يمنح الحياة يخيّم على الحقول. كان كل ما يحيط به، حتى الحياة ذاتها، رتيباً بشكل مجحف وخالياً من العنصر المتغيّر الذي يشكل المعجزات كلها. تشبث بأظافره كلها بذكرياته. انسحبت أيام الآحاد بشكل خاص إلى قلبه، وكأنه بسوء طالع كما حدث في ذلك اليوم تحديداً، انصبّت نغمات مشوّهة جياشة العاطفة صادرة عن أورغن صباح الأحد الذي تبثه الإذاعة وجرحت أذنيه عندما استيقظ، كان هذا كافياً ليمنحه الشجن لبقية اليوم. لكن فيرونيكا لا تستطيع مقاومة الاستماع إلى الراديو. لقد تحمّله الآن لمدة ساعة، لقد أصبحت وساوسه المرضية تثقل على روحه سلفاً وهو جالس في كرسيه الخاص، لكن بعضاً من تلك الموسيقى التافهة، زيادة أو نقصاناً، لن يشكل فرقاً بالنسبة له، وبالتالي فقد استسلم لها، مُقيّداً إلى واحدة من قبضات الكسل التي لا يمكن التغلب عليها، والتي تمكّنك، بنوع من الرضا تقريباً، من تحمّل صوتٍ واهن لتنقيط صنبور ماء أو باب معلّق.

لكن الكونت لم يكن في تلك اللحظة، فريسة لواحدة من نوبات إحباطه الأخلاقية المعتادة التي كانت تهاجمه دورياً بعذاباتها المهلوسة في قصر (لا موت). لا، من المؤكد أن حياته الزوجية هنا مع فيرونيكا لم تكن الجنة بشكل واضح، لكنها لم تكن الجحيم أيضاً. كانت نوعاً من

---

[1] بولوفا: محطة بث تلفست وأدرجت باسم شركة بولوفا في عام 1875 على يد مهاجر من بوهيميا وهو جوزيف بولوفا. المترجم.

المطهر[1]، مطهر لطيف، يشبه السباحة في بحيرة فاترة، حيث كان موعد "نتابع الآن برنامج بولوفا". عدا عن ذلك وأكثر أهمية منه، بدا العالم له في كل يوم، يفتقد بشكل متزايد لكل ما هو غير متوقع، كان كل شيء يتدهور ولم يعد هناك ما هو جدير بالاهتمام! لقد انتهت أخبار العالم بإثارتها المبالغ فيها، بتبديد حبه الشغوف للتاريخ. منذ أن ألقى (رودولف هيس)[2] نفسه في المظلة فوق اسكتلندا — يا للمرحلة الطفولية!

الأكثر من ذلك أن الحرب قد طالت.... كان يشاهد الآن الإعلان المتفاخر عن تقدم الطيران، أصبح العالم أصغر تدريجياً عبر سلسلة من الصور. كان في النهاية صغيراً جداً بحيث من الممكن أن يعلق ما بين إبهام وسبابة يد الإنسان، ليس أكبر من حبة فيتامين. قال في نفسه: "يا لهذا الانحراف!"

إن عباقرة النهضة مثل رفائيل وليوناردو ومايكل أنجلو، هم الذين ربما لامسوا الله برؤوس أصابعهم، لم يكن لديهم في نشأة أكوانهم أية طموحات غير تلك الهادفة لجعل العالم مشابهاً للجنة. لكن حضارتنا الميكانيكية المرعبة اليوم أصبحت تختصر الكرة الأرضية إلى أبعاد حبّة دواء صغيرة ليست مفيدة حتى لتليين الأمعاء! ربما وصل الإنسان إلى مستوى بطولي يتجسد في الطيران حول الكون ثلاث مرات في اليوم

---

[1] المطهر: المطهر عند الكاثوليك هو الاعتقاد بوجود مكان ثالث، لا هو السماء ولا هو جهنم، تذهب إليه أرواح الموتى الذين فعلوا خيراً وشراً واقترفوا هفوات وخطايا لم يتطهروا منها في حياتهم الدنيا تطهيراً كاملاً، ولم تمتلئ نفوسهم من محبة الله كلياً، ولم يصلوا إلى شراكته الحقيقية ولم ينالوا القداسة الضرورية لدخول السماء مع القديسين، ولكي يتطهروا من كل ذلك فإنهم يتطهرون في المطهر بنار مطهرة مقدسة، وبعد انتهاء مدة تطهرهم يدخلون السماء مع يسوع والقديسين. المترجم.

[2] رودولف هيس: كان سياسياً بارزاً في ألمانيا النازية، وكان نائباً لهتلر في العام 1933 وخدم في هذا المنصب حتى عام 1941 ومن ثم طار منفرداً إلى اسكتلندا في محاولة للتفاوض على السلام مع المملكة المتحدة خلال الحرب العالمية الثانية. اقتيد إلى السجن وحكم عليه بارتكاب جرائم ضد السلام وحُكم بالسجن مدى الحياة. المترجم.

الواحد، ماذا بعد؟ أي إزعاج سيكون بعدها! عندما يفكر المرء بأن العقول الذكية كذلك العقل الذي كان لباسكال، قد تخيّل حكمة الإنسان منسجمة مع قابلية البقاء في غرفة دون الرغبة بمغادرتها! الأشياء نفسها والصور نفسها لكنها باهتة وأكثر تجارية. أصبحت الوجوه هي ذاتها، جميعها متشابهة تقريباً، الشهوانية الموحدّة لنجوم الأفلام، وراقصات الباليه الروسيات أنفسهنّ، وكانت الحديثات منهنّ أسوأ! كنّ في فترة (ديغيلف)[1]، لازلن يعرفن كيف يرقصن ويحلّقن برشاقة الجنيات، لقد اخترعوا اليوم نماذج مرعبة كتلك التي رآها للتو في نيويورك، حيث بدلاً من الراقصات، يرى المرء مخلوقات ربما خرجن للتو من أقرب صيدلية، يلبسن أزياء الشارع، متصلبات ومُصابات بإمساكٍ شديد، يمشين بحذر شديد ليتجنبن وضع أقدامهنّ في الطين.

كان يقلّب الآن صفحات مجلة مصورة: شفاه مفتوحة دائماً عليها الكثير من أحمر الشفاه، ابتسامات مريعة وأسنانٌ أُصيبت بانفجار مغنيزيوم أمام جدار من أرائك مغطاة بجلد حمار الوَحش.... يسكبُ جندي مموه بريش الزينة وجلد الضفدع الفهدي، عصير جوز الهند على الرأس العاري لجندي كندي ملتحٍ عارٍ حتى الخصر، وجواربه معلقة بزوج جديد من حمالات الجوارب. سيدة لها وجهٌ قسيس تفتح زجاجة شامبانيا أمام مقدمة سفينة حربية جديدة.

"سأغرق في كتبي الجديدة عن دراسة الشياطين. ليس هناك من خلاص في أي مكان. لكني لا زلت مؤمناً، بالرغم من التقدم، بأن الشيطان والشيطانة يستطيعان أن يؤمنا لي أكبر تعزية في هذا العالم الخالي من الروحانية!"

وحبّ فيرونيكا؟ منذ بداية زواجهما لم ينقطع يوماً واحداً عن الرغبة بها. اعترف الكونت كمعظم الرجال الفرنسيين بالتبجيل الكامل

---

[1] هو سيرجي بافلوفيتش ديغيلف: ويشار إليه خارج روسيا، سيرج، كان ناقداً للفن الروسي وراعي الباليه الروسية ومؤسسها، حيث ظهر بفضله العديد من الراقصات الروسيات الشهيرات. المترجم.

سيقانها السماوية إضافة إلى التبجيل الحسيّ لنظراتها البلهاء الفارغة. لقد امتلكت تينك السمتين إلى أقصى درجة. كانت تثيره وكان ينظر إليها بفضول بارد لشهوانية كاملة. يفاجئها بومضات مصقولة من الفساد الخلقي ويجعلها تضطرب بدهاء في الظلام العاري لمبادراته البطيئة. لكن إن قارنّا بين كل ما سبق وحبّها، لا، هو لم يحبها إطلاقاً، كانت الصورة الوحيدة التي تظهر من تلك الليالي ومن صباحات سهرات الحب وأمسياتها، هي صورة سولانج دي كليدا الحقيقية الحاضرة. لكنه كان واحداً من أولئك الذين يستطيعون بسهولة كبيرة أن يعطوا وهماً من شغف كبير حتى عندما لا يكرّسون له سوى اهتمام لا يُذكر. لقد أغدق على فيرونيكا كل منابع حنانه واهتمامه وتدفقه الذي لا ينتهي، إجلال منقطع النظير مزينا بتودده التقليدي للنساء.

عاش الكونت وهو يكرر لنفسه أنه استطاع التخلّص من خطأ اغتصاب هذا الزواج، فقط من خلال محاولة جعلها سعيدة . اعتبرت نفسها سعيدة. ومع استمرار غريزتها بتغذية قلقها القديم في أعماق قلبها، والتي أنبأتها بأنه لن يمنحها أبداً المولود الذي تشتهيه غريزياً، فقد أبهرها اكتشاف أسرار الجسد. لقد أنذرها غراندساي، الذي بدأ بتقليل حماسته، من حاجته لفترات خلوة دورية، لأن يبقى أياماً طويلة منسحباً في "أسراره" وكتبه، وبالتالي أصبحت غرفتهما المفردة عبارة عن غرفتين، ووصلا إلى العيش بزاويتين منفصلتين متعاكستين من البيت الكبير. كانت تلك المسافة التي نمت بين حبهما _ مأهولة بخطوات دقيقة سريعة غير محسوسة مثل سيقان حشرات تعدو فوق سطح ماء عاداتهما، التي كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى خريف.

كان غراندساي في هذه المسألة قد ذهب في صراحته ذات الحدين، البارعة الفظّة، إلى فرض شروط قاسية جداً على زواجه.

"أنا لست الشخص الذي أحمل اسمه، لكن قدري أراد من الشخص الذي أنا عليه الآن أن يختفي للأبد كي ينجو. عليك التخلي عن جميع الأفكار

المتعلقة بالاكتشاف، والقسم لي بأنك لن تحاولي ولن تسمحي لأحد بإعلامك عن ماضيّ وشخصيتي الحقيقية. ستكون تلك نهايتي. تقوم حياتي على سرّ مريع، والمرأة التي تشاركني الحياة بشخصيتي الحالية لا تستطيع أن تتشارك الحياة مع ذلك الشخص الآخر. سأكون غالباً حزيناً وستشعرين بغرابة أفكاري، وبأنني أعيش إلى جانبك كشخص مهووس. لأني بالتأكيد مهووس. لقد حكمت الحياة علي بآلام أخرى إضافة لآلام ضميري، وأصبح لجسدي أسراره ومبرراته ليكون ضعيفاً وناقصاً. بزواجك مني وأنت طفلة تقريباً، تربطين حياتك بشخص معطوب جداً لكنه أكثر واقعية بقليل من ذلك الذي اخترعه خيالك الخاص. دعينا لا نُقدم على هذا الزواج!"

لكن بالرغم من كل ما سبق، قبلت فيرونيكا شروطه كلها دون اعتراض، هي التي آمنت بقدرتها على تكريس حياتها لاستعادة الصورة التي لم يبقَ شيء منها في ذاكرتها، إلا بقايا بيضاء غامضة لغلافها، وربطت نفسها الآن بمخلوق من لحم ودم، أحبته باضطراب تناغمي من كل أحشائها. لكن بقي فيها توق سرّي سكبت عليه الأقمار المتعاقبة ضوءها الحليبي. كانت تكتشف مع بدئها بالحب الجسدي، أن هدفها الحقيقي من وراء المتعة، لم يكن إلا رغبة حيوانية تقريباً للوصول إلى الأمومة. لقد فهمت الآن تثبّتها الهذياني على ابن بيتكا.

استطاعت الآن أن تفهم الأسطورة الأساسية للعذرية، الأسطورة البيضاء لـ (ليدا)[1]، التي وضعت بيوضاً ناصعة البياض. ربما رأت بعدها الرأس الأبيض الذي لا وجه له (لكميرها) ينبثق من ظلال وعيها في أعماق قبو منزل (كو ديس أورفيفر) مثل بيضة كبيرة تحتوي على طفلها وجاهزة لكي تفقس. لأن العذارى اللواتي مثل (ليدا)، يهلوسن ببياض العفة ويتزوجن البجعة (لوهينغرين)[2]

---

[1] ليدا: معروفة بأنها ملكة إسبارطة. هي ابنه (سيزتيوس) وزوجة (تينداريوس) وقد تعرضت للإغواء من قِبَلِ زيوس الذي جاء إليها على شكل بجعة. وقد منحت ليدا الحياة للبيضة. المترجم.

[2] لوهنغرين: شخصية في الأدب الألماني. هو ابن (برسيفال) وفارس الكأس المقدسة، تم إرساله في قارب تجره البجعات لإنقاذ العذراء التي لا يمكنها السؤال عن هويته. المترجم.

الفضية في أحلامهنّ. غراندساي الذي كان خاضعاً أكثر وأكثر إلى رذيلة "تحويل كل شيء إلى أسطورة" فقد اكتشف وحلل تلك الأسطورة التي ظهرت لدى فيرونيكا، ويقول في نفسه:

"هو – الرجل الأبيض ذو الوجه المختبئ – لا زال بجعة. لا يوجد إلا بجعات بيضاء وبجعات سوداء. وأنا إلى حد ما أفضّل أن أتخيل نفسي بجعة رمادية – لون الرصاص، كلون غيوم تشرين الأول – لكن ليس هناك من شيء يشبه ذلك، والأهم من هذا كله هو أنني في حالتي، أنا لست بجعة".

وبعدها كان يتساءل بقلق إن كان عقمه ناتجاً عن إساءة استخدامه لأدويته المثيرة للشهوة الجنسية، أكسير شبابه وشراب حبّه. لأنه هو أيضاً أراد إنجاب طفل من فيرونيكا، ويعرف أن طفلاً كهذا سيكون طفله، طفل عقله، الحمل النقيّ لكليدا، وسيكون الشخص الذي لن تتوقف الراهبة عن التنهد من أجله – وريث الكونت غراندساي– التي تطاردها مخاوف سرّية من أنه ربما يبقى بدون ذريّة.

كان ذلك هو القضية الكبيرة، اللغز الكبير الذي تعني الغطس فيه ليهرب من هذه المرحلة التي تنادي بالمساواة وإزالة التراتبية الهرمية – لغز الذريّة والوراثة والحمل– لأن قواعد الأرستقراطية كلها تُبنى على هذا الأساس. كان يقفز عدة قرون إلى الأمام، عبر العودة إلى صميم عصوره الوسطى الحبيبة. لكي يمنح نفسه مرة أخرى توقعات حماسية، عليه أن يعود إلى صندوقين كبيرين من الكتب التي بقيت غير مفتوحة، والتي يوجد بينها أبحاث قديمة نخبوية عن الشياطين والسحر إلى جانب دراسات علمية صارمة لعلم الأحياء الحديث. كان هناك أيضاً مشاكل لاهوتية كبيرة كان قد أثارها الموضوع، وخاصة تلك المتعلقة "بالخطيئة المميتة عبر التمثيل".... بشّرت بتلك التعاليم عصور طويلة من الكاثوليكية التحقيقية عبر آباء الكنيسة المبجّلين، كانت تعاليم مريعة

جميع الأفكار الشريرة ويطرد الأرواح الشريرة الطماعة لامتلاك الجسد، ويمنعها من التسلسل في ظروف مواتية كتلك الظروف. فكر الكونت غراندساي بأن على المرء أن يتخذ هذه المعتقدات والخرافات الغنية الجوهرية للكنيسة حرفياً، ويسكب فوقها ضوء العلوم الخاص بزمننا هذا ليرى طريق الحقيقة المبهر يمتد أمامه: الخطيئة المميتة عبر التمثيل!

كان يقول في نفسه: "بالتأكيد، إن كانت الأخلاقية موجودة، فإن الزنا وأكثر الخيانات الذميمة المريعة، ليست تلك المرتكبة بمكر بعيداً عن المحبوبة، بل على العكس، هي تلك المرتكبة بين ذراعيها، في لحظة الفعل، عندما يقدّم المرء نفسه على هيئة شخص آخر، برغبته أو دون رغبة منه، ناقلاً من خلالها حياة الدنس.

عبر مَلَكَة التفكك والترابط الخاصة بجميع الوظائف النفسية والجسدية للكائن البشري، نشأت جميع النظريات التي تعتبر الجسد عبارة عن وعاء صغير يحتوي الروح التي، بسبب حضورها المستمر وتواصلها عبر قوة استحضار الذكريات، تم اعتبارها متجسدة بالدم، بحيث يصبح من المستحيل فصلها عنه بأية طريقة. كانت تلك الفكرة القائمة عن الروح التي تسكن أجساداً لا تُحصى، متجذرة في أصول جميع المعتقدات القديمة في الشرق. ماذا تكون إن لم تكن انقسام الأرواح وتناسخها وهجرتها؟ لكن التقمّص الذي اعتبره خطأ ميتافيزيقيا كبيراً، كان في تجربته الشخصية واقعاً في الحياة اليومية. بالنسبة له، كانت أوروبا في العصور، قد وجدت الحلول الأكثر "عملية" والأشكال الأكثر تأقلماً مع

الواقع، تلك المتعلقة بالعالم الحالم للشيطان والشيطانة، اللذين تجمعت أسرارهما بكل تفاصيلها في حوليات علم الشياطين والممارسات الشيطانية للسحر التعاطفي. لقد كان علم التنويم المغناطيسي الحديث، محتوىً سلفاً في هذه الممارسات، لأن التنويم المغناطيسي لم يكن إلا تظاهراً لمذهب تناسخ الأرواح.

نعم! كان واثقاً من الأحلام التي اجتاحته هو وسولانج بالتيار نفسه. نعم، لا زال في هذه الأمور، يفكر مثل الفلاح. عندما يقول فلاح من (ليبرو) عن عروس جديدة: "إنها قلقة لخوفها من أن تلد طفلاً تحت سحر عين الشيطان" — تعتمد الحياة المستقبلية على نظرة بعيدة يمكنها أن تزرع الفوضى في روحه — كم كانت هذه الطريقة في فهم الظاهرة قريبة من الواقع، أو على الأقل لما اعتقده بنفسه. نعم! ألف مرة نعم! لغز الإنجاب: يا له من وسيط رائع، يا لها من آلية عبور سحرية للشيطانة، وللإغواء واللعنة! - لأنه سيكون ملعوناً. ما الذي يمكنه أن يكون استعباداً حسياً للروح أكثر من استخدام المتعة كوسيلة لإلزام الخلايا، والبلازما والأحشاء على خلق تشابه فيزيائي في العيون واللثة ونوبة الغضب للكائن العدواني الذي سوف يُصاغ على صورة المرأة التي امتلكها المرء فقط في روحه؟ وهل كان من الجنون تماما التفكير بإنجاب صبي من سولانج دي كليدا، عبر مسافة محيط من خلال جسد فيرونيكا؟ نعم، كان هذا ممكناً مثل استقبال سولانج في عقله عندما ستأتي وتستحوذ عليه بشكل مؤلم، وتدخل في جميع تلافيف متاهاته بالواقع الاستبدادي لصورتها المشعّة (الواقع الاستبدادي، الصورة المشعة: ما هذه الكلمات التي تصف سولانج المسكينة، المريضة في الجسد والروح، بعيدة جداً ووحيدة!).

عندما امتلك الكونت فيرونيكا في هذا الإطار من العقل، ألم تصبح هي بنفسها بكل جسدها، جسد الأخرى؟ سولانج.... البعيدة والوحيدة! لكن ماذا كانت تلك الفوضى كلها، من الشرود الغريب والعذابات المستحيلة، إن لم يكن الحبّ المشبع الذي ينمو نحو سولانج هو ما كان يجعله يهذي؟ كان الكونت بيديه

المنقبضتين يجعّد شعره الذي يتحول إلى اللون الرمادي والذي سقط على جبينه، والمعتم مثل تاج من أوراق زيتون فضية.

"أسطورة الدم!" أنا أمتلكك، أمتلك روحك بالكامل! لكنه دمك هو ما تبقى، وفي اليوم الذي ربما أحصل عليه – حيث تتعرين فقط من أجل هذا – أستطيع أنا أن أمنحك دمي، لقد صنعت لك هدية من رمانة نصف مفتوحة من الياقوت، حماقة شخص جمالي كنت عليه! ولذلك سأكون ملعوناً! لكن الأكثر حماقة، هو تلك المذاهب التي تحرم قوانين "التطعيم"، التي لا تزال غير مفهومة، والتي يُجبر بوساطتها لبّ ثمرة البرتقال على وراثة الدم الزائف للرمانة: ومع ذلك سيُعتَبَر أمراً مسيئاً، تخيّل تطعيم "الروح الشريرة" بالدم الحقيقي. لكنه فوق كل هذا، فقد تعدّل وتسمم إلى مرحلة التسبب بحدوث الأورام، والإجهاضات الغامضة لأجنّة زائفة، والتي تتطلب عملية جراحية. تشبه "الروح الشريرة" المتجسدة، السرطان بشكل غريب!"

هتف غراندساي في صمت مضايقته وتأملاته البائسة.... "نعم، السحر المتعاطف، كالأحلام في الدم، غير قابل للشفاء. إن سولانج دي كليدا تشبه السرطان المميت في التهامها لي ونموها داخل عقلي!"

في هذه اللحظة، فوجئ الكونت بشيء دافئ وأحمر دموي يضغط بلطف أمام فمه. كانت فيرونيكا تقبّله بحياء. كم من الوقت وزوجته واقفة بجانبه، ربما تراقبه بغضب بينما هو غارق في نظرياته التخيّلية، حتى أنه لم يلحظ حضورها؟

نهض مترنحاً وكأنه صحا من رؤية معذبة.

قالت له: "أحصنتنا تنتظرنا في الخارج. هل لا زلت محافظاً على وعدك بركوب الخيل في الصحراء؟" بدأت بعدها تخطو حوله كأسد مروض وقالت: "أعرف أني لا أستطيع أن أسألك بماذا تفكر.... لقد اعتدت على ذلك. أنا لا أتذمر من أي شيء، لكن عليّ أن أساعدك. إن وافقنا على أنني يجب ألاّ أشاركك حياة روحك المحرمة علي، فدعني

على الأقل أرافقها من وقتٍ لآخر في ركوب الخيل لأساعد على جعل مشاكلك ترقد منهكة، تماماً كما عرفت كيف أنهك ذكرياتك بالعناق".

أجاب غراندساي، وقد بدا بطيئاً جداً في عودته للواقع بينما كان يمشط شعره بمشطه الذهبي: "إن وصلت إلى تلك الذكريات فسوف تموتين منها".

قالت وهي تهزّ شعرها الأشقرِ الثقيل بحزن وتمرد: "يا إلهي! لماذا لا يمكنني أبداً أن أجعلك سعيداً كما تجعلني أنتَ سعيدة؟ لماذا لا يستطيع جسدي على الأقل أن يعمل كمأوى للروح التي تطاردك؟ نعم! لماذا تنكر ذلك؟ هناك امرأة أخرى في حياتك، قد تكون بعيدة عنك أو ميتة. لن أعرف لكني منذ أن قبلت بذلك من البداية كافتراض، أرغب الآن أن أصبح "هي" في الجسد، بشكل ربما تأخذني إليها، بينما دمك لايزال قادراً أن يكون مُثاراً بي... قبل أن تبدأ حماسة رغبتك بالتراجع".

رسم إيماءة احتجاج، فاقتربت منه ضاغطة خدها إلى صدره وقالت: "نعم! أعرفها! أنت سلفاً تحبني أقل مها".

أجابها بقبلة طويلة، وعندما رفع رأسه رأى الراهبة تعبرِ الفناء ملقية عليه نظرة كراهية: "لماذا أصبحت تنظر إلي بهذه الطريقة مؤخراً؟"

كان على الباب الذي يقود إلى الصحراء حصانان ينتظران. كان الأول أبيض مثل الصقيع بينما الثاني أسود كالإثم. كان الأبيض واقفاً في الظل والأسود مضاءً بشريط من ضوء الشمس.

"أيهما تختار؟" سألته مبتسمة بخبث ومجيبة على سؤالها بنفسها بينما كانت تربّت على خطم الحصان: "أعرف – الإثم! هذا الحصان يشبه الشيطان، أليس كذلك؟"

قال لها: "يا لها من لطافة أن تذكّريني بوعدك لي بتكرار إثمنا اليوم!"

بدت فيرونيكا مضطربة للحظة: "لماذا تصر على تسمية ذلك النوع الغريب العنيف من الحب بهذا الاسم؟ بالنسبة لي، على العكس تماما، إنه يشبه الماء المتقد من الجنة، المطر الذهبي على (دانا)[1]".

قال مضطرباً بدوره لأنه عزم على تنفيذ الخطة التي اتقدت في رأسه: "كم ترغبين بتجميل الأمور يا عزيزتي!"

"ولماذا تقومون أنتم اللاتينيون المحبون للجمال بتوصيف كل ما له علاقة بقوة الرغبة بالقبح؟ هل يهم عبر أي بوابة يدخل المرء، طالما أنه يصل إلى فردوس الجسد؟ لماذا يجب أن ترى الشيطان في كل شيء؟"

أجاب ممتطياً حصانه الأسود، وقد جعله يقفز بلسعة من سوطه: "لأن الشيطان موجود!"

كانت الراهبة تقرفص في تلك اللحظة، موجّهة ظهرها لهما بينما تنظّف قن الطيور. اتكأت للأمام وجثت على أطرافها الأربعة عارضة ساقيها حتى الفخذين. لسعَ حصانه وانطلق نحو الصحراء بكامل سرعته بعد أن ألقى نظرة أخيرة على جسدها اللامع تحت أشعة الشمس. تبعته فيرونيكا ولحقت به بعد ساعتين. كان قد توقف عند حافة واحة لم يكتشف وجودها من قبل. عندما نزلت فيرونيكا، ألقت بنفسها مباشرة بين ذراعيه وتعانقا بينما تشعّ الأرداف البيضاء والسوداء لحصانيهما بخاراً. لم يكن هناك من شيء حي حولهما بنصف قطر طوله ساعتان من الركوب، غابت عن المشهد حتى النباتات المميزة لصحراء كاليفورنيا، ليس هناك من شيء سوى التضاريس المعدنية دون أعشاب أو صبّار، لا شيء سوى قطع الصخور الواهنة السوداء التي تبدو كشهب انفجرت

---

[1] دانا: في الأسطورة الإغريقية هي ابنة الملك أكريسيوس والملكة إوريديس. بسبب افتقار والدها للوريث الذكر سأل الوحي إن كان هذا سيتغير، وأخبره الوحي أنه سيُقتل على يد ابن ابنته فقام بوضعها في برج برونزي. لكن زيوس جاءها على شكل مطر ذهبي وخصّبها وبعد فترة وجيزة ولدت طفلها بيرسيوس. المترجم.

دخلا الواحة — بركة صغيرة من الماء الفاتر، شفافة جداً بحيث يمكن للمرء أن يرى أصغر الحصى التي تشكّل قاعها، وكان هناك بئر قديم مهجور في المكان الذي نمت فيه أكثر أشجار النخيل كثافة. نظرت فيرونيكا إلى القاع وألقت حصاة صغيرة كسرت صورة القمر المنعكسة عن سطح الماء. جلس الكونت في ظل جذع شجرة مُقتلعة بينما لا تزال الشمس المائلة نحو المغيب حارقة.

"انظري يا فيرونيكا، كم هو صاف وشفاف هذا الهواء حول أطول أشجار النخيل! هناك، يبدو لي وكأني أرى برجاً غير مرئي — برج غرفة نومنا".

خلعت فيرونيكا كامل ثيابها ووقفت عارية في وسط بركة الماء، ترتفع أطرافها كأعمدة شقراء طويلة، بنعومة من الماء الذي لعقت انعكاساته اللامعة استدارة نهديها. نظرت للأعلى إلى حيث أشار غراندساي: "نعم، أنا أراه أيضاً!"

الحصان الأسود الذي أتى إلى حافة البحيرة غمس ساقه اليمنى في الماء وشرب.

"سوف نبني جدران البيت حول أشجار النخيل هذه مثل حزام. ومن الخارج، بالنسبة لأي شخص قادم من الصحراء، سيبدو فقيرا بجداره الطويل العالي الدائري الذي يحتوي نوافذ صغيرة لجعله آمناً من

الريح، سيبدو مثل مصحّة للمصابين بالجُذام أو كملجأ للمتسولين، مات الجميع فيه بسبب الطاعون".

قالت فيرونيكا: "أو مثل دير للبجعات."

تابع غراندساي: "ومن الداخل، سوف تنفتح كل غرفة على جنة أشجار النخيل التي ترتعش بالماء المتلألئ والطيور التي تمارس الحب".

"وأنت تحلم في هذه الجنة بجحيم آثامنا".

"نعم، تحلّ البركة دائماً في الوسط، وكذلك اللعنة: الجنة والنار دائماً في المركز. ونحن هنا في المركز".

"بالنسبة لي ستكون دائماً جنة".

أضاف غراندساي: "الأفعال التي تنتج عن شغفنا، تخجل من حضور الأشياء العادية، التي تكون دنسة على الدوام. هل يمكن للأشياء المميزة أن تنتمي إلا للقلوب المميزة؟".

ملأت يديها بماء البحيرة ورشقتها على الحصان الأسود، فجفل فوراً وابتعد وتمدد على الطحلب. خرجت بعدها من الماء وتمددت عليه كوسادة.

قال غراندساي: "أخبرتك أن الحصان شيطان، هو يجعل من نفسه متواطئاً بالكامل مع رغبتنا".

شابكت بعبث شعرها الأشقر مع عُرف الحصان وغمرت وجهها فيه، لكنها كانت تريد إلى حدّ ما أن تتجنب وجه غراندساي الذي كان قريباً من وجهها، كانت ترغب باستبعاده بالكامل باستثناء العينين اللتين كانتا تبهرانها جداً، كان الإشعاع الصادر عنهما سهاماً حادة تستهدف عينيها وتخترقها الواحد تلو الآخر.

"لم نكن يوماً واحداً كما نحن اليوم. ربما يقطع أحدنا حنجرة الآخر ولا يسمع أحدٌ صراخنا".

ضمّ الكونت بياضها مثل عباءة، وأطلقا أسود حبهما.....

لم يكسر الصمت إلا ارتعاش أوراق النخيل وطقطقة غُصين وحركة مخلوق غير مرئي.

خرجت فيرونيكا من البحيرة وارتدت ملابسها وامتطت حصانها الأبيض.

ظهر الشفق وقبل البدء برحلة العودة قال غراندساي: "لم يعد أحدنا ينشد الآخر، لكن دعينا نستمر بالكذب أحدنا على الآخر. لأنه ما من عناقات يمكنها أن تقرّب أحدنا من الآخر، بالرغم من شعورنا بها في عمق أجسادنا. لأننا لا نعرف من نحن".

"هذا صحيح، كل ما أراه منك هو عيناك وذلك الصليب الذي أعطيته لك والذي تلبسه الآن حول عنقك. أنا لا أراه عندما تكون قريباً جداً مني لأنه ينحشر بين جسيدينا أو قد أشعر به ينغرس في ظهري. لكني أغلق عينيي حينها وأستمر برؤيته لامعاً في عمقهما".

"يا له من قدر غريب! نحن نحبّ ولا نعرف من نحبّ".

"هل أحبك، أو أحب الشخص الذي كُنت عليه في ذاكرتي؟ هل تحبني أم تحبها؟ لا أريد أن أعرف — أريد معرفة الأقل والأقل، لكن دعنا نبني شيئاً يدوم من هذا التشوش. أريد بيتاً هنا!" اختتمت فيرونيكا مشيرة بمقبض سوطها إلى الآثار العنيفة في الرمال المحروثة والطحلب الممزق الذي يظهر على ظهر الفرس بعد أن نهض مرة أخرى.

باشرا العودة سيراً ممسكاً أحدهما بذراع الآخر بيده الحرة.

قال غراندساي: "نلمس الجسد ونعانق الأوهام. نلمسه لنقنع أنفسنا بأننا نخدع، وقد خُدِعنا".

اختتمت فيرونيكا: "نحن نعانق المجهول، نخدشه ونحتجزه ونلاطفه، مؤكدين لأنفسنا أن كل شيء خيالي، وربما نفعل ذلك بهذا العنف – لرؤية ما إن كنا قادرين على أن نستيقظ على الواقع".

قال الكونت: "نسير تحت النير نفسه".

أجابت فيرونيكا: "نعم، لا يرى أحدنا وجه الآخر، لكن عندما يتلامس جسدانا، يضرب أحدهما الآخر بقوة وبإصرار. رأيت مرة ثيراناً تسير بتلك الطريقة على الطرق المغبرّة للبرتغال، وكان جانباها الضخمان المتلامسان مغطيين بالقروح".

ساد الصمت. واندفع الكونت بقوة في أفكاره الحنونة نحو سولانج دي كليدا، وفكرت فيرونيكا بالرجل ذي الوجه المختبئ الموجود في ذاكرتها، والذي اعتقدت أنه هو، وبالتالي، تابعا سيرهما مقتربين أحدهما من الآخر في عمق الليل كما لو أنهما اتحدا مشكلين قناعاً واحداً.

لم تكن بيتكا قد عادت من جولتها عند العشاء، وجلس الكونت وفيرونيكا إلى الطاولة. كانت الطاولة دائرية وبالأبعاد نفسها تقريباً لتلك الموجودة في حجرة الطعام في طاحونة (دي سورس)، لكن بدلاً من أن تكون من الخشب العادي المتعفن المغطى بغطاء من لون الشوكولا، كانت من الخشب اللامع بشدة، تنعكس عن سطحها الحبيبات الوردية لفضياتها الجديدة المبهرة، بشكل قاس لا يرحم. كان هذا التفاخر الصارخ هو ذوق باربرا ستيفن تحديداً، لكنه كان أيضاً إلى حدّما، ما ورثته فيرونيكا عن أمها.

قال غراندساي: "الفخامة بالنسبة لي تعاكس تماماً هذا المكان الزائف الذي نعيش فيه، حلمت دائماً ببيت، تكون فيه كامل قبضات الأبواب من

الذهب الخالص، لكنها صدئة جداً ومشوهة، بشكل لا يكون المرء فيه قادراً على ملاحظتها. لا يُحاط الشغف بالجفاف المتأكسد: تلك هي الفخامة".

"تلك أيضاً، الطريقة التي أرغب أن تبني بها جدراننا حول الواحة، أشعر قربك بعدم التحضّر، أشعر بتقليديتك النقية، أريد فهم كل شيء تراه. لقد أشرت إلى برج في السماء وقد رأيته. وكل ما أخبرتني به — برج غرفتنا المشتركة والنوافذ الناعمة المطلة على امتداد الصحراء - لقد رأيت أعيننا الأربع متكئة عليها كشخصين حقيقيين يرتديان الأبيض اللامع، ويطلان على الأفق. لقد أقمتَ بموهبتك التي لا مثيل لها في التوقع، أمام عينيَّ الصاحيتين، حلماً أجمل من أي شيء يمكن أن يُبدعه نومي بالنسبة لي".

شاهدا بيتكا في تلك اللحظة عبر النوافذ الطويلة المطلّة على الفناء، تصل على حصانها، ويرافقها شاب طويل يمتطي حصاناً. أتت بيتكا وجلست مكانها إلى الطاولة بعد أن أعطت فيرونيكا قبلة على جبينها. يمكنها بصعوبة أن تكتم مشاعرها المكثفة.

سألت فيرونيكا بدهاء: "من هو مرافقك الأنيق الطويل؟ هل هو الشخص نفسه الذي كان معك ليلة البارحة؟"

بدا الاضطهاد الذي شعرت به بيتكا في توقع هذا السؤال، يتلاشى فجأة. أجابت بتأكيد ثابت بينما كانت تبحث عن أدنى ردّة فعل يُظهرها غراندساي: "نعم، إنه الرفيق نفسه الذي ذهب معي البارحة. اسمه لا يعني شيئاً بالنسبة لك، هو ضابط طيران عاد من أفريقيا بإجازة طويلة. لقد عرفته في باريس. اسمه جون راندولف".

صرخ غراندساي: "جون راندولف، لا، أنا لا أعرفه". وبعد صمت موجز سأل بيتكا: "لماذا لا تدعينه للعشاء غداً مساءً؟ سنستمتع أنا وفيرونيكا بهذا. ليس لدينا أدنى رغبة بجعلك تشاركيننا عدم رغبتنا بمخالطة الآخرين. الكرسي الذي بجانبك فارغ دائماً بشكل مخيف".

أمسكت فيرونيكا بيد غراندساي متابعة سلسلة أفكاره: "لن تصبح سعادة كاملة في هذا البيت، إلا عندما يمتلئ هذا الكرسي بشكل دائم، بمخلوق استثنائي مثل بيتكا".

أضاف الكونت بسخرية متقنة: "وبمثل جمالها، أنا أؤيد هذا بشدّة".

ردّت بيتكا نصف مازحة بينما نظرت إلى فيرونيكا وهي تكبت ابتسامة لا تُقاوم: "من الصعب إيجاد مخلوق أكثر وسامة".

في الليلة التالية اختصرت بيتكا وراندولف جولتهما بانتظار عودة فيرونيكا وغراندساي من زيارتهما الثانية إلى الواحة، والتي قررا شراءها بشكل نهائي، لبناء معتزلهما الصحراوي فيها. قدمت بيتكا الفودكا الباردة بدلاً من الكوكتيل، كما قدّم الخادم الفليبيني بعض السمك المتبّل بشدة مع خبز محمّص ساخن. لم يبد على وجه راندولف الهادئ، أي تشوّه ناتج عن الثمل، عندما كان يشرب تلك المشروبات الحارقة. كان واحداً من أولئك الناس النادرين الذين لا تجعلهم النار بشعين. بل على العكس، بدت تلك الانعكاسات الحمراء الناتجة عن طقطقة الحطب في المدفأة، وكأنها تمنحه نقاء زهرةٍ متوردة، بدلاً من أن تفحّم وجهه. من يعلم ما إن كان هذا البرود النقي ناراً بحد ذاته، ناراً وعنفاً، اتحدا في تظاهر هادئ؟

ظهرت بيتكا أمام عيني راندولف كإنسانة مزينة بالسموّ. لقد عبرت من مرحلة المراهقة إلى الأمومة، وظهر فوق نحاس شعرها المتقد، رماد خيوط بيضاء سابقة لأوانها، وبدا الجمر متوهجاً بينها بشغف أشدّ حتى. وحافظ فمها الكبير على التكشيرة الرقيقة، من بقايا شهوانيتها المؤلمة، التي كانت محتدمة في السابق، وبدا وكأن الروح بُعِثت فيه من خلال الاستسلام. أصبحت في عيني راندولف جسداً شفافاً مثل البراندي، ترى عِبره فقط، الأعشاب العطرية لرذائلها السابقة .... كان ينظر إليها ونادراً ما يرآها. لقد رأى من خلالها فقط. رأى فيرونيكا،

التي كان ينتظرها هنا، مكبلاً بالحزن. سوف تصل في أية لحظة! وبينما هو ينتظر صوت عدو حصانها، تابع أسئلته إلى بيتكا بإصرار طفل قلق: "هل أنت متأكدة من أن فيرونيكا سعيدة؟ هل أنت متأكدة من أن فيرونيكا سعيدة؟ مع ذلك الشخص المدعو نودير؟ ومن هو نودير؟

"سوف تحكم بنفسك إن كانت سعيدة، سوف ترى ذلك بعينيك، إن لم تكونا مبهورتين جداً بجمالها الصارخ. لكن ليس لديك الحق بالإساءة لسعادتهما بإنعاش ذاكرتهما البعيدة. أنا أحبها كثيراً ولن أدعك تفعل ذلك. وأنا لم أوافق على جعلك تراها إلا بعد موافقتك على هذه الشروط".

"سأحافظ على كلمتي، لن أمارس الحب معها".

"لكن لماذا لا تحاول أن تمارس الحب معي، نحن لدينا على الأقل ليلة حب معاً، أليس كذلك؟"

"وإن أخبرتك أني أحبك أيضاً؟" قال ذلك فجأة وهو جالس على ذراع كرسيها وواضعاً ذراعه حولها، لكنه كان يفكر بشيء آخر، وكانت عيناه شاردتين في ظلمة النوافذ.

رفعت وجهها إليه، مقربة شفتيها من شفتيه وقالت ضاحكة: "لن أصدقك على الإطلاق!"

قال وهو يقبّلها على جبينها بصداقة رقيقة: "كم أنت على حق،" لكنه أضاف: "ومع ذلك أستطيع أن أحبك أكثر وأفضل مما كنت عليه في أول لقاء لنا. كان خطؤك .... كنت ثملة جداً – هل تذكرين؟"

فكرت بيتكا: "هو لم يكتشف أني أردت قتل نفسي في تلك الليلة،" ومن ثم أجابت: "نعم، أتذكر!"

بدا لها هذا أشبه بالحلم، وهتف راندولف كما لو أنه يتابع أفكارها بصوت عالٍ: "اعتقد أكثر وأكثر بأنني ضحية أوهامي بحلم

مُبهم. أجبر نفسي على رؤية الواقع ومعرفة موقعي في الحياة. منذ وقت ليس ببعيد، أُعلن خبر موتي بشكل رسمي في قوائم الضحايا لكني كنت سجيناً لدى الإيطاليين، واكتشفت لدى عودتي إلى أفريقيا أن الكونت غراندساي فجّر نفسه بيخت أورميني. لقد حدث أن أخذته إلى مالطا قبل أن تسقط طائرتي في كالاباريا. بدأت على الفور البحث عن سيسيل غودرو لمعرفة التفاصيل لكنها عادت إلى باريس. هل عرفت الكونت غراندساي في باريس؟"

"لا أبداً، لكن عرفت سولانج دي كليدا. المرأة التي كان يحبّها!"

قال راندولف: "كان هيامها بالكونت أشبه بالأسطورة".

"يبدو أن الكونت غراندساي كان رجلاً ذكياً، لكنه بارد وعديم الرحمة".

"شيء مضحك، لقد ترك لديّ انطباعاً معاكساً وحسب. بدا لي رجلاً جياش العاطفة. صحيح أني قابلته للحظات فقط، في مناسبة غير رسمية ولم أر سوى عينيه فقط. كنا نطير على ارتفاع عال لنتجنّب طائرات العدو التي ربما تعترضنا من (بانتيليريا)، وكنّا نرتدي أقنعةُ الأكسجين...."

تمكنت بيتكا من سماع صوت حوافر الحصانين وقالت: "إنهما قادمان، لقد أعطيتني كلمتك، لكن أقسم لي مرة أخرى أنك لن تخبرها من أنت!"

"أنا أعدك بذلك، أريد فقط أن أراها مرة أخرى قبل العودة إلى أوروبا لأحارب مجدداً. أريد تغذية حلمي لأنه يساعدني على العيش. لكن لا تقلقي، لقد استُنزفِت روحي سلفا،!"

ظهر الكونت وفيرونيكا لوهلة في غرفة الطعام، قبل أن يصعدا لتغيير ملابسهما، وقدمت بيتكا كلاً منهما للآخر:

"فيرونيكا نودير — الكابتن جون راندولف — الملازم نودير".

عادت فيرونيكا مرتدية لباساً متموجاً ضيقاً فوق الوركين يجعل المرء يفكر بمهرة بيضاء جامحة. ومن استجابتها المنيعة لنظرة راندولف المتقدة الأولى شعر بوجود جدران عالية لا يمكن اختراقها تنتصب أمامه. تم تقديم الطعام على الفور، وشربا القهوة والليكور في غرفة الطعام. لعبت فيرونيكا وبيتكا لعبة الشطرنج بينما تحدث الكونت وراندولف عن موضوع حروب نابليون، أحد الموضوعات المفضّلة بالنسبة لغراندساي، أثناء هذا الموضوع تمت مناقشة كتابات (ستاندال)[1] و(ألفريد دي فيني)[2]، ووجد الكونت أوجه شبه مفاجئة ما بين تلك الحروب، والصراع الحالي ما بين روسيا وألمانيا. يستطيع غراندساي عندما يرغب أن يكون متحدثاً متألقاً وآسراً.

"أنت تعطي انطباعاً بأنك كنت تعيش في تلك الحقبة".

"ربما كان نابليون يتلقى وحيه من أفكاري".

عندما حان وقت الوداع قال غراندساي لراندولف: "أتمنى ألا تفارقنا أبداً، وإن لم تكن تخشى البقاء مع الأشخاص الثلاثة ذاتهم يومياً، سنكون سعداء بأن تتناول العشاء معنا يومياً خلال الوقت المتبقي لك هنا قبل ذهابك إلى أوروبا".

أحبّ راندولف الألفة المنزلية، وشعر غراندساي دائماً بالحاجة إلى الرفقة الذكورية التي تستطيع أن تقدّر بشكل أفضل مواهب ذكائه الفكري، لقد وجد في راندولف الصامت الحساس والمتميز المستمع المثالي. الأهم من ذلك أنه كان يخاف باستمرار من أن تثير الحياة المنعزلة التي يعيشها الثلاثة

---

[1] ستاندال: كاتب فرنسي من كتاب القرن التاسع عشر، اسمه الأصلي هو ماري هينري بايل، معروف بتحليله الحاد للحالات النفسية لشخصياته، ويعتبر من أقدم المؤمنين بالواقعية، ومن أهم رواياته (الأحمر والأسود). المترجم.

[2] الفرد دي فيني: شاعر ومسرحي وكاتب فرنسي عاش بين عامي (1797 – 1863) المترجم.

على المدى الطويل، شبهات حول هويته الحقيقية. أضاف هذا الكابتن الوسيم سحراً رائعاً إلى مجموعتهم، كما أعطى بيتكا إضافة لذلك، فرصة ممتازة لكي تتدلل. أصبحت في الفترة الأخيرة متعلقة بابنها بشكل غير طبيعي، وكانت تعيش معه حياة شبه منعزلة وتبعده عن أي تواصل مع فيرونيكا بسبب الغيرة. وبالتالي اعتقد أن قدومه إلى حياتهم المشتركة، سيعيد علاقاتهم إلى الشكل الطبيعي، وفعل ما بوسعه ليسحره ويجعله يشعر وكأنه في بيته. لا شيء يمكنه أن يسعد راندولف أكثر من ذلك. كان يحب فيرونيكا بجنون، لقد فاقم برودها نحوه، مشاعر إحباطه الناتجة عن حضورها اليومي المترافق مع كبت مشاعره طوال الوقت، وهذا ما جعل أمواج التشاؤم السوداء تتكسر على شواطئ حياته الحالمة.

كانت تتحدث معه بالحد الأدنى، لكن إن تقاطعت نظراتهما فسوف تتصرف كما لو أنها مستاءة، أو كأنها تريد أن تشير له بواجبه بأن يكون حنوناً مع بيتكا. كان إخلاصها لغراندساي كاملاً، لدرجة يحرجها أن تحظى بإعجاب رجال غيره. حتى هيام بيتكا بها، حرمها من الشعور بالحصرية الذي كان جوهر طبيعتها.

"هل أنت راضية عن تصرفاتي؟" سأل راندولف بيتكا في اليوم الرابع. "أترين أني أحافظ على كلمتي".

"أنت لا تفعل أي شيء من هذا القبيل، أنت مستمر بالتحديق بها كما لو أنك تريد أن تفترسها. لكني لن أتحمل مسؤولية إحباطك. لها طريقتها بالنظر إلى الرجل، الذي تعلم بما يكفي، أنه ليس دائماً لا يمكن مقاومته. والآن أجبني بصراحة، لدي سؤال لك أيضاً، "هل فيرونيكا سعيدة؟"

"لا أعرف تماماً لكن هناك شيء واحد مؤكد: إنها تؤله نودير، وعليّ أن أعترف بأنه ساحر جداً، وأن عقله فريد من نوعه........ هو لغز بحد ذاته. لقد وعدتك بأن لا نيّة لدي بالدخول فيما بينهما، وبالإضافة لذلك ليس لديّ من فرصة مهما حاولت." قال ذلك بحالة من

الاكتئاب المطلق وأضاف: "لو استطعت فقط أن أمنع نظراتها اللئيمة نحوي، لو تستطيع فقط إظهار بعض الصداقة والحميمية!"

"لقد أعطتك فقط ما تستحقّه. توقف عن الرغبة بها، حاول أن تكون أكثر اهتماماً بي. ستفتقدني عندما ترحل، بالإضافة لذلك، أنا لست بتلك السهولة. أنا لم أعد "ثنائية الجنس"[1]، وأظن أنك استخدمت هذه الكلمة. هناك كائنان في حياتي وحسب: فيرونيكا وابني — وأنت قليلاً".

"قليلاً أكثر أو أقل؟"

"أكثر قليلاً فقط — لكن لم يعد بإمكانك أن تجعلني أتصرف أي تصرف غبي الآن".

أجاب بشكل ملغّز: "لدي خطط لكلينا، أفضل من تصرّف غبي".

مر الزمن بشكل مسالم ورتيب في منزل آل نودير — الكونت غراندساي. أصبح راندولف هناك بشكل مستمر، وكان يذهب معهم إلى الواحة. أحياناً تلعب فيرونيكا الشطرنج معه وكانت تربح دائماً وتذهب بعدها إلى السرير قبل غراندساي، الذي كان يحبّ متابعة الحديث معه ومع بيتكا، ويبقون حتى الساعة الثالثة صباحاً أحياناً، حيث يشربون كأسهم الليلي الأخير".

لكن الآن، ولمدة يومين، لم يأت الكونت غراندساي إلى غرفة الطعام، ولم يذهب حتى للكشف على العمل في برج الواحة. كان قد دفن نفسه في قراءات جديدة، وكان وقد ذكر سابقاً أنه في مناسبات كهذه يكون مسعوراً ككلب لديه عظمة، وأنه يميل إلى عضّ أي شخص يأتي ويقاطعه. لكن كان لديه أسباب أخرى هذه المرة غير شغفه الفكري

[1] الكلمة الإنكليزية هي (Polysexual): وتدل على الشخص الذي يكون لديه ميول جنسية نحو الجنسين. المترجم

بالخلوة بنفسه. لقد شعر مرة أخرى، وبشكل أوضح من ذي قبل، بتكرار الخفقان الخانق وبداية مرض قلبي. لا يمكنه ولا من أجل أي شيء في العالم، أن يستشير طبيباً، لأنه اعتبر أن معرفته الدوائية الخاصة كافية لعلاجه. إضافة لذلك، لم تكن حالته الجسدية هي ما يقلقه. فقد وقع في الأيام القليلة الماضية، فريسة لألم مرعب في الرأس، حيث بدا وكأن هناك ما يثقب رأسه من الخلف، وكانت تلك الآلام مترافقة مع سلسلة من الظواهر السيكولوجية الغريبة المخادعة بالرغم من وضوحها الشديد، وعرف بسبب ذلك أن ليس هناك من طبيب يستطيع تقديم أدنى مساعدة.

أدرك من خلال تحليله الأخير للخلل الذي أصابه، أن كل شيء ينبع من المصدر ذاته: شغفه غير المشبع بسولانج دي كليدا، الذي لا بدّ أن يؤثر في النهاية على عقله.

وصلت رسالة سولانج أخيراً، بعد أن أصابه اليأس من استلامها. لكن تلك الرسالة، بعيداً عن جعله أكثر ارتياحاً، جعلته مهووساً أكثر، وفاقمت حنينه المَرَضيّ للعزلة. كانت مجرد فكرة النزول والدردشة مع فيرونيكا وبيتكا وراندولف أكثر مما يستطيع تحمّله.

كانٍ يقول لنفسه: "يجمعهما راندولف الآن، وأنا أشعر بالمرض فعلاً".

وأمضى اليوم بعد الآخر دون رغبة بالنزول. تأمل بعدها ليوم كامل بردّه على رسالة سولانج واستعصى عليه النوم حتى صباح اليوم التالي، إذ نهض من سريره في الخامسة صباحاً وكتب:

"جميلتي وعزيزتي ومعشوقتي سولانج،

"لأي شيء أكرّس ما تبقّى من حياتي إن لم يكن لأكرر لك بشكل دائم، وبطيف مختلف من المشاعر كل مرة، أن حبي لك أعظم حتى من عرفاني بالجميل، حبّي الذي يجب أن يكون في هذه اللحظة

بلا حدود، منذ أن عبّرتِ، ليس فقط عن الاحترام الذي تجرأت على تسوله منك، بل على متابعة الرغبة بي بعواطفك. قد يتضاءل امتناني إن لم أستلم أبداً ردّاً على رسالتي، لكن حبّي يكبر باستمرار. وبالرغم من أن امتناني في أعلى درجة له الآن، فهو مع ذلك بعيد عن بلوغ ذرى حبي، وهكذا سيبقى صعباً على المشاعر الأخرى الوصول إلى شعور الحب، بما فيها مشاعر الشفقة! أشعر بسخافة محاولاتي الوصول إلى قلبك عبر رسائل حبي البسيطة. لكن مع كل يوم يمر، وبالرغم من المسافة التي تفصلنا، أشعر بثقة أكبر أن أحلامي المستمرة عنك، لا يمكن أن تخفق بالوصول إلى روحك، والاستحواذ على أحلامك. إن سحر علم الشيطان والشيطانة والذي أخضعت له كل تجارب عقلي، من أجل أن أقترب أكثر من روحك، لم يكن أكثر من علم الأحلام لمصر القديمة، العلم الواقعي والتجسيد الملموس لرغبات الجسد والدم، للأحلام التي تنتهي بتغطية القلب بـ "أنسجة الاختناق".... وتشله. دورياً، وخارج سيطرة إرادتي، أشعر كما لو أن كل قوى كينونتي الأصلية تجتمع في عقلي، وتحثّ آلام رأس مرعبة، تترافق مع نزيف في أذني، كما لو أنني أتعرض، دون أن أتحرك من مكاني، لضغوط مناخية غير عادية. وبينما تزداد هذه الأعراض، أبدأ بفهم الصور بحدّة مرئية هائلة، بينما يبدأ محجرا عينيّ بالألم، كما لو أنهما يغوصان في ماء مغلي. أخيراً أراك بوضوح كما لو أنك تقفين أمامي مباشرة.

"أراك بومضات فورية، في الهواء الطلق دائماً مضاءة بشمس الشتاء المشعة. وتصبح هذه الصور أوضح، إن ضغطت جفنيّ المغلقين بمنديلي في اللحظة التي تحدث فيها. أراك تنزلين وادياً، تلبسين زياً قرمزياً لامعاً، قرب بستان مزروع حديثاً، يرافقك الأخوان مارتين. أراك متكئة لفتح الباب الخشبي الصغير الذي يقود إلى الطريق الخلفي، قرب بيوت الغسيل. يراقبك تيتان بلا حركة، وأحد الأزرار النحاسية على طوقه يلمع فجأة للحظة كإشارة صوتية. تترافق كل واحدة من هذه الصور مع أحد الأصوات العزيزة التي تتحدث إليك باحترام.

صوت بيير غيرارديان الذي أفترض أنه ملاكك الحارس. بالرغم من أن لي قلباً من حجر، فأنا أبكي لرؤية وميض زر نحاسي - لأنه ينتمي إلى طوق الكلب الذي ينظر إليك - تلك الدموع حارقة لأن عيني تتوجع برؤيتك. ودائماً في نهاية هذه الفترة المهلوسة، أرى منك الصورة النهائية نفسها - الصورة الأكثر إرباكاً - ينتفض وجهك بتعبير غريب من النشوة التي لم تسببها المتعة فقط، لأنها تترافق مع الرعب المضني المميت الذي ليس إلا رعب روحي التي ترتعش لفقدانك. حبيبتي سولانج دي فرنسا، شفاه الياسمين، محبوبتي الشجرة الرقيقة الشابة، أستطيع أن أشعر بكل ورقة جديدة تنمو في شجرة النسب من أوردتي. إن استطعنا على الأقل أن ننجب طفلاً معاً! فإن أفكاري هي يداي، موضوعة مثل تاج حول جبينك، ذاكرتي هي فمي على فمك، رغبتي هي أنسجة أحشائك، حناني ذراعي! أقبلك بكل ما فيك، وسوف أعيش فقط متوقعاً ردّك.

إرفه غراندساي."

وتابع عزلته العنيدة في الأيام التي تلت، وأصاب القلق فيرونيكا وأصدقاءها. كانت تتلقى كل صباح، بعض الخربشات من زوجها، وتتضمن دائماً فكرة مفاجئة محببة حول موضوع حبهما، التي تمكنها من العيش لباقي اليوم، تنتظر اليوم التالي باستسلام. بدت لعبة الشطرنج اليومية بينها وبين وراندولف، وكأنها تُلعَب بين شبحين. كانت بيتا تجد صعوبة بتصديق أن هذا المشهد البسيط، كان واقعاً بالفعل. كانت تراهما هادئين جداً وقريبين، ويقابل أحدهما الآخر، يميلان كتمثالين فوق لوحة الشطرنج، ويبدوان مشابهين للثنائي في لوحة "صلوات" التي رسمها (ميليت). يظهر راندولف الطويل الحزين، المعتاد على إشعال الطائرات ، والطيران تحت وابل من الرماد، والانطلاق عبر الغيوم المتوهجة، يضطرب الآن بشغف مكبوت ورغبة شهيدة، كان قلبه عاجزاً أمامها، وكانت ترفضه بعناد، كي تبقى مخلصة له، دون أن تعي ذلك، ودون أن يكون هو ذاته مدركاً للأمر.

لقد أحبّت فيرونيكا غراندساي وكرّست حياتها كلها له، إخلاصاً لذاكرتها الهذيانية، المرتبطة بشخص ذي وجه مختبئ، قابلته في أعماق قبو في منزل (كو ديس أورفيفر). كان هذا الرجل الذي انتظرته لوقت طويل، جالساً أمامها الآن بشكله الحقيقي، ولأنه كان مرئياً بدقة، لم تستطع أن تراه! كان كلاهما كبيدقين على رقعة الشطرنج، يقابل أحدهما الآخر، كانا معزولين وغير قادرين على التقدم أو التراجع، وبعيدين كنجمين يبدوان متلامسين. لكن هذه كانت لعبة أخرى، أعلنت فيرونيكا، مع الوزير والحصان، "كش ملك!" وذهبت بعدها إلى سريرها. توقفت أثناء مرورها أمام باب الكونت واقتربت للحظة. ظهر فوق الباب خيط من النور، يُظهر أنه كان مستيقظاً. لم تتجرأ على قرع الباب.

أصابها الفضول فجأة، "كان وجه راندولف مُغطى بندب ناعمة جداً وجروح غير مرئية تقريباً. إنها جذّابة إلى حدّ ما، لكن لماذا أجدها غريبة كلها مرة واحدة؟" دخلت غرفتها وأغلقت الباب ولم تفكر بالأمر مجدداً.

لعدة أسابيع، أمضى راندولف ساعات طويلة، وبشكل يومي تقريباً في حضور فيرونيكا. ستنتهي إجازته، وسيعود إلى أوروبا دون أن يتلفظ بكلمة واحدة عن مشاعره. كان هناك فقط معركة عيون عنيدة لا ترحم. بدا له مع اقتراب الرحيل، أنه لاحظ تغيراً على وجه فيرونيكا، إن لم تكن نظراتها الحالية نوعاً من القبول، فهي بالحد الأدنى نوعاً من الامتثال. هل كانت تلك من عاداتها؟ أم تساهلاً أوحى به قرب المغادرة؟ ربما كان الأمرين معاً. تثير استياءه الفرضية الأولى كما تثيره الثانية تماماً. ومع ذلك، فقد أزعجه نقص الليونة في نظراتها التي لا ترحم، لدرجة أنه أصبح مريضاً بسببها. كيف يمكنه التسليم بالتخلي عنها، ربما للأبد، دون محاولة الحصول منها على نظرة عطف واحدة، يحملها في قلبه، في سموات الحرب، كدرع لجناحيه؟ كانت إجازته تتقلص، إن

لم يحافظ على صمته أمامها، فإن سعادته برؤيتها، التي أصبحت السبب الوحيد لوجوده، ستصل إلى نهايتها قبل الآوان.

كانت فيرونيكا في إحدى الليالي، تجلس على الرمل مع راندولف قرب الواحة، كانا وحدهما يراقبان البرج الذي اقترب من نهايته. كانت بيتكا على مسافة بعيدة في جولة على الحصان مع ابنها بينما ذهبت الراهبة التي أمضت فترة بعد الظهر في جمع بذور الكتّان، قبل نصف ساعة بشاحنة إمدادات، كما غادر العمال الذين أنهوا أعمالهم لهذا اليوم.

بجلوسها في الصحراء، تحت السماء الواسعة، لم يعد من الممكن، كما عندما كانت في باريس، مقارنة نظراتها بجفاف الصحراء وشفافية السماء الزرقاء، لأن عينيها كانتا أكثر خلوّاً واتساعاً من هذين العنصرين الطبيعيين متحدين. لقد أصبح لديها الآن، العينان الصافيتان "لتوقها المُحَبِطِ للأمومة". تركت رأسها منحنياً للخلف قليلاً، لتشعر بوزن شعرها المتطاير مع النسيم، وانفتح كامل جسدها على الريح، مثل نباتات معيّنة تتخصّب بتلك الطريقة. كانت جالسة هكذا، وغافلة عن التحدي القوي الذي تقدمه انحناءات جسدها. ترك راندولف رأسه ينحني قرب شعرها، وعبر المشهد أمامه، ثبّت عينيه على إحدى ركبتيها العاريتين المغويتين. لم يعد قادراً على احتواء نفسه، وبدأ يتكلم دون أن يفصل عينيه عن المشهد.

"لأنك تعرفين أن الحرب توشك أن تدعوني مجدداً، تتفضلين عليّ وتخففين عقوبتي، في الوقت الذي لا أستطيع به منع نفسي من تبجيلك بصمت. مؤخراً فقط، بدأت تتكرمين عليّ بنظرات لطيفة. أنا لست هنا لإثارة شفقتك. لقد جعلتني تعيساً طوال الوقت!"

أجابت بهدوء ودون أن تغيّر جلستها: "أنت مخطئ يا جون". وبعد صمت طويل، مررت يدها حول عنقه وتابعت: "أنا أحببتك باللحظة التي رأيتك فيها، أكثر بكثير مما كنت أظن. وقد اكتشفت ذلك فقط في الأيام القليلة الماضية.

لا أحد بمكاني يتكلم بصراحة معك كما أفعل الآن. وعليك أن تبادلني الثقة التي أظهرها في حديثي معك، لكن استمع إلي....."

بقي راندولف كالمشلول، ابتلع ريقه بألم، وأخفض رأسه أكثر، دون تغيير اتجاه نظرته. بدأت ذروة أذنه تلقي ظلها على ركبة فيرونيكا العارية بينما بدأت الشمس تغرب.

"نعم، استمع إلي يا جون: بالرغم من أن لدي مشاعر قوية لك، فإن جولي هو كل شيء في الحياة بالنسبة لي، وأعني بذلك، الإخلاص له حتى الموت".

"أنت تناقضين نفسك بشكل رهيب".

"لا، أنا أتبع طبيعتي وقدري وحسب. ما يربطني بجولي هو أعلى بكثير من أي مشاعر يمكن التعبير عنها. الأمر ليس مسألة إخلاص وحسب، إنه أكثر من ذلك بكثير. أنا أبجل الصورة البعيدة التي خلفه، والتي رفعت حبي إلى عوالم المطلق".

"ما هي تلك الصورة؟"

"أنت لن تفهم، وليس على المرء أن يتحدث عن شيء فريد جداً بالنسبة له".

"أنت تخدعين نفسك بالكلمات، آمنت في البداية بأنك سعيدة مع نودير. والآن لم أعد أؤمن بذلك!" كان قد نطق كلماته الأخيرة بعنف، بينما كان يضغط خده على رأسها.

"أنا أسعد النساء بفضل حقيقة أساسية، تقوم على مشاركتي الحياة المعذبة، للشخص الأعزّ علي في هذا العالم. لا تضغط عليّ بذراعك بهذا الشكل! ولا تعني صراحتي معك أن تستغلها وتفسد وهمنا!"

حررها مما أوشك أن يكون عناقاً عاطفياً، ووصل الآن ظل أذنه إلى وسط ركبتها تماماً.

"هل يمكنك أن تسمحي لي على الأقل أن ألاطفك بظلي؟

وبذلك أخفض رأسه حتى جعل ظل أذنه يستلقي على كامل طول ساقها، ثم جعله ينسل ببطء إلى الأعلى ليصل إلى ركبتها. توقف للحظة بعدها، ومن ثم بدأ يحرك الظل للأعلى منتهكاً لحم فخذها الأبيض، وصولاً إلى حافة تنورتها ثم قال بغضب: "حياتك عبارة عن صحراء! لن يمنحك نودير الطفل الذي تتوقين إليه. أنا أعرف كل شيء»، أنت تشبهين تلك المخلوقات المهلوسة التي تموت من العطش، وتملأ فمها بالرمل الحار، غير مدركة وجود نبع الماء العذب، على بعد مسافة ذراع واحد تحتها".

"وهل أنت هذا النبع؟" سألت فيرونيكا بسخرية، مرخية رأسها للخلف لتنظر إليه بشكل مباشر.

"امنحيني ثغرك،" أمر راندولف ممسكاً بها بذراعيه واختطف منها قبلة عنيفة.

تركت فيرونيكا نفسها تتلقى القبلة دون أن تتفاعل معها، ثم نهضت: "لقد أشبعت دافعك البسيط. اتركني الآن".

"أنا استجدي اللطف منك ولا أنال سوى احتقارك. أعرف أني أفسدت كل شيء بإطلاق العنان لمشاعري، وتركها تسيطر على أفضل ما لديّ. عليّ أن أغادر هذه الليلة".

قالت بنبرة جليدية مخيفة: "لا داعي لذلك، سنأتي صباح الغد أنا وجولي لنعيش في البرج. عليك أن تبقى مع بيتكا مدة أطول، للحفاظ على المظهر فقط. لكن لا تتوقع مني نظرة صداقة أو حنان أو حتى الشيء الآخر الذي تركت نفسي أعبّر عنه بغباء لك. أنت لا تستحق ذلك"، وامتطت حصانها وانطلقت.

نزل غراندساي من غرفته للمرة الأولى منذ أسبوعين. أمسك فيرونيكا من ذراعيها وضمها بعناق طويل.

قالت: "أرغب اليوم بالبقاء في غرفتي!"

"سأبقى بصحبتك، لديّ الكثير مما أقوله لك، كما لو أنني عائد من رحلة طويلة جداً".

"بالنسبة لي رحلة أبدية، صحراء حقيقية!"

"وغداً إلى الواحة، لامست شفتاه دمعة كبيرة سالت على خد زوجته".

جاءت بيتكا في الصباح التالي قبل موعد المغادرة، ودخلت غرفة فيرونيكا وقالت: "أخبرني جون كل شيء حول ما حدث بينكما ليلة البارحة. كان تعيساً تماماً وأرادني أن أطلب منك أن تمنحيه فرصة أخرى ليطلب السماح".

"لا أريد أن أراه مجدداً، أنا أسامحه. وبالنسبة لهذه المسألة، هو يقبّل مثل طفل! لا يمكنني حتى أن أعتبرها إثماً".

شعرت بيتكا بالإهانة بسبب نقص قدرات راندولف على الإغواء وعلّقت قائلة: "أنت تفاجئينني، جعلت الأمر يبدو مشابهاً لأكل عنقود من الحصرم".

تظاهرت فيرونيكا بعدم الانتباه للعبارة الأخيرة، وعانقتها كالعادة وغادرت.

في برج الواحة، بدأت فكرة استعادة جنتهما المتوقعة، بشكل سيئ.لأنه وللمرة الأولى منذ زواجهما، بدت فيرونيكا بعيدة وفاترة بحضور زوجها، كانت شاردة، وتجيب دون أن تستمع، وتسقط حبوب الحنطة على الأرض في كل مرة تريد فيها إعادة قفص الطيور.

سألها الكونت بينما كانا يتناولان العشاء في اليوم الثالث: "ألست سعيدة هنا؟"

"نعم، أنا مقتنعة تماماً".

"كوني صريحة، لأنك تتحدثين كما لو أنك تفتقدين شخصاً ما".

بتلك الكلمات، أصبحت فيرونيكا، التي لم تكن قد توردت من قبل، محمرّة تماماً، حيث تدفق الدم إلى وجهها الشاحب عادة، وجعل عينيها تدمعان بخجل صافٍ، بينما تكاثفت قطرات العرق على جبينها وحول شفتيها. وانتبج نهداها من الامتعاض لشعورها بالخيانة، وفقدت كل رزانتها وقالت وهي تفكر بإحباط أية شبهات، حول ما افترضت أنه يشير له: "لا تفترض ذلك ولا للحظة، ليس هناك من شيء بيني وبين جون!"

قال لها مقترباً منها محاولاً معانقتها: "لم أفكر حتى بالسؤال عن أمر كهذا،" لكنها أصبحت سريعة الغضب بشكل مفاجئ، وتملصت من معانقته، صاعدة درجات السلم التي تفصلها عن الباب نحو البرج حيث كانت غرفتهما، والتفتت قبل أن تختفي لتواجهه وتقول بصوت ينمّ عن كراهية: "لكن هناك شخص أفتقده، إنه ابننا!" وأغلقت الباب خلفها بعنف.

ظهرت الراهبة في تلك اللحظة حاملة قفص الطيور بيديها، والتفت غراندساي إليها وقال: "هل سمعت ذلك يا راهبتي الطيبة؟" لقد حرضتها ضدي، لأنه ليس هناك من طفل لديّ، لكنني أعرف أنك تفضلين أن يكون هذا الطفل من سولانج دي كليدا!"

"إن كان صبياً، فلن أهتمّ من أيهما تأتي به، حتى لو أتى من الشيطان!" وعندها هزّت وعاء مليئاً ببذور الحنطة لتتخلص من القش، لكنها هزّته بقوة حتى طار في وجهها، ودخل بعض من القش في عينها اليمنى التي كانت تسيل دائماً. وضعت القفص على الطاولة للحظة، وحاولت بطرف مئزرها تحريك الجسيمات الصغيرة.

كرر غراندساي على نحو حالم: "الشيطان، ربما هو الوحيد الذي أستطيع الحصول على طفل منه. هل الحصان الأسود مُسرج؟ أشعر برغبتي بامتطائه. لا أستطيع النوم الآن".

عندما رحل، التقطت الراهبة قفص الطيور مرة أخرى وقالت: "عليه أن يمتطي اللحم الأبيض، لكن بما يتناسب مع قانون الله وطاعته".

في الليلة التالية كان المشهد أسوأ من الليلة السابقة. لا بدّ أنه عاملها بعنف، لأنهما ما إن غادرا غرفتهما في البرج حتى قالت له: "من الآن فصاعداً لا أريدك في غرفتي أبداً. اعتادت تلك الغرفة أن تغمرني بآمال رائعة، وليس هناك الآن سوى خيبة الأمل. ستكون غرفتي مكرسّة لوحدتي. لقد طلبت مسامحتي مئات المرات. وأنا أسامحك وفق شرط واحد: اعطني المفتاح! أريد مفتاح هذه الغرفة، التي أصبحت غرفة أحزاني، ليس لديك الحق بدخولها تحت أية ذريعة. عليك احترام هذه العزلة متى احتاجتني أو احتجتها. لديك السرّ الذي تحتفظ به بقلبك، وأنا أتغاضى عنه. لكنك أغلقت باب غرفتنا دون أن تسألني. أنا لم أقل لك أبداً إنه ليس لدي أي سر أيضاً. سأصبح متشككة، مثلك!"

"أنا لن أدخل إلى غرفتك إن كانت تلك رغبتك. أعدك بذلك،" قال غراندساي، وذهب وجلس قرب المدفأة. وبعد لحظات كانت فيرونيكا تجلس بالقرب منه. وضعت يدها على يده.

"شكراً لك يا عزيزتي،" قال غراندساي، ممسكاً يدها وضاغطاً عليها.

ودخلت الراهبة جالبة معها منفاخاً جديداً وعلبة كبيرة من الكبريت. جثت على أطرافها الأربعة وبدأت إشعال النار. بدأ اللهب الذي حققته بطريقتها الفلاحية حول قطعتي الحطب الكبيرتين، يومض بفرح على الفور، لكن سرعان ما هبت دفقة كبيرة من الدخان ودخلت الغرفة.

عـزت الراهبـة السـبب إلى بـرودة المدخنـة، فأضـافت القشـور الخشبية وزودت النار بنفخـات إضـافية وظهـرت الشـعلة مـن جديـد، وغلّفت الشعلة قطعتي الحطب وارتفعت. لكن فجأة، كما لو أنها نُفِخَـت للأسفل بفعل رياح الخارج، دخلت كمية أكـبر مـن الـدخان إلى الغرفـة. نهض غراندساي وهو يسعل ونهب ليفتح النافذة.

قال غراندساي: "من المؤكـد أن المدخنـة مغلقـة، سـوف نطلـب عامل البناء في الغد ليهتم بذلك".

قالـت فيرونيكـا للراهبـة: "اتركيهـا وحسـب، لـن تشـتعل. سننتظر إلى الغد".

تم فحص المدخنة في اليوم التالي، لكنِ العامل صرّح بـأن المـدفأة سليمة، وأن ما من شيء يعيقها. ومع ذلك تسلق رجل من داخلها وثبـت صفيحة معدنية في الأعلى، ليحمي المدخنة مـن النفايـات المعيقـة. وقـال عامل البناء للراهبة: "إنها الرياح بكل تأكيـد، لكـن مـع هـذه الصـفيحة التي وضعتها في الأعلى لن يكون لديك أية مشكلة مع الدخان".

لكن في المساء، وعندما نزلت الراهبة على أطرافهـا الأربعـة أمـام نارها، تكررت المشكلة، مرة بعد مرة في الغرفة.

تنهدت الراهبة بحيرة واستندت علـى ركبتيهـا ووضـعت يـديها على وركيها وقالت: "ليس هناك من رياح اليـوم، يبـدو وكـأن الشـيطان يقوم بسحره".

إن كان سحراً أم غيره، ومهما بدا الأمر غير قابل للتصديق، فقد كانت الحقيقة، أنه بالرغم من استشارة كل عمال البناء والتعديلات التي تمت، لم تعمل المدفأة في نهاية الأسبوع في الصالة الكبيرة الملاصقة لغرفـة فيرونيكا، بشكل أفضل من عملها في اليوم الأول.

لا بدّ أنها كانت حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف مساءً، حيث كانا جالسين مقابل المدفأة المطفأة، ينهيان لعبة شطرنج. كانت فيرونيكا قد التقطت الفارس الأسود بأصابعها الطويلة الوردية المخضبة بالأزرق، وفي اللحظة التي كانت ترفعه فيها ببطء عن لوحة الشطرنج بحالة من التفكير العميق، توقفت عن الحركة بشكل مفاجئ. والتفتت نحو باب الفناء، الذي لم يكن من المتوقّع أن يُفتَح. كان في المدخل راعي أبقار عجوز يرتدي ملابس متسول، شارباه الرماديان ينزلقان على شفتيه، عيناه بلون الدخان، وجلده مجعّد مثل الهنود، حمل قبعته باحترام أمام صدره، بينما حمل بيده الأخرى عصاً كثيرة العقد، تتدلى من نهايتها حزمة صغيرة ملفوفة بمنديل أبيض نظيف جداً.

نظرا إليه بتساؤل، فقال بصوت نصف مبحوح مليء بالحنان: "أنا رجل الدخان! أتيت من مسافة بعيدة وأنا أسافر دائماً على قدمي".

"أنت رجل ماذا؟"

"رجل الدخان".

"رجل الدخان،" كررت فيرونيكا بدورها، كما لو أنه أكثر طبيعية بالنسبة لها.

نهض غراندساي ودعاه للجلوس، وأغلق الباب الذي تركه رجل الدخان مفتوحاً.

"جئتُ من هذا الباب لأن الخدم لم يسمحوا لي بالدخول. سمعت في القرية أن مدفأتك لا تعمل". ورمى نظرة مليئة بالحقد على النار المطفأة، وبدا كما لو أن شرارة النار قد ومضت في عمق الدخان الوهمي لمقلتي عينيه. "أنا رجل الدخان، أنا أتخلص من الدخان في المدافئ عندما لا يستطيع أحد فعل ذلك. أعرف رياح هذه المنطقة. مات والدي المسنّ في هذه الواحة تحديداً. اعتاد العيش في كوخ طيني هنا وعشت معه حتى الثالثة عشرة من عمري. لقد علمني كل

شيء. كان يشعل النار في الصحراء، وتعلمت منه مراقبة كيفية صعود الدخان، وعرفت تأثير العوامل الجوية الطبيعية عليه، عرفت كيف نخلق تياراً هوائياً قوياً، ليسحب الدخان نحو السماء مباشرة".

وفجأة ساد لدى فيرونيكا وغراندساي شعور بأن آمالهما موضوعة في هذا الرجل، الذي بدا وكأنه هبط من السماء، وطلبا الراهبة لتحضر له كأساً من النبيذ.

قال غراندساي: "أيها الرجل الطيب، يمكنك أن تستخدم خبراتك بإصلاح مدفأتنا متى أحببت. لقد قدّم عمال البناء خبرتهم في الواقع، واستنفدوا مصادرهم العلمية بلا فائدة. أنا مقتنع تماماً بأن هذا كل ما علينا فعله في مكان فريد وشاذ، ولا يمكن التنبؤ بمناخه. أنا نفسي قد تساءلت سلفاً حول تركيز الرطوبة التي تنشأ من واحدة صغيرة مُحاطة بصحراء شاسعة وصخور تحافظ على الحرارة حتى في الليل".

أومأ رجل الدخان برأسه باستحسان، وابتسم كما لو أن غراندساي، لم يكن أقرب إلى الحقيقة من الآخرين.

سأبدأ عملي غداً، لكن بشرط واحد، وهو أن لا يدفع السيد شيئاً بالمقابل، ما لم ينجح العمل بشكل كامل. وسيكون الإسمنت والحجارة والخردوات والمعدات كلها على نفقتي. أنا لا أتناول الكثير من الطعام، ويمكنني النوم في أي مكان. أريد أن أقدّم مثالاً لأولئك الذين يسخرون مني في القرية! يمكنك عندما ينتهي الدخان، أن تكافئني بما تراه مناسباً، وسأكون راضياً".

دخلا الأسبوع الثاني منذ أن بدأ رجل الدخان عمله، وكان لا زال يكافح بلا جدوى مع الدخان العنيد في المدفأة. لا شيء، لا شيء، لا شيء يعمل!

قالت الراهبة للكونت: "أشعر بالأسف على هذا المسكين، كنت أراقبه. أراه يزداد نحولاً يوماً بعد يوم. لم يعد يتناول طعاماً ولم يعد ينام، والأسوأ من ذلك أنه صرف المبالغ الهزيلة التي وفرها لشراء أنابيب إضافية وأسلاك، وأريد أن أخبرك بأنه لن ينجح أبداً في إخراج هذا الدخان من المدخنة!"

"سوف نتركه يعمل ليومين إضافيين. لقد خرّب الكثير، ولن يشكّل المزيد منه أي فرق. سوف نكافئه على عمله بالقدر نفسه. ربما كان علينا أن نتوقع أنه مجنون قليلاً".

أجابت الراهبة: "لكنها حقيقة، لم يستطع الآخرون التخلّص من الدخان أيضاً".

انتقل رجل الدخان من حالة انسجامه مع أمل هذياني تقريباً، إلى حالة ذله من اليأس، ملسوعاً بفكرة تركته مستيقظاً طوال الليل. كان في عمله في الصباح الباكر، حاملاً معدّات متنوعة صنعها في ورشة القرية، وبنى مداخن تكميلية داخل المدخنة ذاتها، لتوجيه الدخان إلى السقف وطرده نهائياً إلى الهواء الخارجي. لن يفشل مشروعه هذه المرة وسيعود إلى الأرض جاثياً على أطرافه الأربعة لإشعال النار. ترتعد يداه وكأنهما في نوبة صرع، مكوّماً ورقة جريدة ومستخدماً عود ثقاب، تتقد النار وترتفع كما لو أنها تُمتص عبر آلة شفط هائلة. يخفق قلبه بعنف، وتلفح النار كتفه، ويتوقف تنفسه بحالة من الترقب. نعم! سوف تعمل هذه المرة..... لكن لا ! فجأة ، تندفع كمية مخزية من الدخان الكثيف الرمادي، وتبصق في وجهه كما في كل المرات السابقة، وتنساب من عينيه دموع المرارة التي لا يُسبر غورها.

وأخيراً، وفي إحدى الأمسيات دخلت فيرونيكا وغراندساي إلى الصالة على رؤوس أصابعهما، تتبعهما الراهبة التي أرادت أن تتجسس أيضاً. كانت الغرفة غارقة بالدخان الرمادي الباهت الذي لم يغادرها. لكن الدخان كان أكثر كثافة في المدفأة، وأصبح من الصعب تمييز الملامح الخارجية لساقي الرجل الذي يقف داخلها. كان يضرب بقدمه اليسرى ساخطاً ومُثاراً كحصان مضطرب، بينما غطى الموقدَ فحمٌ نصف مشتعل وبعض الجرائد المحترقة. وفجأة، ظهر الرجل من تحت المدخنة ووقف أمامها محبطاً بيديه المتدليتين ووجهه الذي بدا كقناع مأساوي إغريقي. انسحب الكونت وفيرونيكا والراهبة إلى نهاية الممر ليتجنبوا أن يراهم.

قال الكونت وهو يغلق باب غرفته خلفه: "أنا سأتكلم معه".

خلال العشاء شرح غراندساي الوضع لفيرونيكا: "بدأ رجل الدخان بالبكاء مثل طفل، وتوسل إلي جاثياً على ركبتيه لأمنحه فرصة أخرى لتنفيذ تجربته الأخيرة".

"حسناً، دع ذلك الرجل المسكين يقوم بذلك".

"لكن المشكلة أنه يطلب شيئاً مستحيلاً".

"ماذا يريد؟"

"يقول الآن إنه يريد أن يفتح ثقباً عبر سقف غرفتك، هذا هو الحل الوحيد".

فكرت فيرونيكا بهذا الاحتمال لوقت طويل. بعدها، قالت ممسكة بيد الكونت وبنبرة رقيقة غطت بها على مرارتها: "ربما كان حلاً، يغزو الدخان الآن قلوبنا أيضاً، وتوشك شعلة حبّنا أن تخبو".

"أريد في الواقع أن أقترح عليك فكرة مغادرة هذا المكان والعودة إلى (بالم سبرينغ)".

"سنغادر بعد الغد، بعد أن يفتح رجل الدخان هذا الثقب".

بعدها طلبا رجل الدخان والراهبة، وأعطتهما فيرونيكا التعليمات: "يجب إخراج سريري من غرفتي إضافة إلى الستائر وسجادة الريش". وأضافت متوجهة إلى غراندساي: "لا أريد إبقاء شيء سوى الجدران الأربعة المغطاة بالمرايا، والأرض المرصوفة بالرخام. دع رجل الدخان يفتح ثقبه في السقف كما يريد. وبعدها سوف يُغلق البيت ونعود إلى (بالم سبرينغ). بالإضافة لذلك، الجدران هنا جديدة جداً، وهناك رطوبة في كل مكان".

في الليلة التالية تم إنجاز الثقب في زاوية السقف وجدار المدفأة. إن نجحت التجربة فسيكون من الضروري إدخال أنابيب دخان بشكل دائم

وتغليفها بالجص لتبدو غير واضحة نسبياً. لكن تلك التجربة فشلت كالتي سبقتها، وفي هذه المرة كانت بشكل درامي أكثر من السابق. بعد أن اشتعلت النار في المدفأة، وفي اللحظة التي انقذف الدخان بها إلى الغرفة كما في المرات السابقة، أوشكت غرفة فيرونيكا أن تحترق. أطلق ثقب السقف عدة حزم من الشرارات على شكل دوامات بسبب الأنابيب الإضافية، مما جعل الجمر يتطاير لبعض الوقت في الهواء، وينعكس عبر الجدران الأربعة المتقابلة، ويستقر في النهاية على القرميد وينطفئ تدريجياً.

قال غراندساي: "على أية حال، كان هذا أفضل عرض ألعاب نارية رأيناه. أين رجل الدخان؟"

قالت الراهبة: "يريد الرحيل، لقد وضع أشياءه في منديله الأبيض، وعلقها على عصاه ووضعها على الكرسي خارجاً".

أمرت فيرونيكا: "أصبح العشاء جاهزاً في المطبخ، وسوف نراه بعدها".

دخلا غرفة الطعام التي سيتناولان فيها وجبتهما الأخيرة. عندما عادت الراهبة، سألتها فيرونيكا إن كان كل شيء بخير. "رتبتُ كل شيء له على الطاولة في الخارج. حضّرت له وليمة كاملة — ديك حبشٍ محشو وزجاجة نبيذ فرنسي وحلويات، لكنه جلس ولم يتناول شيئاً".

قالت فيرونيكا بغضب: "اذهبي وراقبي".

عادت الراهبة مندهشة لأن الطعام بقي على الطاولة على حاله، بينما تلاشى رجل الدخان دون أن يلمس شيئاً. اعتقدت الراهبة أن باستطاعتها رؤيته من خلال أغراضه المربوطة بمنديله الأبيض إلى نهاية عصاه، لكنها لم تر شيئاً. قالت: "هو عجوز جداً، لكني كنت قد رأيته مراراً عندما يكون مستعجلاً. يستطيع أن يركض مثل أرنب".

في الصباح التالي، وقبل مغادرة الواحة للأبد، فتحت فيرونيكا باب غرفتها للحظة. كانت كامل المنطقة المحيطة بالثقب، سوداء من أثر الدخان، وكان رخام الغرفة مغطى بالكامل بطبقة من الرماد. أغلقت الباب واحتفظت بالمفتاح.

عادا للاستقرار مرة أخرى في (بالم سبرينغ) وعاد غراندساي، الذي استطاع أن يكتم انفعاله لعزل نفسه في غرفته ملتمساً من ألم رأسه عذراً.

كانت فيرونيكا واقفة أمام المدفأة المشتعلة في غرفة المعيشة، وتنظر إلى نفسها في المرآة التي فوقها. متأملة خطوط الحزن العميقة بين حاجبيها، ممسكة تفاحة بيدها وسكيناً باليد الأخرى، بدت غير قادرة على التفكير بتقشير التفاحة. كانت مستغرقة جداً بالشخصية التي تقترب منها في المرآة دون أن تعي ذلك تقريباً. لقد كان جون راندولف، لكن عندما أدركت وجوده، كان قد أصبح بجانبها. بقيت مغمورة بأحاسيس غريبة لعدة ثوان. قالت وهي تلتفت إليه: "لقد عشت هذه الحالة من قبل!" أحنى رأسه وكأنه يشعر بالخجل، بينما رفعت يدها إلى رقبتها بشكل غريزي. وبقيا هكذا دون حراك وجهاً لوجه، كشخصيتين معذبتين.

قال بلهفة: "لدي فضول لأسألك، امنحيني ساعة من وقتك. يجب أن أشرح لك. غداً هو آخر يوم لي! لقد انتظرت أسوأ أسبوعين في حياتي لأستفهم منك!"

"أنا أريد ذلك أيضاً".

سألها راندولف بنفاد صبر: "أين ومتى؟"

"هذا المساء في الساعة الخامسة في الواحة، في غرفتي الفارغة في البرج!"

وصلا حوالي الساعة الخامسة إلى الواحة، كلّ منهما على حصانه ومن طريقين مختلفين، وكأنهما تقابلا صدفة. وصلت فيرونيكا أولاً وهرعت إليه قائلة: "هل رأيت شخص ما يتبعنا؟ إنه آتٍ من هذا الطريق".

"نعم، لاحظت ذلك،" قال راندولف وهو يترجل عن حصانه وينظر في البعيد ليتابع حركات الحصان الذي يعدو، ومن هو الذي يمتطيه. "أظن أنها بيتكا. إنها الوحيدة التي تعرف بأمر موعدنا، كان عليّ إبلاغها لتستطيع تحذيرنا في حال وضع زوجك الأمر في رأسه وأتى إلى هنا في جولة".

"لكنها ليست امرأة، أشعر بأنه جولي! لم يكن عليك أن تقول أي شيء لبيتكا!"

"أنت لم تفقدي الثقة ببيتكا، أليس كذلك؟"

"ليس لحد الآن،" أجابت ويداها فوق عينيها لتستطيع مراقبة الشخص القادم تحت أشعة الشمس.

"هل تفضلين أن أذهب؟"

"لا! سوف يراك تغادر الواحة على أية حال. أحضر الخيول وأغلق عليها الإسطبل، وتعال بعدها إلى غرفتي فوراً. سنكون هناك بمكاني الخاص الذي وعدني ألا ينتهك خصوصيته. إن طرق الباب، فسيكون قد أخلف بوعده".

التحق راندولف بها فوراً، لكن فترة غيابه بدت لها قرناً. قالت لها عند دخوله: "إنه جولي بدون شك. وهو يعدو بهذا الاتجاه. لقد خانتنا بيتكا".

"نعم إنه هو. دعينا لا نبقى في هذه الغرفة. دعيه يجدنا في الخارج، قرب الواحة".

صرخت بعنف: "لا! سنبقى في غرفتي،" ثم أغلقت الباب وعادت إلى النافذة.

توسل إليها راندولف: "في هذه الحالة، دعيني أتحدث معك".

"لا أريد أن أسمع منك أي شيء الآن، لقد جعلتني أرتكب حماقة! هذا أول خطأ أرتكبه في حياتي نحوه!"

عبرت الغرفة ذهاباً وإياباً، وهي تضع يدها على حنجرتها كحيوان تم اصطياده، وكانت في الوقت نفسه فخورة كملكة. "لماذا دخلت حياتي؟ هل تسمي ذلك شجاعة؟ عليك أن تمتلك الكرامة لتحافظ على مشاعرك بداخلك. هل هذا هو الشكل الذي تبدو عليه الكائنات التي تطير؟ سوف ترى — كم سأكرهك!"

"أستطيع بسهولة أكبر أن أطلق النيران في السماء، على أن أحتفظ بها في قلبي!"

حبست أنفاسها بشكل مؤلم وأمرته قائلة: "كن هادئاً الآن، إنه قادم".

ترجل نوديير عن حصانه بهدوء، وربطه بحلقة في الجدار. صعد تلك الدرجات التي تقود إلى الباب الجانبي الصغير في الفناء برشاقة، ودخل بعدها الصالة الملاصقة لغرفة فيرونيكا. اتجه مباشرة نحو المدفأة، وأدركت هي الأمر تماماً، وقالت وهي تشير إلى الثقب الموجود في السقف: "إن أشعل النار فقد انتهى أمرنا!"

وبالرغم من أنه لم يفهم ما قصدته، جذب راندولف فيرونيكا نحوه بحركة وقائية. قالت فيرونيكا وهي تنظر بقوة في عينيه: "مهما حدث، يجب ألاّ تصرخ!"

أشعل غراندساي النار، وألقى بها حزمة المستندات التي أراد التخلّص منها. واندفعت على الفور عبر الثقب دوّامة من الشرر إلى

غرفتها. وكما حدث في الليلة السابقة، ملأت الحزم المحترقة الغرفة بكاملها. غمر راندولف رأسها بين ذراعيه لحمايتها من وابل النيران الهاطلة. نظرت إلى الأعلى رغم مخاطر احتراق وجهها، ووقعت جمرة متوهجة على جبهة راندولف فقالت له مغمغمة: "أنت من وضع الفردوس في النار، عليك أن تصبر الآن، إن لفحتك بلهيبها!"

انطفأت النار بعد اشتعالها الأول وغادر الكونت.

تفحّص راندولف بقايا حزم الأوراق وقال: "كانت صدفة بحتة، جاء إلى هنا فقط لإحراق بعض المستندات السرية".

أجابت بحالة من الترقّب: "سرعان ما سنعرف،" بدا وجهها كئيباً وقاسياً عندما امتطت حصانها الأبيض.

في الليلة الأخيرة لإقامة راندولف في (بالمس برينغ)، جلس الجميع حول طاولة العشاء المستديرة. كانت الساعة التاسعة مساءً، ولم يتكلم أحد.

أخيراً، كسر غراندساي حاجز الصمت بشكل طبيعي جداً. كان للتو قد انهى اللقمة الأخيرة من حسائه، والتقط إجاصة من طبق الفواكه، وبدأ حديثه بينما كان يقشرها: "يعتقد المرء أننا نشكل مؤامرة من الصمت! يُظهر هذا الصمت، شعورنا بالحزن على رحيل صديقنا، الذي يمكن القول إنَه قد هبط من السماء لتلطيف حالة عزلتنا المفرطة، التي أُلام عليها بالكامل. كنت أفكر بك يا راندولف طوال فترة بعد الظهر". ثبّت نظراته بقوة على الطيار وتابع: "لقد ذهبت إلى برج الواحة لإحراق بعض المستندات السرّية في المدفأة التي طردتنا بعيدا عن ذلك المكان. ماذا عنك؟ ماذا كنت تفعل بعد ظهر هذا اليوم؟"

لم يجفل راندولف وأجاب: "هل تستحلفني بشرفي أن أجيبك بإخلاص؟"

"لا أبداً، كان مجرد سؤال كباقي الأسئلة".

"إذن، تخيّل إن كنت ترغب، أنني أمضيت فترة بعض الظهر كلها أدخّن السجائر واحدة تلو الأخرى".

"هذا غير مناسب لقلب بطل مثلك".

بدت فيرونيكا منوّمة بالانعكاسات التافهة للفضيات التي تركت عينيها ملتصقتين عليها منذ بداية تلك المحادثة، وكانت بيتكا خائفة وشاحبةِ، وكانت تنظر إلى فيرونيكا.

"أميركا هي بلد الفضول، ألا تعتقد ذلك يا راندولف؟ إن فاكهتها بلا طعم ونساءها لا تخجل، ورجالها دون شرف أيضاً!"

قفز راندولف على قدميه كما لو أنه تحرر من نابض. حاولت بيتكا تهدئته لكنه اندفع نحو غراندساي الذي جلس دون أدنى حركة، يمسح بحذر شفتيه المرطبتين بالبرتقال بفوطته، وأضاف كما لو أن العشاء قد انتهى: "أودّ أن ألفت انتباهك إلى حقيقة أنك تركت نارِ سيجارتك تسقط على كتفيك بشكل غريب، وعلى جبينك، وهذا غريب أيضاً. كنت ستحترق هناك،" كان يشير إلى الورم المحمرّ القريب من مفرق شعر راندولف. ترك غراندساي نظراته الغامضة تتجول بتكاسل على فيرونيكا التي كانت شاردة دون حراك، ولم تعطِ أدنى اهتمام لموقف راندولف المهدد أكثر وأكثر.

قال راندولف وهو يقيس كل مقطع لفظي: "لفاكهة بلادنا طعم الحريّة والضيافة، التي قمت باستغلالها بدناءة لتغذي نفسك وتغذي أسرارك بها، نساؤنا هنّ أولاء اللواتي تحاول أنت إفسادهن دون أن تنجح، وتحاول جعلهنّ منحرفات وعقيمات ، ورجالنا هم أولئك الذي لديهم شرف التضحية بأرواحهم في بلدك أوروبا، لإنقاذ الشرف، الذي لم تكونوا رجالاً بما يكفي لحمايته من العدو".

حاولِ غراندساي الدفاع عن نفسه، لكنه قبل أن يستطيع النهوض، تلقى ضربة قوية في وجهه من قبضة راندولف، جعلته يتدحرج مع كرسيه على الأرض.

اندفعت فيرونيكا نحوه حيث سقط، وحاولت تنشيطه بمساعدة بيتكا. استطاع غراندساي بجهد أن يرفع يده إلى قلبه بينما تخبطت إصبع واحدة من اليد الأخرى في ياقة قميصه كما لو أنه كان يختنق. حلّت بيتكا ربطة عنقه الفضية ووفتحت أزرار قميصه وعرّت صدره. وقعت عينا راندولف المحمرّتان على شيء جعل أنفاسه تتوقف، بدا لعدة ثوان وكأنه يعاني من الهلوسة. كان قد رأى الصليب ذا الماسات الثلاث الذي أعطته إياه فيرونيكا في باريس، وأعطاه بدوره للكونت غراندساي أثناء رحلتهما إلى مالطا! لم يكن جولي نودير الغامض هذا سوى الكونت غراندساي.

صرخ راندولف: "فيرونيكا، هذا الصليب الذي يرتديه هو الصليب الذي أعطيتني إياه!"

عاد إلى وعيه بعد ساعات، لكنه ظلّ مغمضاً عينيه لخمس عشرة دقيقة متظاهراً بالنوم. أدرك أن فيرونيكا كانت جالسة بغضب ومحبة قرب سريره تراقبه باهتمام، لأنه كان قد نظر بخبث من بين رموشه. أعاد إحياء المشهد الذي حدث مع راندولف، وشعر أن حبّ فيرونيكا له قد تضاعف لصالحه بسبب الطريقة الوحشية التي عامله به منافسه، بالرغم من ظروف قلبه الحرجة خلال الأسابيع الماضية. واستمتع بعد زوال العاصفة بشعوره بالعودة إلى الحياة، والدفء والراحة المحيطين به، واحتضان وسادة النقاهة لرأسه وكأنها عشّ. لقد فهم المعنى الكلي والقيمة الكاملة للزوجة والقرينة. أسعده الاستيقاظ بلطافة وبشكل تدريجي بعد هذه العاصفة. بدأ يدرك بوضوح أكبر، من خلال الغشاوة المظللة لجلد جفنيه السميكين المفتوحين، شخصية فيرونيكا، التي لا بدّ أنها تنتظر استيقاظه بشوق كامل، لتهرع وتتكئ عليه وتضغط جبينها على جبينه، وتضع يدها على يده بذلك الحنان القوي، الذي لم يتوقف عن كونه النموذج الدائم لعلاقتهما منذ أن تزوجا.

لكنها، وبدلاً من اندفاعها نحوه عندما استيقظ، لم تأتِ بحركة واحدة، بل على العكس، كان جمودها مرعباً وبدت نظراتها الثابتة لاسعة وعدائية كنظرات حيوان ضار. هتف الكونت الذي أُصيب بالجمود من موقفها الغامض: "لماذا تنظرين إليّ بهذه الطريقة؟"

أجابت فيرونيكا: أنظر إلى الكونت غراندساي، أنظر إلى الصليب الذي تضعه حول عنقك. هو لا يخصّك، لقد سرقته من رجل كنت تعتقد أنه ميت، إنه لراندولف".

كانت رعشته الخفيفة اعترافاً كاملاً بكذبته التي استمرّت طويلاً، وقرّب يده من عنقه كما لو أنه يحمي الصليب من نظرتها وغضبها صعب المراس. أمسكت الصليب بقبضتها وانتزعته بقوة وانصرفت بخطا ثابتة. دخلت غرفتها وعلقت الصليب على سريرها ثم سحبت من إصبعها خاتم الزواج ووضعته في صندوق جواهرها الأسود.

"لا أريد العيش مع أي شخص. أريد أن يغادر غراندساي البيت، وأريد من بيتكا وابنها أن يغادرا البيت. أريد أن تغادر الراهبة الشيطانة البيت. لا أريد رؤية أحد سوى راندولف. أريد العيش وحدي معه، مع البجعة البيضاء التي بذاكرتي".

ما إن استعاد غراندساي صحته، وتحسّن وضع قلبه، حتى دخل مع راهبته في حالة من العزلة لبعض الوقت في ملجأ الواحة، لكنه كان قد أكد برسالة لفيرونيكا أنه سيحترم غرفتها الخاصة دائماً. أخذ معه ابن بيتكا للعيش في ملجئه في الواحة، وشكل ذلك لغزاً مبهماً بين بيتكا والكونت: "إخضاع الدم،" كما أسماه. كان في حالة تواطؤ مع بيتكا منذ بداية زواجه، وقام بمشقة وخلسة بعمل كل ما في وسعه لإبعاد ابن بيتكا عن تأثير فيرونيكا. وما هي النتيجة؟

غادرت بيتكا مع راندولف إلى إفريقيا. لم يكـن هنـاك أيـة فكـرة للزواج فيما بينهما، لكن لم يكـن بمقـدورهما العـيش بعيـداً أحـدهما عـن الآخـر. عهـد غراندسـاي إلى بيتكـا بمهمـة، وتوجّـب عليهـا أن تقابـل سيسيل غودرو في (تانجين).

قال الكونت لراهبته يوم وصولهما إلى الواحـة: "أريـد للطفـل أن يحيا ويُعامل كأمير. سيقيم في الطابق الثاني كله. يجب ألا يغـادر سياج الواحة. لديه داء دموي مريع، لكن دمه ثمين. سأخاطر معه بما تبقى من روحي وستكون هذه هـي التجربـة العظيمـة. مـا مـن وجـود لشـيء غـير موجود في الـدم! سـأعيش في غرفـة واحـدة، وأريـدك إلى جـواري أيتهـا الراهبة. سوف تصلين من أجل سولانج".

حـرّم أي عمليـة تنظيـف لغرفتـه الـتي أصـبحت مثـل "مكتـب فاوست". وللمرة الأولى في حياته، يبقى شعره دون عنايـة لأيـام طويلـة، معقداً ومجعداً بالأرق الصفراوي لليالـيـه الـتي لا تنتهـي. كتـب بغـزارة، وبشكل غير مترابط، واضعاً قوانين إنسانية وسماويـة، وحـرف الـدم عـن مساره الطبيعي. أصبحت فرنسا وسولانج كينـونتين سمـاويتين في عقلـه الهذيـاني، عاش وحيداً معهـا، منـتقلاً لحيـاة مجنـون، نعـم، مجنـون! الكونت غراندساي! الغبي العجوز! تمتمت الراهبة: "سيعاقبك الله!"

في سـهل (كـرو دي ليـبرو) كانـت أمطـار تشـرين الثـاني تهطـل باستمرار، ومن بعد الضباب والثلـوج وبعـض أيـام الشـتاء المشمسـة، جـاءت أمطار آذار الغزيرة. كانت أوروبا، تحـت نـير الألمـان، تعيـد اكتشـاف تقاليـد وحدتها الكاثوليكية القديمة عبر الاتحـاد في المعانـاة، وتجـددت ولادة القـرون الوسطى مع ربيـع خرافاتهـا في (ليبرو). وفي طاحونـة (دي سـورس)، نزلـت السيدة سولانج دي كليـدا إلى حجـرة الطعـام للمـرة الأولى منـذ ثلاثـة أشـهر. كانت الغرفة لا تزال باردة، وأبقت سولانج على مدفأة الأقدام، مليئة بـالفحم المتقد، تحت قدميها، وشال صوفي أبيض فوق كتفيها. انحنـى رأسـها المتكـئ

على ثلاث أصابع من يدها اليسرى عليِ الطاولة بينما ثبّت إصبعان من يدها الأخرى على فخذها الأيمن، رسالةَ الكونت غراندساي التي كانت قد استلمتها صباح اليوم. ووقفت جيني إلىِ جانبها حيث رفعت طرفاً واحداً من مئزرها، ودسّته في حزامها الذي تدلى منه حبل ينتهي بحزمة مفاتيح قديمة، تصل إلى منتصف بطنها. استدارت بكامل جذعها وهي تضع إصبعها على شفتيها، نحو باب المطبخ نصف المفتوح، حيث كان كبير الإخوة مارتين، ينشر قطعة خشب. عندما توقف الأخير عن العمل وعاد الصمت، قالت سولانج: "لدي الآن كل الأدلة على أن الكونت عاد مرة أخرى وامتلكني خلال فترة مرضي كلها".

"إن كان الأمر كما تدّعي السيدة، فأمر كهذا لا يحدث إلا عن طريق الشيطان". أبقت جيني عينيها مثبتتين على الجدار المقابل، كما لو أن توجيه نظرها نحو سيدتها في ظروف كهذه، قد يتسبب بانتقال عدوى السحر لها.

"هل تعرفين يا جيني أن الكونت يراني بعينيه الحقيقيتين عندما يزورني، وليس بعيني ذاكرته، كما أن عينيه تؤلمانه بعدها. هل تسمعين يا جيني؟ يشعر بأن رأسه سينفجر. أخبرني ذلك برسالته يا جيني! يقول إنه يراني بثياب قرمزية أفتح بوابة الطريق الخلفي. كانت تلك ملابسي العقيقية اللون! عندما ذهبت إلى الأرض مقطوعة الشجر لمراقبة عمل الرجال، كان تيتان معي".

قالت جيني: "ستكون الأرض مقطوعة الأشجار جيدة للرعي الآن، على السيدة أن تتمشى في تلك الأرض، وألا تبقى بعيدة عن الكنيسة لمدة طويلة أيضاً. أقسم أن كل ما حدث معها خلال فترة مرضها كان بسبب الأرواح الشيطانية".

"لم يكن الكونت مؤمناً".

"ربما تستطيعين، عبر الاهتمام بروحك، حمايته من أن يكون ملعوناً".

"أعـرف، منـذ رحيـل أنغرفيـل وإعـدام غيراردیـان علـى أيـدي النازيين، شعرت كما لو أن هذه المصائب المرعبة كانت خطأ مني!"

هتفت جيني: "سيدتي!"

"نعم جيني! أنا أعرف ما أقوله. أعرف أن كل تلك الأمور التي تحدث لي هي آثام بشعة جداً".

"التفكير بالكونت يا سيدتي. أعرف امرأة في الجـزء السـفلي مـن (ليبرو) لديها الأشياء نفسها التي تحـدث معـك، الأشـياء نفسـها تمامـاً. حسناً، لم يكن خطأها بل خطأ الرجل الذي سيطر على روحها بالسحر. لقد أصبحت حاملاً، وأصبح بطنها كبيراً، تماماً كما لو أنهما كانـا معـاً. حسناً بالرغم من كل ذلك فقد شُفيت تماماً، ومن ثم أصبحت قديسة".

"نعـم، سمعـت عـن ذلـك. كـان دبـاغ جلـود هـو مـن اسـتطاع تطهيرها، أعرف ما ترمين إليه: تريدين مني الذهاب والاعتراف إلى هـذا الرفيق الكاهن، راعياً كان أم دباغ جلود أو أياً كان هو".

"لكن كيف لي أن أذهب وأقابل الدباغ؟ يُحكى أن حركاته كلها تحت المراقبة؟"

"أستطيع تدبّر الأمر، سأجعله يقابلك في الأرض ذاتها.

سألت سولانج بقلق طفولي: "وكيف لـي أن أعرفـه وأعـرف أنـه يستمع إلى اعترافي؟"

"كما يحدث دائماً، سيعطيك إشارة عندما تأتين إليه".

"أنت على حق يا جيني. علـي الاعـتراف للراعـي الـدباغ، والصـلاة لله كي يسامحني على آثـامي وآثـام الكونـت، بشـكل ربمـا يزورنـي بأفكـاره فقط، ويراني بذاكرته وليس بعينيه. وكما كانت لديه القوة ليسيء إلى جسـدي

المسكين بمساعدة الشيطان، ربما أستطيع بفضيلتي، وبدعم الله لي، أن أحافظ على روحه".

عندما وصلت سولانج دي كليدا إلى المكان المحدد جلست على حجر وانتظرت. وعلى بعد مئة قدم تقريباً، انتبهت للراعي الذي كان يشذب غصناً ليصنع منه عصاً له. كان السهل مضاءً وبقي قوس قزح معلقاً بين الجزء العلوي والسفلي من (ليبرو). كانت الأرض منثورة بحجارة بيضاء تلمع من جهة واحدة، وتشكل ظلاً أسود من الجهة الأخرى. بدت لها كل مسافة بين حجرين وكأنها لا نهائية وشعرت أنها مُحاطة بامتداد لا حدود له. بدا صحيحاً بالنسبة لها، أنه عندما يهدّئ الأمل الأرواح، تصبح الأشياء على الأرض مشابهة لها في الجنة. كان كل شيء مفصّلاً وواضحاً، مشبعاً بذلك السكون الحزين الذي ستتصف به الكواكب، لو كان بمقدور الإنسان رؤيتها عن قرب، كأجسام صلبة، كل منها مضاءٌ من أحد الجوانب، ويسقط ظلاً طويلاً أسود، على القبة السماوية الهائلة.

نهض الراعي وقطع غصناً متدلياً من شجرة بلوط، وربطه بحزمة من الألياف على شكل صليب، وثبته على طرف عصاه. تسلق بعدها ربوة صغيرة مغطاة بالتوت البري، والتفت نحو سولانج، ورفع صليبه الريفي فوق رأسه. نهضت سولانج بدورها، وأصبح بالإمكان رؤية شخصين يعبران الأرض مقطوعة الأشجار ويذهبان ليلتقي أحدهما بالآخر.

الخاتمة

جميع الأشياء تأتي وتذهب. سنوات تدور حول قبضة مغلقة بغضب وبقرار، وتزداد عناداً. كانت تلك القبضة كل ما سُمِحَ لنا برؤيته، منذ أن كانت تلك الشخصية جالسة في الكرسي الكبير ذي الذراعين، وتدير ظهرها لنا.

تصل إلينا من الغرفة المجاورة، موسيقى حادة متضخمة بشكل مخيف، من خلال أجهزة غير معروفة، لقد بدت بحدّتها وحيويتها وغضبها، كما لو أن تأثيرها الوحيد هو أن تجعل الدم يتدفق إلى أذن الإنسان. تكرّر تلك الأجهزة القوية مقطوعات (فالكير بيرسيفال وتريستان إيزولدة) الموسيقية ذاتها لفاغنر. تكررها مرة بعد مرة، وتتقلّص القبضة المغلقة أكثر وتوشك عظامها أن تخرج من الجلد، وتصبح مفاصلها شاحبة كبذور حبة الكرز. تضرب على ذراع الكرسي مرتين، ثلاث مرات، أربع مرات، خمس مرات. بدأ الدم ينزف في المرة الخامسة. ضربت بعدها مرة أخرى وبشكل أقوى. ثم بقيت دون حراك عدة ساعات، بينما تخثّر الدم، وأصبح عاتماً وأسود تقريباً كحبات الكرز الناضج.

لا شيء يعلو على الشرف والمجد السامي للدم! لماذا لم يسمح القدر للمسيح أن يحيا في زمني هذا، زمن هيمنتي، لكنت قد خنقته بيدي هاتين! اليهود المتباكون القذرون، المازوشيون الجبناء، خزي وعار الرجال الأقوياء! كنتَ ستحرم العالم من الشيء الوحيد القادر على جعل

الإنسان متألقاً — الدم! كنتَ ستحرم الإنسان كنوز الدم المقدسة، التي منحها الله لنا، لنريقها! لم يكن بوسع أحد، إلا عرق اليهود الأذلاء، اختراع ذلك التجسيد المهين لفكرة الله، ونقعها في الدم المنحط للجسد المريض، متزلف الشفقة ورسول الندم، يسوع المسيح! كل ما هو مخلخل ومهين وسيء السمعة ودنس، أربطه بهذا الاسم، يسوع المسيح! الذي كان عليه أن يأتي ويحمل السيف بيده، ويخلق دماً جديداً وطاهراً ونقياً، في قلب الوثنية البكر، في أعماق الكهوف الحية للعرق، في قلب جبل (فينسبيرغ) الأولبي، ويقتل تنين المسيحية الخسيس.

دوّت بشكل حادّ ومؤلم في أعماقه الغائرة المنهكة في تلك اللحظة، الأصداء الأولى للنغمات المتصاعدة في مشهد الموت لأوبرا (تريستان وإيزولده) وداهمه التفكير بموته. كان يرفع قدميه عن الأرض، كما لو أنه يتحاشى ضربة منجل فضي مدبب حاد، يحصد بقعة منخفضة من الأرض التي ثبّت نظراته عليها. كان يتعرض في الأيام الستة الأخيرة مرة أخرى، إلى نوبة جديدة من الهوس بالنظافة. عاش في رعب من فكرة أن ينال الموت منه، وفي جسده جزء لم يُغسل عدة مرات في اليوم، وتفوح بعض الرائحة من أعضائه المخاطية.

كان قد استنشق لبعض الوقت عطراً دافئاً، انبعث من جلد العجل المدبوغ الريفي لجزمته النمساوية. وتلقى قلبه صدمة من الشك المخيف: هل غسل قدميه مرة أخرى خلال اليوم كما كانت عادته؟ لأنه بالفعل كان قد لمس احتمالاً بسيطاً لاختلاط رائحة حذائه برائحة قدميه. خلع إحدى فردتي حذائه وجوربه. وفي اللحظة التي تحررت فيها قدمه البيضاء المرطبة بالعرق من غمدها، حشر سبابته بين إصبعين من قدميه، ورفعها إلى أنفه وشمها: احمرّ وجهه من الكره والغضب. نعم! هناك رائحة! أسرع إلى الحمّام دون أن يخسر دقيقة واحدة، وصبّ الماء عليها في المغسلة الموجودة تحت الصنبور. غسل بوضعية متوترة وغير مريحة،

قدمه عشر مرات، مئة مرة، أصبحت الفجوات بين أصابعه حمراء، لكن لا زال هناك بقايا من الرائحة، تجعله يعيد الغسل من جديد ودون كلل. عندما انتهى من تلك القدم، خلع حذاء القدم الأخرى وغسلها بدورها بالاهتمام ذاته.

بإنهائه هذه العملية، عاد إلى الغرفة الكبيرة التي غادرها للتو، وجلس مرة أخرى في الكرسي ذي الذراع. بعدها، يرى المرء أن هذه الشخصية هي (أدولف هتلر). ويلاحظ المرء بالطريقة ذاتها، أنه كان هنا في مخبئه في (بيرشتسغادن)، يراقب الأفق عبر النافذة المستطيلة الطويلة. توقف هتلر مرة أخرى قبل جلوسه أمام لوحة (فيرمير الكبير)، المسروقة من مجموعة الكونت (تشيرنين) (اللوحة الأكثر جمالاً في العالم، بحسب رأي سيلفادور دالي)، اللوحة التي احتفظ بها منذ احتلال فيينا. بدت يده تقترب من قماش اللوحة بعناية دون أن تلمسه، تتريث قليلاً عند وجه المرأة الشابّة المتوّج بالغار، والملتفت قليلاً بحركة سماوية رشيقة. تقلصت أصابعه في تلك اللحظة، وبقيت تتشنج وتنبسط كمخلب. استرخت القبضة بعدها وهدأت، وأصبحت شاحبة وكأنها امتلأت بماء فاتر، ثم عاد بعدها وجلس في كرسيه ذي الذراعين.

يدرك المرء حينها أن ذلك الكرسي ذا الذراعين كان مُحاطاً بأعظم الكنوز الفنية في العالم. (خطوبة العذراء لرفائيل) من متحف ميلان، (عذراء الصخور لليوناردو).... أكوام من أندر المخطوطات وأنفسها، وفوق كل ذلك وخلفه، في مركز الغرفة نصف المضاء، (نصر ساموثراكي) اللوحة الحقيقية من متحف اللوفر، لكنها تبدو في هذه الغرفة المربعة الفوضوية، كأنها نسخة سيئة منها.

منذ ستة أيام مضت، نسف هتلر المصعد الوحيد، الذي يتواصل عبره عش نسره مع باقي العالم. إن حاولوا الآن تدميره، فسيجبرون معه على تدمير أكثر كائنات الحضارة سمواً. أمام عيني هتلر التائهتين الآن

في الضباب الذي يجتاح السهل، استحضر الليل غابة السرو السوداء للوحة (الجزيرة والموت) التي رسمها بوكلين. ربما يخطر ببال المرء أن أشجار السرو نفسها، كانت تنمو الآن في غرفته تلك، بينما أصبحت مغمورة بعتمة مخملية، لليلة أخرى من الكوابيس والهذيانات. أوشكت رؤاه أن تبدأ. وكانت الأشباح المألوفة تصل، كلٌ في دوره، ليأخذ مكانه في البقعة المعتادة. على يساره الحزن المتدفق المشوب بالأرجواني (لدورير)[1]، وعلى يمينه نيتشه العجوز، شفافاً ومرئياً فقط عبر النقاط الحادّة جداً لشاربيه، والمحجرين العميقين لبؤبؤي عينيه، اللذين جففتهما حمى دماغه الخبيثة. وفي الزاوية المعزوله على يمينه، كان لويس الثاني، ملك (بافاريا) المجنون، يرتدي فرو القاقم الأزرق السماوي.

يتبع هذا موكب الضباط البروسيين، الرجال الأحرار الوحيدون على الأرض. كونهم بلا ضمير ولا شفقة ومساوين للآلهة العنيدة، أوكلهم القدر بمهمة نشرِ (الغضب التيوتوني)[2] للدم الألماني، عبر العالم. "نعم، لقد خسرنا حرباً أخرى! سوف أربح الحرب الأخرى! لأني منيع وغير قابل للتدمير. يمكنكم فصلي عن شعبي، يمكنم اقتلاعي من جذوري، لكن لا يمكنكم تدميري، لأني في دم الشعب الألماني كالسرطان، ودم الشعب الألماني أبديٌ وغير قابل للفناء، وسأنتهي عاجلا أم آجلا كالسرطان، بإعادة تصنيع نفسي مرة أخرى لا محالة، في روح الشعب الألماني كله! لم أدافع عن أيديولوجيا ولا عن "ثقافة". أنا فخورٌ بإعلاني موت الذكاء. يجب أن يُباد الذكاء على يد الشعب الألماني يوماً ما. ليس

---

[1] ألبرت دورير: رسام الماني، نحات وعالم رياضيات ومنظّر عاش بين عام (1471 – 1528) المترجم.

[2] للغضب التيتوني: عبارة لاتينية تشير إلى شراسة التيوتونيين، أو القبائل الجرمانية في فترة الإمبراطورية الرومانية. ويعزى هذا التعبير للشاعر الروماني لوكان. المترجم.

عليّ طرح أفكار! أنا أمنح العالم شذرات من روحي، والتي هي شذرات من روح الشعب الألماني، وهذه الروح سوف تنتصر!

"لكن ماذا عن الجسد؟ ماذا عن جسد الشعب الألماني؟"

كان جسد الشعب الألماني يقف أمامه، بيلاطيوس البنطي بنظامه الديني الجديد، على امتداد الثلوج التي لا نهاية لها من السهوب الروسية. كانت جميعها مغطاة ببراقع سوداء متجمدة الأقدام وليس لها رائحة.....

سُمِعت هناك الأناشيد الدينية لأرض القديسين. الجيش الأحمر، الجيش الكافر، مسنوداً بصلوات أسلافه البيض كما لو أنه على سرير من الثلج! لا يزال أسلافهم المسلوبي الملكية، يحتفظون بكنز إيمانهم القديم، لينقذ أرواحهم!

" (إخضاع الدم)! (إخضاع الدم)! (هل هو وهم)؟ ألا يمكن أن يكون وهماً؟" استمرّ ذلك المجنون الآخر، الكونت غراندساي، استمر إلى ما لانهاية، بتكرار الكلمات الغامضة، طارقاً طاولته المغبرّة بقبضته المغلقة، بينما هو جالس في معتزله الخاص، واحته.

"وأخيراً جاءت اللحظة المُنتظرة، أستطيع الآن العودة إلى سهل (ليبرو) المضيء، بعد العتمة الطويلة لمنفاي الطويل، وجعل الدم القديم لغراندساي، يميل على جسد سولانج دي كليدا. لقد انتهت الحرب!"

خلال هذه السنوات الأخيرة كلها، ومنذ أن ذهبت سولانج إلى الأرض المقطوعة الأشجار، واعترفت أمام الراعي الدباغ، بعد ظهر يوم صافٍ من أيام آذار، بدت بالتأكيد وكأنها تخلصت من جميع أمراضها. توقفت روح غراندساي عن زيارتها، بالطريقة المهينة لحيائها. ومع ذلك، لم يترك أفكارها ولا للحظة واحدة. لكنها تركت روحها تسكن إليه فقط، لتصلي النهار والليل فداء لروحه. اهتمّت بالوقت نفسه بأعمال الخير، وجعلت مارتين وبرينس يعيدان بناء

الكنيسة القديمة للطاحونة، حيث سيأتي الراعي الدباغ سراً إليها ليتلو القداس. رعشاتها التي اعتادت أن تحدث في وسط أقصى عذابات روحها، أصبحت متبوعة الآن بنشوات صوفية، مخضبة بغبطة روحها المطهرة، وبهدوء جسدها. لكن الأكثر من ذلك أن الله كافأها، ومنحها أفضل سعادة لم تتجرأ على أن تطلبها أو تحلم بها: الكونت غراندساي قادم للزواج منها بعد طلاقه من فيرونيكا. لديها رسالتان منه، وقد قرأتهما مرة بعد مرة، ونشرت عليهما دموع الفرح. بدت لها معاناتها، التي احتملتها طيلة سنوات الاحتلال، تافهة.

لكن هل ستبقى جميلة؟ نعم! كانت آثار المعاناة قد زادتها نبلاً وحسب. كما يزيد التعتيق من فخامة النبيذ، جعلتها معاناتها تزداد فخامة. هي لم تكن في معاناتها مشوبة بالتفاهة. الحقارة والمخاوف التافهة تجعل الوجوهَ بشعة، والأجساد ذابلة، لكن الاستشهاد العظيم لا يفعل ذلك. سولانج دي كليدا، الشهيدة الجميلة دون أي أثر لجرح! يا له من كنز مدفون، يا لها من غمغمة مسكرة لرغبة لم تُمس، تلك التي أصدرتها قيامة جسدها. أي إنسان فان كان بوسعه الاقتراب من معجزة هذه المرأة التي ارتقت إلى سموّ هذيان الامتناع عن ممارسة الجنس وقداسة الصلاة.

كيف لسولانج دي كليدا، في حالتها من نشوة ما قبل الزواج، أن ترى أو تركز انتباهها على التلميحات المريرة المخيفة، التي كانت تصدر عن كل من جيني والإخوة مارتين، منذ نهاية الحرب، وبشكل مستمر في كل تعليقاتهم؟ كانت العزلة التي خلقها الجو المتخمّر للحرب الأهلية في (ليبرو)، بهمساتها السامّة المؤذية، تزداد كثافة بشكل يومي، حول الطاحونة وينابيعها التي غيّر العدو مسارها، وبقيت كوصمة عار يتعذّر استئصالها. لكنها كانت امرأة وحسب، امرأة لا تعرف شيئاً عن السياسات، وفعلت ما فعلته فقط من أجل حماية مصالح ابنها الجاحد، كما أنها فعلت

ذلك بناء على نصيحة السيد غيراردیان، الذي مات بنبل من أجل وطنه! كيف لهم أن يقفوا ضدها لأنها تصرفت كمواطن نموذجي جداً؟

تقول سولانج: "تستطيعين قول ما تريدين يا جيني، لكن الكونت غراندساي مجرد رجل، وربما كان في طريقه إلى هنا ليرتبط بي، سيستمع الناس إليه هنا في (ليبرو) لأنه سيدهم!"

"الزمن قد تغير يا سيدتي. أنت لا تعرفين ما يجري كما نعرف نحن، إننا نسمع الكثير. أنت لم تخرجي من الطاحونة منذ وقت طويل، وربما من الأفضل لنا جميعاً أنك لم تفعلي!"

"هل نسي الفلاحون في (ليبرو) جميع الصدقات والمساعدات التي تلقوها مني خلال الشتاء؟ ألم يعد هناك قلوب؟"

"أخشى أنه لم يعد هناك يا سيدي. ترفع الرياح شيطانية الغبار عن السهول، وعن القلوب، لقد جعلها الألمان باهتة!"

عليك بالصبر مثلي يا جيني، دعينا نصلي كي يأتي الكونت بالمصالحة إلى أحضان كل عائلاتنا وأفراد عائلاتنا. ربما تستطيع فرنسا الكاثوليكية مرة أخرى إخماد فتنة الدم".

كان الكونت غراندساي من نسل الرجال الذين يأتون من تلقاء نفسهم، خلال فترات مضطربة من حرب أهلية. وبعد نهاية الحرب، حُقِنت روحه الانتقامية بطبيعتها، المتأثرة مسبقاً بهذيانات الشفق، بتمجيد جديد ونهائي للوطنية الثأرية، وخطط للعودة إلى (ليبرو) بدور القاضي. تنكر لحياة التنازلات المخزية والاغتصاب التي أداها خلال السنوات الماضية. سيكون الآن مستقيماً وعنيداً بالأسبارطية المثالية، لأن بلده الحبيب مهدد مرة أخرى بالموت، وبشيء من الفوضى في هذه المرة.

"غيرارديان، على الأرض التي سقط عليها جسدك، سوف نقتل الآن من خاننا!"

"قبل شهر تقريباً من حصول الكونت على تصريح للعودة إلى فرنسا، زاره بروسيون في واحة (بالم سبرينغ)، وكان في مهمة سريّة بعد أن أصبح رئيساً لحزب سياسي جديد. فبعد موت غيرارديان، تولى دوراً فردياً جداً في مؤامرة تخريب (ليبرو)، وكسر قواعد الحزب الشيوعي، مما أدى في النهاية إلى طرده منه. كان قد ارتكب، بدافع الانتقام، عار خيانة الرفاق السابقين، وقادته طموحاته المبالغ فيها، وتطلعاته الفوضوية، إلى تأسيس حزب مستقل جديد له طابع رجعي، لكنه كان متأقلماً مع بعض الميول المتطرفة في "الحرب الأهلية" التي كانت مناسبة في تلك اللحظة.

جاء بروسيون، عاقداً العزم على ربط النشاط السياسي المستقبلي للكونت غراندساي في (ليبرو) بنشاطه. لكن غراندساي، المعادي كما هي العادة لكل خطة متورطة في خطط التصنيع في (ليبرو)، كان عازماً على تحويله إلى منطقة زراعية، وكان بروسيون نفسه متأثراً وملوثاً بخطط الكونت السياسية، وكان قد بدأ يخضع له في كل شيء. إن التأثير المتنامي لسلطته، على أفكار مواطنه، التي بدت في البداية متجذرة بعمق، أيقظ حبّ غراندساي للقيام بعمل ما.

لكن في اليوم الثالث، بدأت تلك الحالة من الانفعال ونفاد الصبر. أصيب غراندساي بأعظم حالة يأس رغم بقائه غير مؤمن بما يُقال، لكنه كان ممتقعاً بالحزن والغضب، لقد تلقى من شفتي بروسيون تفاصيل حول اتصالات السيدة سولانج دي كليدا خلال فترة الاحتلال. لقد انتظر بروسيون اللحظة المناسبة بمكر وحشي، عندما شعر الكونت أنه سيعود إلى وطنه (ليبرو) للقيام بدور المخلّص، رغم تعطّشه للهيمنة على السهل، وعندما عبّر عن اشتياقه الكبير لأرضه، بعد تلك الهجرة

القاحلة الطويلة، علق بروسيون بشكل عرضي قائلاً: "سيكون ذلك صعباً، إن لم يكن مستحيلاً، أن تطمح لأدنى تأثير في (ليبرو)، إن رأيت السيدة دي كليدا، عندما تعود إلى الوطن".

كانت سلسلة الاتهامات ضدّها مفصّلة بشكل دقيق. البراهين التي لا يمكن التشكيك بها حول التصريح المعطى للألمان لتحويل ينابيع مياه (دي سورس)، أعادته إلى حالة من الصمت الرهيب: التعاون مع الاحتلال...... لكن بروسيون، وكأنه بنوع من الإهمال المتعمّد، حافظ على الاتهامات الحارقة إلى النهاية.

قال: "في (ليبرو)، ليس هناك من سرّ شخصي، وقد عاشت السيدة دي كليدا، بصراحة تامة، مع حبيبها فسكونت أنغرفيل الذي اختفى لاحقاً بشكل غامض. لن ينسى الفلاحون الأتقياء الكاثوليكيون في ليبرو أمراً كهذا، وعلينا اليوم أن نحسب بشكل كبير حساب إحياء المشاعر الدينية للناس. بالإضافة لذلك، لقد أبقى رجال الدين في (ليبرو)، على السيدة دي كليدا بحالة من العزلة الكاملة، وذهبوا أبعد من ذلك باتهامها بممارسات شيطانية مع الدباغ الدجال الذي أعلن أنه مُلهم من الله".

كرر الكونت في نفسه: "أنغرفيل! أنغرفيل! كان علي أن أخمّن ذلك" لكنه لم يستطع ابتلاع هذه الاتهامات وهضمها، كونها أتته كصدمة مفاجئة لعُصارات آماله التي كانت تُفرز الحب، خلال تلك الأشهر كلها. ومقدّمة من بروسيون! الشخص الذي ظهر أمامه الآن بكل خسته الدنيئة المنفرة لدرجة إثارة الغثيان.

قاطعه بصوت أجش: "اخرج من هنا! لا أريد أن أصدقك أو أراك مرة أخرى. السيدة دي كليدا هي أكثر إنسانة أحبها في هذا العالم. أرغب منها وحدها فقط، أن أعرف الحقيقة، وهي الوحيدة التي

سأصدقها. سوف تقول لي الحقيقة. حتى لو نهض سهل ليبرو كله ضدي. سأسمع لها وحدها فقط".

أطرق بروسيون رأسه وهو يتمتم عاجزاً عن الإفصاح، وتعثر أثناء خروجه، بينما جلس غراندساي على الفور إلى مكتبه لكتابة الرسالة التالية:

عزيزتي سولانج

"لقد وقعت بالكثير من الأخطاء في الماضي، ويئست من مسامحتك لي. لكنني لم أقل لك إلا الحقيقة. ولهذا، عندما ورّطني القدر بأعظم كذبة في حياتي، اعترفت لك بكل شيء، زواجي من فيرونيكا، وشغفي الذي لا أمل فيه نحوك. ربما لم أقل شيئاً حينها، إذ لم يكن أحدنا مرتبطاً بالآخر، وكانت علاقتنا متوقفة تماماً، لكنني أفضّل المغامرة بفقدان كل الاحترام الذي تكنينه لي، على إخفاء مشاعري الحقيقية عنك. كانت استجابتك لذلك سخية جداً ورائعة، وأصبحت أراك منذ ذلك الحين، ككائن سماوي.

لكن علاقتنا هي في عوالم المطلق، وهناك فقط يمكننا أن نصلحها. يُطلب مني الآن، وبصدفة دنيئة، ومع وجود الأدلّة المعقولة الداعمة، أن أصدّق أنك كذبت عليّ خلال كل تلك الفترة! سأسافر إلى أوروبا خلال أسابيع قليلة. لكن قبل ذلك يجب أن أعرف منك الحقيقة حول أمرين. الأول: أنت لم تذكري أية ملاحظة في رسائلك المتقدة، عن علاقتك مع أنغرفيل، والأمر الآخر: عندما أخبرتني عن التقدم في نمو غابة البلوط الصغيرة التي زرعتها من أجلي، لم تقولي شيئاً عن ملكية الطاحونة تحت الاحتلال.

حول هذين الأمرين الحاسمين بالمستوى نفسه، لن أصدق أحداً إلا أنت. هل كان أنغرفيل حبيبك يوماً؟ هل تنازلت عن حقوق الماء إلى

العدو؟ أطالب إحساسك بالشرف أن يجيبني، لكن إن كان جوابك على هذين الأمرين بالإيجاب، فلا تتوقعي المسامحة مني. لن أضمن ذلك.

لا يزال غراندساي حبيبك."

قبل أسبوع من الموعد المحدد لمغادرته إلى أوروبا، استلم الكونت واحدة من أوائل البرقيات من الجهة الأخرى من المحيط التي أصبحت متاحة للاستخدام الشخصي للأفراد. تقول فقط، "كلا الاتهامين صحيحان – سولانج دي كليدا".

كان صباح مغادرة الكونت للواحة، أشبه بصورة تحتوي مزاجاً عابراً من الشعور بالضيق. حتى دون معرفة ما يحتويه هذا المزاج، يشعر المرء أن روابط ملغّزة غير واضحة، ربطت الكونت بابن بيتكا والراهبة بسر غامض تحقق خلال عزلتهما الطويلة. الكونت، وبسبب النقص الكامل للحركة، أصبح يستطيع السير فقط بخطوة مترنحة، كما لو أنه نهض الآن من مرض طويل، وازداد عمره خمس أو ست سنوات، ويحمل وجهه بصمة عزم إنسان خارق. كان يخشى أن يُلفَح، وخاصة في الضوء الصريح لشمس كاليفورنيا. يسير إلى جانبه وخلفه بقليل ابن بيتكا الذي يمشي بمساعدة عكاز، ويعرج قليلاً ولا يستطيع اللحاق به. كان شاحباً وجميلاً كلعبة مصنوعة من الشمع، يرتدي جوارب سوداء على ساقيه النحيلتين المقوستين المصوغتين على غرار سيقان فتاة. ومن وقت لآخر يرفع منديلاً من الدانتيل إلى أنفه كما لو أنه يتفحصه إن كان ينزف. تتبعهما راهبة لوناي على بعد خطوتين خلفهما، أصبح مرعباً أن تلمحها لأنها بدت متجددة الشباب! وجعلت شرارة من الشهوانية الانتقامية صعبة الإرضاء، قبحَها يبدو أكثر شيطانية.

على الباخرة التي أعادتهم إلى أوروبا، كان غراندساي بشكل مستمر برفقة بروسيون الخائن. أحبّ إملاء القوانين، والتريث فوق صيغ الأقوال المقتضبة التي كان يعتمد عليها قدر أرض الأجداد.

"ستحكي لي لاحقاً يا عزيزي بروسيون عن حادثة موت بيتكا في (تانجين). يعزيني مع ذلك، معرفة أنها ماتت بين ذراعي الآنسة سيسيل غودرو، صديقتي العظيمة. لحسن الحظ أنها تركت لي ابنها، بدا الأمر وكأنها كانت تعرف أنها ستموت......" بعدها يتابع ويشرح المزيد من القوانين، أحلامه الفقهية المعتدلة، والدعوات القضائية الجديدة، نصف الريفية ونصف المتقشفة بطريقة (القديس جيست)، التي كانت محفورة في الرخام الرمادي الوردي المستقبلي للقسم العلوي من ليبرو. يصبح في بعض الأحيان رجل الإمبراطورية، ويحاكي بحنين نابليون الذي كان يقرأ حينها كتاباً عنه ويقول: "سأحاول إعادة الطمأنينة للرجل الضعيف المخلص، لكن لك يا بروسيون، الرجل ذو الشخصية القوية، سأتكلم بشكل مختلف. لا أعرف ما ينتظرنا في فرنسا. يجب أن نعرف كيف نكون عدوانيين ومطيعين بالوقت نفسه، دورنا هو أن نتحدى ونحسب، وليس أن ننغلق بخطة ثابتة، أن ننحني مع الظروف ونتركها ترشدنا، أن نكسب من المناسبات الصغيرة كما من الأحداث الكبيرة: نحدد أنفسنا بما هو ممكن، لكن نوسع المعقول إلى أقصى مداه. علينا أن نكون عديمي الرحمة، نقمع الثرثارين والفاسدين الذين يهددون فرنسا بالفوضى والدمار التام. نضحي بكل ما بقي من الذكريات والعواطف القديمة. أنا أبني لنفسي روحاً من الرخام، روحاً لا يمكن مهاجمتها، قلباً منيعاً على الضعف العادي. لكن أنت يا بروسيون؟ أنت لم تنتسب إلى أسرار "إخضاع للدم". وحدهم أولئك الذين عانوا هذه الآلام هم المستعدون لمحن التحمل الأخلاقي. نعم! سيكون لدي ولد — ولد حقيقي لي! من دمي! ولد يولد عبر قوانين أخرى غير تلك الطبيعية! "إخضاع الدم"!

كان بروسيون ينتظر لحظة يستطيع فيها أن يشعر بالأرض ثابتة تحت قدميه ليباشر بالعمل، وقد ترك نفسه أثناء ذلك يطفو على السحر المرضي للأفكار الهذيانية للكونت غراندساي. ساعة بعد ساعة وعندما

يتمشيان على ظهر السفينة أو يتكئان على الدرابزين، تلتهم أعينهما المدى القلق للمحيط تحت السماء المرصعة بالنجوم لأوائل نيسان، الذي ذاب فيه ثلج كل نجمة واستُبدِل بلمسة حارة من الشمس.

"إنه المرض نفسه، النوع نفسه من الهجوم الذي كانت قد رأته يوم الموكب،" قالت جيني لمارتين: "لكن السيدة ستموت به هذه المرة".

في تلك الليلة تحديداً، عندما أجابت سولانج الكونت غراندساي باعتراف مقتضب حول أخطائها، كانت قد وقعت في فراشها ضحية الحمى الدماغية نفسها، التي كانت قد أبقتها مريضة لعدة أشهر. لكن الطبيب أشار على الفور إلى أن حالتها أكثر حرجاً بكثير، لأنها كانت تعاني من نوبات تشنج تعذب جسدها ولا تتوقف إلا بعد ذروات من السعادة، لتتحول بعدها إلى حالة من الضعف الشديد، حيث اعتُقِدَ بأنها ميتة لعدة ساعات.

عالج غراندساي سولانج بضربة قاتلة. كانت قد فهمت على الفور، أن الشخصية التي ظهرت أمام عينها الغائرة، الشرسة المليئة بالحقد، كانت شخصية عدوها، غراندساي الحقيقي. كان عدوها ولم يكن يوماً غير كذلك. ماذا كان بإمكانها أن تردّ على رسالته؟ لم يعد بالإمكان تأسيس حبهما، بعد كل ما عانته، على مستوى المساومات أو على أعذار أقل حتى! هل كان عليها أن تشرح له أن أنغرفيل كان حبيبها لمرة واحدة، وتحت ظروف كانت صورته هو تحديداً مستحوذة عليها؟ لقد دفعت الثمن غالياً عبر مرض مخيف، مع أن الأمر قد حدث في وقت لم يكن هو فيه مخلصاً أبداً، كما لم يكن لديها أي أمل بتحطّم زواجه من فيرونيكا في يوم ما؟

لماذا ينبغي أن تشوّه مراسلاتهما، كاشفة الحب الذي بدا مطلقاً، ومجاهرة بخيانتها التي من الصعب الحديث عنها برسالة من مسافة بعيدة، والتي يجب عليها أن تعترف له بها وجهاً لوجه مُدركة أنها لم

تترك في عقلها إلا آثاراً عن تلك الكوابيس! كان الظلم كبيراً جداً لقلب امرأة. وبعدها قضية التنازل عن حقوق المياه في الطاحونة للغزاة! حسناً، أراد لها الكونت أن تموت: سوف تموت دون أن تتذمر.

وهكذا بدأت تموت. لكن الموت كان صعباً على جسد معدّ فقط لإتمام سعادة طال انتظارها. لم يخضع جسدها لإرادتها بالكامل وبدأ يثور أخيراً. ابتسامتها النقية السماوية التي عكست مؤخراً صفاء روحها، أصبحت الآن ابتسامة جامدة مريعة لنشواتها المرضية، التي كان الراعي الدباغ وحده قادراً على إيصالها لها. لقد اخترق العنف الانتقامي للكونت، الأجزاء الأكثر دقة من جسدها مثل قضيب معدني، يحث باستمرار جراحها القديمة ولا يمنحها أية راحة. كانت، دون شك، تخضع قسرياً لمتعة عذاب لا نهائي من الحسيّة المميتة. تصرخ في هذياناتها: "لقد جاء الكونت غراندساي لزيارتي مجدداً، لقد سمعت صوت حوافر حصانه الأسود تنبض في قلبي...... يرتفع ذراعه بسيف الانتقام الأحمر لمعاقبتي أنا سوف أموت، لم تكن السماء تعجّ بالطيور يوماً كما هي الآن!"

كان هذا صحيحاً: عبر النافذة المفتوحة على مصراعيها، تحت الشرفات المغسولة بالأبيض، تحت الأفاريز المرصوفة للطاحونة، وعلى كل غصن متبرعم، لم يكن قد سُمِعَ عن طيور مختلفة كثيرة تغرد وتغني ويتدافع أحدها أمام الآخر، كما في ذلك اليوم من أول شهر نيسان بعد النصر. بكت جيني بصمت، بينما كبير الإخوة مارتين، راقب سيدته بنظرة حزن مثل كلب القديس بيرنار المخلص، راقب سيدته بنظرة تغمرها الدموع.

قالت سولانج: "لا أريد أن أبقى في الغرفة عندما أموت، أريد أن يتم إنزالي مباشرة، وأريد أن يوضع كفني على غطاء طاولة غرفة الطعام حيث ارتكبت إثمي. اتركوا الكفن مفتوحاً بشكل أستطيع فيه أن أرى شخصية المسيح المنهكة على الجدار، ولا تسمروا الغطاء قبل أن أخبركم أنا نفسي بذلك!"

في الساعة الخامسة والنصف جاء الدباغ ليمسح جسدها بالزيت ويباركها. لكن المشهد كان مؤلماً، لأن الشياطين لم تترك جسدها، وشتمت سولانج ذلك الصليب الريفي الذي يحمله الدباغ بقبضته المرتعشة، ويقربه من وجهها. بدأت سكرات الموت بوقت متأخر من بعد ظهر ذلك اليوم. تكلمت سولانج مرة أخرى وهي تهذي: "كم مرّ يوم وأنا ميتة؟ خمسة أيام، أعرف، خمسة أيام. سيبدأ الآن تطهيري. لقد جعلت الهواء دنساً، إن جسدي يتحلل...... لا زلت حتى اليوم أتلقى الزيارة، والجميع بدؤوا يخافون مني. لماذا يمتلئ كفني بالعظام؟ ولمن هذه العظام؟"

بعدها أرخت يدها برهافة كما لو أنها يد حورية.

"ليرحل الجميع من هنا! أريد أن أبقى وحدي! إنه قادم، إنه قادم للمرة الأخيرة ليزورني في كفني قبل أن يُغلق. توقف! انتظر لحظة أخرى قبل إغلاقه!"

قالت جيني وهي تخرج الدباغ ومارتين من الغرفة: "شيء محزن، إنها تسمع صوت مطارق عمال البناء الذين يهدّون إنشاءات الألمان في الطاحونة. واعتقدت أنهم يدقون المسامير في كفنها. قلت لهم هذا الصباح أن ينتظروا حتى تموت السيدة سولانج، لكن الجميع يكره السيدة الآن".

في هذه اللحظة سمعوا حشرجة متقطعة وسط صرخة سولانج المبهمة تقريباً، "أنا الملكة!"

ترك الدباغ الباب موارباً. وتنفست سولانج آخر نفس لها، كانت ذراعاها ممدودتين كأغصان شجرة، ورأسها مائل للخلف، وبدا وجهها مشدوداً، ورسمت شفتاها ابتسامة جميلة.

قال الدباغ: "هكذا ماتت، كم أحبته، لأنها لم تمنحه حياتها فقط، بل أرادت أيضاً أن تعطيه خلود روحها. رفضت الله كي تستقبله، حتى النهاية! لكن الله رحيم!"

أغلقت جيني عيني سولانج اللتين كان بياضهما مرئياً فقط. عقدت ذراعيها فوق صدرها، وجعلتها تحمل الصليب الريفي في يدها. حاولت عدة مرات أن تغلق فمها، لكنه أبى وبقي مفتوحاً قليلاً، وبين الشفتين المفتوحتين، استمرت أسنانها باللمعان في ابتسامة طفولية نقية. عليهم أن ينتظروا ست ساعات قبل أن يُصبح التابوت جاهزاً. صانع التوابيت، الذي كان قد سمع أن سولانج ماتت مستحوذاً عليها بالشياطين، والذي شكك بأن للدباغ يداً بكل هذا، أرسل زوجته لتقدم مبرراً بأنه خرج للعمل في كرمه في القسم السفلي من ليبرو، وأنه لن يعود حتى اليوم التالي. بعدها أتى برينس وأخذ قياس جسد سولانج، وشرع في غرفة النجارة الصغيرة في قبو قصر (لاموت) بصنع تابوت لها. استخدم لذلك ألواحاً ناعمة من شجر الليمون التي كانت قد قُطعت منذ وقت طويل. عندما انتهى التابوت، حمله على كتفيه إلى طاحونة (دي سورس) وفي العاشرة والنصف ليلاً، وضعوا سولانج في النعش الذي وُضِعَ بحسب رغبتها على الطاولةِ الدائرية في غرفة الطعام، وبدؤوا الصلاة على الميت، بينما انتشر الشمع من الشمعدانات الأربعة على غطاء الطاولة الذي بلون الشوكولا.

بعد يومين، دُفِنت سولانج على يد الأخوين مارتين والدباغ وجيني وبرينس في كنيسة طاحونة. وبعد ليلة طويلة من السير، عاد برينس لينام ساعتين فقط، لأنه كان صباح الأحد ولن يتأخر ولا لأي شيء في العالم عن أول قداس. كانت حياة برينس معلقة بخيط فقط، لكنه وُلِد ليخدم باستسلام. إضافة إلى موت ابنه الوحيد في ألمانيا، والذي كان من المستحيل إخفاؤه عنه بعد الآن ،أُضيف اليوم موت سولانج دي كليدا، التي كان قد بجلها كل تلك الأيام والشهور بصمت، لكن باحترام شديد. كان منزله في القسم السفلي من ليبرو قد دُمِّر على أيدي العدو خلال عمليات الإخلاء. والكونت لم يقدم أي أخبار عن وصوله. كم سيجد الأمور قد تغيرت في الوطن!

برينس، خادم غراندساي العجوز، صحا مجفلاً قبل الموعد بوقت طويل، ولبس أفضل ملابس الأعياد. كان واحداً من أول الداخلين إلى الكنيسة. اقترب من المذبح حيث يعرض السر المقدس، وقال محنياً رأسه بتواضع، "يا إلهي، أنا هنا، أنا برينس". صلى بعدها لرحمة روح سولانج ولعودة الكونت العاجلة.

خلال الوقت الذي كان فيه الكونت غراندساي في طريق العودة، كان راندولف يُبحر بالاتجاه المعاكس، نحو بلده الأم، أمريكا. كان من بين أولئك الذين اختارهم القدر كأبطال لينفذوا النبوءة العظيمة لنوسترادراموس، عندما خصّ بلدان أوروبا رمزياً، وتنبأ بأنها ستشعر بنير (وحش الدماء). لكن عندما يبدو أن الوحش يوشك أن يسيطر على كل شيء، سيخضعه شبان قادمون من وراء البحار، ليكفروا بدمهم الجديد عن أخطاء الشعب القديم، الذي أفنى نفسه بالإفراط بالعلم والخطيئة. وعند ذلك، ومثل جيوش من الأبناء يعودون معصوبي الأعين للقاء أمهاتهم العاريات البيض الشعر، معززين بعلم الدم الذي شربوه في منابعه الموقرة، سيعود من لم يُدفن منهم إلى ما وراء البحار، إلى البلد الذي قدموا منها، وستلد نساؤهم أولادا من سلالة جديدة.

وبالتالي كانت فيرونيكا متضمنة في تلك النبوءة: لأنها أصبحت أماً. وكمحارب بعد معركة، رفع الرجل ذو الوجه المختبئ في النهاية قناع خوذته، ورأته.

أصبح الجميع مرئيين ثانية، أولئك الذين كانوا مخلوقات بلا وجوه، مخلوقات مختفية، بالزيف والخيانة.

ما هو السلام إن لم يكن إعادة اكتشاف جلال وجه الإنسان؟

طوال تلك الفترة، وبينما كان الجرماني المنهجي بجشعه، يحوّل مسارات ينابيع المياه ليستنزف معادن الحرب من أحشاء الأرض في سهل

(ليبرو) القديم، وبينما كانت الإمبراطوريات تتفتت، وبينما كانت الثلوج الدائمة تدفن انتصارات وهزائم السهول الروسية، وبينما كان البشر يلتهم أحدهم الآخر كالنباتات اللاحمة في عمق الأدغال، وبينما كانت أحداث هذه الرواية مُستمرة، كانت غابة البلوط التي زرعتها سولانج دي كليدا في اليوم التالي لإبحار الكونت غراندساي، تنمو الآن. كبرت الغابة الآن، وبدلاً من أن تصل كل شجرة من أشجارها إلى طول رجل قصير، وصلت الآن إلى طول عملاق صغير.

الأحد الماضي، وبينما كان الأخوان مارتين يمران عبر البستان حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، في طريقهما إلى صلاة المساء، قال الأخ الكبير لأخيه: "اعطني سكينك، دعنا كيف أصبح الفلين،" وأخذ السكين ومضى إلى الشجرة التي تنتصب تقريباً في منتصف الغابة، وكانت أصغر من الباقي. غرس النصل بقوة باللحاء الذي أصدر صريراً ناعماً، وقطع فيه مستطيلاً كبيراً، وغمس أصابع يديه الاثنتين في الشق العلوي الذي قطعه بشكل أعرض وبدأ يسحب بثبات وبطء. بعد دقائق من الجهد تقشر غلاف البلوط تدريجياً حتى أصبح طليقاً في يديه وسليماً بدون أي تكسير. كان هذا هو العرف منذ الأزمنة الغابرة، كانت هي تلك الإشارة لكي يعرف المرء أن فلين هذه الشجرة سيتم جمعه في الوقت المناسب.

في المكان الذي تُركت فيه المنطقة المقشّرة من جذع شجرة البلوط عارية، ظهر الآن نوع مَن الجلد الرقيق، حريرياً، حنوناً، حساساً وإنسانياً تقريباً، ليس لأنه يشبه في لونه الدم النقي، بل لأن تلك الأشجار التي تعرّت من لحائها، تشبه بشكل ملفت للنظر، أجساد نساء عاريات، أذرعها مرفوعة إلى السماء بعواقف نبيلة. كانت تحاكي بخطوطها الجريئة ونعومة التضاريس المنحنية لجذوعها، التراكيب العارية المثالية، الأكثر سماوية في عالم الإدراك الحسي، مع أن جذورها

لا تزال مغروسة في الأرض. كان يكفي الحضور المجرد للبلوط العاري في المشهد، ليملأ الليلة بنعمته.

قاد الأخوان مارتين العربة إلى محطة ليبرو لإحضار الكونت غراندساي والطفل والراهبة، وأدرك الكونت من خلال الموقف الكتوم للفلاحين الذين قابلهم هناك أن البلد معادٍ له. عرف أيضاً خلال المسافة القصيرة إلى قصر (لاموت) أن سولانج دي كليدا ماتت منذ أسبوع فقط في طاحونة (دي سورس). جاء برينس في القصر وفتح الباب بأسلوبه الخجول الذي يمحو فيه نفسه، كما لو أن الكونت غادر مدّة ليلة وضحاها. لازالت الدموع تنسكب على تجعدات خديه. قال: "يا إلهي، أيها العجوز برينس، كم عانيت وتحملت!"

أجاب برينس بتواضع: "لقد انتهى كل شيء الآن،" ثم تلقّى أوامر سريعة لترتيب الحقائب في الغرف التي تم إعدادها سابقاً.

كان ابن بيتكا منهكاً، ووضعته الراهبة على الفور في السرير بينما دخل الكونت غرفته، وبقي في وسطها ينظر بتفاهة إلى كل قطعة من أثاثها، لا يعرف ماذا يفعل. كم بقي واقفاً بتلك الطريقة؟ عندما أتت الراهبة لتعلن عن جاهزية العشاء، تحرك وقال: "حان الوقت لتبديل المصباح في هذه الغرفة. إن نوره باهت جداً........"

"يعتقد المرء أن الشتاء قد عاد، هل تسمع؟ يا للريح!"

راقب الكونت خلال جلوسه راهبته وهي تصرخ: "أين برينس؟"

"لا يبدو أنه بصحة جيدة. انفعاله بعودة السيد..... وعمره الكبير جداً! .... لكنه قام بتحضير كل شيء وليس علي إلا تقديم الطعام".

تمكن الكونت بصعوبة من ابتلاع طعامه. كانت عيناه تحرقانه. كان بريس قد حضّر جميع الأطباق التي يحبها خصيصاً له.... كانت تحتوي على كل شيء يعرف برينس أنه يحبّه بشكل كبير. كيف تدبّر

أمر الحفاظ على نبيذه المفضّل؟ يا إلهي! يا لمرارة طعم هذه الأطباق اليوم! أتت الراهبة وذهبت. لم تتركه يبتعد عن نظرها لحظة واحدة، لكن بالرغم من انتباه عينيها فإن ألقهما كان ناتجاً عن الحقد كما كان يعرف.

سألها عندما أنهى طعامه: "لماذا تصرّين يا راهبتي الطيبة على النظر إلي بهذه الطريقة؟ ألا أستحق الشفقة كالآخرين؟ ألم أحافظ على وعدي بإعادتك إلى سهل (ليبرو) المحبب لديك؟"

وضعت الراهبة ركبتها على الكرسي وثبتت عينيها الشريرتين عليه. "شفقة عليك؟" قالت بضراوة مفاجئة: "شفقة على الكونت غراندساي؟" هزت رأسها بابتسامة مخيفة.

"ما مشكلتك أيتها الراهبة، كيف تتجرأين على الحديث معي بهذه الطريقة؟"

قررت التخلّص من همومها، ومن كل شيء حبسته في قلبها خلال حياتها كلها، مرة واحدة وللأبد. دارت الراهبة ببطء حول الطاولة، ثم جلست بطريقة عنيفة على الكرسي ذاتها التي جلست عليها سولانج دي كليدا منذ سنوات، في إحدى مناسبات العشاء.

اتخذت أكثر الوضعيات راحة كما لو أنها كانت وحدها في الغرفة، ساقاها نصف مفتوحتين بوضعية من الراحة التامة واللامبالاة، رفعت بطريقتها المميزة زاوية مئزرها وأرخته على عينها التي كانت تدمع بشكل كبير، كالعادة. انعصر جسدها المحدودب بقوة في زيها الصوفي القديم اللامع مثل أجنحة فراشة، وبدأت تطلق ضحكات يتعذر كبحها.

"يا إلهي! الرحمة للكونت غراندساي!" ثم امتقع لونها وتابعت: "عدنا من جديد إلى (ليبرو). ماذا تبقى؟ سوف نموت هنا وحسب".

نعم، كان الكونت للمرة الأولى في حياته جديراً بالشفقة. حاول أن يغضب، لكنه لم يستطع حتى إبعاد ملامح الخجل عن وجهه

الشقي. كان يشبه برأسه المنحني حقل (ليبرو) العاري المغطى ببقايا الزرع في فصل الشتاء.

"لقد نجحتَ في خداع الجميع، لكن ليس هناك من أسرار على راهبتِك. الأمير أورميني... فوسيريه...." وبدأت الراهبة كرّ السلسلة بتصلّب، مثل قاضٍ ينطق بالحكم.

رمقها الكونت مذعوراً كما لو أن ضميره المتهم قد صحا للتو وأصبح متجسداً فيها.

"نعم، أنت تعرف هذا يا غراندساي! وتلك القديسة، سولانج دي كليدا، ملاك الجنة، لقد قتلتها أيضاً. ببطء، ببطء، ببطء — لا يمكن إلا لشخص من عِرق غراندساي أن يقوم بهذا وبتلك الطريقة. لقد مزّقت جلدها الحي قطعة قطعة عبر سنوات استشهادها الطويلة. وفي النهاية عندما اعتقدت أنك آتٍ لتسعدها، أعطيتها نصل سكينك الأخير في منتصف صدرها!"

"اخرسي أيتها الراهبة!"

"مستبدّ! هذا ما أنت عليه — دم غيرارديان! أنت الملام عليه أيضاً!"

صرخ غراندساي: "اخرسي! اغربي عن وجهي، قباحتك تملؤني رعباً". وأمسكت قبضته المتوعدة بالساق العارية للشمعدان الفضي.

لكنها بدلاً من الخضوع له اقتربت أكثر، جلست على كرسيها، واتكأت بمرفقيها على الطاولة، كما انحنت للأمام دون أدنى ارتباك من الفتحة العارية بثوبها، والتي تعرض منطقة صدرها المندلق إلى الأسفل مع ثدييها الذابلين الطويلين المعلقين كأثداء عنزة، لكنهما بيضاوان كالحليب. قالت بصوت منخفض: "حسناً، لا، لن أتركك بالتأكيد، قبل أن أقول لك كل شيء..... الأشياء الرئيسة. لأن جريمتك الكبرى هي أنك لم تنجب

طفلاً. يحبّ المرء دائماً في عائلتك أن يتبعه ولد فاضل، والولد وحده فقط يستطيع أن يعوّض عن كل الشرور التي قمت بها في حياتك".

"اخرسي! اخرسي! ما الذي تعرفينه عن كل تلك الأمور؟ سوف أحظى بوريثي!"

صرخت الراهبة بشكل شيطاني، ورفعت ذراعها مشيرة بسخرية إلى السقف فوقها. "من؟ الضحية المسكينة النائمة في الطابق العلوي؟ أيها المعتوه العجوز! لقد جعلت منه عاجزاً! وربما تدخل السجن لباقي حياتك إن اكتُشِف الأمر! أيها المعتوه الأخرق! أنت لا تستحق شيئاً. كان لديك ألطف وأفضل النساء جمالاً في تلك الأوقات، ولم تتمكن من أن تحظى مع أيةِ واحدة منهنّ، بما يحظى به الفلاحون في ليبرو في المرة الأولى تحديداً — طفل! والآن لا يمكنك أن تحظى به حتى لو أردت ذلك، لأنك عاجز تقريباً. ليس هناك من سرّ على راهبتك. إنها قريبة من سريرك أكثر مما تعتقد، وأعرف أن باستطاعتك أن تحظى بذلك الطفل، لكن فقط معي — مع راهبتك!"

"امرأة مجنونة شمطاء مريعة! سأعاقبك! انتظري فقط!"

"أنا فقط في الخامسة والستين من عمري. وأبدو بعمر ألف سنة لأني عشت بجانبك، وأنت كلب. لكني لا زلت قادرة على أن أحمل بطفل، وأستطيع أن أثبت لك أن ما أقوله صحيح!"

لا بدّ أن ظواهر جديدة حدثت في عقل غراندساي المنهك الهذياني، لأنه أصيب في أعماق غضبه بنوبة من الانجذاب المفاجئ وغير المفهوم الذي يبدو أنه وُلِدَ تحديداً من الأشياء المنفّرة والبغيضة في الراهبة. بدت له عيناها المصابتان بالتهابات الملتحمة المزمن، جرحين أحمرين، كانتا رائعتين مرصعتين بالياقوت كعيون الآلهة، فمها الشيطاني الذي يسيل اللعاب منه بأسنانه المشوهة، بدا له كجدول، كانت عجلات طاحونة

الإغواء تسحبه إلى هاوية الرغبات المشينة، اللعاب المزبد الذي تكثف على شكل معجون أبيض مصفر على زاويتي شفتيها، أصابه بالهلوسة. كانت تقف أمامه بشكل واقعي، شيطانة الحلم المخيفة التي طاردته طوال حياته، متجسدة في الجسد الأليف العاجز لراهبته. لم يكن حلماً!

زأر رافعاً الشمعدان الفضيّ مهدداً: "إنها سولانج دي كليدا، الملعونة أبدا بسببي، هي من دخلت الجسد الشيطاني لراهبتي لتكون معي مرة أخرى! ليأخذك الشيطان!"

"بائس! إنه الشيطان من أوصلني إلى هنا، وهو من يتحدث عبر شفتيّ!"

"ستنالين عقابك الآن! لكن إن بدأت فسوف أضرب مئات المرات حتى لا يعود وجهك يشبه وجه إنسان أبداً".

تراجعت الراهبة حينها، لكنها استمرت بإلقاء الإهانات عليه، تراجعت كما لو أنها تجذبه بتلك الطريقة حتى نهاية الممر حيث كانت غرفتها. دخل الكونت خلفها كمسرنم، حاملا الشمعدان الفضي الذي يهددها به عالياً. أغلق الباب عليهما، يُسمَعُ الآن صوت ضربتين مرعبتين متبوعتين بصمت مطبق شرير أكثر بألف مرة من أي صوت.

لا بد أن طفل بيتكا استيقظ في تلك الفترة، لأنه خرج من غرفته يعرج على عكازه، لابساً قميص نومه الطويل الذي يصل إلى الأرض. نزل خطوتين وعاد إلى سريره دون أن يسمع أي شيء آخر. يتكون لدى المرء انطباع بأن جميع الكلاب في القسم العلوي من سهل ليبرو تآمرت معاً على النباح في تلك الساعة نفسها.

في الصباح التالي، بكت راهبة لوناي دون انقطاع وهي تجلس على سريرها. في غرفة الطعام كان الكونت غراندساي قد استيقظ للتو وكان رأسه متكئاً على الطاولة. بدا وكأنه كبر سنوات كثيرة. نهض واجتاز الممر

الطويل بمساعده عكازه دون التوقف أمام باب الراهبة لمواساتها. صعد إلى غرفته وتوجه مباشرة إلى الشرفة وجلس على مقعد حجري مزخرف بالكمائر. انقبض قلبه لمشهد غابة أشجار البلوط السوداء التي نمت في غيابه، ولم يستطع تحويل نظره عن حلمه القديم الذي تحقق.

يستطيع أن يرى في مركز الغابة شجرة البلوط التي وسمها كبير الأخوين مارتين يوم الأحد الماضي. كانت الرمز الحي لسولانج، المُضحى بها بسبب الحرب، والمسلوخ جلدها حيةً بسبب السلام، ميتة ومدفونة خلف تلك الأشجار. سولانج دي فرنسا، نهدان من صخور حية، شفاه الياسمين! كم من السنوات عاش في حالة من الهلوسة، ينتظر اللحظة التي يرى فيها مجدداً أرضه الحبيبة في سهل كرو دي ليبرو، السهل المضيء! كان باستطاعته الشعور به دون أن يراه، أعلى قليلاً فقط، فوق الشجرة التي بقيت نظرته منصبّة عليها بعناد. أصوات غامضة لعربات، إلى اليسار، باتجاه الطاحونة التي تشهد على واقع هذه التربة الأرضي والمقدس..... لكن بدلاً من النظر إلى الأعلى، أحنى الكونت غراندساي رأسه وأخفى وجهه بيديه.

انتهى

الفهرس:

لكأن العبقرية الإبداعية الاستثنائية لهذا الفنان العالمي سيلفادور دالي، لم تكتف بما شكّلت من العالم المعذب ذي القوانين والميثولوجيات والأوهام والتحولات الخاصة، فإذا بالفنان يصير كاتباً، وأيُّ كاتب!

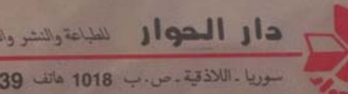
تلك هي (سولانج دي كليدا) تسمق من هذه الرواية لتكون واحدة من أبرز الشخصيات الروائية اللواتي خلّدهنّ التاريخ. إنها المرأة التي يحترق أبيقور وأفلاطون في شعلتها من الغموض الأنثوي الأبدي. وكما صاغ سيلفادور دالي (الكليدالية) من هذه الشخصية، تعبيراً عن اللذة والألم، صاغ من الحب والموت عالماً روائياً، كأنما يؤلف الأوبرا الذي خطط لتأليفها هو وفيديريكو غارسيا لوركا، لكن لوركا (طار)، وحمل دالي العهد حتى أوفاه برواية أوبرالية، يندمج فيها التشويش الأيديولوجي والأساطير والشهوات والسمو والوضاعة والوفاء.

الموضوع الرئيسي لهذه الرواية هو (الموت في الحب). ودالي يقدم فيها معالجة عصرية لأسطورة تريستان وإيسولد الخالدة، حيث لاشيء يعطي حدة أكبر للحب من الموت الوشيك، ولا شيء يعطي حدة أكثر للموت من عبوديته التي لا علاج لها للحب. ولكن تمت في الرواية موازنة موضوع الموت بنقيضه: القيامة. فبعثُ حياةٍ جديدة من التفسح والدمار يستمر طوال الرواية، ورمزه الروائي من البداية هو غابة البلوط التي تنعم كل ربيع ببراعم خضراء مصفرة.



"تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق"





دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا - اللاذقية - ص.ب 1018 هاتف 422339